د. عليّ محمّد محمّد الصّلّابي

الأمير عبد القادر

الأمير

عبد القادر محيي الدين الجزائري

قائد رباني ومجاهد إسلامي

تأليف

د. علي محمَّد محمَّد الصَّلابي


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الشعب الجزائري الذي رفض الدنيَّة في دينه وعرضه وكرامته وحقوقه وإنسانيته ، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل ، وتصدى لكل ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

إلى الشعب الذي قدم قوافل الشهداء ودفع الثمن غالياً وابتلي بالجوع والخوف ، فما وهن لما أصابه في سبيل الله ، وما ضعُفَ وما استكان للوصول إلى حريته وكرامته وحقوقه واستقلاله.

إلى الشعب الذي سطَّر ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير وعلَّم الشعوب المتعطشة للحرية بأن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة ، لأن ذلك من سنن الله:

﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:43].

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف :110]

* * *

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:1].

وقال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70 . 71].

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعد، هذا كتاب «الأمير عبد القادر الجزائري قائد رباني ومجاهد إسلامي»، جزء من كتاب كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

وفي المبحث الأول للكتاب: كان الحديث عن الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبين يدي هذا المبحث مقدمة مهمة، ثم انصب الحديث عن

الأسـباب الحقيقيـة للاحـتلال: السياسـية، والعسـكرية، والاقتصـادية، والدينيـة، والظـروف الدوليـة المواتيـة، وعـن سـقوط مدينـة الجزائـر واسـتلام البـاي حسـين، وعـن الأخطـاء الـتي وقـع فيهـا: كإعدامـه لقائـد جيشـه، وثقتـه الخاطئـة في وزيـر الماليـة، وعـدم وجـود انضـباط مـن رجـال أمنـه، وعـدم وجـود خطـة مدروسـة لمواجهة الاحتلال.

وتحـدثت عـن قيـام الحكومـة الفرنسـية بطبـع منشـور باللغـة العربيـة لكـي يـتم توزيعـه علـى الجزائـريين وأبنـاء الأتـراك قبـل دخـول الأراضـي الجزائريـة، وجـاء هـذا البيـان بمثابـة خطـة لخلـق البلبلـة في صـفوف الجزائـريين، وإعطـائهم انطباعـاً بأن الفرنسـيين جـاؤوا لتخلـيص الجزائـريين مـن السـيطرة التركيـة، وبـذلك يتضـامنون مـع فرنسـا ولا يتصـدون لهـا. وقـد أحـدث هـذا البيـان وبيـانات أخـرى ارتباكـاً في صفوف وجهاء مدينة الجزائر.

وقـد علـت أصـوات بعـض رجـال التجـارة والرأسمـاليين بالـدعوة إلى الاستسـلام، لأن الجزائـر ضـائعة لا محالـة. ولـو دخـل الفرنسـيون بالقـوة في إثـر هجـومهم ؛ فـإنهم سـينهبون المدينـة ويقتلـون جميـع السـكان والنسـاء والأطفـال العـزل، وكـان تبريـرهم لقبـول فكـرة تسـليم المدينـة إلى الفرنسـيين وفقـاً لمعاهـدة «استسـلام»: أن أمـة شـريفة مثـل فرنسـا لا تنكـث بعهودهـا، وأننـا سـنعامل بكـل عـدل، وبقطـع النظـر عـن كـون زيـد أو عمـرو هـو الـذي يحكمنـا، فـإن المهـم هـو أن نحكـم كمـا ينبغـي وفقـاً لمبـادئ الحكومـة الفرنسـية وأن لا تمـس ديانتنـا. ومـن جهـة أخـرى، فـإن عمـاد الحضـارة هـو حقـوق الإنسـان، ولـذلك فإننـا لا نخشـى شـيئاً مـن أمـة متحضـرة، وهـذا هـو التفكـير الـذي أدى في نهايـة الأمـر إلى عـدم مقاومة الجيش الفرنسي[1].

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 99 .

ولكن الاحتلال الفرنسي نقض العهود والمواثيق، وداهم المنازل والبيوت، وجرّد النساء من مصاغهن وملابسهن الثمينة وكذلك الأطفال، فتم الاعتداء على الأعراض وانتهبت الأموال، وسفكت الدماء، وتم مصادرة الأوقاف والأملاك.. إلخ.

وفي المبحث الثاني: كان الحديث عن ظهور المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، وتطورها مع ظهور الشريف محيي الدين الحسني الذي كان يحظى باحترام ووقار وهيبة مميزة وكلمة مسموعة بين القبائل، وحقق الجزائريون بقيادته انتصارات عظيمة ضد الاحتلال، ولكن تقدم سن محيي الدين جعله يتأخر في القيادة لصالح ابنه عبد القادر، الذي اشتهر بالشجاعة والذكاء والعلم والحزم والصفات الحميدة والخلال العظيمة، وتمت بيعته من قبل قبائل الجزائر على السمع والطاعة، وكان اختياراً شعبياً موفقاً.

وفي المبحث الثالث: وضحت امتداد حكم الأمير بعد البيعة الشعبية وامتداد سلطانه حتى شمل ثلاثة أرباع القطر الجزائري.

وبعد أن استقام للأمير الأمر شرع في تنظيم أمور الدولة وتشكيل الكوادر الحكومية، فعيّن الأكفاء من الرجال، واعتمد الفقه الإسلامي – أي التشريعات المنبثقة من القران الكريم والسنة – نظاماً لحكمه وبناء الدولة، والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلين.

وسارع الأمير عبد القادر في تأسيس الجيش النظامي، وطور استراتيجيته العسكرية، واهتم بتطوير حرب العصابات وأصبح يتقنها اتقاناً كبيراً وكان يفاجئ ويربك الخصم، وهي التي جعلت الأمير أشهر وألمع رواد هذا النوع من الحرب، وهو بذلك سبق الأمير عبد الكريم الخطابي زعيم حرب الريف

بالمغرب، والشيخ عمر المختار بليبيا، واستفاد منه الكثير من قادة التحرر الذين جاؤوا من بعده.

واهتم الأمير بتفعيل وتقوية الحكومة المركزية في دولته، فقسم البلاد إلى ثماني ولايات وجعل عليها خلفاء يديرونها من خلال مجلس شورى وإدارات محلية فعّالة، ووضع معايير في تعيين موظفي الدولة ومناصبهم من ذوي الكفاءات والقدرات والملكات الإدارية والقيادية، وأعطى رعاية خاصة للمؤسسة القضائية لتسهم في رفع الظلم وإقامة العدل، وأسس الأمير مجلس شورى للدولة مكون من أحد عشر عضواً، وكان كثير الاستشارة والاستماع لأصحاب الخبرة والمعرفة والتجارب العملية في الشأن العام.

واهتمت دولة الأمير بالاقتصاد والموارد المالية وترشيد المصروفات، وشجعت حركة التجارة الداخلية والخارجية، وكان لدولة الأمير جهاز دبلوماسي متميز ونشط ساهم في إنجاح مفاوضات عدة منها معاهدة ديمشال ومعاهدة التافنة.

وبيّنت اهتمام دولة الأمير بجهاز المخابرات، ونشر الثقافة من خلال المدارس والمساجد والزوايا والتشجيع على العلم والتعلم و التفقه، وركزت دولة الأمير على الصناعة الحربية واحتياجاتها لأهميتها في حركة الجهاد ضد الاحتلال، واستجلبت من الخارج خبراء وأهل تخصص في ميادين الصناعة وعلم المعادن.

وبيّنت معارك الأمير التي خاضها ضد العدو واضطرار العدو للمعاهدة، فقد توالت الضربات المتتالية على الحاميات الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل حدب وصوب، وكيف استفاد منها في تطوير وتقوية مؤسسات الدولة الناشئة وفتح مجال للعلاقات الخارجية مع الدول، فقد اعترف به

سلطان مراكش، وعمل الأمير على بسط نفوذه وإقرار الأمن والسلام في المناطق الخاضعة لسلطانه.

ووضحت عبقرية الأمير وقيادته الفذة في الحرب والسلم، ومحاربته للشعوذة والدجل بين الناس، ووقفت مع العمل الاستخباراتي الفرنسي الموجه لاختراق دولة الأمير وخطورته في إضعاف حركة الجهاد.

ووضحت في هذا الكتاب اهتمام الأمير بالعمل على تنظيم دولته بسائر أنواع الضبط التشريعي والإداري: كيف اضطر إلى إنزال العقاب بالقبائل العاصية المتعاونة مع العدو، وإحاطة علماء المغرب ببعض المشاكل التي تواجهه، فأرسل بعثته برئاسة عبد الله سقاط تحمل أسئلة موجهة إلى علماء المغرب الأقصى، طالباً منهم الإجابة عليها، وقد أجاب عليها شيخ الإسلام التسولي.

كان قصد الأمير من هذه الاستشارات القانونية من علماء المغرب إبراء ذمته أمام الله، وتجنبه من أن يعاقب خارج أحكام الشريعة، وتقوية موقفه أمام الناس الذين سيشعرون بأن الأمير يطبق عليهم ما أمر الله به بشهادة علماء متعمقين في الشريعة وأصول الدين[1].

وتحدثت عن نقض الاحتلال الفرنسي لمعاهدة التافنة، وحرص الأمير على إطالة أمد الهدنة، لكن القتال اندلع من جديد، فوجه الأمير نداءه للشعب وأوامره إلى خلفائه، فبدأت مرحلة جديدة من الزحف على معسكرات العدو وحصونه، وتكبد الفرنسيون خسائر رهيبة ولخص بيسكاتوري معاناة الفرنسيين هذه فقال: إن إفريقيا هي الخراب في السلم والإنهاك في وقت الحرب. وقام الجنرال بيجو بردود أفعال عنيفة فدمر الأرياف والقرى، وحرق

---

[1] المصدر السابق .

المحاصيل، وقطع الأشجار المثمرة، وعاقب كل قبيلة وقعت تحت سلطانه ساهمت في دعم الأمير عبد القادر، وجرّدها من أراضيها. وكانت خطته مبنية على إبادة الشعب، فقتل من أبناء الشعب الجزائري عشرات الألوف رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً.

واضطرت فرنسا للنفير العام وواصلت، بلا انقطاع، تزويد الجنرالات الفرنسيين وجيوشهم بالإمدادات والمؤن والعتاد والرجال والسلاح والذخائر، وكانت إحدى هذه الدفعات وصلت يوم (1841/2/22م) وعدد القوات (88000) جندياً علاوة على ما هو موجود بالجزائر، وكان رد الأمير عبد القادر رسالة إلى الجنرال بيجو جاء فيها: اعلموا أنني بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا أعتبر قوتكم، لعلمي أنكم لا تضرونني بشيء، إلا أن يضربني الله به، ولا يلحقني منكم إلا ما قدره الله علي.

واستمرت المعارك مع الجيوش الفرنسية، وكانت خطط الأمير عبد القادر متنوعة ومتجددة، هزم فيها الجنرال بيجو في معارك إيالة وهران ومتيجة على الرغم من كثرة جنوده وحداثة أسلحته.
وكانت قوة الأمير تكمن في استحالة العثور عليه في المكان الرحب الواسع في حرارة شمس إفريقيا المحرقة في مكان ندرة المياه، وفي حياة الترحال التي اختطها كأسلوب للحرب.

لقد اعترف خصومه القادة العسكريون بعبقريته الفذة، وأظهروا إعجابهم بالأمير مثل المارشال بيجو، ولامورسيير، وشاغارنيه ؛ فقال الجنرال بيجو عن الأمير عبد القادر: خصم صنديد نخشى بطشه.

وقد أصبحت الإمدادات تتوالى من فرنسا على قواتها بالجزائر، ووضع قادة الاحتلال خططاً جديدة للزحف الشامل، اعتمدت على تدمير المدن، ومطاردة القبائل، وارتكاب المجازر.

وفي تلك الفترة الحرجة من تاريخ شعب الجزائر ابتكر الأمير عبد القادر مدينة الخيام المتنقلة، لتجنيب المدن الدمار ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وكان الأمير يقوم بزياراته الميدانية مع القادة العسكريين والعلماء والأطباء إلى المناطق التي لازالت تحت سلطته، وكان يتواصل مع جنوده وضباطه في الجبهات والثغور، يقدم لهم العون المعنوي والمادي، ويرسل إليهم الرسائل والقصائد التي تحثهم على الجهاد والكفاح والنضال.

وتعرضت المدينة المتنقلة للهجوم من قبل قوات الاحتلال الفرنسي في إحدى غيبات الأمير، واستطاع أن يرد رداً سريعاً على القوات التي هاجمته وأعاد بناء المدينة.

وقد عملت فرنسا على تشديد الخناق على الأمير ودولته ومارست ضغوطاً سياسية وعسكرية على سلطان المغرب لكي ينحاز ضد الأمير، فاضطر في نهاية المطاف إلى طلب الأمان للهجرة إلى ديار المسلمين في إسطنبول أو الشام، ولكن فرنسا نقضت العهد وغدرت به وسجنته.

وقد تحدثت عن الأيام التي قضاها في سجون فرنسا، ثم مغادرتها إلى إسطنبول، ثم استقراره في مدينة بورصة بالدولة العثمانية، ثم انتقاله إلى دمشق حيث مقر إقامته الأخير، وتكلمت عن تفرغه للعبادة والعلم والتدريس ومخالطته العلماء وعن جهوده الاجتماعية. وناقشت الاتهامات التي وجهت إلى الأمير مثل: اتهامه بوحدة الوجود، وتأثره بفكر ابن عربي،

ونسبة كتاب المواقف إليه، وأثبت بالدليل والبرهان بطلان الكثير مما نسب إليه وبراءته من عقيدة وحدة الوجود والانتساب إلى المحافل الماسونية.

لقد تعرض الأمير عبد القادر لحملات تشويه مركزة ومنظمة، واختلقوا له الأكاذيب، وزعموا أنه سلم نفسه لفرنسا واستسلم في نهاية المطاف، ونسبوا إليه رسائل ومعاهدات مخزية زعموا أنها بخطه، ثم اختلقوا قصة انتسابه للجمعية الماسونية وزوروا عليه رسائل بهذا الخصوص، وكل ذلك كي يسقط اعتباره عند الناس كرجل مخلص لأمته، وحتى لا يكون قدوة للأجيال المتعاقبة في نضاله وكفاحه وجهاده وروحه الثائرة ضد الظلم والجور، ولكن الله أبى إلا أن يخرج الحق للناس بفضله ومنه ثم بجهود الباحثين المخلصين.

إن الأمير عبد القادر اشتهر بين الناس بنزعته الإسلامية، واهتمامه بالقران والسنة والتصوف السني الرشيد على نهج الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي أثنى عليه علماء السلف من أمثال ابن تيمية وابن القيم وغيرهم كثير.

وقد درَّس الأمير بالجامع الأموي صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك ورسالة أبي زيد القيرواني، وأشاد بمبحث العقائد الذي في مقدمة الرسالة، وكل هذه الكتب تخالف تماماً العقائد الموجودة في كتاب «المواقف» المنسوب إليه بالباطل والبهتان والافتراء.

إن الأمير عبد القادر الجزائري لم يعتقد يوماً من الأيام لا بوحدة الوجود ولا بالحلول ولا الاتحاد، بل كانت عقيدته سنية، صافية من البدع، اشتهر بالتقوى والخوف من الله عز وجل والإيمان به وباليوم الاخر. حفظ القران في سن مبكرة من حياته، وكان مالكي المذهب، متقيداً بشرع الله في حياته الخاصة وأسرته ومجتمعه ودولته، وما نسب إلى الأمير من الرموز ووحدة

الوجود والعقائد الفاسدة ما هي إلا أباطيل واتهامات تمّ كشفها وتبيّن بطلانها بالعلم الرصين والحجج الدامغة والأدلة القاطعة في هذا الكتاب.

فالأمير عبد القادر منهجه في الحياة عبّر عنه في أبيات شعرية قال فيها:

عليك بشرع الله فالزم حدوده	حيثما سار سر وحيثما وقف

ومن شعره العذب الجميل قوله:

الحمد لله الذي قد خصني	بصفات كل الناس لا النسناس
الجود و العلم النفيس وإنني	لأنا الصبور لدى اشتداد الباس
و تحدثي شكراً لنعمة خالقي	إذ كان في ضمني جميع الناس

وهناك أمر مهم، يحدث كثيراً في ما يتعلق بتشابه الأسماء، فهناك غير الأمير عبد القادر من العلماء والأسماء المتطابقة مع اسمه، كتبوا كتباً وألفوا في مواضيع التصوف، فاختلط الحابل بالنابل على بعض الناس. وقد بينت ذلك في هذا الكتاب، وناقشت في هذا الكتاب اتهام الأمير بأنه تعاطف مع الماسونية ثم انتسب إلى محافلهم وتتبعت جذور هذه التهمة وبينت زيفها وبطلانها.

إن الحقيقة التاريخية التي وصلت إليها من خلال الدراسة العميقة والبحث الجاد وتتبع سيرة الأمير يوماً بيوم وشهراً بشهر وسنة بسنة، في الجزائر، وفي الحج، وفي السجون، وفي المنافي، وفي المهجر، وفي مجالسه العلمية، والحربية، والسياسية ؛ تبين أن الأمير لم يكن يوماً ماسونياً ولا خادماً لفرنسا، والمبادرة التي قام بها في الدفاع عن المسيحيين في الشام كانت خالصة لوجه الله الكريم، ولم تكن لدنيا يصيبها أو وسام يبتغيه.

لقد حاول تشرشل صاحب كتاب «حياة عبد القادر» ومن سار على طريقته من أمثال جرجي زيدان وغيرهم ربط الأمير بالمحافل الماسونية، لكنهم عجزوا عن تقديم الدليل، مما يبطل هذا الخبر المزعوم من أساسه. فحياة الأمير صفحة مفتوحة للباحثين ناصعة البياض نقية طاهرة، واتهامات أعدائه الباطلة تتساقط أمام الحقائق الراسخة وتتلاشى مع الحجج الدامغة، وتذهب جفاء لأنها زبد، وسيرته العطرة تبقى خالدة في معانيها وقيمها ومبادئها لأنها تنفع الناس.

إن كل الذين ادَّعوا انتساب الأمير عبد القادر إلى هذه الجمعية لم يقدموا أي دليل مادي أو مستند وثائقي يثبت صحة ادعائهم، ومنهم من يعتذر خشية الإطالة عن عدم تقديم الأدلة أو الوثائق، ويكتفي بإبراز صورة الأمير عبد القادر المعروفة وهو يرتدي الأوسمة التي وصلته من ملوك ورؤساء العالم، وعلى صدره وشاح الفروسية الأحمر الذي أهداه إليه ملك إيطاليا فكتور عمانوئيل مع الوسام الذي جاءه بمناسبة إنقاذ أرواح خمسة عشر ألف مسيحي في الفتنة المشهورة في الشام، وهذه الحجة باطلة لأنه لو توافرت الوثيقة مهما كانت لما أحجموا عن ذكرها.

والحقيقة أنه لا يوجد أي مستند سوى أقوال تدخل في القيل والقال نقلاً عن مصدر بريطاني بقصد الدعاية للمحافل الماسونية وخدمة غايات استعمارية مكشوفة، فكثير من المستشرقين كانوا يقدمون خدمات قيِّمة لبلادهم تشجعهم عليها حكوماتهم لأغراض استعمارية غير خافية، لكن مما يزعج الباحثين عن الحقيقة أن نرى إفكهم واختلاقاتهم قد تناقلتها أقلام كتَّاب ومؤرخين من أبناء شعوبنا كأنهم ظفروا بصيد ثمين، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص والتدقيق، فذكروا ما ذكروه نقلاً، لا تحقيقاً وبحثاً، دون أن يقدموا وثائق علمية ومستندات حقيقية وبراهين عملية.

إن اتهامات الأمير عبد القادر بالانتساب إلى الماسونية تتهاوى أمام البحث العلمي، ولا وجود لها في حقائق التاريخ، وإنما تدخل ضمن الحرب الاستخباراتية في تشويه رموز النضال والكفاح في هذه الأمة، ويأبى الله إلا أن تظهر الحقيقة بأنوارها لتزيل ظلام البهتان والأكاذيب.

وتحدثت في هذا الكتاب عن الأمير الإنسان وعلاقته بأمه وزوجته وأولاده وأقاربه وأصحابه وأصدقائه وأبناء شعبه، وعن مواهبه الأدبية والشعرية ونشرتها حسب المواقف والمناسبات.

ودوَّنت أيامه الأخيرة ومرضه ووفاته ودفنه، ونقل رفاته بعد تحرير الجزائر عام (1966م) إلى بلاده في احتفال شعبي ورسمي مهيب، وما أن حطت الطائرة بجثمان الأمير في مطار العاصمة وأطل جثمانه الملفوف بالعلم الجزائري حتى امتدت أيادي رئيس الجمهورية «هواري بومدين» والوزراء لتحمله، وفي تلك اللحظات علت أصوات عشرات الألوف من الجزائريين والجزائريات «الله أكبر» تشق عنان السماء، وكانت ترافق الهتافات زغاريد النساء، وكانت دموع الفرح تملأ ماقي الجميع وتسيل مدراراً.

وقد نظم الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي قصيدة عصماء بمناسبة هذا الحدث التاريخي الكبير حيًّا بها دمشق الفيحاء، جاء فيها:

يا دمشق الفيحاء ألف تحية	قد عرفناك في الندى أُموية
أيّ بُشرى حَمَلْتِها لبلادي	رُفات الأمير أيّ هدية

وخاطب في قصيدته الجيش الجزائري فقال:

من عُلاها استمدَّ جيش بلادي	ذلك العزم يوم خاض المنايا
هي ليست كما سمعتم رُفاتاً	بل تُراثاً مقدَّساً و عطايا

وقال مخاطباً روح الأمير:

ذهب الغاصبون لا دوميشيل ولا دورليان،ولا صليل السلاح

مات بيجو وألف بيجو وأودى كل جيش رمته هُوجُ الرياح

أنت في كل ثائر كنت تحيا عبقريًّا محنكاً في الكفاح

إن الله عز وجل أعلى ذكر الأمير في تاريخ البشرية المعاصر، وأصبح من رموز النضال وأحرار العالم الذين ناضلوا وكافحوا وجاهدوا لتنال شعوبهم الحرية والكرامة، وأثار كفاحه البطولي ضد فرنسا الغازية إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء العالم والدول الأوروبية، كما كان له صدى كبير حتى في الولايات المتحدة الأمريكية، ففي سنة (1846م) أسست مدينة صغيرة بولاية آيوا «كلام إنكليزي» من طرف ثلاثة رواد أمريكيين يسمون جون تومسون، وتيموثي ديفيس، وتشنز سايج أطلق عليها اسم القادر على شرف الأمير.

والذين كانوا يتجاهلون الوزن الكبير لمكانة الأمير العالمية هم الذين اندهشوا لتعدي سيرته المحيطات والبحار والفيافي والصحاري والقفار والقارات في زمن كادت به الاتصالات أن تنعدم، فقد كانت شعوب أوربا وحكوماتها تتابع بإعجاب ملحمة الأمير وقتاله البطولي وعبقريته التنظيمية و وطنيته الفياضة وقيمه الإنسانية.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة (28 جمادى الاخرة 1436هـ /17 إبريل 2015م) الساعة الخامسة بعد صلاة العصر بالدوحة، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر:2].

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل وربي الكريم هو المعين وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفت العواطف ولتحجرت المشاعر ولعجز القلم عن البيان.

اللهم بصرني بما يرضيك، واشرح صدري، وجنِّبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تثيبني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد، الذي لولا أنت ثم هم ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:19].

واختتم هذه المقدمة بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر:10].

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

المبحث الأول: الاحتلال الإجرامي الفرنسي للجزائر

مقدمة:

إن معظم المؤرخين لا يؤمنون بالإهانة المزعومة المتمثلة في ضربة المروحة التي أصابت قنصل فرنسا «بيار ديفال» من طرف الدّاي حسين «يوم 29 أفريل 1827» الذي كان يوم عيد المسلمين.

هناك روايات متعارضة صدرت من القنصل ومن الدّاي: فالدّاي يتحدث عن ضربة خفيفة ناجمة عن محادثات تميزت بالشدة في موضوع العلاقات الجزائرية الفرنسية، في تلك المحادثات أشار الدّاي إلى أنه لم يتلق جواباً من الحكومة الفرنسية في موضوع الدين الذي كان على عاتقها بعد أن زوّدتها شركة بكري بوشناق بالحبوب علماً بأن الخزينة الجزائرية لها حقوق مترتبة على تلك الصفقة، وقد تم بشأن هذه القضية اتفاق صادق عليه الدّاي (يوم 23 ديسمبر 1819م) وغرفة النواب الفرنسية (يوم 24 جويلية 1820م).

وفي تقرير موجه إلى السلطان سليم الثالث، أكد الدّاي أن القنصل أجاب بكلام شتم الدين الإسلامي وشخصية السلطان، وإن إجابة القنصل كانت تحمل ما معناه: إن الملك الفرنسي والدولة الفرنسية لا يرضيان بالإجابة على رسائلك.

فحول القنصل «بيار ديفال» القضية إلى قضية تمس بشرف فرنسا في حين أنه هو الذي أهان بجوابه الإسلام والدولة الجزائرية[1].

[1] الثورة الجزائرية ، د. بو علام بن حمودة ص 15 .

وكان الدّاي سمح ليهوديين من أصل إيطالي هما بكري وبوشناق، تحت حماية قنصلية فرنسا بتصدير القمح الجزائري إلى فرنسا في سنوات الثورة الفرنسية، وكان هذان المرابيان يشتريان القمح بثمن مخفض ويبيعانه لفرنسا بثمن غال. وكان بوشناق يقيم في مدينة الجزائر، وكان بكري يعيش في فرنسا، وكان ثمن هذا القمح يعتبر قرضاً دولياً بسبب دخول الحكومة الفرنسية وداي الجزائر، كطرفين في صفقاته، وكانت التجارة الخارجية يسيطر عليها المرابون اليهود وفرنسا، والتجارة الداخلية في عهد الدّاي حسين تحت سيطرة المرابين اليهوديين.

ولم يخف بعض الساسة الفرنسيين النزهاء امتعاضهم من موقف حكومتهم من هذا الدين، فقد قام وزير خارجية فرنسا تاليران بتقديم رأيه في مجلس الوزراء عندما عبر عن اقتناعه بحق الجزائر في هذا الدين، بضرورة أن تعبر فرنسا عن عرفانها لهذا البلد على موقفه من مد الشعب الفرنسي بالقمح مع تأجيل الدفع في الأوقات الحرجة التي كانت تمر بها خزينة الدولة الفرنسية [1]، لكن لم يسمع إلى نصيحته، وتراكم الدين فوصل إلى ثمانية ملايين فرنكاً، لكن حكومة القنصلية لم تسمح إلا بدفع نصف هذا المبلغ، ولم تنفذ الخزينة الفرنسية أمر الدفع، واستمر الوضع على ما هو عليه طوال عهد الإمبراطورية، لأن نابليون يرفض تسديد أي دين ما لم يجبر بالقوة على ذلك، وفي سنة (1819م) طالب المرابيان اليهوديان فرنسا بدفع المبلغ الذي ارتفع إلى (24) مليون فرنكاً كثمن للقمح الجزائري، وشكلت الحكومة الفرنسية لجنة لبحث المسألة، وخفضت المبلغ من (24) مليون إلى سبعة ملايين فرنكاً، ووافق اليهوديان على هذا التخفيض كتسوية نهائية للمسألة، وصدر اعتراف رسمي من الحكومة الفرنسية في قرارها الصادر (يوم

[1] الجزائر في التاريخ ، عثمان السعدي ص 443 .

28 أكتوبر 1819م)، ووافق البرلمان على هذا القرار (يوم 24 يوليو 1820م)، ووافق الدّاي على هذه التسوية وطالب بدفع المبلغ المعترف به في أقرب وقت لحاجة خزينة الدولة الجزائرية للمال.

ومن الغريب أن الحكومة الفرنسية قررت اقتطاع مبلغ من الدين لليهوديين المرابيين اللذين يتمتعان بالجنسية الجزائرية واللذين قررا عدم العودة للجزائر، وكإمعان في نسج خيوط المؤامرة على الدين قررت المحكمة الفرنسية حق المرابين في جزء من الدين الذي هو دين من الدولة الجزائرية على الدولة الفرنسية، واعترض الدّاي على أن تفصل محكمة فرنسية في خلاف بينه وبين يهوديين من رعاياها طالباً من الحكومة الفرنسية إعادتهما له كمجرمين، ولم ترد الحكومة الفرنسية عليه، فاضطر إلى الكتابة إلى ملك فرنسا طالباً منه دفْعَ المبلغ سبعة ملايين فرنكاً لخزينة الدولة الجزائرية، وسحْبَ القنصل الفرنسي بالجزائر الذي يعمل على عرقلة حل هذه المسألة بين الدولتين، وتسليمَ اليهوديين. وكتعبير على قلة اللياقة الدبلوماسية قررت فرنسا تثبيت القنصل وتكليفه بتبليغ الدّاي أن الملك قرر عدم النظر في مطالبه.

ثم قررت الحكومة الفرنسية عدم الاعتراف بتسديد الدين للدولة الجزائرية وإنما تسديده للمرابين اليهوديين، وتجنب القنصل زيارة الدّاي منتظراً وصول الأسطول الفرنسي للجزائر من طولون، وفي يوم (30 أفريل 1827م) حضر القنصل لحفل استقبال بقصر الدّاي، وعندما سأله الدّاي عن الرد الذي تلقاه من حكومته على رسالته التي بعث بها للملك أجابه باستفزاز: «إن حكومتي لن ترد عليك ..» فاعتبر الدّاي هذا الجواب إهانة له وطلب من القنصل مغادرة القاعة ملوحاً بمروحة كانت في يده، واعتبرت الحكومة

الفرنسية أن الدّاي أهانها عندما ضرب قنصلها بالمروحة واعتبرت ضربة المروحة سبباً كافياً لغزو الجزائر[1].

قطعت العلاقات بين البلدين وراحت فرنسا تعد العدة لغزو الجزائر بعد أن انكشفت شواطئها على إثر تدمير أسطولها في معركة نافارين وانقسم المسؤولون الفرنسيون: فريق يخشى من المقاومة الجزائرية، اقترح الاكتفاء بفرض حصار بحري على السواحل الجزائرية كرد على إهانة الدّاي وإجباره على الخضوع للمطالب الفرنسية. ورأى الفريق الثاني ضرورة القيام بعملية إنزال واحتلال مدينة الجزائر. وهو التيار اليميني الذي يرى في احتلال الجزائر عملية تنسي الشعب هزيمة (1815م) وأسرة بوربون متحمسة لهذا الحل من تثبيت عودتها لعرش فرنسا الذي تحقق بفرض قوى خارجية.

فرض الأسطول الفرنسي حصاراً على السواحل الجزائرية ثلاث سنوات من (1827/6/16م) وحتى (1830/6/13م) تاريخ الغزو، وكلف الحصار فرنسا مبلغ سبعة ملايين فرنكاً سنوياً.

مشروع محمد علي باشا ملك مصر:

تدخل محمد علي ملك مصر وعرض مشروعه لاحتلال المغرب العربي: ليبيا وتونس والجزائر، وضمهما لمصر، وإسقاط الدّاي عدو فرنسا مقابل دعم فرنسا له، على أن يضمن لها الحصول على امتيازات اقتصادية وعسكرية في الجزائر. وقد عبر عن استعداده للتوجه إلى المغرب العربي على رأس جيش قوامه (62) ألف جندي.

---

[1] الجزائر في التاريخ ، عثمان السعدي ص 444 .

لكن بريطانيا عارضت تدخل محمد علي وتوسعه غرباً بالرغم من محاولة هذا إقناعها بأن هدفه منع فرنسا من احتلال بلد مسلم، وفي يوم (1830/1/23م) هددت بريطانيا فرنسا رسمياً بأنها قررت استعمال القوة ضد مشروع محمد علي، وفشل المشروع لا بسبب التهديد البريطاني فقط وإنما بسبب معارضة وزيري الحربية والبحرية الفرنسيين ورفضهما إقحام محمد علي في قضية الجزائر، وإرضاء لوزيريه قدم رئيس الوزراء بولينياك تعديلاً لعرض محمد علي يتمثل في دعم محمد علي للسيطرة على طرابلس وتونس مقابل مساعدته لفرنسا على احتلال الجزائر، ورفض محمد علي المشروع المعدل لأنه لا يريد أن يسجل عليه العمل على مساعدة دولة مسيحية على استعمار بلد مسلم، وأخيراً رفض مجلس الوزراء الفرنسي مشروع محمد علي في جلسة (1829/10/12م)[1].

وصف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي لمحمد علي:

وصف المؤرخ الجبرتي محمد علي بأنه مخادع وكذاب، يحلف الأيمان الكاذبة، ظالم لا عهد له ولا ذمة، يضمر السوء، ويستخدم العسف والجور في الوقت نفسه الذي يعد فيه بالعدل، لا يخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ [2]، ولقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد علي بأنه ميكافيللي، أو أنه تعلم على فكر ميكافيللي صاحب نظرية «الغاية تبرر الوسيلة»، فقيل له مرة - أي لمحمد علي - إن ميكافيللي ألف كتاباً اسمه «الأمير»، فكلف أحد النصارى المحيطين به - وقد اعتاد أن يكون أغلب مرافقيه من النصارى واليهود واسمه أرتين - بترجمة هذا الكتاب، وأن يوافيه

[1] المصدر نفسه ص 446 .
[2] الدولة العثمانية للصلابي ص 373 .

كل يوم بصفحة مترجمة، فلما وصل إلى الصفحة العاشرة توقف عن المواصلة قائلاً بأنه يمتلك من الحيل مالم يخطر لميكافيللي على بال[1].

ولقد علق بعض الكتّاب على ذلك بأن هذه الصفات هي التي رشحت محمد علي لأن يصبح والياً على مصر [2]، وتلك الصفة القذرة من حب الزعامة، إلى حد الجنون وقسوة القلب، والنظر إلى الذات، وعدم المبالاة بالإسلام، هي التي تبحث عنها المحافل الماسونية لصناعة الأبطال الذين يدمرون الإسلام ودوله من داخله.

إن محمد علي باشا لم يكن لديه مانع أن يقوم بدور الاحتلال للجزائر لصالح فرنسا، إلا أن البرلمان الفرنسي رفض ذلك، ومواقف بعض الدول الأوروبية أجبرته على التخلي عن تلك الفكرة التوسعية على حساب شعوب ودول تمر بأضعف مراحلها.

لقد كانت المصالح الفرنسية ترى ضرورة دعم محمد علي ليتحقق لها أطماعها المستقبلية في حفظ وتقوية محافلها الماسونية، وإضعاف الدولة العلية العثمانية، وزرع خنجرها المسموم في قلب الدولة العثمانية، لذلك أنشأت لمحمد علي أسطولاً بحرياً متقدماً متطوراً وترسانة بحرية في دمياط، والقناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر، وكل ذلك إنما كان لتنفيذ المخطط الصليبي الذي فشلت الحملة الفرنسية بتنفيذه بسبب اضطرارها إلى الخروج من مصر[3].

---

[1] المصدر نفسه ص 374 .

[2] الدولة العثمانية للصلابي ص 374 .

[3] المصدر نفسه ص 377 .

أولاً: الأسباب الحقيقية للاحتلال الفرنسي للجزائر:

كانت فرنسا مدفوعة في غزوها للجزائر بأسباب عدة، ولكنها ادعت أمام الرأي العام الأوروبي أن هدفها القيام بحملة تأديبية ضد الجزائر، وفي الحقيقة إن فرنسا كانت تخطط لاحتلال الجزائر والاستيلاء عليها منذ (1792م)، أي سنة إبعاد إسبانيا وتصفية قاعدتها العسكرية في المرسى الكبير بوهران، فقد كانت هناك رغبة قوية للتجار الفرنسيين والقيادة السياسية بتلك البلاد أن تحل فرنسا محل إسبانيا في شمال إفريقيا، وتسيطر على هذه المنطقة الغنية بالثروات الطبيعية، وبصفتها موقعاً استراتيجياً هاماً من الناحية العسكرية، فإن الجيش الفرنسي كان يسعى باستمرار لتقوية أسطوله وإنهاء السيطرة الإنجليزية على حوض البحر الأبيض المتوسط، كما أن هناك أسباب عديدة سياسية، ودينية، واقتصادية، وغيرها. ويمكن تلخيص أهم أسبابها في الاتي:

1 . الأسباب السياسية:

تتمثل في اعتبار حكومة الجزائر تابعة للإمبراطورية العثمانية التي بدأت تنهار، والدول الأوروبية تتهيأ للاستيلاء على الأراضي التابعة لها، خاصة أن الفرنسيين كانوا يعتقدون أنهم سيحصلون على غنيمة تقدر بـ (150) مليون فرنكاً توجد في خزينة الدّاي. كما أن شارل العاشر ملك فرنسا كان يرغب في خلق تعاون وثيق مع روسيا في حوض البحر الأبيض المتوسط حتى يتغلب على الهيمنة البريطانية فيه، والتمركز في ميناء الجزائر الذي كان يعتبر في نظر الملك الفرنسي تابعاً للإمبراطورية العثمانية المنهارة، ثم إن المعارضة التي سيطرت على مجلس النواب في انتخابات نوفمبر (1827م) خلقت مصاعب داخلية للملك الفرنسي، الذي كان يعتقد أن الحل الوحيد

لإسكات المعارضة هو إحراز انتصار باهر على دايّ الجزائر، وإذا لم يتمكن من ذلك فإن المعارضة ستحرز انتصاراً اخر في الانتخابات البرلمانية[1].

2. الأسباب العسكرية:

إن انهزام الجيش الفرنسي في أوروبا وفشله في احتلال مصر، والانسحاب منها تحت ضربات القوات الإنجليزية في سنة (1801م)، دفع نابليون بونابرت أن يبعث بأحد ضباطه إلى الجزائر في الفترة الممتدة من (24 ماي إلى 17 جويلية 1808م) لكي يضع له خطة عسكرية تسمح له بإقامة محميات فرنسية في شمال إفريقيا، تمتد من المغرب الأقصى إلى مصر «مثلما عملت روما في الماضي»، وفي عام (1809م) قام هذا الضابط العسكري «بوتان» بتسليم المخطط العسكري لاحتلال الجزائر إلى نابليون، واقترح فيه على الإمبراطور الفرنسي أن يحتل مدينة الجزائر عن طريق البر، ثم التوسع لاحتلال بقية أراضي الجزائر، لأن بقية المقاطعات الجزائرية سوف تتعاون فيما بينها وتطيح بالسلطات الفرنسية في الجزائر العاصمة. وعند انهزام نابليون في معركة واترلو سنة (1815م)، وتحالف الدول الكبرى ضد الجيش الفرنسي في أوروبا، شعر ملك فرنسا أنه من الأفضل أن يعتمد على سياسة التوسع في إفريقيا، ويعمل على إشغال الجيش بمسائل حيوية تمنع إمكانية قيام الجيش بانقلاب ضده في فرنسا، وبالفعل فإن الجيش الفرنسي قد انشغل باحتلال الجزائر، وأقام سلطة عسكرية متينة بهذا البلد إلى غاية نوفمبر (1954م) يوم قامت الثورة الجزائرية الأخيرة، ووضعت نهاية لخرافة الجزائر الفرنسية[2].

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ، د. عمار بو حوش ص 83 ، 84 .
[2] التاريخ السياسي للجزائر ص 84 .

3. الأسباب الاقتصادية:

كانت فرنسا تطمع في خيرات الجزائر وثرواتها الطبيعية الوافرة، وتتطلع لتصريف منتجاتها في أسواق الجزائر، كما كانت ترغب في التخلص من ديون الجزائر عليها، وتتمثل في قيمة كميات القمح الوفيرة التي استوردتها فرنسا منها، وسبق تأجيل السداد بمساعدة بعض التجار اليهود في الجزائر. وكشف القنصل التجاري الفرنسي عن هذه الدوافع الاقتصادية في رسالته التي بعث بها إلى حكومته في باريس قبيل غزو الجزائر حيث قال: إن الفوائد المادية التي تعود على فرنسا من غزو الجزائر بغض النظر عن ملايين الفرنكات الذهبية التي تزخر بها الخزانة الجزائرية ؛ أجدى وأنفع لفرنسا من كل عمليات الغزو الاقتصادي التي قامت به حتى الان... فهناك سهول طيبة ذات خصب عجيب، ومناجم غنية بالحديد والرصاص، وجبال من العناصر المعدنية... كلها تنتظر الأيدي التي تستغلها[1].

إن الجانب الاقتصادي قد لعب دوراً قوياً في إقدام فرنسا على احتلال الجزائر، ويظهر هذا بوضوح في الدراسة التي نشرها السيد تاليران في شهر جويلية من عام (1797م)، التي كان عنوانها محاورة حول الامتيازات التي يمكن الحصول عليها من جراء إنشاء مستعمرات جديدة في الظروف الحالية، وقد طلبت حكومة فرنسا في عهد نابليون بونابرت من قنصلها في الجزائر أن يجيبها بدقة عن بعض الأسئلة المتعلقة بمشروع احتلال الجزائر.

وقد تعاون الرأسماليون الفرنسيون مع رجال الجيش الفرنسي في دفع الحكومة والدولة لاحتلال الجزائر، والاستيلاء على الأرض الخصبة بها، وزراعة العنب، والبحث عن الذهب في المناجم الجزائرية. واستجابة لهذا المخطط

---

[1] تاريخ العرب الحديث ، د. حلمي محروس ص 221 .

قام الجنرال «كلوزيل» في بداية الاحتلال بإصدار قانون يقضي بتسليم الأراضي الجزائرية الخصبة للمهاجرين الأوروبيين، وبرزت قوة التجار والنواب الفرنسيين في تكوين كتلة قوية في البرلمان للدفاع عن مكتسبات الأوروبيين في الجزائر، وطرد كل من يحاول مراقبتهم أو الحد من سيطرتهم، وأحرزوا نجاحاً هائلاً إلى درجة أنهم استطاعوا شراء أغلب الأراضي المنتجة في سنوات قليلة، وفي أغلب الحالات كان التجار المتلهفون إلى امتلاك خيرات الجزائر يشترون أراض لم يروها بتاتاً، لأنها تباع لهم من طرف أشخاص كانوا يقومون بالوساطة لبيع الأراضي للفرنسيين، وهم في معظمهم يهود، وهم وحدهم الذين رحبوا بقدوم الجيش الفرنسي إلى الجزائر وبرجال التجارة، وليس هناك جدل بأن مجموعة صغيرة من اليهود الذين كانوا يقومون بالوساطة في كل عملية تجارية قد كانت الفئة المستفيدة من غزو الجزائر، لأن الاحتلال الفرنسي قد حقق للجالية اليهودية في الجزائر أمنيتها الكبرى[1] في الثراء السريع دون حسيب ولا رقيب.

4 . الأسباب الدينية:

رغبت فرنسا في نشر المسيحية في إفريقيا انطلاقاً من الجزائر، وفي هذا الشأن قال وزير الحربية الفرنسية في تقريره الذي قدمه لملك فرنسا «شارل العاشر» : «لقد أرادت العناية الإلهية أن تثار حمية جلالتكم بشدة في شخص قنصلكم بواسطة ألد أعداء المسيحية، ولعله لم يكن من باب المصادفة أن يدعى لويس التقي لكي ينتقم للدين وللإنسانية... ولعل الزمن يسعدنا بأن ننتهز الفرصة لكي ننشر المدنية بين السكان الأصليين وننصرهم»[2].

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 85 .
[2] الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر ، خديجة بقطاش ص 15 .

لقد كان للجانب الديني أثر كبير في احتلال الجزائر عام (1830م). فمن الأسباب التي دعت فرنسا إلى الغزو هو دعواها إنقاذ المسيحية والمسيحيين من أيدي «القراصنة الجزائريين»، والقضاء على عش القرصنة . الجزائر . حسب تعبيرها أيضاً. ففرنسا كانت تعتبر نفسها حامية الكنيسة الكاثوليكية، وترى في احتلال الجزائر عملاً هاماً أسدت به إلى العالم المسيحي وشعوب البحر الأبيض المتوسط خدمة كبيرة، فالعامل الديني في الاحتلال نلمسه من الدور الذي لعبه رجال الدين في الحملة، بحيث أن قرار شارل العاشر كان مدفوعاً من الأسقف الكبير وزير الشؤون الدينية فريسوس الذي كانت من ورائه روما، ولا يمكن أن ننسى أن وزير الحربية في تقرير قدمه للملك شارل العاشر يوم (14 أكتوبر 1827) كشف عن اماله في تنصير الجزائر بما يلي: يمكن لنا في المستقبل أن نكون سعداء ونحن نمدن الأهالي ونجعلهم مسيحيين. وكليمون تونير يرى أنه ليس من الغريب أن تكون العناية الإلهية مع الملك، لأن عمله هذا في سبيل الدين ؛ وأكد الملك شارل ذلك حينما خاطب كل أساقفة المملكة قائلاً لهم: إن مرادنا أن تقيموا الصلوات في جميع الكنائس وتطلبوا من الله أن يحمي الراية ويعطينا النصر [1]، ومما يمكن قوله أن الجانب الحكومي سرّ لما سوف يحققه جيش الملك من انتصار، لأنه انتصار في سبيل البعث الديني المسيحي بإفريقيا الرومانية إلى المسيحية على انقاض القائد الروماني سبيون، وخاصة المدن التي ازدهرت في العهد الروماني اللاتيني[2].

وأمام هذه النشوة علقت الصحافة اليسارية على هذا الطابع الديني للاحتلال، وذكرت أن عمل القنصل دوفال كان بوحي من الفاتيكان.

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية ص 16 .
[2] المصدر نفسه ص 16 .

وكـذلك الحـال لعمـل بكـري وبوشـناق اليهـوديين، فرومـا استبشـرت خـيراً بغـزو الجزائر واعتبرته عملاً مقدساً لفائدة المسيحية[1].

وقـد جـاء في المعاهـدة الـتي كتبـت في (5 جويليـة 1830م) الـتي حرّرهـا قائـد الحملـة دوبورمــون ووقعهــا الــدّاي حســين: إن الســلطات الفرنســية ســتحترم الأمــلاك والنســاء والديانــة ؛ لكننــا نجــد الجنــرال دوبورمــون يخطــو خطــوة إلى الــوراء يدفعــه في ذلــك التعصــب الــديني، فبعــد ســقوط مدينــة الجزائــر بأيــدي الفرنســيين ســارع دوبورمــون إلى إقامــة صــلاة بالقصــبة شــارك فيهــا الجــيش ورجــال الــدين وخطــب فــيهم قــائلاً: لقــد أعــدتم معنــا فــتح باب المســيحية لإفريقيــا، ونتمــنى في القريــب أن نعيــد الحضــارة الــتي انطفــأت فيهــا منــذ زمــن طويـل [2]، ويـروي بعضـهم قـائلاً: إن الاحتفـال الـذي جـرى في العقبـة الـتي بناهـا أبنــاء محمــد ﷺ لمواجهــة أبنــاء عيســى عليــه الســلام قــد رتلــوا الأناجيــل عاليــة أمام آيات القرآن التي أصبحت ميتة والتي كانت تغطي الجدران[3].

وفي الوقــت نفســه كــان الملــك شــارل العاشــر يحضــر قداســاً في كنيســة نــوتردام دي باري، يحمد الله الذي نصره على الأعداء[4].

إن الجنــرال دوبورمــون أخــذ علــى نفســه بأن يعمــل بالمعاهــدة فيحــترم الديانــة الإســلامية ومقدســاتها، ونــص البنــد الخــامس مــن المعاهــدة علــى حريــة العمــل بالــدين الإســلامي واحــترام كــل شــيء يرمــز إليــه، كمــا نــص هــذا البنــد علــى احــترام الممتلكــات، لكــن هــذه المعاهــدة بقيــت حــبراً علــى ورق، لأن الفرنســيين خرقــوا هــذه المعاهــدة باســتيلائهم علــى أمكنــة العبــادة وتحويلهــا إلى كنــائس وثكنــات وباســتيلائهم علــى الأوقــاف والــزوايا، وتجــرؤوا كــذلك علــى نــبش القبــور

[1] الحركة التبشيرية في الجزائر ص 16 .
[2] المصدر نفسه ص 17 .
[3] المصدر نفسه ص 17 .
[4] المصدر نفسه ص 17 .

لاستخراج الاجر والأحجار للبناء ولأخذ عظام الموتى لصنع السماد وبيعها في مدينة مرسيليا[1].

ويعترف الفرنسيون بما قام به الجيش حينما دخل مدينة الجزائر فالجنرال لامور يسيير المعروف بتدينه يقول: حللنا بمدينة الجزائر فاتخذنا من المدارس مخازن وثكنات واصطبلات، واستحوذنا على أملاك المساجد والمدارس، وكنا نعتقد أننا سنعلم الشعب العربي مبادئ الثورة الفرنسية، ولكن للأسف أن المسلمين رأوا في ذلك ضربة للدين والعقيدة.

إن عودة الكنيسة إلى الحياة السياسية في عهد شارل العاشر قد سمحت بنشاط الإرساليات التبشيرية في فرنسا وخارجها، وساعدت على خلق جو ديني، وانعكست اثاره على احتلال الجزائر سنة (1830م) واتضحت هذه الاثار في الطابع الديني الذي اكتسبته هذه الحملة والنزعة الصليبية التي اتصف بها المسؤولون، وبعد الاحتلال لم تعمل السلطات على احترام الديانة الإسلامية كما جاء في اتفاقية جويلية (1830م) عند استيلائها على المساجد والمؤسسات وهدمها دون احترام المشاعر الدينية للسكان، وكان هذا بمثابة تدخل في شؤونهم الدينية، ويمكن اعتباره . في نظرنا . وجهاً من أوجه التبشير التي تتعدد وسائله ومظاهره، وسيحاول المسؤولون ورجال الدين تنفيذه لتثبيت السلطة الفرنسية في الجزائر، لاسيما بعد تأسيس الأسقفية وتوافد رجال الدين عليها[2].

---

[1] المصدر نفسه ض 17 .
[2] المصدر نفسه ص 31 .

5ـ ادعاء فرنسا أنها احتلت الجزائر لكي تضع حداً لأعمال القرصنة البحرية:

في ذلك الوقت كانت القرصنة البحرية عملاً مشاعاً لجميع الدول ومنها فرنسا وإسبانيا والبرتغال وهولندا وسردينيا، التي كانت أساطيلها تمارس القرصنة البحرية، وكان القراصنة الأوروبيون يمارسون الوحشية في معاملة أسراهم، إذ كانوا يدمغونهم بالحديد المحمي في النار، ويقتلون البعض الاخر دون رحمة أو شفقة، أما البحارة الجزائريون فكانوا يهاجمون السفن التابعة للدول المعادية لبلادهم، وعلى هذا الأساس لا يمكن اعتبارهم «قراصنة» لشرعية أعمالهم وضرورة تأمين سلامة مياه بلادهم الإقليمية.

فضلاً عن أن الجزائريين كانوا يعاملون أسراهم معاملة إنسانية كأسرى حرب، ومما يذكر أن دول أوروبا البحرية كانت تدفع للجزائر أتاوات معينة مقابل حراسة الأسطول الجزائري لسفنها ومنع القراصنة من التعرض لها، فكانت إنجلترا ترسل مع كل قنصل جديد مبلغ ستمئة جنيه إسترليني ذهباً كهدية لحكومة الجزائر، وكانت السويد والدانمارك تدفع أتاوة سنوية قدرها (6400) قرشاً جزائرياً، وتدفع صقلية والبرتغال (2400) قرشاً كل عام، وذلك عدا الهدايا التي كان يجلبها معه كل قنصل جديد [1]، ويظهر ذلك من خلال ذكر أهم الأسباب التي دفعت بفرنسا إلى شن هجوم على الجزائر واحتلالها، وأن حادثة المروحة ما هي إلا ذريعة لمحاصرة عاصمة الجزائر وإجبار الدّاي على الاستسلام. يظهر هذا بوضوح في تصرف الكومندان كولي الذي أرسلته فرنسا على رأس قوة بحرية في (11 جوان 1830م) لمطالبة الدّاي بتقديم الاعتذارات إلى قنصل فرنسا بالجزائر على ظهر سفينة

[1] تاريخ العرب الحديث ، د. حلمي محروس ص 223 .

فرنسية، وبرفع العلم الفرنسي فوق حصون مدينة الجزائر وعلى الأخص فوق قصر الدّاي، وفي مقر البحرية، ثم توجيه التحية للعلم الفرنسي بمئة طلقة مدفعية جزائرية. وقد أنذر الضابط الفرنسي الدّاي بأن عدم الاستجابة لهذه المطالب في ظرف (24) ساعة يعني إعلان الحرب على الجزائر، وبالفعل فقد رفض الدّاي هذه الشروط المجحفة والمهينة، وبذلك أعلنت فرنسا الحرب على الجزائر يوم (16 جوان 1827م)[1].

6 . الظروف الدولية المواتية:

انهزام الأسطول التركي بالقرب من الميناء الإغريقي نافاران في أثناء حرب استقلال اليونان (20 أكتوبر 1827م).

ـ تقبل القيصر نيكولا الأول للحملة ضد الجزائر لأن الضربة قد تضعف السلطة العثمانية وتؤمن حرية الملاحة في البحر الأبيض المتوسط.

. وقوف ملك بروسيا المواقف نفسها.

. عدم معارضة دول شمال أوروبا.

ـ قبول ملك نابولي لإبحار سفن رعاياه في خدمة الجيوش الفرنسية من موانئ بلده.

ـ حياد باي تونس تجاه الخلاف الجزائري الفرنسي منذ سنة (1828م) خلافاً لتضامن الشعب التونسي مع الجزائر، كما يريد في الحقيقة توسيع أراضيه ووضع أخيه كداي على رأس الجزائر.

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 90 .

وتجدر الإشارة إلى أن باشا طرابلس يوسف القرمانلي عبّر في رسالة عن تضامنه مع الدّاي حسين، وأن ملك إسبانيا فرديناند السابع تحفظ تُجاه الحملة الحربية نظراً إلى معاهدته التجارية مع الدّاي حسين وإلى احترامه لمعارضة بريطانيا لحملة فرنسا على الجزائر ولسعيها لإيجاد حل سلمي. وكانت قد حثت السلطان العثماني على إرسال شخصية إلى الجزائر قصد إقناع الدّاي حسين بقبول الحل السلمي، وأوفد السلطان السيد طاهر باشا إلا أن السلطات الفرنسية منعته من الاتصال بالدّاي، وفي (30 ماي 1830م) رفضت فرنسا استقبال مبعوث السلطان العثماني سليم الثالث الذي أراد أن يجد حلاً سلمياً للخلاف بين فرنسا والجزائر، وفسرت السلطات الفرنسية ذلك الموقف بوجود الحصار لميناء الجزائر، والحقيقة هي أن القرار السياسي المتعلق باحتلال الجزائر قد اتخذ، فأعلنه الملك في اليوم الثاني من مارس (1830م) عند افتتاح دورة غرفة النواب[1].

7ـ الخيارات التي عرضت على مجلس الوزراء الفرنسي قبل البدء في غزو الجزائر:

وناقش الوزراء الفرنسيون الخيارات التالية:

ـ الإبقاء على الدّاي في حكم الجزائر، على أن تشرف فرنسا عليه من الناحية العسكرية فتحدد عدد الجيش والأسطول الذي يستطيع الاحتفاظ به.

ـ أو إعادة الجزائر إلى الدولة العثمانية مع إقامة حكومة منظمة فيها تضمن احترام الملاحة الأوروبية في البحر المتوسط.

[1] الثورة الجزائرية ، د. بو علام بن حمودة ص 17 ، 18 .

. أو أن تتقاسم فرنسا الجزائر مع الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا.

. أو أن تحتل فرنسا الجزائر بصورة دائمة وتقوم باستغلالها اقتصادياً.

وتم الاتفاق على الرأي الأخير[1].

ثانياً: كيف تم احتلال الجزائر:

كانت عوامل الانهيار واضحة المعالم في حكومة الدّاي حسين وقدرته على الصمود ضعيفة، وبالتالي كان طبيعياً أن ينجح الفرنسيون في احتلال الجزائر، فقد انفرد الدّاي بالسلطة، واعتمد على مجموعة صغيرة من الجند والأقرباء الذين كانوا في حاشيته وفي خدمته، وحدث تهميش في عهده لأبناء الجزائر، فكانوا يعيشون في عزلة كبيرة، مبعدين عن إدارة الحكم في البلاد، كما أن سقوط حكومته بسهولة وسرعة فائقة، يعود إلى عدم وجود جيش قوي له قيادة حكيمة وواعية على ما كان عليه الحال في عهد خير الدين بربروس ومن بعده، كما أن الدّاي كان مهتماً بجمع الأموال والثروات، ولم يستعد لمثل هذا اليوم العصيب، وكان يعتقد بأن الجزائر محصنة، وأن جيشه التقليدي الذي لا يتجاوز ستة الاف جندي تركي قادر على مواجهة الفرنسيين في حالة هجومهم على موانئ الجزائر[2].

وكانت فرنسا قد أعدت العدة وقررت غزو الجزائر منذ يناير (1830م)، وشكلت ثلاث لجان للإعداد للحملة التي قررت أن يكون الإنزال لها في سيدي فرج، وفي (7 شباط . فبراير) أصدر الملك شارل العاشر مرسوماً ملكياً يعلن التعبئة العامة، وأعلن في خطاب العرش: أن الحملة انتقام

---

[1] تاريخ العرب الحديث ص 224 .
[2] التاريخ السياسي ص 90 .

للشرف الفرنسي، وأنها حملة مسيحية على بلاد المسلمين المتوحشين وأنها خدمة للعالم المسيحي.

وصل عدد جنود الحملة (37000) جندي، وعدد الخيول (45000)، و(91) مدفعاً و(600) سفينة منها (103) حربية، وكانت السفن شراعية باستثناء عدد لا يتجاوز أصابع اليدين كانت بخارية، وقد نظمت هذه القوات في ثلاث فرق مشاة، وكتيبتين من الفرسان، وبطاريات من مدفعية الميدان والحصار، كما نظم الأسطول في ثلاث أساطيل أسطول سفن الإنزال، وثالث يتألف من سفن النقل التي تحمل من الذخيرة ما يكفي الجيش لمدة ثلاثة أشهر.

ثالثاً: تحرك الأساطيل الفرنسية:

غادرت أساطيل الحملة طولون يوم (25 أيار ـ مايو 1830م)، وبعد أيام وصلت أمام مدينة الجزائر، وأمام نشاط الرياح قرر أميرال الأسطول عدم الرسوّ والعودة نحو الشمال، وفي ذهنه الإفراط في تذكر النكبات التي أصابت الأساطيل الأوروبية أمام هذه المدينة، خاصة أسطول شارل كوينت الإسباني ـ مثلما ذكر المارشال ماكماهون في مذكراته. ولقد سخط قائد الحملة الجنرال بورمون وكاد أن يأمر الأميرال بعدم الانسحاب، لكنه خشي إحداث شقاق بين القوات البرية والبحرية. وفي أثناء مناورة أسطول الحملة هذه وفي وسط المسافة بين الساحل الجزائري وجزر البليار شوهدت بارجتان حربيتان تركيتان تتجهان نحو سفينة القيادة الفرنسية، واقتربتا منها وتوقفتا وصعد ضابط تركي واجتمع بالجنرال بورمون حيث عرض عليه رسالة من الخلافة العثمانية تطلب فيها التوقف عن غزو الجزائر مقابل التزامها بسحب الدّاي حسين وتقديم التعويضات اللازمة لفرنسا، ورفض بورمون هذا العرض

التركي، وكانت الخلافة العثمانية في وضع ضعيف واقعة تحت رحمة السيطرة الأوروبية بسبب الصراع بينها وبين محمد علي والي مصر[1].

وبعد رسوّ الأسطول في جزر البليار أياماً، توجه مرة ثانية للجنوب، ووصل أمام مدينة الجزائر يوم (13 يونيو ـ حزيران). وبعد أن قام بمناورة استعراضية توجه إلى سيدي فرج، وفي الساعة الثانية صباحاً من يوم (14) هبطت الفرقة الأولى مشاة وعلى رأسها الجنرال بيرتوزان، وقبل نزول الفرقة قام الأسطول بتوجيه أول طلقات مدفعيته إلى مئذنة مسجد سيدي فرج فدمرتها، وفسر ذلك بأن هذه رسالة موجهة للجزائر وللعالم بأن الغزو هو غزو صليب للهلال. وجرى الإنزال بدون مقاومة كبيرة، وقامت هذه القوات بإقامة معسكراتها وتحصينها، ثم تقدمت نحو الجزائر، وما كادت هذه القوات تستقر على الأرض حتى هوت عليها قذائف مدفعية السواحل القليلة التي كانت منصوبة في سيدي فرج، فبعثرت قذائفها أشلاء مجموعة من جنود العدو ونشرت أجسادها في الفضاء، واستمر قصف المدفعية الجزائرية نصف ساعة ؛ مما دفع قوات الاحتلال إلى التقهقر، وبعدها تمكنت القوات الغازية من إخماد هذه البطارية التي قاوم مدفعيوها الشجعان إلى أن استشهدوا.

وفي (18) حزيران ـ يونيو هاجمت قوات الاحتلال الجيش الجزائري الذي كان يرابط في خط دفاع أول بستاويلي، وكانت القوات الجزائرية بقيادة نسيب الدّاي إبراهيم اغا يساعده باي قسنطينة أحمد باي، وكان تعداده ستة الاف جندي متواضعي التسليح والتدريب. وبالرغم من ذلك فقد شن الجيش على قوات الاحتلال هجوماً عاماً يوم (19 يونيو ـ حزيران)، ودارت معركة شديدة أسفرت عن انهزام الجيش الجزائري الذي كان يعتمد على

[1] الجزائر في التاريخ ، عثمان سعدي ص 447 .

خفـة الحركـة والكـر والفـر، ويسـتعمل بنـادق عتيقـة ويعتمـد أساسـاً علـى استعمال السيوف، في الوقت الـذي كـان فيـه الفرنسيون يعتمـدون علـى جـيش مـنظم ونـيران كثيفـة وتسـليح حـديث، وطـوابير ثابتـة تتقـدم متلاحمـة تصـد هجمـات الفرسـان الجزائـريين وتشـتت شملهـم في خطـة محكمـة، وانسحب الاغـا إبـراهيم مـن سـتاويلي وقـام بعمـل عراقيـل لقـوات العـدو، تاركـاً في أرض المعركـة (2700) خيمـة منهـا خيمتـه، و(60) جمـلاً نحرهـا الفرنسيون وأكلوا لحومها.

ويقـول حمـدان خوجـة في كتابـه المـرأة: دخـل إبـراهيم اغـا الحـرب بـلا جـيش مـدرب مـنظم، ودون ذخـائر، ودون مـواد غذائيـة، ودون شـعير للخيـل، ودون أي كفاءة للقيام بالحرب، لقد أعطى كل جندي طلقتين اثنتين فقط.

ويقـول الجنـرال بيرتـوزان: إن الرمـاة الجزائـريين يحسـنون الرمايـة أفضـل منـا، وكـان رأي أحمـد باي تجنـبَ حـرب المواجهـة أمـام الجـيش الفرنسـي القـوي والمسـلح، وتشـكيلَ المقـاتلين الجزائـريين في مجموعـات وتوزيعهـا علـى طـول الطريـق بـين سـيدي فـرج والجزائـر، لكـن الاغـا إبـراهيم البعيـد عـن الكفـاءة لم يسـتمع إليـه، كـان أكـبر خطـأ ارتكبـه الـدّاي عـزل الاغـا يحـي الكـفء مـن قيـادة الجـيش وتعيين إبراهيم لا لشيء إلا لأنه صهره[1].

بعـد هزيمـة سـتاويلي هـرب إبـراهيم مـن الميـدان واختفـى في منـزل ريفـي، وأرسـل لـه الـدّاي حمـدان خوجـة فأقنعـه بالعـودة لقيـادة الجـيش، فعـاد، لكنـه هـرب مـرة أخرى عندما وصل العدو لسيدي خالف.

وفي يـوم (22) تقـدمت قـوات العـدو نحـو سـيدي خـالف، وتصـورت أنهـا لـن تلاقـي مقاومـة، لكنهـا فوجئـت بقـوة يقودهـا القائـد الشـجاع مصـطفى بـو

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 448 .

مـزراق والي تيطـري تمكنـت مـن إلحـاق خسـائر مهمـة بالعـدو قبـل أن تنسـحب نحو العاصمة.

وأمـام هـذه المقاومـة الـتي تعتمـد علـى الشـجاعة قـرر الجنـرال بورمـون قائـد الحملـة انتظـار تعزيـزات وصـلت يـوم (25) مـن الشـهر، ثم أمـر بالتقـدم نحـو مدينـة الجزائـر يـوم (29 يونيـو ـ حزيـران) قاصـداً قلعـة السـلطان، وفقـاً للخريطـة الـتي سـبق أن أعـدها الجاسـوس العقيـد بـوتان في عهـد نابليـون، لكـن قواتـه ضـلت طريقهـا، فقـد شـاهدت بحـيرة مـن المـاء تصـورت أنهـا البحـر، فـأمر بورمـون سـائر القطاعـات التوقـف والتوجـه نحـو المـاء، فانـدفعت الفرقـة الثانيـة، لتجـد نفسـها تغـوص في وهـاد صـعبة ؛ ممـا كلـف ذلـك قائـد الفرقـة الجنـرال لـوفيردو جهـداً وسـاعات مـن أجـل السـيطرة علـى الموقـف، والخـروج مـن وهـاد ووديان وغـابات بوزريعـة، وإخـراج قواتـه مـن الفوضـى العارمـة الـتي وقعـت فيهـا كونهـا تاهـت عـن الطريـق وانحرفـت شمـالاً، ولم يسـتغلها الجزائريـون الـذين كـانوا فاقـدي القيـادة العسـكرية والكفـاءة، وقـال المارشـال ماكمـاهون في مذكراتـه: ولـو أتـيح للجنـود الأتـراك الـذين يعسـكرون علـى طريـق الميـنـاء الحقيقـي أن يهـاجموا الفرقـة الثانيـة أثناء ضلالها لكبدوها خسائر فادحة[1].

وانتظـرت قـوات الاحـتلال التحـاق قطـع الأسـطول مـن سـيدي فـرج، وقامـت القطـع الحربيـة بقصـف مرابطـي مدفعيـة المدينـة وتمكنـت مـن فـتح ثغـرات فيهـا، وعنـدها أمـر بورمـون بالتقـدم يـوم (3 تمـوز ـ يوليـو)، ووصـلت القـوات الغازيـة خـط الـدفاع الأول المتمثـل في بـرج مـولاي حسـن، وحفـر الفرنسـيون الخنـادق وراحـوا يهـاجمون الـبرج الـذي كـان يقـوده قائـد فاشـل أيضـاً هـو الخزناجـي، وقـاوم الجزائريـون مقاومـة شرسـة، لكـن النـيران تسـربت إلى مخـزن البـارود الصـغير

[1] الجزائر في التاريخ ص 449 .

بالـبرج، فأحـدثت انفجـاراً مهـولاً دمـر جـزءاً مـن القلعـة، اسـتغله الفرنسـيون فاحتلوهـا بعـد أن تكبـدوا خسـائر كبـيرة، تم كـل ذلـك في سـاعات وصـاروا يهـددون المدينـة مـن هـذه القلعـة وتحصـيناتها المشـرفة علـى القصـبة، بعـد أن نصـبوا عليهـا مـدافعهم ووجهـوا فوهاتهـا نحـو المدينـة، ومـن البحـر كـان الأسـطول الفرنسـي يصـوب مدافعـه للمدينـة. واقتنـع باي تيطـري مصـطفى بـو مـزراق أن لا أمل في المقاومة فانسحب إلى ولايته[1].

1 . سقوط مدينة الجزائر واستسلام الدّاي:

لما تأكـد نـزول الجيـش الفرنسـي سـيدي فـرج يـوم (14 جـوان 1830م)، وبـدأ يسـتعد لكـي يزحـف علـى الجزائـر العاصـمة مـن الغـرب، شـعر حـاكم الجزائـر الـدّاي حسـين بالخـوف علـى نفسـه وعلـى سـلطته، وقـرر أن يجتمـع برؤسـاء الهيئـات المهنيـة الموجـودة في المدينـة وأعيـان الـبلاد وشـيوخ القبائـل والعلمـاء ورجـال القـانون ؛ لاسـتعراض الوضـع الخطـير الـذي الـت إليـه المدينـة، والتوصـل إلى وسـيلة تحقيـق السـلامة، وقـال لهـم حسـب شـاهد عيـان: أصـدقائي لا تتحرجـوا وقولـوا رأيكـم بصـراحة، ففـي مثـل هـذه الظـروف يجـب أن نتـداول أنجـع الوسـائل، ولسـت إلا واحـداً مـنكم، فمـاذا تـرون؟ هـل مـن الممكـن أن نقـاوم الفرنسـيين مـدة أطـول؟ أم هـل يجـب أن نسـلم المدينـة بمعاهـدة تسـمى «استسـلام». وبمـا أن كـلام الـدّاي غـامض ولا أحـد يعـرف مـاذا يريـد مـن أعيـان المدينـة، فقـد أجـابوه بأسـلوب مماثـل وكـان ردهـم الاتي: سـنحارب إلى أن نستشـهد عـن اخـرنا، ومـع ذلـك فـإذا فضـل سموكم وسـائل أخـرى فإنـه حـرّ في أن يعمـل مـا يـراه صـالحاً وسـيجدنا عنـد إرادتـه[2]. وفي الحقيقـة إن إشـارة الـدّاي إلى قبـول الاستسـلام للفرنسـيين وتسـليم المدينـة حسـب نصـوص

---

[1] المصدر نفسه ص 450 .
[2] المصدر نفسه ص 450 .

معاهدة بعينها معهم تدل دلالة واضحة على قناعته بأنه غير قادر على المقاومة، وأن انهيار حكومته هي مسألة وقت فقط. والمؤرخون الذين عايشوا الدّاي وتعرفوا على ما يجري في الأوساط المحيطة به أكدوا بأن الصراع الذي كان يدور بين معاونيه منذ مدة مهّد الطريق للاحتلال الفرنسي بسرعة فائقة[1].

وعندما أحس الدّاي حسين أن المدينة صارت في حكم الساقطة، قرر الاتصال بالفرنسيين فأرسل أحد أمناء سره لمفاوضتهم، بعد أن حاول توسيط القنصل البريطاني الذي رفضه الفرنسيون، وأبلغوا الدّاي بتسليم المدينة بلا قيد ولا شرط، ووصل شخصان كرسولين وقابلا الجنرال بورمون وعرضا عليه تعويضات سخية تقدم له مع الاعتذار مقابل عودة الجيش الفرنسي، ويروي الفرنسيون أنه عندما رفض طلبهما صاح أحدهما قائلاً: إذا كان يسرك يا جنرال أن ترى رأس الدّاي بين يديك فإنني سأذهب الان للعودة به إليك في طبق. لكن الجنرال اكتفى بإعادة شروطه على الرسولين والمتمثلة في الاستسلام بلا شرط، وأرسل الجنرال بورمون إلى الدّاي نص المعاهدة الاتية:

ـ تسلم قلعة القصبة وكل القلاع الأخرى المتصلة بالمدينة وميناء هذه المدينة إلى الجيش الفرنسي هذا الصباح الساعة العاشرة.

ـ يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي أمام سعادة باشا الجزائر أن يترك له الحرية وكل أمواله الشخصية.

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ، د. عمار بو حوش ص 91 .

ـ يكـون الباشـا حـراً في أن يتوجـه هـو وأسـرته وثروتـه الخاصـة إلى المكـان الـذي يختـاره، وإذا فضـل البقـاء بالجزائـر فلـه ذلـك هـو وأسـرته تحـت حمايـة القائـد العـام للجيش الفرنسي الذي سيعين له حرساً لضمان أمنه الشخصي وأمن أسرته.

ـ يتعهـد القائـد العـام أن يقـدم لكـل الجنـود الانكشـارية نفـس المعاملـة ونفـس الحماية.

ـ سـيظل العمـل بالـدين الإسـلامي حـراً، كمـا أن حريـة السـكان مهمـا كانـت طبقـاتهم ودياناتهـم وأملاكهـم وتجـارتهم وصـناعتهم لـن يلحقهـا أي ضـرر، وسـتكون نسـاؤهم محـل احـترام، ويلتـزم القائـد العـام علـى ذلـك بشـرفه، وسـيتم تبـادل وثائـق هـذا الاتفـاق قبـل السـاعة العاشـرة مـن هـذا الصـباح، وسـيدخل الجـيش الفرنسـي حـالاً بعـد ذلـك إلى القصـبة وكـل القـلاع حـول المدينـة والميناء.

وقـدم بورمـون المعاهـدة في إطـار أمـر ينفـذ مـن طـرف الـدّاي دون مناقشـة بنوده.

ووقـع الـدّاي في أثنـاء الليـل المعاهـدة الـتي هـي عبـارة عـن شـروط استسـلام، وسلمت المدينة فعلاً صباح (5 تموز ـ يوليو 1830م)[1].

وفي يـوم (6 جويليـة 1830م) دخـل الجنـود الفرنسـيون مدينـة الجزائـر مـن البـاب الجديـد بأعلـى المدينـة، وأنزلـت أعـلام دولـة الـدّاي مـن جميـع القـلاع والأبـراج، وارتفعـت في مكانهـا رايات الاحـتلال الفرنسـي، وأقيمـت صـلاة للمسـيحيين، وخطـب فيهـا كبـير قساوسـة الحملـة، فقـال مخاطبـاً قائـد الحملـة الفرنسية: لقد فتحت باباً للمسيحية على شاطئ إفريقيا[2].

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 451 .
[2] التاريخ السياسي للجزائر ص 100 .

ودخل الجنرال بورمون المدينة وسكن أحد قصورها، وبعد أيام أمر بورمون الجنرال بيرتوزان بإحصاء محتويات خزينة الدولة الجزائرية التي سلم الدّاي مفاتيحها لبورمون مع وثيقة الاستسلام، ويروي المارشال ماكماهون الذي رافق الجنرال للخزنة كضابط صغير: كانت الخزينة عبارة عن حجرة تبلغ مساحتها ستة أمتار في خمسة، في أقصاها سياج من خشب البلوط يبلغ ارتفاعه مترين، كدست بينه وبين جدار الغرفة نقود فضية من كل نوع، وعلى اليمين صندوق كبير فيه نقود من الذهب لاسيما النوع الإسباني، وعلى الأرض ثلاثة أقراص صغار أو أربعة من الذهب، وقدر هذا الكنز بما يعادل ثمانين مليون فرنكاً، وهو مبلغ يفوق تكاليف الحملة التي قدرت بـ (43) مليون فرنكاً، ويبدو أن الخزينة كانت تحتوي على مبالغ أكثر نهبها الضباط بعد أن أحرقوا سجلات الخزينة، حيث إن المبلغ الذي سجل نهائياً كان لا يعدو (48) مليون فرنكاً.

ومن الغريب أن الدّاي لم يتصرف بحكمة، فيقوم بتهريب أموال الخزينة نحو قسنطينة، حيث ستكون في عونه وقتما قرر المقاومة.

وقد طلب حسين باشا من بورمون إعطاءه ماله الخاص المتنقل في ثلاثين ألف قطعة ذهبية[1]. وأثنى القائد الفرنسي على مشاعر الدّاي الإنسانية لحقن الدماء بإبرامه هذه المعاهدة السلمية لتسليم مدينة الجزائر[2].

وفي يوم (10 جويلية 1830م) رحل الدّاي عن مدينة الجزائر وتوجه إلى نابولي بإيطاليا، ثم التحق بفرنسا، وأخيراً توجه إلى الإسكندرية بصحبة حريمه وأتباعه وحمل معه خزينته الخصوصية، وكان بها نحو تسعة ملايين

[1] الجزائر في التاريخ ص 352 .
[2] تاريخ العرب الحديث ص 229 .

فرنك وكميات من المجوهرات، والتقى بمحمد علي باشا حاكم مصر ولم يحسن الترحيب به[1].

وقام بمصر حتى وافته المنية بالإسكندرية سنة (1834م). وبعزل الدّاي من طرف الجيش الفرنسي وجبره على الاستسلام، انتهى العهد التركي بالجزائر الذي دام (326) سنة[2]. واستقبل سكان مدينة الجزائر هذا الاستسلام بحزن، وحمل الكثير منهم أمتعتهم وغادروها نحو قسنطينة رافضين الإقامة تحت حكم النصارى.

وأما أحمد باي ؛ فبعد سقوط قلعة مولاي حسن انسحب مع فرسانه إلى وادي القلعة، ثم إلى عين الرباط موقع مستشفى مصطفى باشا الان، ثم تقدم شرقاً نحو قسنطينة، وانضم إليه (1600) شخصاً هربوا من الجيش، وفي الطريق اتصل به بورمون وعرض عليه أن يبقى كما هو إذا قبل دفع أتاوة لفرنسا، فلم يجب على عرضه، وواصل سيره الذي استغرق (22) يوماً إلى أن وصل إلى الحامة ضاحية قسنطينة، فوجد أن بعض خصومه الأتراك بايعوا باياً مكانه اسمه حمود شاكر، لكن أنصار الحاج أحمد عندما علموا بوصوله قادوا حركة تحت قيادة خليفته ابن عيسى وبعض العلماء، فقام الانقلابيون بقتل مرشحهم وإعلانهم الولاء للحاج أحمد[3].

2. الأخطاء التي وقع فيها الدّاي حسين حاكم الجزائر:

ارتكب الدّاي حسين أخطاء فادحة كلفته فقدان نفوذه وسلطته في الجزائر ومن أهم هذه الأخطاء:

1 المصدر نفسه ص 229 .
2 التاريخ السياسي للجزائر ص 100 .
3 الجزائر في التاريخ ص 453 .

أ. إعدامه لقائد الجيش:

كانت الغلطة التي ارتكبها الدّاي، وكلفته فقدان نفوذه وسلطته في الجزائر، هي إقدامه على إعدام قائد جيشه البارع الاغا يحيى، الذي شغل هذا المنصب مدة (12) سنة في عهد الدّاي حسين، فقد كان هذا القائد من أكفأ القادة العسكريين في عهد الدايات، وهو الذي دعم سلطة أحمد باي في شرق البلاد، وحظي بمحبة الجنود العرب والقبائل، لكن الخزناجي وزير مالية الدّاي غار منه وخشي أن يكون داياً في يوم من الأيام، فقدَّم تقارير كاذبة إلى الدّاي اتهم فيها الاغا يحيى بأنه ينوي القيام بانقلاب ضده، وأنه وعد بعض الأشخاص بإسناد مناصب وزارية إليهم في حالة نجاح خطته الانقلابية، فاغتاظ الدّاي وأمر بنفي قائد الجيش واستبداله بصهره إبراهيم الذي لا يفهم شيئاً في فن الحرب أو قيادة الجيش، وخوفاً من اكتشاف خيوط المؤامرة وعودة الاغا يحيى إلى قيادة الجيش أو إلى الحكم، قام المتآمرون بتوجيه تهمة أخرى إلى الاغا يحيى، وأخبروا الدّاي بأنه يتصل برؤساء العرب والقبائل الذين يزورونه ليلاً في منفاه بالبليدة. كما أكد الخزناجي وجماعته في تقاريرهم المزيفة للدّاي بأن الاغا يحيى يعقد الاجتماعات في بيته، ويعد خطة لمهاجمة الجزائر والاستيلاء على السلطة وتعيين نفسه رئيساً للحكومة، وأقنع الدّاي بأن القائد يحيى خائن. فأمر بإعدامه سنة (1827م). وابتداء من ذلك اليوم وإلى يوم (5 جويلية 1830م) بقي الجيش بدون قائد حقيقي، لأن صهر الدّاي إبراهيم الذي أسند إليه هذا المنصب لم يكن يفقه شيئاً في فن الحرب.

ولهذا فإن تعيين الاغا إبراهيم على رأس الجيش قد مهد الطريق للاحتلال الفرنسي، فالقائد الجديد لم يتخذ أية إجراءات محددة لمواجهة الغزاة الفرنسيين، وإنما قام بتصوير خطة تقضي بإعطاء أوامر للقبائل العربية الذين

سيكونون بجانبه لكي يطوق الجنود الفرنسيين ويقضي عليهم، ونسي هذا القائد أن مجيء القبائل العربية يتطلب وقتاً طويلاً، وأن الخيالة العرب يسكنون في أماكن بعيدة عن العاصمة، ومن الصعب الاتصال بهم بسرعة[1].

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا بأن المجموعة القليلة من القبائل العربية التي وصلت إلى الجزائر العاصمة لم تكن لديهم المؤونة والذخيرة، ولم يكن في إمكانهم شراء ذلك على نفقاتهم الخاصة، لذلك كانوا يعودون من حيث أتوا ويتركون اغا إبراهيم وحده، وبإيجاز فإن الدّاي الذي كان على علم مسبق بخطة الفرنسيين القاضية بالدخول من ميناء سيدي فرج، لم يأمر قائد جيشه بحفر الخنادق أو نصب المدافع هناك والتصدي للأعداء بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض الجزائر. وفي اليوم الذي نزل فيه الجيش الفرنسي من بوارجه الحربية لم يكن بسيدي فرج سوى (12) مدفعاً و(300) فارساً تحت تصرف صهره إبراهيم، وعندما وقعت معركة ستاويلي وانهزم فيها إبراهيم اغا وجماعته، غادر المعسكر وترك جيشه واختفى في دار ريفية مع ثلاثة أو أربعة من جنوده، وفي هذه الأثناء قرر الدّاي أن يطلب من المفتي «شيخ الإسلام» أن يتولى تجنيد الناس، وأن يقوم بجمع الشعب للدفاع عن البلاد، ولكن لسوء الحظ كان الأوان قد فات، كما أن شيخ الإسلام رجل عادل فاضل، لكنه بعيد عن أن يكون محارباً، وفي هذه اللحظة الحرجة لم يكن من الممكن أن يقود جيشاً ويصد عدواً، ونتيجة لكل هذا فلم يبق إلا تسليم مدينة الجزائر للفرنسيين[2].

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 92 .
[2] التاريخ السياسي للجزائر ص 93 .

ب . ثقة الدّاي حسين في وزير المالية:

والخطأ الثاني الذي وقع فيه الدّاي ؛ ونتج عنه تسهيل عملية احتلال الجزائر يكمن في ثقته العمياء واعتماده على وزير المالية «الخزناجي»، وإرساله للدفاع عن قلعة مولاي حسن «حصن الإمبراطور»، وكان ما يصبو إليه الخزناجي هو أن ينجح في الحصول على تأييد الميليشيا «الانكشارية»، ويتمكن من عزل الدّاي ويستولي على الحكم، ويبدو أن وزير مالية الدّاي كان يهدف إلى التفاوض مع الفرنسيين وإبرام معاهدة حسب شروط فرنسا مقابل الاعتراف بالخزناجي كبديل للدّاي.

وكان الكاتب الخاص للدّاي مصطفى قادري ينتمي إلى جماعة الخزناجي، وعندما أرسله الدّاي حسين لمفاوضة الجنرال بورمون والتفاهم معه بشأن معاهدة الاستسلام كان مصطفى قادري يتفاوض باسم الخزناجي وليس باسم الدّاي، وقد وعد بورمون بأنه سيحمل له رأس الدّاي حسين وأنه مستعد للتفاهم مع فرنسا على ما تشاء، ولكن الجنرال الفرنسي أجاب مصطفى قادري بأنه لم يأت لمساعدة المتآمرين ولكنه جاء لكي يحارب. ونستخلص من هذه الحقائق أن جماعة الدّاي المحيطة به كانت تتامر عليه في الخفاء وتتواطأ مع أعدائه، لذلك كان من الصعب عليه أن ينجح في محاربة فرنسا وصد هجومها على الجزائر[1].

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 94 .

ج . عدم وجود انضباط من بعض رجال الأمن:

والخطأ الثالث الذي ارتكبه الدّاي يتمثل في عدم وجود انضباط في صفوف رجال الأمن، والسماح لبعض العناصر أن تتصل بالعدو، وتنقل معلومات تضليلية من مخابراته وتنشرها في الأوساط الشعبية بالجزائر.

وعلى سبيل المثال: نلاحظ أنه بمجرد إنزال الجنود الفرنسيين بسيدي فرج، قام جزائري يدعى أحمد بن شعبان بالاتصال بالمعسكر الفرنسي للتعرف على ما إذا كان الفرنسيون قد جاؤوا مستعمرين أو محررين من النفوذ التركي، وانتهز الفرنسيون هذه الفرصة لكي يقنعوه بأنهم جاؤوا كمحررين من المستعمرين الأتراك، وزودوه في الوقت نفسه بنسخ من البيان الفرنسي الذي حملوه معهم من فرنسا، وهو مطبوع باللغة العربية، وأوضحوا فيه أن الفرنسيين جاؤوا إلى الجزائر للانتقام لشرفهم من الباشا أو الدّاي، وأن الفرنسيين سيعاملون الجزائريين كما عاملوا إخوانهم المصريين من قبل، وبطبيعة الحال فإن نقل هذه المعلومات المضللة إلى الأوساط الشعبية في الجزائر يعتبر خدمة للعدو الفرنسي وتثبيطاً لعزائم كل الجزائريين الذين كانوا يرغبون في مواصلة النضال والدفاع عن البلاد[1].

د . عدم وجود خطة مدروسة لمواجهة الفرنسيين:

والخطأ الرابع الذي ارتكبه الدّاي وجماعته أنهم لم يضعوا خطة مدروسة لمواجهة الفرنسيين، ولم توجد القيادة التي تستعين بآراء الخبراء ويتفق أعضاؤها على خطة دقيقة، فقد ادعى الدّاي أنه يعرف مكان نزول الفرنسيين بسيدي فرج لأن جواسيسه في فرنسا ومالطة وجبل طارق قد زودوه بكل التفاصيل عن خطة فرنسا، لكن المجلس الذي عقد لتحديد

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 94 .

خطة معينة للدفاع عن البلاد وشارك فيه الاغا إبراهيم قائد الجيش وصهر الدّاي، ومصطفى باي التيطري، وخوجة الخيل، وخليفة باي العرب، وحمدان بن عثمان خوجة ؛ لم يتمكن من وضع استراتيجية دقيقة لمواجهة الجيش الفرنسي. واستناداً إلى ما قاله أحد أعضاء هذا المجلس وهو حمدان بن عثمان خوجة، فإن الاجتماع الذي عقد بمكان قرب سيدي فرج تمخض عن بروز اراء متضاربة: فقائد الجيش الاغا إبراهيم الذي افتتح الاجتماع كان يرى أنه يجب بناء حصون على شاطئ البحر وتزويدها بمدافع قوية حتى تمنع الفرنسيين من النزول. وقال حمدان بن عثمان خوجة للآغا إبراهيم: إنه إذا وضعنا كل أملنا في إقامة التراسين والحصون فإنكم لن تنتصروا ؛ لأن نيران المراكب الفرنسية ستقضي على هذه المنجزات المقامة بسرعة وتكون أعمالكم قد ذهبت سدى، ثم إنكم لن تتمكنوا من تسليح الحصون دون تعرية مدينة الجزائر التي ينبغي أن تهتموا كل الاهتمام بالدفاع عنها، ولاحظ باي قسنطينة بأنه من الصعب على الجزائريين أن يتمركزوا في موقع واحد ويتغلبوا على الجيش الفرنسي، وليس من الحكمة أن تجمع القوات الجزائرية في نقطة واحدة، ومن الأفضل أن توزع بحيث ينقل جزء منها إلى غرب سيدي فرج، فإن قرر الفرنسيون ملاحقة الجزائريين فإنهم يبتعدون عن هدفهم الذي هو مدينة الجزائر، وسيكون ذلك لصالح الجزائر، لأن الجيش الجزائري سيبدأهم بالهجوم، وإذا قصد الفرنسيون مدينة الجزائر فإن الجيش الجزائري سيهاجمهم من الخلف وينتصر عليهم.

كما اقترح باي قسنطينة أن يتولى كل قائد الإشراف على وحدة من وحدات الجيش، ويكون مقر القيادة هو مدينة الدار البيضاء، وكانت إجابة الاغا إبراهيم على ملاحظات باي قسنطينة جافة وقاسية حيث قال له:

إنكم لا تعرفون التكتيك الأوروبي الذي يتعارض كل المعارضة مع تكتيك العرب.

وهكذا باءت كل مجهودات الجزائريين لوضع خطة دقيقة لمجابهة العدو الفرنسي، إضافة إلى أن الاغا إبراهيم جاء ليحارب فرنسا دون جيش منظم ودون ذخيرة ودون مؤونة ودون شعير للخيل ودون المقدرة الضرورية على مواجهة الحرب[1].

وأما بالنسبة للجانب الفرنسي، فإن الأوروبيين قد جاؤوا وفي حوزتهم الخطة التي رسمها الضابط الفرنسي «بوتان» يوم (24 ماي 1808م) لاحتلال الجزائر.

3. الحرب النفسية والإعلامية الفرنسية:

عشية مغادرة الأسطول الفرنسي لميناء طولون لشن الحرب على الجزائر، قامت الحكومة الفرنسية بطبع منشور باللغة العربية، لكي يتم توزيعه على الجزائريين وأبناء الأتراك قبل دخول الأراضي الجزائرية، وتوضيح وجهة النظر الفرنسية بالنسبة لهذا الغزو الأوروبي لأرض إسلامية.

وقد جاء هذا البيان بمثابة خطة لخلق البلبلة في صفوف الجزائريين، وإعطائهم انطباعاً أن الفرنسيين جاؤوا لتخليص الجزائريين من السيطرة التركية، وبذلك يتضامنون مع فرنسا ولا يتصدون لها، وتظهر هذه الحقائق من خلال البيان الذي جاء فيه:

إننا نحن أصدقاؤكم الفرنسيين نتوجه الان نحو مدينة الجزائر، إننا ذاهبون لكي نطرد الأتراك من هناك.

---

[1] المصدر نفسه ص 96 .

إن الأتـراك هـم أعـداؤكم وطغـاتكم، الـذين يتجـبرون علـيكم ويضـطهدونكم، والــذين يســرقون أملاككــم وإنتــاج أراضــيكم، والــذين يهــددون حيــاتكم باستمرار.

إننـا لـن نأخـذ المدينـة مـنهم لكـي نكـون سـادة عليهـا، إننـا نقسـم علـى ذلـك بــدمائنا، وإذا انضــممتم إلينــا وإذا بــرهنتم علــى أنكــم جــديرون بحمايتنــا فسـيكون الحكـم في أيـديكم كمـا كـان في السـابق، وسـتكونون سـادة مسـتقلين في وطنكم.

إن الفرنســيين ســيعاملونكم كمــا عــاملوا المصــريين إخــوانكم الأعــزاء الــذين لم يفتـؤوا يفكـرون فينـا ويتأسـفون علـى فراقنـا طـوال الثلاثـين سـنة الماضـية، منـذ أخرجــونا مــن بلادهــم، والــذين مــازالوا يرســلون أبنــاءهم إلى فرنســا ليتعلمــوا القــراءة والكتابــة وكــل فــن وحرفــة مفيــدة، ونحــن نعــدكم باحــترام نقــودكم وبضــائعكم وديــنكم المقــدس، لأن ملــك فرنســا المعظــم حــامي وطننــا المحبــوب يحمـي كـل ديـن، فـإذا كنـتم لا تثقـون في كلمتنـا وفي قـوة سـلاحنا فابتعـدوا عـن طريقنا، ولا تنضموا إلى الأتراك الذين هم أعداؤنا وأعداؤكم، فابقوا هادئين.

إن الفرنسيين ليسوا في حاجة إلى مساعدة لضرب وطرد الأتراك.

إن الفرنســيين لكــم وســيظلون أصــدقاءكم المخلصــين، فتعــالوا إلينــا وســنكون مســروين بكــم، وســيكون ذلــك فرصــة لكــم، وإذا أحضــرتم إلينــا الأطعمــة والأغذيــة والأبقــار والأغنــام فســندفع ثمــن ذلــك بســعر الســوق، وإذا كنــتم خــائفين مــن ســلاحنا فأشــيروا علينــا بالمكــان الــذي يقــابلكم فيــه جنــودنا المخلصــون دون ســلاح مــزودين بالنقــود في مقابــل التمــوين الــذي تأتــون بــه،

وهكذا يحل السلام بينكم وبيننا لمصلحتكم ومصلحتنا[1].

وكان لهذا البيان وبيانات أخرى وزعت في الجزائر الأثر الكبير في نفوس وجهاء مدينة الجزائر، الذين كانوا يقولون: لا ينبغي لنا أن نعرض العاهل ولا سكان المدينة إلى أخطار محققة باستعمالنا وسائل الشدة والعنف[2].

وقد تحطمت معنويات التجار والمحاربين في الجزائر بمجرد استيلاء بورمون على حصن الإمبراطور، وتأهبه لكي يزحف على العاصمة بجيوشه الكبيرة.

كان رجال التجارة والرأسماليون يميلون إلى الاستسلام ؛ لأن الجزائر ضائعة لا محالة، ولو دخل الفرنسيون بالقوة على إثر هجوم ؛ فإنهم سينهبون المدينة ويقتلون جميع السكان والنساء والأطفال العزل، وكان تبريرهم لقبول فكرة تسليم المدينة إلى الفرنسيين وفقا لمعاهدة «استسلام» هو أن أمة شريفة مثل فرنسا لا تنكث بعهودها، وأننا سنتمتع بحريتنا ونعامل بكل عدل، وبقطع النظر عن كون زيد أو عمرو هو الذي يحكمنا، فإن المهم هو أن نحكم كما ينبغي وفقاً لمبادئ الحكومة الفرنسية، وأن لا تمس ديانتنا، ومن جهة أخرى فإن عماد الحضارة هي حقوق الإنسان ولذلك فإننا لا نخشى شيئاً من أمة متحضرة. وهذا هو التفكير الذي أدى في نهاية الأمر إلى عدم مقاومة الجيش الفرنسي[3].

وهؤلاء المساكين يبدو أنهم لم تكن لهم علاقة بالذاكرة التاريخية، وماذا فعلت فرنسا لما دخلت مصر، وكيف لجأ القائد الفرنسي كليبر إلى العنف، فدك القاهرة في عام (1800م) بالمدافع من كل جانب وشدد الضرب على حي بولاق، واندلعت ألسنة النيران في كل مكان منه، والتهمت الحرائق عدداً

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 98 .
[2] المصدر نفسه ص 98 .
[3] التاريخ السياسي للجزائر ص 99 .

كبيراً من الوكالات والخانات، فلم يجد سكان بولاق مفراً من التسليم، وتلاهم سكان الأحياء الأخرى، وتولى مشايخ الأزهر الوساطة وأخذوا من كليبر العفو الشامل والأمان، ولكنه ما لبث أن غدر بالمسلمين بعد أن خمدت الثورة، وكان اقتصاصه منهم رهيباً شديداً، فأعدم بعضهم، وفرض غرامات فادحة على كثير من العلماء والأعيان، كما فرض المغارم على أهل القاهرة جميعاً، ولم يستثن منهم الطبقات الشعبية الكادحة[1].

وعهد كليبر إلى المعلم «يعقوب» أن يفعل بالمسلمين ما يشاء، ومما يذكر أن بطريك الأقباط لم يقر يعقوب على تصرفاته وكثيراً ما بذل له النصح بالعدول عن خطته، ولكن يعقوب كان يغلظ له القول، وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه، ولم يزدد إلا إمعاناً في تأييد الفرنسيين[2].

4 . سرقات جيش الاحتلال وتعاون اليهود معه:

أما يهود الجزائر فقد كتب عنهم المؤرخ الفرنسي جوليان: لقد استقبل يهود الجزائر المحتلين بالفرح، وعندما انتشر الجنود الفرنسيون في فوضى ينهبون المنازل ؛ كان اليهود يوجهونهم نحو الأماكن التي بها ما ينهب، ويقومون بشراء ما نهبوا منهم بأبخس الأثمان[3].

أ . قصة هروب اليهود من الاضطهاد الأوروبي:

وهؤلاء اليهود هم «الشيكلين» الذين هربوا من الاضطهاد الأوروبي إلى الجزائر من جزر البليار في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، واليهود «الكيبوسين» من إسبانيا في نهاية القرن الرابع عشر خاصة بعد نهاية دولة

[1] الدولة العثمانية للصلابي ص 366 .
[2] الدولة العثمانية للصلابي ص 366 .
[3] الجزائر في التاريخ ص 453 .

بـني الأحمـر في غرناطـة سـنة (1492م)، ومـن إيطاليـا سـنة (1342م) وسـنة (1350م)، ومــن فرنســا ســنة (1403م)، ومــن هولنــدا ســنة (1350م) ومـن بريطانيـا سـنة (1422م)، فاسـتقبلهم الشـعب الجزائـري بكـرم وأنقـذهم مـن الإبادة في أوروبا، لكـنهم قـابلوا هـذا الإحسـان بالتنكـر للجميـل فانضـموا منذ دخول الفرنسيين لهم ضد مواطنيهم الجزائريين[1].

ب . مداهمة البيوت:

كـان الجنـود يـداهمون المنـازل فيجـردون النسـاء مـن مصـاغهن وملابسـهن الثمينـة، ويجـردون الأطفـال مـن ملابسـهم ومـن السلاسـل الذهبيـة الـتي كانـت مـدلاة في صـدورهم، وقـد شـارك في النهـب ضباط كبـار ممـا جعـل الضـابط «لـوفيردو» يعلـق علـى ذلـك في رسـالة لزوجتـه فقـال: «لم أشـاهد في حيـاتي أحقر مما تم».

ورويت نـوادر عـن هـذا النهـب، فضـابط اسمـه ديمية أصيب بإفـلاس وخسـر كـل ممتلكاته قبـل ذهابـه للجزائـر لكنـه عـاد مـن الجزائـر ثـرياً، وعنـدما سئل مـن أيـن أتـى بهـذا المـال؟ أجـاب: لقـد ورثـت زوجـتي عـن عمهـا سـتة ملايـين فرنكـاً. وعلـق علـى ذلـك الموسـيقار الإيطـالي روسـيني صـاحب أوبـرا الإيطاليـة في الجزائر، فأجابه ساخراً : أنا لا أعلم أن داي الجزائر عم زوجتك[2].

ج . صدمة أعيان الجزائر:

عنـدما دخلـت الجيـوش الفرنسـية مدينـة الجزائـر قـام قائـد الحملـة الفرنسـية بورمـون بطمأنـة أعيـان الجزائـر، وإعطـائهم انطباعـاً أن الجـيش الفرنسـي لـن يبقـى في الجزائـر أكثـر مـن سـتة أشـهر، وأكـد بأن هـذه هـي نيـة الحكومـة، وبأنـه

---

[1] المصدر نفسه 454 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 454 .

عندما يشرع في الجلاء فإنه سيترك البلاد بين أيدي أعيانها وتحت تصرفهم، وكان يقول: إن الجزائر كانت من ممتلكات الباب العالي، وقد أحاط بعض الناس الذين كانوا يطمحون في الوصول إلى الحكم بالمارشال بورمون، وتقربوا إليه وأظهروا له إخلاصاً لا حدود له لمواصلة مشاريعهم الجنونية املين أنهم سيخلفون الفرنسيين فيما بعد[1].

لكن أعيان الجزائر الذين كانوا يشكلون طبقة غنية منحدرة من أهل البلاد ومن مهاجري الأندلس ؛ قد خاب أملهم في الفرنسيين حين أدركوا أن فرنسا جاءت لتبقى، وأن أموالهم وأراضيهم صودرت وأصبحت ملكاً للدولة الجديدة، وأن مساجدهم وزواياهم قد احتلت من طرف الجيش الفرنسي أو تحولت إلى كنائس، وقد اندهشوا حين اكتشفوا أن السلطات الفرنسية تعطي عهد الأمان وتنقضه، وتقوم بعزل وطرد ونفي أولئك الذين قبلوا التعاون مع فرنسا بدعوى عدم القيام بالواجب، أو التآمر لاستعادة الحكم الإسلامي أو الانضمام إلى الثائرين ضدها[2].

وبطبيعة الحال لم تكن لهم قوة كافية لمجابهة الفرنسيين أو وسائل للضغط عليهم، وبالتالي استطاع الفرنسيون أن يشتتوهم بالنفي والمحاكمات، وتسليط الطائفة اليهودية عليهم[3].

د . جشع الفرنسيين:

تأكد جشع الفرنسيين وتهافتهم على الثروة وخيرات الجزائر يوم هرع رجال الجيش الفرنسي إلى ذخائر قصر الدّاي والاستيلاء عليها ثم تهريبها إلى

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 101 .
[2] التاريخ السياسي للجزائر ص 101 .
[3] المصدر نفسه ص 102 .

فرنسا، ويستفاد من بعض المصادر التاريخية أن الفرنسيين قد استولوا على:

. (7) أطنان و(312) كيلو غراماً من الذهب «من قصر الدّاي».

. (108) أطنان و(704) كيلو غراماً من الفضة «من قصر الدّاي».

. (24،700،000) فرنك وهي قيمة الذهب الموجود بالخزينة الجزائرية.

. (80،000،000) فرنك فرنسي من العملات الأجنبية الموجودة بالخزينة.

ونستخلص من بعض الوثائق أن ضباط الحملة الفرنسية اختلسوا لأنفسهم ما قيمته (50) مليون فرنك فرنسي، واكتفوا بتسليم ما يعادل ذلك للحكومة الفرنسية، وأرسلت هذه الأموال والثروات الجزائرية في صناديق خاصة إلى فرنسا على ظهر بواخر فرنسية. وتبلغ قيمة المبلغ الإجمالي لهذه المسروقات (4،868،794،452) فرنكاً فرنسياً[1].

هـ تجريد الجزائريين من أراضيهم:

قرر قادة الجيش الفرنسي انتهاج سياسة احتلال الجزائر، وتجريد الجزائريين من أراضيهم، وقام بهذه العملية الجنرال «كلوزيل»، أول جنرال يعين حاكماً عاماً للجزائر من شهر سبتمبر (1830م إلى غاية فبراير 1831م). ففي هذه الفترة تقرر أن يتم تنحية باي التيطري واقترح على باي تونس أن يعين أحد أشقائه باياً على وهران، واخر يعين باياً على قسنطينة، وبذلك يتعاون معه باي تونس على التخلص من أية مقاومة جزائرية في شرق البلاد أو غربها، كما قام هذا الحاكم العام بمحاولة مع التجار والفلاحين الفرنسيين لإقناعهم بالقدوم إلى الجزائر، والاستيلاء على الأرض وزرع العنب فيها،

[1] المصدر نفسه ص 103 .

والبحث عن الذهب في المناجم الجزائرية.

وعندما باءت هذه المحاولة بالفشل ؛ قرر أن ينتهج سياسة الاستيلاء على الأراضي الجزائرية الخصبة وتسليمها للمهاجرين الأوروبيين، وبذلك تجد الحكومة الفرنسية نفسها مضطرة لاحتلال الجزائر بصفة نهائية وتقديم المساعدة المالية للمستوطنين الفرنسيين بالأرض المحتلة في الجزائر.

ولهذا قام بإصدار قرار في الشهور الأولى من احتلال الجزائر يقضي بتسليم الأراضي للمعمرين، ونتيجة لذلك أصبحت مرسليا زاخرة بالتجارة والأموال المتدفقة عليها من الجزائر، وباختصار فإن ضعف الحكومة الفرنسية وغموض سياستها في الجزائر قد دفع بالمعمرين أن يلتجؤا إلى الدسائس والمؤامرات وطرد أية شخصية مدنية أو عسكرية تحاول الحد من سلطة المستوطنين الأوروبيين أو تسعى لمراقبتهم أو الحد من سيطرتهم، وقد أحرزوا نجاحاً هائلاً في خططهم إلى درجة أنهم استطاعوا شراء أغلب أراضي منتجة في سنوات قليلة، كما أن بعض الموظفين الفرنسيين نالوا مراتب عالية في الإدارة في حين أنهم لو بقوا في فرنسا لن يلتفت إليهم أي أحد، وكان شعار الغزاة والمستعمرين الجدد، أن العربي في نظرهم ما هو إلا حيوان مخلوق وهو ممتلئ بالتعصب الإسلامي، ولا يمكن وقفه عند حده إلا بالقوة[1].

و . احتلال مصحوب بأعمال تدميرية وإجرامية:

سجل كثير من الضباط فظائع جيش الاحتلال، فبيليسية وصف احتلال مدينة الجزائر بقوله: أكثر احتلال تم في فوضى يفوق ما تم في أكثر القرون بربرية هو احتلال الجزائر[2].

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 103 ، 104 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 455 .

وفي رسالة وجهها الجنرال بيرتوزان لوزير الدفاع بتاريخ (1831/10/29م) قال مشخصاً فظائع الاحتلال: عندما جئت إلى هذه الشواطئ نصف المتمدنة فكرت في أن واجبي أن أشرف اسم الفرنسي وحكومة الملك.. إنني اعترف لك بصراحة بأنني أعتقد بأنه لم يحدث في أي زمان من العهد التركي أن مر سكان هذه المناطق بهذا الإنكار للعدالة مثل الذي تحملوه على أيدينا، لم أتمكن من إصلاح هذا الوضع، لأن تفاصيل كثيرة لم أستطع السيطرة عليها بسبب عدم وجود شخص واحد بين مرؤوسيّ له إرادة لجعل العدالة تنتصر، وكم من مرة تملكني الخجل من رؤيتي للأخلاق الفرنسية تتدهور في حضور العالم المتمدن الذي يراقبنا من خلال قناصل دوله، حتى أمام هؤلاء الأفارقة الذين نحتقرهم والذين يتمتعون بروح رفيعة، لقد كتبت لكم مراراً أننا لم نأت هنا إلا لنهب الثروات العمومية والخاصة.

ويصف الضابط بيليسية دو ربينو البؤس الذي صار فيه سكان مدينة الجزائر فيقول: لا يوجد أي واحد يريد أن يتعمق في أسرار هذه الالام، أطفال بؤساء يمدون أيديهم متسولين، وفتيات يائسات في سن الزواج دفعهن الجوع إلى الدعارة، لا أحد يبحث عن أسباب هذه الالام[1].

واعترف «ألكسس دي طوكفيل» في كتاب عنوانه دراسة عن الجزائر بتلك السياسة قائلاً: لقد سمعت مرات عديدة في فرنسا أناساً أحترمهم ولا أوافقهم يستنكرون إحراق المحاصيل وإفراغ المطامير والاستيلاء على رجال دون سلاح وعلى نساء وعلى أطفال، لكن هذه الأعمال ضرورية لأي شعب يريد محاربة العرب.. إن قانون الحرب يرخص لنا تدمير البلد، ونقوم بذلك عن طريق إتلاف المحاصيل، وعن طريق الهجمات التي تسمى

[1] الجزائر في التاريخ ص 456 .

غزوات، والتي تستهدف الاستيلاء على الأشخاص وعلى القطعان.

والمقدم «لوسيان فرانسوا دي مونطانياك» يروي في كتابه رسائل عسكري في الجزائر من عام 1837م إلى 1845م أن المشير «بيجو» صرّح أمام الضباط المجتمعين «إن الحرب التي سنشنها ليست حرباً بالبنادق، ولن نستطيع أن نتغلب نهائياً على العرب إلا عندما ننتزع منهم الموارد التي يمنحها إياهم التراب»[1].

أما المشير «سانت أرنو» فإنه يفتخر في رسائله بأن مروره عبر بلاد القبائل ترك حريقاً واسعاً، بحيث أحرقت كل القرى «وعددها 200 تقريباً»، أحرقت حدائقها وقُطعت أشجار الزيتون فيها.

وكتب العميد «برتيزان» بعد قيادته جيوش الحملة الحربية يناير 1831م إلى 6 ديسمبر 1831م: ما أكثر الأعمال التدميرية والسرقات، لقد حطمت الجيوش كل شيء في ضواحي الجزائر وأحرقت الأشجار ودمرت الديار، فالمسلمون واجهوا مجموعات تعتبر أرذل الناس في البحر المتوسط وأكثرهم فقراً وأسفلهم أخلاقاً.

وقتل المقدم «لوسيان فرانسوا دي مونطانياك» في معركة سيدي إبراهيم في سبتمبر (1847م)، لكنه كاتب قبل موته صديقه قائلاً: هكذا يا صديقي ينبغي أن تقام الحرب ضد العرب، يجب قتل كل الأطفال ونقلهم على متن سفن إلى جزر «ماركيز» أو إلى أماكن أخرى، وبكلمة واحدة يجب قتل كل من لا يركع أمام أرجلنا مثل الكلاب.

وهذا معناه إبادة. ولم يتورع سانت أرنو عن ذكر الكلمة فكتب «هذه هي

---

[1] ثورة الجزائر ، د. بر علام حمودة ص 456 .

الحرب في إفريقيا، نتعصب بدورنا فتتحول إلى حرب إبادة»[1].

ولقد تم تقتيل أولاد رياح في جبال الظاهرة شرق مستغانم، لقد فر السكان إلى مغارات خوفاً من وحشية جيوش العقيد «جان جاك بيليسي»، فأمر بإشعال النار في كل مخارج المغارة، حتى مات بالاختناق ألف شخص رجالاً ونساء وأطفالاً. هذه الجريمة النكراء غطاها رئيس مجلس الوزراء المشير «سولت» مصرحاً: إن فعلاً مثل هذا ينتمي إلى الحرب.

ولم تتخذ عقوبات ضد العقيد بيليسي بل رُقي إلى منصب سفير في بريطانيا العظمى، ثم منصب حاكم عام للجزائر من سنة (1861م) إلى سنة (1864م).

إن تقتيل قبيلة أولاد رياح لم يكن حالة منفردة، فالعقيد بيليسي يُقر للمشير «بيجو» بأنه حذا حذوه ووصف له كيف أشعل النار، وقد فعل «سانت أرنو» في بلاد القبائل مثلما فعل «بيليسي» في جبال الظاهرة، ففي الرسالة المؤرخة في (15 أوت 1845م) يروي أنه كان يحاصر القبيلة ويغلق عليها كل المخارج، ثم يشعل النار فتتحول القرية إلى مقبرة تسع (500) لصاً.

و«الفونس دي لامارتين» الشاعر الذي كان نائباً بالمجلس الوطني تدخل في المداولات قائلاً: من بين (7،000) نسمة «نساء وأطفالاً وشيوخاً وجنوداً عرباً» هل تعلمون عدد الذين وصلوا أحياء إلى الحرّاش؟.. ثلاثة الاف، أما الباقي فإنه مات منهكاً في الطريق.

ويضيف في (15 ماي 1845م): كل الناس الساكنين في قرية بجبال الجرجرة قُتلوا بالسيوف عندما خرجوا للقتال، أما باقي السكان فقد أحرقوا

[1] المصدر نفسه ص 22 ، 23 .

تحت السقوف التي أضرمنا فيها النيران.

ويكتب «دي مونطانياك» يوم (20 ديسمبر 1844م): إن رأس عربي مقطوعاً له تأثير أكثر من موت خمسين شخصاً، ولقد فهمت هذا منذ زمان، فقليلاً ما كان يفلت أحد من يدي.

ويذكر «موريس هيريسون» اذان العرب قيمة كل زوج منها (10) فرنكات، أما النساء فإنهن بقين صيداً مفضلاً.

ويفصّل «دي مونطانياك» الموضوع قائلاً: البعض من النساء يبقين كرهائن والبعض يُبدل بهنّ أحصنة، والبعض الاخر يبعن بالمزايدة مثل الحيوانات، هكذا نفعل بهذا البلد «الجزائر».

وقد ذكر حمدان خوجة في مذكراته منظراً غير إنساني، وهو التفريق بين الأتراك وزوجاتهم الجزائريات وأولادهم، طبقاً لتعاليم المشير «دي بورمون»: إن بعض الجنود الفرنسيين كانوا يحوّلون أنظارهم تأثراً بمشهد إركاب الأتراك بالقوة لإبعادهم من الجزائر وعن الجزائر وعن أسرهم.

ونقل الشاعر المشهور «فكتور هوغو» كلاماً يقال في الصالونات يوم (15 أكتوبر 1852م): ذكر العميد لوفلو أنه في المعارك كان بعض الجنود الفرنسيين يلقون نحو رفاقهم أجساد أطفال يسقطون على حرابهم، وقد كان المسلمون متابعين حتى في المقابر، إذ كانت عظامهم تحرق لصنع فحم العظام، أو كانت تستعمل لتصفية السُكّر[1].

---

[1] المصدر نفسه .

5 . مصادرة الأوقاف الإسلامية:

اهتم كلوزيل مدة حكمه بمشاريع الاستعمار والتنظيم الإداري للجزائر في مجالات شتى: الاقتصادية والعمرانية والتوسيعية، واتضح من خلال المشاريع الأولى أن فرنسا جاءت للبقاء والاستعمار، وليس لتأديب الدّاي حسين كما كان شائعاً، فكان من بين اهتمامات كلوزيل إحصاء الملكيات المختلفة، ولهذا أصدر يوم (8 سبتمبر 1830م) قراراً استهدف حجز أملاك العثمانيين،ثم أوقاف مكة والمدينة وإلحاقها بمصلحة الدومين التي تم إنشاؤها في عهد دي بورمون، وقد حدد هذا القرار التعسفي مهلة ثلاثة أيام لعملية الاستظهار وإثبات الملكية، وأن السلطة ستعاقب كل من تحداها بدون انتظار.

وإذا لم يكن لهذا القرار صدى يذكر في العاصمة باريس ولا ردود فعل من الملك لويس فيليب، الذي كان مهتماً بالمشاكل الداخلية التي خلفتها ثورة جويلية، وبالمشاكل الخارجية، فإن هناك احتجاجات من سكان المدينة عبّر عنها المفتون والعلماء والوكلاء، وبينوا لهذا العسكري أن أملاك مكة والمدينة ليست ملكاً للعثمانيين، وإنما هي من أصول مختلفة، وأن الذين يشرفون عليها . أي الوكلاء . ليسوا عثمانيين بالضرورة، وإنما هم من مدن الجزائر المختلفة.

وأمام هذا الاحتجاج تراجع كلوزيل عن القرار المتعلق بالاستيلاء على أوقاف مكة والمدينة. وقدر بعض القادة العسكريين خطورة بقاء هذه الأوقاف بأيدي أصحابها فهي تساعدهم على القيام بالثورة ضد الاحتلال ؛ فقد ثبت أن معظم الثورات التي كانت ضد المحتل في بداية الاحتلال وطيلة القرن التاسع عشر قد ساهمت الأوقاف الإسلامية فيها.

وبعد ثلاثة أشهر من إصدار القرار الأول أصدر كلوزيل قراراً اخر يوم (7 ديسمبر 1830م) بضم كل الأملاك والأوقاف الدينية «وهي تشمل أوقاف مكة والمدينة والمساجد والزوايا» إلى مصلحة أملاك الدولة . الدومين . وطلب من المفتين والوكلاء أن يقدموا حساباتهم إلى هذه المصلحة الجديدة.

ويذكر هابار بأن هذا القرار كان ضربة للدين والثقافة الإسلامية، لانعكاس اثاره على الحياة الاجتماعية للسكان، فالأوقاف كانت المصدر المالي للتعليم والترقية الاجتماعية.

كانت الأوقاف موجودة في الجزائر كما كانت في بقية البلاد الإسلامية، وهي حبس مال أو أراض ونحو ذلك تصرف منفعته على الفقراء وخدمة الدين والعلم، ولعبت دوراً معتبراً في العهد العثماني، خاصة في مجال التعليم ونشر الثقافة، وهي نوعان: الأوقاف الخاصة أو العائلية والأوقاف العامة، والعامة هي التي تهمنا ويحبسها أهل الخير لأغراض خيرية دينية، مثل التي تخصص للتعليم والعناية بالحج واستصلاح المساجد ومساعدة الأيتام.

وكانت الأوقاف العامة كثيرة بمدينة الجزائر، وقد قدر عددها في الأيام الأولى من الاحتلال (2600) ملكية، وعدد غير قليل في المدن الأخرى كقسنطينة ووهران. ويمكن ترتيب الأوقاف في مدينة الجزائر كما يلي:

. أوقاف مكة والمدينة.

. سبل الخيرات.

. الجامع الكبير.

. الزوايا.

. أوقاف الأندلس.

. الانكشارية.

. المياه.

. الطرق.

وبمقتضى قرار (7 ديسمبر 1830م) أصبحت كل الأوقاف ملكاً للسلطة الاستعمارية أو تابعة لمصلحة الدومين، غير أنه أبقي على الوكلاء الذين كلفوا بجمع دخلها وتسليمه إلى السيد جيرادان، الذي عين مديراً لإدارة أملاك الدولة الفرنسية في الجزائر، واختير لهذا المنصب لأنه كان يجيد اللغة العربية، ونظراً لأهمية هذا المنصب وضع إلى جانبه موظفون مدنيون يساعدونه في الوظيفة.

ولم تتمكن السلطة الاستعمارية من تنفيذ هذا القانون الجائر كلياً في مدينة الجزائر ولكنها استطاعت تنفيذه في وهران وعنابة.

كما لم تجد صعوبات في مصادرة أوقاف العيون وتسليمها إلى مهندسين فرنسيين، ونفس الشيء لأوقاف الطرق التي سلمت إلى مصلحة الجسور، بحجة ضعف وعجز الأمناء الذين لم تكن لهم القدرة الكافية للقيام بها.

وأما أملاك الجيش الانكشارية فقد احتجزت لأنها أملاك عثمانية، وأن بقاءها بأيديهم يحرضهم على الثورة في نظر الفرنسيين، وأجبر وكيل أوقاف مكة والمدينة على دفع الدخل للخزينة المالية العامة، وتوقف إرسال جزء منه إلى شريف مكة حتى لا يستغل في إشعال وتموين الثورات.

إن السلطة الفرنسية تصرفت في الأوقاف تصرفاً ينافي وعدها في احترام الديانة الإسلامية، فقد حولت الكثير منها إلى كنائس وإلى مراكز طبية وإدارية وثكنات عسكرية وحمامات، وسلمت بعض العقارات للمستفيدين الأوروبيين ترغيباً في البقاء، ومنها ما استؤجر لكبار التجار لتخزين بضائعهم، ومنها ما بيع وتعرض لهدم من أجل توسيع الطرقات وتكوين الساحات العامة، وكان جامع السيدة أول مسجد يتعرض لمعاول الهدم، بدعوى إقامة ساحة داخل المدينة . هي ساحة الشهداء اليوم . تستعمل للدفاع وقمع الاحتجاجات في حالة انتفاضة السكان[1].

ويذكر الوكيل المدني بيشون أن الجيش استولى فيما بين (1830م . 1832م) على خمس وخمسين ملكية تابعة لأوقاف مكة والمدينة، وعلى إحدى عشرة ملكية تابعة للمسجد الكبير[2].

ويعتبر قرار (7 ديسمبر 1830م) من البوادر الأولى للاستعمار والتدخل السافر في الشؤون الدينية للسكان، كما يعتبر من الخطوات الأولى لمحو التراث العربي الإسلامي بالجزائر، وهتك ما هو مقدس.

وقيام السلطة بهذا العمل لقي معارضة شديدة، حتى من بعض الفرنسيين، وعلى هذا يمكن أن نقسم هذه المعارضة إلى نوعين:

النوع الأول:

ويشمل طائفة من المسؤولين الفرنسيين الذين رأوا في القرار شيئاً ينافي مبادئ الدولة الفرنسية، وينقض عهد الأمان الذي أعطي للسكان، فالجنرال برتوزين كان فكر إبان حكمه في الجزائر (فيفري 1831م وديسمبر

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية ص 23 ، 24 .
[2] المصدر نفسه .

1831م) في إرجاع أوقاف مكة والمدينة، لأن حجزها مخالف لمعاهدة (جويلية 1830م). وأما الوكيل المدني بيشون فقد اتخذ موقفاً معارضاً للقرار برسالة وجهها إلى رئيس مجلس الوزراء يوم (1831/11/11م) طالب فيها بفسخ القرار بسرعة، حتى يسمح ذلك للسلطة بتمهيد طرق التوفيق مع القبائل القاطنة داخل البلاد. وموقف بيشون فتح الطريق أمام البعض في التعبير عن تذمرهم من القرار، ومن بين هؤلاء السيد الحاج محيي الدين اغا العرب، الذي شكا لبيشون وناشده بإرجاع أوقاف مكة والمدينة، وإعادة المساجد المختلفة إلى أصلها.

النوع الثاني:

من المعارضين للقرار العلماء ورجال الدين والمفتون والقضاة، من أمثال محمد بن محمود بن العنابي المفتي الحنفي، ومصطفى ابن الكبابطي، وشخصيات أخرى من أعيان مدينة الجزائر أمثال حمدان بن عثمان خوجة، وأحمد بو ضربة وغيرهم، فبحكم المناصب التي كانوا يشغلونها عند الفرنسيين ؛ تمكن هؤلاء من التعبير عن تذمرهم بما حل بالأوقاف والمساجد، عن طريق تقديم الشكايات والعرائض إلى السلطة الحاكمة. فالمفتي ابن العنابي هاله ما كان يجري في مدينة الجزائر. ويصفه حمدان خوجة قائلاً: بأنه رجل نزيه وقاض، ذنبه الوحيد أنه كان يكتب دائماً إلى الجنرال كلوزيل، يلومه على تصرفاته التي كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام وللقوانين الفرنسية، ولحقوق الإنسان، فاعتبره كلوزيل عنصراً خطيراً على السلطة بحجة أنه يعمل على تحريض السكان على الثورة، فألقى عليه القبض وسجنه، ثم نفاه بعد أن أوقع به[1].

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية ص 25 .

والخلاصة: أن الفرنسيين نظروا إلى الأملاك الدينية بمنظار استعماري همجي بربري. وبيَّن حمدان خوجة هذا المعنى عندما قال: إنهم فعلوا ذلك للحصول على وسيلة يكسبون بها ثروة طائلة في أسرع وقت ممكن، ولو على حساب الإنسانية وشرف الأمة، وثانياً لافتتان الأنفس وترغيب فرنسا في الاحتفاظ بالإيالة.

إن تدخل السلطات الفرنسية المحتلة للجزائر في شؤون الممتلكات الدينية اعتداء صريح وواضح، وعمل ممنهج للقضاء على الديانة الإسلامية أو إضعافها، والتي وعدت باحترامها واحترام كل ما يرمز إليها، كما يعتبر قيامها بتحويل المساجد إلى كنائس للقيام بشعائرها الدينية نوعاً من التنصير المقنّع الذي تتعدد مظاهره وأشكاله[1]..

رابعاً: موقف الدولة العثمانية من احتلال فرنسا:

كان الاحتلال الفرنسي للجزائر في عهد السلطان محمود الثاني الذي تولى قيادة الدولة من عام (1808م) إلى عام (1839م). وكانت الدولة العثمانية في وضع لا تحسد عليه، وقد دعمت الدول الأوروبية محمد علي باشا لإضعاف الدولة العثمانية، وساهم محمد علي في بيان الضعف الذي وصلت إليه الدولة العثمانية، وبالتالي بدأت الدول الأوروبية تنتهز الظروف السياسية لتقسيم أراضيها، وبينما كانت جيوش محمد علي تمكن النصارى في بلاد الشام، وتضعف شوكة المسلمين، كانت جيوش فرنسا في عام (1830م) تغتصب الجزائر بعدما ضعفت الخلافة العثمانية، وكانت الدول

[1] المصدر نفسه ص 26 ، 27 .

الأوروبية مؤيدة لهذا الاغتصاب السافر، فقد حان توزيع تركة الرجل المريض وحل المسألة الشرقية بالطريقة الأوروبية.

وفي أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيوش محمد علي في الشام، اضطرت الدولة العثمانية للاستنجاد بروسيا بعد أن لمست أن محمد علي يحظى بتأييد بريطانيا وفرنسا، وعقدت معاهدة «هنكيار اسكليسي» سنة (1833م) على أعقاب هدنة كوتاهية، وكانت المعاهدة بمثابة تحالف دفاعي بين روسيا والعثمانيين، مما أدى إلى مسارعة كل من بريطانيا وفرنسا بالتصدي لمحمد علي خشية المزيد من التدخل الروسي، وفرضت عليه اتفاقية لندن سنة (1840م). وقد ترتب على هذه الأحداث إجهاض محاولة الإصلاح التي حاول السلطان محمود الثاني القيام بها في الدولة العثمانية، واضطرت الدولة العثمانية لقبول وصاية الدول الأوروبية في مقابل حمايتها من أطماع محمد علي[1]:

وهكذا كانت سياسة محمد علي خطوة مدروسة من قبل أعداء الإسلام لتهيئة المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية، مازالت الأمة تعاني من اثارها حتى اليوم. ولقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الاتية بواسطة عميلها محمد علي:

ـ تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كادت أن تكون سداً منيعاً أمام الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً والمشرق عموماً.

ـ فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين، متمثلة في محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس

[1] قراءة جديدة في التاريخ العثماني ص 188 .

ومدارس، سعت في بذر بذور التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية.

. إتاحة الفرصة لشركات تجارية أوروبية لتتحكم في الاقتصاد.

ـ منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالي مصر والشام من تلك الامتيازات.

ـ خنق التيار الإسلامي الأصيل، والتضييق على العلماء والفقهاء، وعدم السماح لهم أن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة.

ـ أصبح محمد علي أنموذجاً تحتذي به الدول الأوروبية في صنع عملائها داخل ديار المسلمين، كمصطفى كمال وغيره.

وبعد أن حققت الدول الأوروبية أهدافها بواسطة عميلها محمد علي، حان الوقت لإضعاف قواته وتحجيمها، فقد وصلوا إلى مقاصدهم. ولذلك دخل الإنجليز في صراع سافر مع قواته، واستطاعوا بمساندة أهل الشام هزيمته، والاستحواذ على الثغور الشامية، فقتل في هذه المعارك ثلاثة أرباع قوات محمد علي من شعب مصر وبلاد الشام، وأجبر تحت ضغوط الإنجليز على توقيع معاهدة تنازل فيها عن حكم بلاد الشام، وأن يظل حكم مصر وراثياً له ولأبنائه، وحُدد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً، وأن لا تصنع مصر سفناً للأسطول، وأن لا يعيّن والي مصر في الجيش ضابطاً أعلى من رتبة ملازم، وأن يدفع للدولة العثمانية ثمانين ألف كيس سنوياً[1].

وشرعت فرنسا وبريطانيا تثير الفتن الطائفية بين الأقليات غير المسلمة في لبنان، والهدف هو إنهاك قوة الدولة العثمانية التي أرسلت قواتها لإنهاء

[1] الدولة العثمانية ، د. جمال عبد الهادي ص 108 .

الفتنــة، وكــذلك إيجــاد المــبرر للتــدخل الفرنســي والبريطــاني في لبنــان تمهيــداً لتمزيقه واحتلاله[1].

واحتلــت روســيا الأفــلاق والبغــدان . رومانيــا اليــوم . وتم عقــد اتفــاق عثمــاني روســي «بلطــة ليمــان» قــرب إســطنبول عــام (1265هــ 1848م) يبقــى فيــه في الإقليمــين جــيش عثمــاني روســي حــتى يســتقر الوضــع.. ومــا دخــل الــروس في ذلك؟!..

وبهــذا المكــر أصــبح للنصــارى وجــود عســكري في ديار الإســلامَ ﴿وَإِنْ كَــانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:46].

واشــتد صــراع الــدول الأوروبيــة علــى تقســيم ولايات الدولــة العثمانيــة، تركــة الرجــل المــريض، وكانــت الــدول الأكثــر اهتمامــاً بمصــير الدولــة العثمانيــة ومصــير أملاكها هي:

ــ بريطانيــا، الــتي أرادت تأمــين طــرق مواصــلاتها إلى الشــرق الأقصــى والهنــد خصوصــاً، ســواء عــن طريــق الســويس والبحــر الأحمــر، أو عــن طريــق الخلــيج العربي ونهري دجلة والفرات.

ـ روســيا القيصــرية، الــتي أرادت أن تجــد لهــا منفــذاً مــن البحــر الأســود إلى الميــاه الدافئــة بالبحــر المتوســط، فيكــون لهــا النفــوذ الأكــبر في شــبه جزيــرة البلقــان، وتؤسس فيها دولة سلافية كبرى.

ـ فرنســا، الــتي أخــذت علــى عاتقهــا مــن زمــن مبكــر حمايــة مصــالح رعــايا النصــارى الكاثوليــك في بــلاد الشــام بصــفة عامــة، والمــارونيين في لبنــان علــى الأخــص، والــتي أرادت رعايــة مصــالحها في هــذه المنطقــة، ثم اســتعلاء نفوذهــا

[1] المصدر نفسه ص 108 .

في أملاك الدول الأخرى في الساحل الشمالي الإفريقي وبالتحديد في تونس والجزائر.

ـ وفيما عدا الدول الثلاث الرئيسية التي ذكرناها، فإن دولاً أخرى مثل النمسا وبروسيا اهتمت بمصير الدولة العثمانية، التي بات من المتوقع هلاكها وزوالها، فسميت بذلك برجل أوروبا المريض[1].

و عدة عوامل ساهمت في إبراز المسألة الشرقية إلى عالم الوجود منها:

ـ إن الطريق الذي تستطيع روسيا بواسطته الوصول إلى المياه الدافئة، هو الطريق الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة، ثم بحر إيجة، وأخيراً بالبحر المتوسط، أي بالمرور من مضيقي البوسفور والدردنيل، وهما في حوزة الإمبراطورية العثمانية.

ـ إن الدول العظمى التي يكون لها قواعد قوية في البحر الأسود، ويتسنى لها السيطرة على المضايق، تصبح ذات مركز ممتاز تتمكن بفضله من بسط سلطانها على بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وعلى طريق المواصلات والتجارة من البحر المتوسط إلى الهند والشرق الأقصى.

ـ إن الدولة التي يمتد نفوذها إلى البلقان، تفرض سيطرتها على الشعوب البلقانية بعد تقلص سلطان العثمانيين على هذه المنطقة، وتصبح كذلك ذات مركز ممتاز يمكنها من الاستيلاء على القسطنطينية نفسها ؛ مما يهدد باختلال التوازن الدولي في أوروبا[2].

---

[1] الدولة العثمانية للصلابي ص 405 ، 406 .
[2] الدولة العثمانية ، د. عبد العزيز الشناوي (1/194 – 232).

وفي خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانت سياسة الدول ـ باستثناء روسيا وفرنسا ـ تدور حول المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية لأسباب ناشئة من وجود العوامل التي ذكرناها.

وكانت بريطانيا في مقدمة الدول المتمسكة بمبدأ المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية وقتئذ[1].

وعندما بات ممكناً ملء الفراغ الذي ينجم من تقلص النفوذ العثماني عن البلقان، تخلت بريطانيا وسائر الدول عن مبدأ المحافظة على الدولة العثمانية، فسعت الدول الأوروبية بالفعل لتصفية القسم الأكبر من هذه المسألة باستقلال دول البلقان، وكان من بين الدول البلقانية المستقلة حتى نهاية القرن التاسع عشر اليونان، ورومانيا، وبلغاريا، والصرب[2].

تولى الحكم في الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمود الثاني ابنه عبد المجيد الأول، وكان ضعيف البنية شديد الذكاء واقعياً ورحيماً.

وكان السلطان عبد المجيد خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا، الذي وجد في الغرب مثله وفي الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة، وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو.

وكانت حركة الإصلاح والتجديد العثماني تدور حول نقاط ثلاثة هامة:

ـ الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليمه في نظم الحكم والإدارة.

[1] الدولة العثمانية ، د. اسماعيل ياغي ص 143 .
[2] المصدر نفسه ص 144 .

. والاتجاه بالمجتمع العثماني نحو التشكيل العلماني.

. والاتجاه نحو مركزية السلطة في اسطنبول والولايات.

وتكلل خطا كلخانة وهمايون . وهما مرسومان إصلاحيان لتحديث الإدارة وتطويرها . بدستور مدحت باشا عام (1876م). ولأول مرة في تاريخ الإسلام ودوله يجري العمل بدستور مأخوذ من الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري، وهي دساتير وضعية علمانية.

ووضعت حركةُ التنظيمات الدولةَ العثمانيةَ رسمياً على طريق نهايتها كدولة إسلامية، فعملت القوانين ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، بالابتعاد عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، وسحبت منها شرعيتها في أنظار المسلمين، وأصبحت في حالة من الضعف والهوان منعها من الدفاع على ممتلكاتها والتصدي للمشاريع الغازية.

* * *

المبحث الثاني : ظهور المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي

إن الشخصيات البارزة في الجزائر العاصمة وأعيان المدينة لم تكن لهم قوة يضغطون بها على الجيش الفرنسي، وكانت الشخصيات المرموقة معزولة عن أبناء البلد، وينتمي معظم أعيان البلد إلى مهاجري الأندلس أو طبقة غنية تملك الأرض في سهل متيجة وتسيطر على التجارة، ولهذه الأسباب لم يتحالف الفرنسيون المحتلون مع الشخصيات البارزة في الجزائر سواء كانوا أتراكاً أو عرباً، وإنما قاموا بنفي وطرد الأتراك إلى بلدهم الأصلي، بدعوى أنهم يقومون بمؤامرات ضد الفرنسيين في الجزائر، بالرغم من التزام الفرنسيين في معاهدة الاستسلام أن الأتراك يعتبرون من سكان المدينة وفي إمكانهم البقاء في الجزائر.

وبالنسبة لغير الأتراك فإن فرنسا قد عمدت إلى انتهاج سياسة تشتيتهم ونفيهم وتسليط الطائفة اليهودية عليهم.

وحسب بعض المصادر الموثوق بها ؛ فإن قائد الجيش في الجزائر «كلوزيل» قد طلب من أعيان مدينة الجزائر قائمة بأسماء العائلات الكبيرة في المدينة، ليختار منها باياً جديداً على ولاية التيطري خلفاً لباي التيطري مصطفى بو مزراق، الذي رفض الخضوع لسلطة فرنسا وأعلن نفسه باشا ورئيساً للإيالة.

وبالفعل ففي تاريخ يوم (23 نوفمبر 1830م) قام الجنرال كلوزيل بتعيين مصطفى بن عمر، وهو ابن خال زوجة حسين باشا باياً على التيطري، وكان هذا الشخص قليل المبادرة، ولم تكن له قدرة لا على التنظيم ولا على

الحكم، كما أن الجنرال كلوزيل أمره عند تعيينه أن لا يغير شيئاً من الإدارة السابقة، وأن يعمل كأنه باي قديم[1].

ولهذا فقد وجد الباي الجديد نفسه وجهاً لوجه مع السكان ولا يملك أي جيش يساعده على تدعيم سلطته، لكن عليه أن يقوم بجمع الضرائب على الطريقة التي كانت تجمع بها في عهد الأتراك، وبكل بساطة رفض سكان المدينة أن يدفعوا له الضرائب، ولم يكن له من الوسائل ما يرغمهم على ذلك، والمشكل هنا أنه قد حاول أن يعتمد على سكان المدينة[2]، لكنه فشل في ذلك، وعندما تصاعدت المقاومة ضد فرنسا والباي الجديد في التيطري ؛ طلب مصطفى بن عمر النجدة من القائد الفرنسي الجديد، الذي قرر إنهاء مهامه وجلبه معه إلى الجزائر، حيث حاول أن يبعث به إلى وهران ويعينه باياً عليها، لكن الجنرال «بواي» الذي كان مسؤولاً عن تلك الناحية رفض التعاون مع الباي المخلوع، وهكذا قام الجيش الفرنسي بتعيين حمدان بن أمين السكة ابن مصطفى بن عمر اغا العرب.

وكان الفرنسيون يتوقعون من اغا العرب أن يكسب ود وصداقة العرب، وأن يتعرف على المشاريع التي يفكرون فيها، ولكنه لم يفعل، فكثرت الثورات. وواجه الفرنسيون اضطرابات لم يتوقعوها، لذلك قام الجيش الفرنسي بعزله يوم (7 جانفي 1831م) وإبعاده إلى فرنسا خوفاً من أن يشترك في مؤامرة ضد السلطات الفرنسية أو يتعاون مع القبائل العربية ضد قوة الاحتلال الفرنسي، وباختصار فإن الفرنسيين قد استخدموا الباي وابنه ثم تخلوا عنهما ثم نفوهما إلى فرنسا للتخلص منهما مثلما تخلصوا من مصطفى بو مزراق عن طريق أسره يوم (23 نوفمبر 1830م) بالجزائر العاصمة.

---

[1] محاضرات في تاريخ الجزائر ص 69 .

[2] التاريخ السياسي للجزائر ، د. عمار بو حوش ص106 .

وما يمكن أن نستخلصه مما تقدم أن استسلام حسين باشا وتوقيع معاهدة السلام والخضوع لفرنسا يوم (5 جويلية 1830م) لم تكن هي نهاية المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر، بل بداية لمقاومة شعبية واسعة من أبناء الجزائر المجاهدين[1].

أولاً: بداية المقاومة الشعبية:

وكدليل على اقتناع بورمون أن البلاد دانت له وأنه من السهل فتح المدن، قرر التوجه لاحتلال البليدة، على رأس جيش قوامه (2000) جندي وبضع مئات من الخيالة ومدافع وذلك يوم (1830/7/23م). ووصل الجيش بالفعل إلى البليدة فقام برحلة استطلاع بها، وكان رجال القبائل يراقبونه، فما إن عاد حتى نصبوا له كميناً ببلدة بوفاريك، وقتلوا الكثير من الجيش، ولم ينج منه سوى بورمون مع عدد قليل من جنوده تمكنوا من العودة به إلى مدينة الجزائر، وقتل العميد فرسيل بعد هزيمة الفرنسيين ببوفاريك. واضطر الفرنسيون أمام المقاومة الشعبية إلى إخلاء مدينتي وهران وعنابة، وعند ذلك اقتنع المارشال بورمون بأن دولة الدّاي قد سقطت، وبدأت مقاومة الشعب، وبدأت معها متاعب فرنسا. ولخص المؤرخ الفرنسي ش أ جوليان عناصر المقاومة فقال: إن القبائل المرتبطة بالأرض هي التي انطلقت تنظم المقاومة وليس أبناء المدن الأثرياء[2].

واجتمع في غربي مدينة الجزائر في برج منفوست «قرب برج البحري» شيوخ الزوايا بالناحية، وقرروا مقاومة المحتلين الذين برهنوا خلال أيام من احتلالهم

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 17 .
[2] الجزائر في التاريخ ، عثمان سعدي ص 458 .

أنهم نهابون للممتلكات، حارقون للزرع، مخربون للمنازل، معتدون على النساء، مدنسون للمساجد[1].

لقد وضع الفرنسيون أيديهم على المساجد ودور الأوقاف وغيرها من المعاهد، وأغلقوا المدارس وصادروا كل ما فيها، ومن ضحايا هذه المصادرات كانت المكتبات الملحقة بها، فاختفت الكتب والمخطوطات التي كانت تعد بالآلاف، ومنها مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة الجزائر، ومكتبات بقية المدن الجزائرية، فعمد السكان إلى إخفاء مخطوطاتهم وكتبهم في أسطوانات معدنية طمروها في الأرض، ومنهم من حمل معه مخطوطاته الثمينة إلى حيث يرتحل، كالأمير عبد القادر، الذي جمع في مدينته الاف الكتب والمخطوطات النادرة، فحُرقت أثناء الهجوم على هذه المدينة وسُرق أكثرها[2].

ويروي الضابط المرافق للجنرال بيرتوزان البارون بارشو دي باهوين: أن جمهورهم . المقاومين .كان ضخماً يلوح بالسلاح ويقفز فرسانه على الخيل، ويصفق بحرارة لتحريض الشيوخ على القتال، وكان المجتمعون من الشعب ومجلس الكبار واقعين تحت تأثير حادثة انتصار المقاومين بالبليدة، فارتفعت هتافاتهم بالحرب. وقد أعلن هذه المقاومة المبكرة ابن زعموم رئيس قبيلة فيلسية القوية، التي تقع منازلها في مدخل القبائل الكبرى قرب تيزي ونيف، وكذلك المرابط الحاج سيدي السعدي، بالإضافة إلى إعلان والي تيطري مصطفى بو مزراق المقاومة[3].

[1] المصدر نفسه ص 458 .
[2] الأمير عبد القادر الجزائري ، بديعة الحسني ص 34 .
[3] الجزائر في التاريخ ص 459 .

1. ثورة في فرنسا:

وصلت يوم (11 أغسطس . اب) أنباء اندلاع ثورة في فرنسا، فحاول بورمون وضع الجيش الفرنسي المتواجد بالجزائر في خدمة الملك شارل العاشر، لكن قائد الأسطول رفض التعاون معه وأيده عدد كبير من الضباط. واضطر بورمون إلى إنزال علم الأسرة المالكة بوربون الأبيض ورفع العلم المثلث الألوان، ثم جاء الجنرال كلوزيل قائداً عاماً في الجزائر، فعاد المرشال بورمون لفرنسا يحمل معه قلب ابنه الضابط الذي قتل أثناء الحملة.

غيرت ثورة يوليو علاقات فرنسا مع الدول الأوروبية بالرغم من أنها أتت بلويس فيليب ملكاً، لكن هذه الملكية كانت مدعومة بالبورجوازية الليبرالية، وترتكز على مبادئ الثورة الفرنسية، فقد تخلت عن علم أسرة بوربون الملكية، ورفعت علم الثورة المثلث الألوان، ولهذا فقد عاد التحالف الأوروبي ضد الملك الفرنسي الجديد المعروف عنه إيمانه بمبادئ الثورة، وخشيت المملكات والإمارات الأوروبية من عودة فرنسا إلى عهد نشر الثورة في أوروبا على غرار حروب نابليون. ورفض نيقولا قيصر روسيا الاعتراف بلويس فيليب، كما أعلن مترنيخ في النمسا تضامن ملوك أوروبا ضد الروح الثورية الفرنسية التي جاء بها لويس فيليب. ولو كانت أوضاع المقاومة الجزائرية منظمة ولها رأس ؛ لاستغلت هذا التناقض الأوروبي مع فرنسا، وسخرته لصالحها، وجلبت دعماً أوروبياً يمكنها من طرد الاحتلال الفرنسي.

كان الكثير من الدول ينظر لاحتلال فرنسا لمدينة الجزائر على أنه مؤقت، فعندما أعلنت فرنسا سنة (1832م) أنها ستستمر في احتلال الجزائر، طلبت منها بريطانيا تفسيرات رسمية عن ذلك، وحينما أعلن المارشال مسول سنة (1833م) أن فرنسا غير ملزمة بأي تعهد دولي إزاء الجزائر، وأنها

تفعل فيها ما تريد وليس لها نية الجلاء عنها، لفت اللورد جراي نظر السفير الفرنسي في لندن تاليران إلى هذه التصريحات وطلب منه تبليغ الحكومة الفرنسية ضرورة الاحتراس، وفي سنة (1834م) صرح وزير المستعمرات البريطاني: بأن بريطانيا لم توافق على احتلال فرنسا لمدينة الجزائر، كما تحدث اللورد بلمرستون سنة (1838م) عن حقوق الباب العالي في نيابة الجزائر، وأن وجود فرنسا هناك لا يعدو كونه احتلالاً عسكرياً، لكن معارضة بريطانيا عندما لم تجد من يستغلها بالجزائر ضعفت أمام إصرار فرنسا على فرض الأمر الواقع، ولم تعترف بريطانيا رسمياً بالوجود الفرنسي، ولم تقدم أوراق اعتماد قنصلها في الجزائر للإدارة الفرنسية هناك إلا سنة (1851م) وقتما أرسل كلوزيل خلفاً لبورمون، وكلوزيل له خبرة طويلة في الجيش وفي الزراعة، وعمره كان ستين سنة، قضى سنوات منفياً بأمريكا، وأول ما فعله تثبيت الوجود الفرنسي بمدينة الجزائر، فقام بإنشاء إدارة لتسييرها، وشجع الاستيطان، كما حارب الفوضى التي وجدها في تواجد الجيش بالمدينة، فقد لاحظ أن الجنود احتلوا المساكن الجزائرية الجميلة واستخدموا أثاثها وخشبها الثري المنقوش كحطب للتدفئة وطبخ الطعام، فقرر إخراجهم من هذه المنازل، وأقام لهم نقاطاً ومعسكرات خارج المدينة وعلى الطرق التي قرر إقامتها نحو سهل المتيجة[1].

2. هزيمة كلوزيل في البليدة والمدية:

تقرر إرسال هذا الجيش المتواجد بمدينة الجزائر لاحتلال مدن أخرى، ففي (1830/11/17م) قاد المارشال كلوزيل جيشاً هاماً من عشرة الاف جندي يساعده ثلاثة جنرالات، فاحتل البليدة وأقام بها حامية وتوجه

[1] الجزائر في التاريخ ص 460 .

الجيش لاحتلال مدية ومليانة، وعسكر في الشفة ومن هناك شاهد تجمعاً كبيراً من فرسان القبائل على المرتفعات، فقرر عدم اتباع طريق وادي الشفة، وقرر اتباع طريق موازية، فترصد له المجاهدون بقيادة بو مزراق فدحرجوا عليهم من فوق الممر الضيق صخوراً ضخمة قتلت العديد منهم، وعندما وصل الجيش غابة الزيتون اصطدموا بمقاومة خلفت في صفوفهم خسائر كبيرة، ووصل جيش العدو مدية واحتلها لكن بخسائر كبيرة وذلك في (1830/11/22م)، واستسلم له مصطفى بو مزراق.

وتصور كلوزيل أن الأمور دانت له، وصرف النظر عن التقدم لمليانة، ثم عاد إلى الجزائر بعد أن ترك بها حامية قوية من ثلاثة الاف جندي، وعين عليها باياً باسم فرنسا العميل مصطفى بن عمر، لكن المجاهدين هاجموا الحامية وجعلوا استمرارها بالمدينة مكلفاً ؛ الأمر الذي جعل كلوزيل يأمر بإخلائها، فأخليت في (1831/1/1م).

ولدى عودته من البليدة هاجمه المجاهدون بقيادة ابن زعموم، لثلاثة أيام، واحتل المجاهدون معظم أحيائها ولم يبق سوى جامع كبير جعله مستشفى لجرحاه وعدداً قليلاً من المنازل القريبة من باب الجزائر، ووصل كلوزيل البليدة بجيشه وأنقذ ما تبقى من حاميته. كما علم المجاهدون بأن وحدة كانت متوجهة إلى الجزائر، فكمنوا لها في بوفاريك وأبادوها عن اخر رجل فيها، ووصل كلوزيل لبوفاريك يوم (28) فوجد المدفعيين الخمسين الذي أرسلهم لإحضار الذخائر مقتولين شر قتلة. وأمام هذه المقاومة الجبارة قرر كلوزيل إخلاء مدينتي مدية وبليدة، وسحب حاميتهما إلى مدينة الجزائر[1].

---

[1] المصدر نفسه ص 462 .

3. تجنيد الجزائريين:

عندما عجز كلوزيل عن الحصول على إمدادات كبيرة من فرنسا ؛ طلب من حكومته السماح له بتجنيد جزائريين من قبائل زواوة، فأذنت له، فكون وحدات يقودها ضباط فرنسيون منحهم مراتب أعلى من المراتب التي تعطى لضباط الجيش، وصرف لهؤلاء الجنود أجوراً مغرية، قصد منها إغراء الجزائريين على التطوع في هذه الوحدات، التي اتخذت لها زياً خاصاً مستمداً من الزي التركي والمملوكي، وسمي هذا الجيش «بالزوافا» نسبة إلى قبائل زواوة. واصطدمت هذه الوحدات في البداية بهروب جنودها وعودتهم إلى قبائلهم، بسبب عدم تأقلمهم مع القيود التي يفرضها عليهم نظام هذا الجيش الغريب، بحيث لم يتجاوز حجمها كتيبتين. لكن كلوزيل اعتبرها بداية مشجعة، وأمام مقاطعة الشعب لجنود الزوافا، بل ومقاطعة أسرهم لهم، صار الكثير منهم يهرب بسلاحه، بل واتخذ المقاومون هذه الوحدات وسيلة لجلب السلاح، فكانوا يرسلون متطوعين يقيمون فترة في الثكنات والمعسكرات ويهربون بالأسلحة بعد أن يكونوا قد تدربوا، ففي (1830/10/24م) أعلن الجنرال بوييز سرقة (206) بندقية و(8) سيوف. وأمام الضغط الشعبي لم يتطوع في صفوف الزوافا في السدس الأول لسنة (1831م) سوى (20) مشكوكاً في ولائهم.

4. توطين الأوروبيين:

جاء كلوزيل بفكرة يبدو أنه كونها نتيجة لعيشه في أمريكا سنوات، فهو يرى أن الأسلوب الوحيد للسيطرة على الجزائر هو توطين أوروبيين بهذا البلد الواسع والغني، وتطبيق ما طبقه الإنسان الأوروبي بالعالم الجديد، إما بإبادة الجزائريين أو بطردهم للصحراء، فاهتم بمتيجة واختار المتطوعين للاستيطان

من الجنود السابقين، وأمر بإعطاء كل واحد منهم ستة أربانتان والأدوات اللازمة للزراعة والأسلحة للدفاع عن أنفسهم، وأقام مزرعة اعتبرها المزرعة الأولى النموذجية بالحراش وهي «مزرعة حوش حسن باشا» التي تضم (1000) هكتار. وخصصت حامية عسكرية لحماية المزرعة، كما تقرر تموين الكولون بالمزرعة بسائر المواد التي يحتاجونها من أغذية وأدوات من مخازن الجيش، واشترى كلوزيل لحسابه الخاص ثلاث مزارع، ووجه ضابطاً وجنوداً لخدمتها ورفع الجنرال بيرتوزان تقريراً لوزارة الدفاع ذكر فيه: كيف استغل كلوزيل نفوذه فاشترى بأبخس الأثمان مزارع في بابا علي وفي واعلي أدّا وهي تمثل أملاكاً لأطفال أيتام، اشتراها بواسطة المرابيين اليهوديين بوشناق وبكري[1].

في هذا الجو كان الضباط يشترون ممتلكات الجزائريين الهاربين من الحكم النصراني بأبخس الأثمان بواسطة المرابين اليهود، لدرجة أن الجنود سخطوا وقالوا: نحن لم نأت هنا لحماية المضاربين. وبأسلوب السرقة هذا تأسست المزارع الأوروبية بالساحل وسهل المتيجة، وقد وصف الجنرال بيرتوزان هؤلاء الكولون الأوروبيين القادمين في رسالة وجهها لوزير دفاعه بتاريخ (1831/3/25م) قال فيها: لابد من الكف عن الاعتماد على متطوعي باريس، الذين التُقطوا من أرصفة العاصمة، المنغمسين في الحقارة والسكر، لدرجة صار يطلق عليهم هنا «البدو الفرنسيون».. إن الفوضى تزداد بمجي أفاقي أوروبا، الذين تقيأتهم إسبانيا وإيطاليا خاصة مالطة[2].

ويرفض البارون بيشون الاستيطان في كتابه مدينة الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي (1833م) فيقول: إن الاستيطان يستأصل الجزائريين، فسهل

---

[1] المصدر نفسه ص 464 .
[2] المصدر نفسه ص 464 .

متيجة كل قطعة به لها صاحبها، وإن إسكان الكولون فيه معناه إنفاق عشرات الملايين وتخصيص 5000 جندي لحراستهم، وهذا معناه جلب العار لفرنسا، وجعل الجزائريين يقفون ضد فرنسا، سواء كانوا عرباً أو قبائل أو كراغلة، وما يدعيه البعض من إمكانية زراعة محاصيل استوائية خطأ، فأرض الجزائر لا تصلح إلا للحبوب والزيتون والكروم.

وكالجنرال بيرتوزان ؛ يرفض البارون بيشون استقدام ألمان وسويسريين مثل الذين أحضرهم كلوزيل، وأنفق عليهم مبالغ ضخمة من الخزينة، وملّكهم أرضاً بعد أن طرد منها أصحابها، فهو يحدد موقفه ضد الأسلوب المستغل والاستئصالي المبيد للجزائريين، الذي يستهدف سرقة أرضهم وطردهم للصحراء. ويرى أن القبائل الجزائرية لن تتخلى بسهولة عن أراضيها كما فعلت قبائل العالم الجديد بأمريكا[1]. ويقول: إن أنجع الوسائل هي إدماج الجزائريين في مصالحهم الخاصة وتطوير التعليم عندهم باللغة العربية[2].

ويقول أرمون فيكتور هين مؤسس الشركة الكولونيالية للجزائر: يستحيل إدماج الأهالي، ينبغي طردهم للجنوب وإبادتهم، لابد من معاملتهم كالوحوش ورميهم هناك في رمال الصحراء[3].

لقد أصدر الفرنسيون قوانين ظالمة صادروا بها أراضي الأهالي، فكل قبيلة تهزم في المقاومة تجرد من أراضيها الخصبة، وتطرد إما للجبال أو إلى الصحراء، وتملك الأرض للمزارعين الفرنسيين، وكم من أراض أخذت من أصحابها واضطروا إلى أن يعملوا بها كأجراء لدى سارقيها.

---

[1] المصدر نفسه ص 464 .

[2] المصدر نفسه ص 464 .

[3] المصدر نفسه ص 464 .

لقد اقترح المارشال كلوزيل على حكومته تشجيع الأوربيين على الاستيطان بالجزائر، وفتح خط بحري أسبوعي بين مرسيليا والجزائر بالبواخر البخارية، التي تقطع المسافة في أربع وخمسين ساعة، لا بالسفن الشراعية التي كانت تقطعها في خمسة أيام وأحياناً أكثر.

وقام القناصلة الفرنسيون بالعواصم الأوروبية بنشر إعلانات تحث الشباب الأوروبي على الهجرة إلى فردوس الجزائر، وكانوا يشبهونها بأمريكا، وتوجه المئات منهم إلى مرسيليا فالجزائر، بحيث وصل عددهم في الستة أشهر الأولى للاحتلال ثلاثة الاف مهاجر إسبان وإيطاليين ومالطيين، كما أفرغت الحكومة الفرنسية إصلاحيات الأحداث من نزلائها وأرسلتهم إلى الجزائر بحيث بلغت الدفعة الأولى (4500) نزيل.

ولقد افتتح المارشال كلوزيل سياسة الاستيطان، عندما أحضر أحد وكلاء الهجرة خمسمئة ألماني وسويسري، تعاقد معهم على تشغيلهم في أمريكا، لكن ما إن أوصلهم إلى الجزائر حتى تخلى عنهم، فالتقطهم كلوزيل وأمر الجيش بنصب خيام لهم خارج مدينة الجزائر، ووزع عليهم أراض كانت أوقافاً إسلامية[1].

5 . لجنة برلمانية فرنسية للتحقيق بالجزائر:

أرسل البرلمان الفرنسي لجنة للتحقيق في الجزائر قضت فيها شهري سبتمبر . أيلول/أكتوبر . تشرين أول (1833م)، ومما ورد في تقريرها: أرسلنا إلى العقوبة أناساً على أساس مجرد شك. قمنا بتجريد ورثة قصّر من ممتلكاتهم، قتلنا أناساً حاملين لأذون مرور وعلى أساس مجرد شكوك، ذبحنا جماعات كاملة اكتشف بعدها أنهم أبرياء، قدّمنا للمحاكمة أشخاصاً اشتهروا بأنهم

[1] المصدر نفسه ص 474 .

مقدسـون وأوليـاء مـوقرون لا لشـيء إلا لأنهـم وقفـوا يـدافعون بشـجاعة عـن مـواطنيهم، ووجـد قضـاة لإدانـتهم ورجـال متمـدنون لإعـدامهم، وتسـببنا في فوضـى عارمـة بـين قبائـل بسـبب كرمهـا عنـدما قبلـت طلـب هـاربين مـن جيشـنا باللجـوء إليهـا، وحولنـا المسـاجد إلى كنـائس، واحتللنـا منـازل دون أي تعـويض، صـادرنا أمـلاك الأوقـاف أي أمـلاك منشـآت دينيـة، دمـرنا المقـابر واحتقـرنا بـذلك أكثـر شـيء مقـدس لـدى الشـعوب، لقـد نُهـب العـرب وأُذلـوا، وانقـضّ المرابـون علـى الجزائـر كفريسـة سـهلة للنهـب، فكوّنـوا ثـروات ضـخمة متجـاوزين أبسـط مبـادئ الشـرف، وباختصـار لقـد أغرقنـا في البربريـة هـؤلاء البرابرة الذين جئنا لتمدينهم، ثم نشكو من أننا فشلنا معهم[1].

6 . إحكام السيطرة على مدينة الجزائر:

وأمـام قـوة المقاومـة الجزائريـة، وفشـل محـاولات كلوزيـل احـتلال مـدن أخـرى؛ رأى الاحتفـاظَ بمدينـة الجزائـر وحوّلهـا وإدارتهـا فرنسـية، وإيجـادَ أسـلوب اخـر لإدارة الأقـاليم الأخـرى بحكـم محلّـي يعـترف بالسـيادة الفرنسـية العليـا، فقـرر إقامـة كيـانين بـوهران وقسـنطينة تحـت الحمايـة الفرنسـية، يـداران بمسـلمين. وعـرض كلوزيـل علـى باي وهـران وباي تيطـري ابـن مصـطفى بـو مـزراق تعيينهمـا بايـين تحـت الحمايـة فرفضـا، وسـاعد كلوزيـل علـى تحقيـق هـذه الفكـرة بايُ تـونس حسـين الـذي صُـنف علـى أنـه صـديق لفرنسـا، فقـد سـبق لـه أن هنـأ فرنسـا علـى احتلالهـا للجزائـر، وسمـح للجـيش الفرنسـي بالتـزود بمـا يحتاجـه من تونس[2].

[1] المصدر نفسه ص 465 .
[2] المصدر نفسه ص 465 .

7. حكام تونس يدعمون الاحتلال:

أرسل كلوزيل وفداً لباي تونس حسين باشا يحمل اتفاقية تنص على تعيين سيدي مصطفى شقيق باي تونس باياً على قسنطينة تحت الحماية الفرنسية، ووافق باي تونس على الاتفاقية، ووقع عليها حامل أختامه يوم (1830/8/18م) وتنص الاتفاقية على: أن يطبق الباي مصطفى كل ما يرسمه له القائد العام الفرنسي بالجزائر كما لو أنه هو الذي عينه، ويعمل لصالح فرنسا أولاً، ولصالح الإقليم ثانياً، وأن يقوم بجمع الضرائب من السكان على أن يدفع منها نسبة للدولة الفرنسية، وفي (1831/2/6م) وقع كلوزيل اتفاقية أخرى تنص على تعيين أحمد أحد أقارب باي تونس في منصب باي وهران، لكن عندما أرسل كلوزيل الاتفاقية الأولى إلى باريس عارضها وزير الخارجية بحجة أنها تعطي حقوقاً في قسنطينة لباي تونس، واعتبر كلوزيل قد تجاوز صلاحياته بتوقيعه على هذه الاتفاقية التي تعتبر من صلاحيات وزارة الخارجية، وشكا للملك الذي أصدر قراراً يوم (1831/1/29م) بإلغاء هذه الاتفاقية ونشر هذا القرار قبل أن يعلم به كلوزيل. ولعب اليهود دوراً كبيراً في عقد هذه الاتفاقيات مما جعل ش.أ. جوليان يقول: إن اليهود المشهورين بمكرهم برهنوا على أنهم ضروريون كوسطاء ومخبري أجهزة مخابرات.. إن تقريب اليهود ورفع مستواهم من طرف الفرنسيين بدت للجزائريين على أنها فضيحة اجتماعية[1].

وفي هذه الأثناء وصلت إلى وهران يوم (11 فبراير . شباط 1831م) سفينة تونسية تحمل بضع مئات من الجنود التونسيين بقيادة خير الدين اغا وكيل الباي المتوقع وفقاً لاتفاقية كلوزيل، وقام بإقناع الأتراك بضرورة تأييده حتى

[1] المصدر نفسه ص 466 .

يعيد الحكم التركي للبلاد، وانخدع هؤلاء بأقواله وانضم بعضهم إليه، لكن الشعب ثار عليه وعليهم، وقتلوا الكثير من أتباعه، وهرب أتراك تلمسان من انتقام الشعب واعتصموا بقلعة المشوار، فاضطر خير الدين اغا إلى طلب سفينة تعيده مع جنده إلى تونس، وعادت الأمور إلى الصفاء بين الشعب والأتراك. وإزاء تصرفات كلوزيل الفردية قررت الحكومة الفرنسية إعادته إلى فرنسا وتعيين خلف له وهو الجنرال بيرتوزان[1].

8 . ثورة سيدي السعدي وابن أبي مزراق وابن زعموم:

ثار ابن أبي مزراق عندما علم بنفي كلوزيل لوالده مصطفى بو مزراق إلى الإسكندرية، وقد سبق لهذا أن سلم نفسه لكوزيل فأمنه، لكنه نكث العهد واعتقله، ثم نفاه، فثار ابن أبي مزراق وجمع الجموع وتمكن من طرد الفرنسيين وعامِلَهم الخائن مصطفى بن عمر من مدية، فتوجه بيرتوزان على رأس جيش كبير إلى مدينة مدية فوصلها في (1831/6/29م). وانسحب المقاومون من المدينة نحو الجنوب فطاردهم ودمر في طريقه حقول الحبوب الناضجة وقطع الأشجار المثمرة، لكن المقاومين قاموا بهجوم مضاد ودفعوا جيش العدو خارج مدية. وأمام ضربات المقاومين اضطر بيرتوزان إلى العودة إلى الجزائر وأخذ معه عميله ابن عمر، فوصل الجزائر مهزوماً يوم (7/5). ولاحق ابن أبي مزراق الفرنسيين، وانضم له ابن زعموم الذي اكتسح الحراش، ودمر المزرعة الكولونيالية النموذجية والمزارع التي أسسها كلوزيل، وقتل من قتل من الكولون، وهرب من هرب داخل أسوار مدينة الجزائر التي وصل المقاومون حتى أبوابها. واستمر ابن أبي مزراق مسيطراً على ولاية التيطري إلى أن جاء الأمير عبد القادر فانضم لدولته.

---
[1] المصدر نفسه ص 466 .

وعـاد في هـذه الأيام الحـاج سـيدي السـعدي إلى الظهـور في جبـال زواوة ودعـا القبائـل إلى الجهـاد، وكـان الجنـرال بيرتـوزان بعـد طـرد الفرنسـيين مـن المديـة قـد جمـع عـدداً مـن أعيـان العـرب والبربـر، وطلـب مـنهم ترشـيح مـن يصـلح مـنهم للولايـة علـى العـرب والبربـر في داخـل الـبلاد، بعـد تأكـده مـن استحالة السـيطرة علـى الـداخل مباشـرة، فرشـحوا لـه محيـي الـدين بـن السـيد علـي مبـارك مـن زاويـة القليعـة، فعيّنـه اغـا العـرب، وقبـل المـذكور بشـرط واضـح قالـه للجنـرال: أقبـل بشــرط أن يبقــى العــرب في أمــاكنهم ويبقــى الفرنســيون في أمــاكنهم. أي: لا يمـدّ الفرنسـيون احـتلالهم وأن يبقـوا في مدينـة الجزائـر ومـا جاورهـا. وخـرج محيـي الــدين إلى نــواحي القليعــة، وأرســل رســله للقبائــل يــدعوها للطاعــة، ولم يطــل وضـعه فقـد خـرج عليـه الحـاج سـيدي السـعدي وحاصـره مـع جيشـه العميـل، فوجـد الاغـا نفسـه مضـطراً للرضـوخ لـه، وضـم جيشـه لجـيش الثـوار، خاصـة بعـد إبادة الفرنســيين لقبيلــة العوفيــة في ربيــع (1832م)، وتقــدم الســعدي نحــو مدينــة الجزائــر وراح يقتــل الكتائــب الفرنســية المتواجــدة حولهــا مــع الكولــون، وخـرج الجنـرال بيرتـوزان مـن المدينـة والـتحم مـع الثـوار، فـانهزم الفرنسـيون وهربـوا نحــو مدينــة الجزائــر، والمجاهــدون وراءهــم يقتلــون ويأســرون ويغنمــون، حــتى دخلهـا الفرنسـيون وأغلقـوا أسـوارها، ووصـل سـيدي السـعدي حـتى باب عـزون ووقــف أمامــه متحــدياً وهــو مغلــق، ثم عــاد المجاهــدون إلى مــواقعهم غــانمين منتصـرين، وكانـت تنقصـهم الوسـائل العصـرية للجيـوش، لتطـوير هـذا النصـر وتحويله إلى اقتحام العاصمة وتطهيرها من المحتل.

واسـتطاع إبـراهيم بـك احـتلال قصـبة عنابـة، وقـام بقتـل سـائر الضـباط والجنـود الفرنســيين. وهكــذا أضــاف المجاهــدون هزيمــة فرنســية بعنايــة إلى الهــزيم الــتي

ألحقوها بهم في مدية، وثار الرأي العام الفرنسي على هذه الهزائم المتلاحقة[1].

وأمام تعثر الأمور قررت الحكومة الفرنسية في نهاية (1831م) إعفاء الجنرال بيرتوزان وتعيين الدوق دي روفيجو خلفاً له، وأصيب بيرتوزان بذهول واعتبر عملية إعفائه إهانة له، واحتج ضد ما سماه تدنيساً لشرفه ورفض أي قيادة تسند له.

حضر الدوق دي روفيجو ومعه جيش قوي، وأول ما قام به بناء سلسلة من التحصينات الصغيرة على طول ساحل منطقة الجزائر، تبدأ من بوانت بيسكال حتى الحراش، مروراً بمرتفعات الحامة ثم القبة وبير خادم وبوزربعة فدالي إبراهيم، ومدت طريق وربطت بين هذه النقاط. كما فتحت طرق أخرى داخل هذه الدائرة، واخترقت هذه الطرق المقابر، وعوملت القبور باحتقار وامتهان غريبين، فقد روى الضابط بيلسية دي ربينو: شقت المقابر وحفرت القبور وشاهدنا مشردين يلعبون بازدراء برؤوس الموتى البشرية، وعندما سطر المهندسون الطريق وسط المقبرة عملت المعاول والفؤوس عملها، فتفتح القبر وتقسمه نصفين، وتقسم معه الهيكل العظمي البشري، فتنتشر عظامه التي تجمع وتستعمل كحصى في ردم حفر الطريق، وتبقى بعض العظام بارزة للعيان على جانبي الطريق[2]، وشمل هذا التدنيس مقابر الدايات والوجهاء الكائنة بين باب عزون وبرج باب عزون، فأضيف هذا العدوان على المقابر إلى العدوان على المساجد ؛ مما جعل أحد الوجهاء يصرح للضابط بيشون: عن قريب سوف لا نعرف أين سنعيش ولا أين سنموت.

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 468 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 470.

وشاع بين الناس أن عظام موتى هذه المقابر شحنت لفرنسا لاستعمالها في صناعة السكر، فقد ذكر ش. أ. جوليان: أن طبيباً فرنسياً بمرسليا صرح أنه شاهد على الباخرة «جوزفين» في مارس (1833م) وجود شحنة اتية من الجزائر تتكون من عظام بشرية جماجم وفكاك وعظام فخذ وعظام زند وغيرها، ويفصّل الدكتور سيجو ما شاهد فيقول: والعظام تبدو كأنها أخرجت للتو من التراب وأن اثاره بادية عليها.

ويؤكد العالم بير بروجر على استعمال العظام في الصناعة، وشاع أن هذه العظام المستخرجة من المقابر الجزائرية تستعمل في صناعة السكر الأبيض، وهذا هو الذي جعل الأمير عبد القادر يصدر قراراً سنة (1838م) يحرم السكر الأبيض.

وقد أصدر الدوق دي روفيجو أمراً يوم (1831/12/17م) بإخلاء جامع كتشاوة وتحويله إلى كنيسة مركزية، وهاجم الجيش (4000) من السكان كانوا معتصمين به احتجاجاً على هذا القرار رافضين تسليمه، وأخرجهم الجنود بالقوة، ومات بالمسجد عدد من المعتصمين، وكانت مجموعة من المشائخ ضعيفي النفوس قد وافقوا على هذا القرار، ومنهم عبد القادر بو دربة الذي وعد بوسام الشرف.

وهذا القرار يخالف المعاهدة التي وقع عليها الجنرال بورمون يوم احتلال الجزائر، ووضعت الصلبان على الجامع، ودشن هذا الجامع كنيسة في يناير سنة (1832م)، وأرسل البابا غريغوار السادس عشر مباركته. وفي (أفريل - نيسان 1832م) أباد الجيش الفرنسي قبيلة عوفية بالحراش بنسائها ورجالها وأطفالها، وعاد الجنود لثكناتهم وهم يحملون على سيوفهم رؤوس شيوخ القبيلة. وبيعت بالأسواق عقود وأقراط وأسورة وعليها دم ضحاياها، وكانت

الأقراط معروضة وقطع من شحمات اذان صاحباتها لازالت لاصقة بها ؛ مما دفعت شيخ الزاوية سيدي السعدي إلى إعلان الجهاد في اجتماع جماهيري عقده في «سوق علي» قرب بوفاريك، وأسندت قيادة الجهاد لابن زعموم وانضم إليهما الباشا محيي الدين.

وفجأة سقط الدوق دي روفيجو مريضاً ونقل إلى باريس ليموت بعد أشهر بسرطان الفم، ويعلق الشعب الجزائري على ذلك بأنه انتقام من الله على فظائعه، وكان الدّاي حسين قد استقر في لجهورن بإيطاليا، ومن هناك راح يتصل بالجزائريين ويشتري السلاح ويرسله للجزائر، فقد كان يعد العدة لثورة مسلحة يقودها هو، لكن روفيجو الذي عمل وزير شرطة في عهد نابليون تمكن من كشف اتصالاته ؛ الأمر الذي جعله يصرف النظر كلياً عن دعمه للمقاومة، وينتقل إلى الإسكندرية سنة (1833م)، حيث بقي بها إلى أن توفي سنة (1838م).

احتلت القوات الفرنسية عنابة للمرة الثالثة في عهد دي روفيجو، لكنها لم تحاول احتلال قسنطينة لمناعتها، وحاول دي روفيجو الدخول مع أحمد باي في مفاوضات، وعرض عليه تعيينه باياً مستقلاً بقسنطينة مع ربط علاقة فرنسا، بوضع شبيه بالوضع الذي عرض على بكوات تونس، لكن أحمد باي رفض العرض، وأصر على مقاومة الاحتلال الفرنسي، وأعلن نفسه باشا الجزائر واعترف به سلطان الدولة العثمانية. وعندما فشل دي روفيجو مع أحمد باي بث جواسيسه بمنطقة قسنطينة وحاول إقناع بعض شيوخ القبائل على التمرد عليه مقدماً لهم سائر الإغراءات، وسقط الشيخ فرحات شيخ بسكرة في إغراء الدوق، وأرسل وفداً للدوق يعلن ولاءه، فحمله هدايا ثمينة للشيخ فرحات وعادوا إلى بسكرة بالهدايا. لكن المجاهدين ترصدوا لهم في متيجة وجردوهم من الهدايا، وعاد الوفد للدوق فأرسل جيشاً لمعاقبة

المجاهـدين، فتحـرك سـيدي السـعدي وشـنها حـرباً علـى الـدوق وجيشـه، حـرب كـر وفـر متجنبـاً المواجهـة، وكانـت نهايـة دي روفيجـو العـودة إلى فرنسـا مريضـاً كما سبق أن بيّنا.

وبضـغط مـن الثـائر سـيدي السـعدي، انسـحب محيـي الـدين ابـن السـيد علـي مبـارك، الـذي عـاد الفرنسـيون وعينـوه اغـا العـرب في القليعـة لـيحكم القبائـل باسمهـم، وانسـحب إلى جبـال منـاد، وبقـي بهـا إلى أن ظهـر الأمـير عبـد القـادر فانضـم لـه، وأحـس الحـاج سـيدي السـعدي بتقـدم سـنه، وعلـم بمبايعـة الأمـير، فانتقــل إلى معســكره بعــد أن أمــر أتباعــه باتبــاع الأمــير، وبقــي متعبــداً في معسكره إلى أن وافته المنية[1].

9 . أصوات فرنسية ضد الاحتلال:

وأمــام الخســائر الــتي تكبــدتها الخزينــة الفرنســية مــن جــراء مقاومــة الشــعب الجزائـري للاحـتلال؛ ارتفعـت أصـوات فرنسـية ضـد الاسـتعمار، وهـاجم عـدد مــن النــواب في جلســة مناقشــة الميزانيــة المصــروفات الاســتثنائية للاحــتلال، وطلبوا مـن الحكومـة الإسراع في تحريـر فرنسـا مـن عـبء الجزائـر الـذي لـن تقـوى علـى تحملـه فـترة طويلـة، ووقـف وزيـر الحربيـة المارشـال سـول واجمـاً أمـام هـذا النقــاش. لكــن الشــاعر لامــارتين أنقــذه وهــب لنجدتــه فصــاح: إن للسياســة وللشـرف الـوطني وزنـاً مثـل وزن الـذهب، وإخـلاء مدينـة الجزائـر سـيبقى لطخـة في تاريخ فرنسا.

وفي تاريــخ هــذا المجلــس حــتى الشــعراء تحــول بعضــهم إلى مــردة وشــياطين للاستعمار.

---

[1] المصدر نفسه ص 475 .

وفي يوم (1834/7/22م) صدر أمر ملكي بتحويل الجزائر من منطقة تخضع للاحتلال العسكري لقوات فرنسية إلى إحدى الممتلكات الفرنسية، وأن يتولاها حاكم عام للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا. وفي (1834/8/19م) وصدر مرسوم ملكي بتنظيم القضاء في الجزائر[1].

10. ظهور الشريف محيي الدين الحسني:

استمرت المقاومة وبقي الاحتلال محصوراً في مدن الجزائر ووهران وعنابة، وحاول الفرنسيون تعيين شيوخ قبائل على الأقاليم الداخلية يحكمون حكماً محلياً مع تسليمهم بالسيادة الفرنسية، فلم يجدوا من يتعاون معهم، وبقيت المقاومة مشتتة محلية إلى أن ظهر الأمير عبد القادر فحوّل هذه المقاومة من محلّية إلى وطنية.

وقد بدأ هذه الملحمة العظيمة والد الأمير عبد القادر، الشريف الهاشمي محيي الدين شيخ الطريقة القادرية، وينسب إلى بني هاشم أرومة الرسولﷺ[2].

كان محيي الدين بن مصطفى الحسني ذا مكانة ووقار وهيبة مميزة وكلمة مسموعة بين القبائل، حتى إن الولاة العثمانيين كانوا يحسبون له حساباً، ويحترمون نفوذه بين القبائل ويخشونه، فازدادت خبرات سيدي محيي الدين القتالية، وباشر الدعوة إلى الجهاد وتنظيم صفوف المقاومة خلال سنتين من الاحتلال ولكن بشكل غير منظم. وفي أواخر شهر أيار من عام (1832م) عقد اجتماعاً في مزرعة القيطنة التي ورثها عن أجداده الأدارسة، دعا إليها جميع رؤساء القبائل المجاورة والمدن المحتلة ووقف خطيباً قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

[1] المصدر نفسه ص 475 .
[2] المصدر نفسه ص 475 .

قُـوَّةٍ﴾[الأنفـال:60]، ودعـاهم إلى الجهـاد فسـاعدوه علـى تـدريب وتنظـيم قـوة جهاديـة، وتـلا علـيهم الآيات القرآنيـة الـتي تحث علـى مقاومـة الشـر والظلـم وقتـال المعتـدين. ومـن هـذه الآيات قولـه تعـالى: ﴿وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّـذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[البقرة:190].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾[الصف:4].

وكـان يرتـل هـذه الآيات بصـوت أدخـل الخشـوع علـى القلـوب الثـائرة، وعنـدما تم تـدريب تلـك القـوة علـى اسـتعمال السـلاح ورمـي السـهام ؛ كلّـف أحـد المجاهـدين وهـو السـيد عبـد القـادر بـن زيان باستكشـاف مراكـز المحتلـين بـوهران، فتسـلل متخفيـاً في جـوف الليـل، ولما قـرب مـن المدينـة شـاهد قـوات العـدو معسـكرة في سـاحة المدينـة في مكـان يسـمى خنـق النطـاح، فرجـع بهـذا الخـبر إلى سـيدي محيـي الـدين. وبعـد وضـع خطـة الهجـوم نادى بالجهـاد، فـاجتمع حولـه في مزرعـة القيطنـة الرجـال، واسـتقبلهم بصـيحة مدويـة «الله أكـبر»، وأسـرع النـاس إلى المقاومـة. فتقـدمهم إلى وادي سـيك وخـيّم في المرتفعـات المطلـة علـى معسـكرات العـدو، وانتظـر حـتى غطـى ظـلام الليـل تلـك المنـاطق، فـأمر بإشـعال النـيران بأعـالي الـتلال، وقبـل بـزوغ الفجـر انقـض الفرسـان علـى القـوات المتمركـزة في السـاحة مـن أربـع جهـات، ودارت معركـة داميـة بـين الفـريقين بالبنـادق والسـهام ثم التحمـوا بالسـلاح الأبـيض، وكـان الأمـير عبـد القـادر علـى مـتن جـواده الأشـقر يصـول ويجـول بـين الصـفوف ويحـرض المجاهـدين علـى الثبـات والصـبر بقولـه «دافعـوا عـن كـرامتكم وديـنكم أيهـا المجاهـدون» فبـادره أحـد جنـود العـدو برميـة مـن رمحـه تحـت إبطـه الأيسـر، فالتفـت إليـه وهـوى بسـيفه علـى الجنـدي المعتـدي فقـدّه نصـفين، وجـاء اخـر فرمـاه بحربـة فأصـابت جـواده بجـرح وعـدد مـن الطعنـات فسـقط الحصـان فقفـز علـى غـيره بسـرعة الـبرق وتابـع المعركـة، وانتصـف النهـار والمعركـة علـى أشـدها

وانتهت بهزيمة المعتدين. فانسحب من بقي منهم حياً تاركين قتلاهم في ساحة المدينة، فتبعهم الفرسان المجاهدون حتى أجهزوا عليهم قبل وصول النجدة إليهم[1].

وقد سجل الأمير عبد القادر هذه المعركة في قصيدة طويلة من (44) بيتاً، منها:

ألم تر في خنق النطاح نطاحنا ... غداة التقيناكم شجاع له لوى
وكم هامة ذاك النهار قددتها ... بحد حسامي والقنا طعنة شوى
وأشقر تحتي كلمته رماحهم مراراً ... ولم يشك الجوى بل وما التوى
بيوم قضى نحبا أخي فارتقى إلى ... جنان له فيها نبي الرضا أوى
فما ارتد من وقع السهام عنانه ... إلى أن أتاه الفوز برغم من عوى
ويوم قضى تحت جواد برمية ... وبي أحدقوا لولا أولو البأس والقوى
ولما بدا قرني بيمناه حربة ... وكفى بها نار بها الكبش يشتوى
فأيقن أني قابض الروح فانكفا ... يولي فوافاه حسامي منذ هوى
شددت عليهم شدة هاشمية ... وقد وردوا ورد المنايا على الغوى[2]

وعاد الشيخ محيي الدين مع ابنه الفارس بعد أن حقق هذا الانتصار في أول معركة يخوضها ضد العدو. عاد إلى وادي سيق حيث أقام هناك أياماً اتصل فيها بشيوخ قبائل الناحية، ثم توجه إلى القيطنة، بعد أن أذن للمجاهدين بالعودة إلى عشائرهم وانتظار أوامره مرة ثانية.

وبعد أيام دارت معركة خندق النطاح الثانية، فبعد أن استراح الشيخ محيي الدين أرسل للمجاهدين فتجمعوا من كل صوب وتوجه بهم إلى وهران، وما أن تقدم مسافة حتى شعر بوعكة صحية فعاد إلى بيته وسلم قيادة الجيش

---

[1] الأمير عيد القادر حياته وفكره ، بديعة الحسني الجزائري ص 19 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 477 .

لابنه عبد القادر وانتقل الأمير إلى وادي سيق، وانتظر هناك إلى أن التحق به فرسان القبائل ثم توجه إلى عين الكرمة القريبة من وهران، وعلم الجنرال بويه بتحرك الجيش المسلم فخرج من المدينة على رأس جيش عززه بفرق حضرت من فرنسا حديثاً، وعسكر في خنق النطاح، وكأنه صمم على الانتقام لهزيمة جيوشه في المكان نفسه قبل أيام.

قسم الجنرال جيشه إلى ثلاث فرق ؛ اثنتان للقتال وواحدة تركت احتياطياً، وعسكر الأمير في مواجهة العدو، وقسم قواته إلى خمس وحدات وحدتان تقاتلان ووحدتان للدفاع، ووحدة من الفرسان الخفاف كلفت بتطويق العدو من الخلف. ودارت المعركة، وهزم فيها جيش الجنرال، فانسحب نحو أسوار المدينة، وما كاد يتقدم حتى فاجأته وحدة التطويق والتحمت بقواته وقتلت العديد منهم، ولم ينج سوى الجنرال مع عدد قليل من ضباطه وجنده، وقتل مئة مجاهد في هذه المعركة منهم الفارس ذو الخمس عشرة سنة أحمد ابن أخ الأمير محمد السعيد، وقد كان فارساً شجاعاً، شاهده الأمير وفرسه يسقط ميتاً، فهجم الأمير مع ثلة من فرسانه على المكان وراحوا يحيطون به، وتقدم من الفارس الشاب وحمله على جواده وسط ذهول جنود العدو. وعاد الأمير منتصراً إلى والده الذي أمر المجاهدين بالتوجه لأسرهم وانتظار النداء القادم.

وأدرك الجنرال بويه قوة خصمه ومهارته، فاستنجد بالقيادة العامة بمدينة الجزائر التي أرسلت له تعزيزات هامة، فقرر خوض معركة ثالثة وفي نيته هزيمة المسلمين هذه المرة. وضرب معسكره في برج رأس العين غربي المدينة، ونقلت عيون المسلمين تفاصيل تحركات العدو للشيخ محيي الدين، فأمر بجمع الجموع، وخرج من حاضرته القيطنة وتوجه إلى وادي سيق، فعسكر هناك إلى أن تجمعت جموع المجاهدين، فعقد قيادتهم للأمير عبد القادر،

وتقدم الجيش المسلم إلى أن أطل على معسكر العدو، وبات على مشارف وهران وجنوده يهللون ويكبرون ويهزجون بأناشيد الجهاد التي اهتزت لها قلوب الأعداء، وعبأ الأمير جيشه إلى وحدات كل قبيلة لها مقاتلوها على رأسهم اختار ابناً من أبنائها.

ومع طلوع النهار بدأت المعركة، فاستعمل العدو مدفعيته فقذف بقنابلها المجاهدين الذين كانوا متحصنين وراء تلال وخنادق، وكان الأمير يقاتل وينتقل كالبرق بين المقاتلين يحثهم ويوجههم، وقتل في هذا اليوم أيضاً فرسه، فركب فرساً اخر واستمر يقاتل إلى أن خيم الليل فتوقف القتال. وعندما شعر الجنرال بويه بقوة المسلمين استغل سقوط الليل وانسل مع جنده إلى ما وراء أسوار المدينة. وفي الصباح أصدر الأمير أوامره بالعودة إلى حاضرته.

واستمر الشيخ محيي الدين مع ابنه عبد القادر يخوضون سلسلة من المعارك من شهر أيار ـ مايو وحتى شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر وعند ذلك تأكد للناس من قدرة الشيخ على جمع الصفوف وتوجيه الجهاد ضد العدو[1]، وتوجهت وفود من مناطق الجزائر إلى محيي الدين بعد أن اجتمعت في سهل غريس. وقرّر هؤلاء الزعماء بالإجماع انتخاب سيدي محيي الدين لحكم البلاد وقيادة كفاحها، وانطلقوا مجتمعين إلى مزرعته في القيطنة، حيث كان قد وصلها لزيارة قصيرة، ومازال منتصباً على صهوة جواده ببرنسه الأبيض وقامته المهيبة وسيفه على يمينه، هادئاً محتفظاً بتلك النظرة التي عرف بها، والتي لا تُرى إلا في أعين كبار القادة المجاهدين، تلك النظرة التي تنحني لها الجباه وتخفق لها القلوب احتراماً ورهبة ومحبة، فنزل من على جواده ورحب بالقادمين، ثم دعاهم إلى قاعة واسعة مفروشة بالسجاد العجمي والمقاعد

[1] المصدر نفسه ص 478 ، 479 .

الأنيقة داخل منزله الريفي الذي شيد من الحجر ويعلو سقفه القرميد الأحمر، يتقدمهم العلماء وكبار السن، وامتلأت القاعة.

ولم يفاجأ هذا الشيخ الوقور بقدوم هؤلاء القوم، وظنهم جاؤوا للتشاور وتبادل الآراء، ولكن عندما وقف أحد الزعماء قائلاً: لقد ادلهمّ الخطب وعمّت الفوضى في البلاد والعدوّ دخل المساجد، وأحرقت الكتب وهُدمت الدور على أصحابها، ولابد للبلاد من سلطان له سلطة شرعية، وقد اخترناك لتحمل هذه المسؤولية، فشكر السيد محيي الدين الجميع قائلاً: أشكر ثقتكم، ولكن أعتذر عن قبول هذا المنصب، فأنا الان أقوم بواجبي الديني والوطني مجاهداً في سبيل الله، كأي واحد منكم. فوقف زعيم اخر وأخذ يحاوره قائلاً: إن هذا المنصب يزيدك قوة، وهذا المنصب من سمات الجهاد لجمع الكلمة وإدارة شؤون العباد، ونحن هنا جميعاً جئنا لنشدّ على يدك الطاهرة مبايعين على الطاعة والجهاد، فلا تخذلنا، فالبلاد كما ترى بحاجة إلى رأس كحاجة البحارة إلى قبطان.

والتفت السيد محيي الدين إلى الجميع مخاطباً وقال: إن كان رأيكم وثقتكم بولدي عبد القادر كرأيكم بي فأنا متنازل له عن هذه البيعة، فتشاوروا فيما بينكم، وإذا عقدتم العزم فموعدنا في سهل غريس تحت شجرة الدردارة صباح الإثنين يوم الثالث من شهر رجب (1248هـ /1832م)[1]. وهذا ما تمّ وجاء الناس من كل حدب وصوب لمبايعة الأمير عبد القادر.

11 . الأسباب التي ساهمت في التفاف الناس حول محيي الدين:

كان لمحيي الدين مكانه في قومه لوفور فضله وحسن خلقه وسعة علمه وشدة تدينه، كما أن للنسب الشريف ولزعامته للطريقة القادرية أثراً في

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 23 .

التفاف الناس حوله.

أ . فبالنسبة للنسب:

فقد هاجر أحد أجداده إلى المغرب الأقصى وهو إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط من علي وفاطمة بنت محمد ﷺ، فلما وصل التفت حوله القبائل وبايعوه إماماً عليهم، وفي نهاية القرن الثامن بويع ولده إدريس الأصغر، ومن بعده أولاده وأحفاده، ودامت دولة الأدارسة في المغرب والأندلس حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر، رغم أن دولة الأدارسة زالت منذ زمن إلا أن الأسرة الإدريسية ولشرف نسبهم إلى النبي محمد ﷺ، بقي عزها واحترامها وإجلالها دائماً محفوظاً عند المغاربة عموماً. وبعد أن تخلت الدولة العثمانية بسبب ضعفها عن الأشراف السياسي على شؤون البلاد، وتخلى المغرب عن مساعدة الجزائر، لم يبق أهلها مكتوفي الأيدي أمام المحتل الفرنسي، فالتفّت القبائل حول السيد محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار الحسين الهاشمي القرشي، ففضلاً عن أن أسرته من الأشراف الأدارسة بالمغرب الأوسط أي الجزائر، فقد كانت له منزلته الرفيعة ومكانته العظيمة في نفوس الأهالي[1].

ب . الطريقة القادرية:

كان التصوف والانتساب إلى الطرق الصوفية من صفات ذلك العصر، والسيد محيي الدين الذي عاش بين عامي (1776م إلى 1833م) كان منتمياً إلى الطريقة القادرية وممثليها في المغرب الأوسط. ولم يكن لهذا الانتماء مزية في ذلك العصر لأن معظم الناس والعلماء خاصة في مصر والمغرب العربي كانوا ينتمون إلى الطرق الصوفية، التي كانت منتشرة آنذاك

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ، د. عبد الكريم منصور ص 72 .

وذات أتبـاع كُثُـر كالطريقـة الشـاذلية والدرقاويـة والطيبيـة والزيانيـة والخلوتيـة والناصـرية والرحمانيـة وغيرهـا. وكـان الـذين التفـوا حـول السـيد محيـي الـدين وسـاروا معـه علـى درب الجهـاد ونصـرة الإسـلام وجمـع الكلمـة وتوحيـد الجزائـريين تحـت رايـة المقاومـة والجهـاد مـن مختلـف الطـرق وألـوان الطيـف الشـعبي[1]، والطريقـة القادريـة تنسـب إلى الشـيخ عبـد القـادر بـن أبي صـالح بـن أبي عبـد الله بـن يحـي الزاهـد بـن محمـد بـن داود بـن موسـى بـن عبـد الله بـن موسـى بـن الحسـن المثنى بـن الحسـن بـن علـي بـن أبي طالـب[2]، وتكـاد تجمـع كتـب السـير والـتراجم علـى أن كنيتـه: أبـو محمـد ونسـبته الجـيلاني. وأمـا الألقـاب الـتي أطلقـت عليـه فكثـيرة، منهـا: الإمـام، وإمـام الحنابلـة، وشـيخهم في عصـره. نقلـه عنـه ابـن رجـب. ومنهـا: لقـب شـيخ الإسـلام أطلقـه عليـه الذهبي[3].

ولـد الشـيخ عبـد القـادر في بلـدة جـيلان وراء طبرسـتان وذلـك سـنة إحـدى وسبعين وأربعمئة للهجرة، وقيل إنه ولد سنة سبعين وأربعمئة هجرية[4].

ويكفـي في معرفـة سـيرة الشـيخ عبـد القـادر الجـيلاني العلميـة ثنـاء شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة عليـه، فقـد شـهد ابـن تيميـة للشـيخ عبـد القـادر بأنـه مـن الشـيوخ الكبـار[5]، ثم شـهد لـه أنـه مـن أعظـم مشـايخ زمانـه في الأمـر بالتمسـك بالشـريعة الغـراء، فيقـول: والشـيخ عبـد القـادر ونحـوه مـن أعظـم مشـايخ زمـانهم أمـراً بالتـزام الشـرع والأمـر والنهـي وتقديمـه علـى الـذوق، ومـن أعظـم المشـايخ أمـراً بـترك الهوى والإرادة النفسية[6].

---

[1] المصدر نفسه ص 73 .
[2] الشيخ عبد القادر ، د. سعيد القحطاني ص 28 .
[3] سير أعلام النبلاء (439/20) .
[4] المصدر نفسه (439/20) .
[5] الإمام عبد القادر الجيلاني للصلابي ص 10 .
[6] المصدر نفسه ص 10 .

وقال القاضي أبو عبد الله المقدسي قال: سمعت شيخنا موفق الدين ابن قدامة يقول: دخلنا بغداد سنة (561هـ) فإذا الشيخ الإمام محيي الدين عبد القادر ممن مثله انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً وإفتاءً، وكان يكفي طالب العلم عن قصد غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر، وكان ملء العين، وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة، وما رأيت بعده مثله وكل الصيد في جوف الفرا[1].

وقال ابن الجوزي عنه: تكلم على الناس بلسان الوعظ، وظهر له صيت بالزهد، وكان له سمت وصمت، وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير[2].

ج . منهج الشيخ عبد القادر في توضيح العقيدة:

بيّن رحمه الله عقيدته بوضوح، وكثيراً ما كان يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة[3]، ومن خلال دراسة مؤلفات الشيخ عبد القادر الجيلاني يلاحظ الباحث أن له منهجاً واضح المعالم في إيضاح القضايا التي يعالجها خصوصاً قضايا العقيدة. ويمكن تلخيص منهجه:

- **تعريفه للإيمان:**

نعتقد أن الإيمان قول باللسان، ومعرفة بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل، وبالتوفيق يقع[4].

---

[1] الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (294/1) .
[2] الإمام عبد القادر الجيلاني للصلابي ص 17 .
[3] سير أعلام النبلاء (442/20) .
[4] الغنية للجيلاني (62/1) .

■ **حرصه على عدم الخروج**

عـن مـدلول الآيات القرآنيـة والأحاديـث النبويـة في إثبـات الأسمـاء والصـفات لله عـز وجـل: يـدل علـى ذلـك قولـه: ولا نخـرج عـن الكتـاب والسـنة، نقـرأ الآيـة والخبر ونؤمن بما فيها، ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله.[1]

■ **الإمساك عما لم يرد ذكره في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ**

مـن إثبـات أو نفـي، وهـذا واضـح جلـيّ في قولـه: ونعـوذ بالله مـن أن نقـول فيـه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله ﷺ[2].

■ **شروط قبول العبادة،**

وقـد قـرر الشـيخ عبـد القـادر الجـيلاني ضـرورة تـوفر الإخـلاص والمتابعـة في العبـادة، وبـيّن أن مجـرد النطـق بالشـهادتين وأداء الأعمـال الـتي تقتضـيها لا يكفـي إلا بعـد تحقـق الشـرطين[3]. يقـول: إذا عملـت هـذه الأعمـال . يعـني الإتيـان بالأوامـر وتـرك النـواهي، لا تقبـل منـك إلا بالإخـلاص فـلا يقبـل قـول بلا عمل ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة.

ويقـول في موضـوع اخـر: وجميـع مـا ذكـرناه مـن صـيام الأشـهر والأضـحية والعبـادات مـن الصـلاة والأذكـار وغـير ذلـك ؛ لا يقبـل إلا بعـد التوبـة وطهـارة القلب وإخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء والسمعة[4].

وحـذر كثـيراً مـن الـرياء والعجـب وذلـك لخطورتـه علـى ديـن العبـد، ولسـهولة وقـوع الإنسـان فيـه فقـال: ينبغـي لكـل متعبـد عـارف أن يحـذر في جميـع أحوالـه

[1] الشيخ عبد القادر للقحطاني ص 72 .
[2] الإمام عبد القادر الجيلاني ص 19 .
[3] المصدر نفسه ص 25 .
[4] المصدر نفسه ص 25 .

من الرياء ورؤية الخلق والعُجب فإن النفس خبيثة، وهي منشأ الأهواء المضلة والشهوات المردية واللذات الحائلة بين العبد وبين الحق عز وجل[1].

القضاء والقدر:

يقول الشيخ عبد القادر: ينبغي للعبد أن يؤمن بخير القدر وشره وحلو القضاء ومره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر، وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب، وأن جميع ما كان من سالف الدهور والأزمان، وما يكون إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور، وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور[2].

أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة:

يقول الشيخ عبد القادر: لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة. ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فلا تفلح أبداً[3].

ذم البدع والتحذير منها:

حذر الشيخ عبد القادر من الابتداع في الدين وأوصى بالاتباع، ويقرن ذلك بوصيته بالتوحيد وضرورة مجانبة الشرك، حيث يقول: اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تمرقوا، ووحدوا ولا تشركوا[4].

وبيّن أن أساس الخير في متابعة النبي ﷺ فيقول: أساس الخير في متابعة النبيﷺ في قوله وفعله[5].

[1] الغنية للجيلاني (67/2) .
[2] الغنية (65/1) .
[3] الإمام عبد القادر ص 41 .
[4] المصدر نفسه ص 41 .
[5] الغنية للجيلاني (79/1) .

■ مفهوم التصوف عند الشيخ عبد القادر:

رسم الشيخ عبد القادر الجيلاني منهجاً متكاملاً للتصوف يجمع بين العلم الشرعي المؤسس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبين التطبيق العملي والالتزام بالشرع، فقد قال: انظر لنفسك نظر رحمة وشفقة، واجعل الكتاب والسنة أمامك وانظر فيها واعمل بهما ولا تغتر بالقيل والقال والهوس، قال تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾[الحشر:17]. ولا تخالفوه فتتركوا العمل بما جاء به، ولا تخترعوا لأنفسكم عملاً وعبادة كما قال الله عز وجل في حق قوم ضلوا سواء السبيل ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾[الحديد:27] [1].

وقال: يا قوم انصحوا القران بالعمل به لا بالمجادلة فيه، الاعتقاد كلمات يسيرة والأعمال كثيرة. عليكم بالإيمان به صدقوا بقلوبكم واعملوا بقلوبكم واعملوا بجوارحكم واشتغلوا بما ينفعكم ولا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية[2].

■ تعريف التصوف:

قال الشيخ عبد القادر: التصوف هو الصدق مع الحق، وحسن الخُلقُ مع الخَلْق[3]. وقال: هو تقوى الله وطاعته، ولزوم ظاهر الشرع، وسلامة الصدر، وسخاء النفس، وبشاشة الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى، وتحمل الأذى، والفقر، وحفظ حرمات المشايخ، والعشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر، وترك الخصومة، والإرفاق، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، وترك صحبة من ليس من طبقتهم، والمعاونة في أمر الدين والدنيا.

---

[1] الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الحادي عشر ص 41 .
[2] فتح الغيب للجيلاني المقالة السابعة والخمسون ص 166 .
[3] زاد المعاد في هدى خير العباد (71/1) .

وبيّن الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التصوف يقوم على خصال منها:

ـ **السخاء**: ويجعل القدوة في ذلك خليل الرحمن إبراهيم الذي اشتهر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بذلك.

ـ **الصبر**: والقدوة في التخلق بهذا الخلق العظيم أيوب عليه السلام، فقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص:44].

وذلك لما تحلى به من الصبر لمواجهة تلك الابتلاءات العظيمة التي لا يكاد يطيقها بشر في جسده وماله وولده.

ـ **الإشارة**: ويذكر أن القدوة فيها هو زكريا عليه السلام، وكأنه يشير بهذا إلى سرعة بديهته وشدة فهمه وذكائه عليه السلام، فإنه لما رأى أن الله يرزق مريم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء أدرك بفطنته مدى قدرة الله عز وجل وعدم ارتباطها بالأسباب، وأن الله قادر على أن يرزقه ولداً ولو كان شيخاً كبيراً قد وهن عظمه واشتغل بالشيب رأسه مع كبر أمرأته فدعا الله وناداه وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[آل عمران: 38][1].

. **السياحة**: ويذكر أن القدوة فيها هو عيسى ابن مريم عليه السلام.

ـ **الفقر**: ولاشك أن أعظم الناس اتصافاً بهذا الوصف ـ الافتقار إلى الله وصدق اللجوء والاعتماد عليه ـ هو خير البشر وسيد ولد ادم محمد ﷺ، والشواهد على هذا كثيرة جداً في سيرته العظيمة[2].

---

[1] فتوح الغيب للجيلاني ، المقالة الخامسة والسبعون ص 166 .

[2] الغنية للجيلاني (160/2) .

ووضع الشيخ عبد القادر الجيلاني ضابطاً دقيقاً للصوفي فيقول: الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[1].

ويقول: الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه عز وجل، وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخُلق وتعفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب، وتجرده عما سوى مولاه عز وجل[2]. وقد تأثر الشيخ عبد القادر الجيلاني بالإمام الغزالي الذي اشتهر أمره وذاع صيته في بداية نشأة عبد القادر، ويظهر تأثر الشيخ عبد القادر به في كتابه «الغنية»، حيث التشابه بينه وبين كتاب الأحياء للغزالي[3].

وفي نظري أن الشيخ عبد القادر بسط تعاليم الغزالي ونقحها وزاد عليها، فكوّن تياراً إسلامياً متماسكاً، وحوّل هذا التيار إلى عمل جماعي منظم منضبط، واستطاع تكوين صف قيادي مساعد له، ساهم في تشكيل التيار الإسلامي العريض[4]، الذي دفع بحركة الجهاد في عهد السلطان نور الدين زنكي.

■ إصلاح التصوف:

أعطى الشيخ عبد القادر عناية خاصة لإصلاح التصوف وإعادته إلى مفهوم «الزهد»، ثم توظيفه لأداء دوره في خدمة الإسلام وإصلاح المجتمع. ولقد تمثلت جهوده في هذا الميدان بـ:

---

[1] الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الخامس والعشرون ص 90 .
[2] الإمام عبد القادر الجيلاني ص 47 .
[3] الشيخ عبد القادر الجيلاني ص 518 .
[4] الإمام عبد القادر الجيلاني ص 49 .

■ **تنقية التصوف:**

تنقية التصوف مما طرأ عليه من انحرافات في الفكر والممارسة، ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربوية هدفها الأساس غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح. ويمثل كتاباه «الغنية لطالبي طريق الحق» و«فتوح الغيب» خلاصة أفكاره في هذا المجال، ولقد تناول الكتابَ الثاني بالشرح ابنُ تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى «كتاب السلوك» وقدمه نموذجاً للزهد الذي حث عليه القران الكريم والسنة الشريفة، ولم يكن عبد القادر في هذه المهمة يعتمد على البحث النظري أو الحديث الوعظي، وإنما طبقه في ميدان التربية العملية في مدرسته ورباطه[1].

■ **الحملة على المتطرفين من الصوفية:**

حمل عبد القادر في مواعظه وكتبه على من تلبّسوا بالتصوف أو شوّهوا معناه، لأن التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحققان بتغيير الخرق وتصفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاه عز وجل[2]، كذلك انتقد ما شاع بين بعض الصوفية من سماع الألحان والرقص وبدع لا تتفق مع الكتاب والسنة. وقرر أن المريد الصادق لا يهيجه كلام غير كلام الله، وهو في غنى عن الأشعار والقيان والأصوات وصراخ المدّعين وشركاء الشياطين ركاب الأهوية مطايا النفوس والطباع أتباع كل ناعق وزاعق[3].

---

[1] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ماجد عرسان الكيلاني ص 209 .
[2] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 209 .
[3] المصدر نفسه ص 209 .

■ **محاولة التنسيق بين الطرق الصوفية وإيجاد التالف بينها:**

في الفترة الواقعة بين عامي (546هـ . 550هـ /1151م . 1155م) جرت حركة تنسيق واتصالات بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، ولتحقيق هذا الهدف عقد عدداً من الاجتماعات واللقاءات أدت إلى نتائج هامة على المستوى التنظيمي والمستوى النظري. وتصدر الشيخ عبد القادر الزعامة، وكان أول الاجتماعات استهدف توحيد القيادة باجتماع عقد في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد، حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني خلال موسم الحج حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء:

. الشيخ عبد القادر الجيلاني من العراق.

ـ والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر.

ـ والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب في ذاك العصر.

ـ كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم[1].

وفي نفس الفترة جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ رسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام[2].

---

[1] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 245 .
[2] المصدر نفسه ص 245 .

ثم تلا ذلك اجتماع موسع حضره جمع كبير من الشيوخ الذين يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي. ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء اثار هامة من أهمها:

ـ خروج الزهد من عزلته التي كان فيها في حالة التصوف، وإسهامه في مواجهة التحديات التي تجابه العالم الإسلامي، فقد توثقت الصلات بين نور الدين زنكي في دمشق وبين شيوخ مدارس الإصلاح في بغداد وحرّان وجبال عكار ودمشق، ثم أعقب ذلك تداعي هذه المدارس للعمل مع نور الدين وصلاح الدين، واستمر هذا التعاون، حيث أولى السلطانان عنايتهما الفائقة بمدارس الزهد وبنيا لها فروعاً جديدة وأوقفا عليها الأوقاف، وفي المقابل حملت هذه المدارس مسؤولياتها، وأخذت دورها في التوجيه المعنوي للجهاد بطريقة فعالة[1].

إن الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني من المدارس السنية ؛ التي كانت تؤمن بالجهاد في سبيل الله تعالى، واشتهر من علمائها أفاضل وأكابر في العالم الإسلامي وفي بلاد المغرب وتوارثتها الأجيال واستفادت من تعاليمها ومناهجها التربوية، وكان من المتقدمين فيها السيد محيي الدين بن مصطفى الحسني والد الأمير عبد القادر الجيلاني، ولقد دلت الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل لمواجهة الخطر الصليبي في البلاد الشامية[2]، وتدل الإشارات والشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين

---

[1] المصدر نفسه ص 274.

[2] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 275 .

كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، كذلك كانت الشام منطقة جذب لرجالات الدين والمتحمسين لنصر الإسلام وجهاد الأعداء، وتبدو مظاهر التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية في الاتي:

- **الإسهام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي:**

فقد قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة، ولقد كان هؤلاء الطلاب يُعرفون باسم «المقادسة» نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس وكان من بين هؤلاء الطلاب من اشتهر فيما بعد في ميدان الفقه والسياسة، ويمكن القول إن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه **الأول**: حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين.

والثاني: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر والسلطان المجاهد الكبير نور الدين محمود زنكي، فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية[1].

[1] الشيخ عبد القادر الإمام الزاهد القدوة ص 275 .

وكانـت المدرسـة القادريـة والقيـادة الزنكيـة تُعِـدّ أبنـاء النـازحين لقيـادة حركـة الجهـاد بـدل أن تأتي علـيهم حيـاة التشـرد والضـياع، أو أن يجـدوا طـريقهم إلى المدارس العادية التي كانت تعد الطلاب للوظائف والمصالح الشخصية[1].

■ **المشاركة في ميادين سياسية:**

اشـتغل نفـر مـن تلاميـذ المدرسـة القادريـة مـع نـور الـدين ثم صـلاح الـدين في السياسـة، ولعـب بعضـهم أدواراً في غايـة الخطـورة. ومـن الأمثلـة علـى ذلـك: أسـعد بـن المنجـا بـن بركـات، فقـد أشـار ابـن رجـب بالإضـافة إلى عملـه في التـدريس والقضـاء أنـه كـان لـه اتصـال بالملـوك وخدمـة السـلاطين[2]، وكـذلك زيـن الـدين علـي بـن إبـراهيم بـن نجـا الـواعظ الأنصـاري الدمشـقي، الـذي وصـف لقـاءه بالشـيخ عبـد القـادر فقـال: فاشـتغلت عليـه بالعلـم ففـتح الله علـيّ في سنة بما لم يفتح على غيري في عشرين سنة وتكلمت ببغداد[3].

ولقـد قُـدّر لابـن نجـا هـذا أن يكـون مـن رجـال صـلاح الـدين ومستشـاريه، وقـد أرسـله الشـيخ عبـد القـادر الجـيلاني للشـيخ عثمـان بـن مـرزوق القرشـي قائـد المعارضـة السـنية بمصـر وشـيخ المدرسـة الإصـلاحية في مصـر، وقـد قـام ابـن نجـا بـدور خطـير وهـام في زحـف جـيش نـور الـدين محمـود زنكـي إلى مصـر، الـذي انتهـى بفتحهـا وتوحيـدها مـع الشـام وتخلـيص الأمـة مـن الدولـة الفاطميـة الشـيعية. فلـو تتبعنـا مسـيرة ابـن نجـا هـذا بعـد أن اسـتأذن عبـد القـادر بالرحيـل إلى مصـر لوجـدناه يتوجـه إلى دمشـق، ويسـتقر بهـا مـدة ليسـت قصـيرة حيـث اشـتغل بالـوعظ والتـدريس، ثم وفـد إلى بغـداد عـام (564هــ /1168م) رسـولاً لنـور الـدين حيـث خلـع عليـه الخليفـة، وبعـد ذلـك مباشـرة يـدخل مصـر

[1] الإمام عبد القادر للصلابي ص 114 .
[2] طبقات الحنابلة (49/2) ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 279 .
[3] قلائد الجواهر ص 33 للتادفي .

ويتصل بالخلافة الفاطمية وينال الحظوة عند حكام الدولة الفاطمية[1]، ويذكر ابن رجب أن ابن نجا الواعظ زار الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي المتحمس لعبد القادر وسأله عن إمكانية قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر، فكان جواب الشيخ هو المشورة بالانتظار مدة، فكل محاولة سريعة لابد أن تفشل فجرى الأمر كما ذكر[2].

وكان الشيخ عثمان يرى أن يسبق غزو أسد الدين شيركوه ـ أحد قادة نور الدين محمود زنكي وعمّ صلاح الدين الأيوبي ـ لمصر مزيداً من تهيئة الأجواء العامة لاستقباله، بما يشيعه زعماء التصوف السني والوعاظ عن الخير الذي سيصحب قدومه، وأما عن حظوة ابن نجا في بلاط الفاطميين، فكانت من ضمن الخطة التي استهدفت اختراق البلاط الفاطمي لمعرفة مواطن الضعف والقوة عندهم، ودعم التعبئة الفكرية التي كان يقودها أمثال الشيخ ابن مرزوق، لأن ابن نجا قد قام بنفس الدور الاستطلاعي في مناسبة تالية[3].

وتبدو أهمية الدور الذي لعبه زين الدين بن نجا في كشفه لمؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين عام 569هـ /1173م[4].

■ وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني:

أجمع المؤرخون على أن الشيخ عبد القادر الجيلاني قد توفي عام (561هـ)[5]، وقد عاش عبد القادر إحدى وتسعين سنة[6].

---

1 مرآة الزمان (515/8) سبط ابن الجوزي .
2 طبقات الحنابلة (308/1) .
3 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 282 .
4 الإمام عبد القادر ص 118 .
5 المصدر نفسه ص 121 .
6 المصدر نفسه ص 121 .

وقيل أنه لم يمرض في حياته مرضاً شديداً سوى مرض موته الذي دام يوماً وليلة فقط[1]، وقد سأله ابنه عن مرضه فقال له: لا يسألني أحد عن شيء، أنا أتقلب في علم الله عز وجل، إن مرضي لا يعلمه أحد، ولا يعقله أحد. وسأله ابنه الشيخ عبد الجبار: ماذا يؤلمك من جسمك؟ فقال: جميع أعضائي إلا قلبي فما به ألم وهو مع الله. وكان يقول رحمه الله تعالى: أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت، وكان يرفع يديه ويمدهما وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد: استعنت بلا إله إلا الله، سبحان من تعزز بالقدرة وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد تعذر عليه التلفظ بكلمة تعزز فظل يرددها حتى تلفظ بها، ثم أخذ يردد: الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة[2].

قال عنه الإمام الذهبي: ليس من كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر، لكن كثيراً منها لا تصح وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة[3].

وقال الحافظ المفسر ابن كثير: وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وله سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه زهد كبير، وله أحوال ومكاشفات، ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً ورعاً وقد صنّف كتابه «الغنية» «وفتوح الغيب» وفيهما أشياء حسنة، ولكن ذكر فيهما

---

[1] المصدر نفسه ص 121 .
[2] الإمام عبد القادر ص 121 .
[3] سير أعلام النبلاء (450/20) .

أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة. وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار قدّس الله روحه ونوّر ضريحه[1].

هذه ملامح ومعالم عن الطريقة القادرية التي سار عليها قادة الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي من أمثال الشيخ الشريف محيي الدين وابنه الأمير عبد القادر الجزائري.

* * *

[1] البداية والنهاية (420/16) .

المبحث الثالث : الأمير عبد القادر الجزائري

أولاً: نسبه ونشأته:

1. نسبه:

هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن مختار بن عبد القادر ابن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خده بن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاوس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر ابن إدريس الأكبر بن عبد الله المحصن بن حسن المثنى بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود محمد رسول الله ﷺ[1].

فقد كانت أسرة الأمير عبد القادر تعتز بامتداد حلقاتها إلى هذا المعدن الشريف، ففي القرن الثامن هاجر إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ إلى المغرب، هارباً من بطش العباسيين، وأنشأ دولة الأدارسة وعاصمتها فاس، ودام حكمها حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وبعد أن سكنت بعض سلالات العائلة الكبيرة الأندلس انتقل أحد أجداده عبد القوي الأول في نهاية القرن الخامس عشر بعد سقوطها عام (1492م)، واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف[2].

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري ، بديعة الحسني ص 33 .مير عبد ا

[2] حوار مع الامير عبد القادر ص 9.

وذكر محمد محمد الجوزي أن عبد القادر بن أحمد المعروف بابن خده . وهي مرضعته .كان حاكماً لمناطق غريس، عالماً مهيباً فقيهاً، تولى الرئاسة بعد موت من خلفهم من أجداده الأدارسة وألف كتباً كثيرة، وتوفي رحمه الله في القرن العاشر للهجرة[1]،وأما جده مصطفى فقد أسس الزاوية القادرية، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني بعد أن زار مدينة بغداد عام (1791م). واشتهرت أسرته بالورع، وكانت قدوة للناس في الجهاد والعلم. وتوفي جده مصطفى بعين غزالة قرب مدينة درنة في إقليم برقة شرق ليبيا عام (1797م) عند عودته من الحج، ودفن في نفس المكان وما يزال قبره معروفاً حتى الآن.

ولد والده محيي الدين بقرية القيطنة عام (1776م) ودرس على يد أبيه مصطفى وورث عنه مشيخة الزاوية القادرية، واشتهر والده بسداد الرأي وغزارة العلم، وقاوم ظلم بايات الغرب الجزائري منذ عهد علي قارة الذي حكم من عام (1812م إلى 1817م)، واخرهم حسن بن موسى الذي حكم من (1827م حتى 1830م).

2 . مولده ونشأته:

ولد في (25 سبتمبر 1807م) في قرية القيطنة، وأمه السيدة بنت عبد القادر ابن خدة، وهي تنحدر من بيت علم وتقوى من أولاد سيدي عمر بن دوحة[2]. تلقى دروسه الابتدائية في مسقط رأسه تحت إشراف والده، الذي بذل قصارى جهده ولم يدخر جهداً في سبيل ذلك، فأخذ عنه القراءة والكتابة وأتقنها في سن مبكرة جداً، ولفت نظر والده ذكاؤه ونبوغه، وختم القران الكريم قبل أن يبلغ الحادية عشرة، وأصبح فارساً يشار إليه، وبرع في

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 50 .
[2] المصدر نفسه ص50 .

تلقـي العلـوم التاريخيـة والفلسـفية والفقهيـة. وتعلـم مبـادئ شـتى العلـوم اللغويـة والشـرعية ونال درجـة الطالـب، وكلـف بتحفـيظ القـران للأطفـال وإلقـاء الـدروس والتفسـير في الزاويـة، ومـن أجـل إتمـام دراسـته سـافر عـام (1821م) إلى مدينـة أرزيـو السـاحلية الـتي تقـع شمـال مدينـة معسـكر علـى بعـد حـوالي سبعين كيلـو مـتر، وذلـك علـى يـد القاضـي الشـيخ أحمـد بـن الطـاهر البطيـوي، الـذي كـان مشـهوراً بغـزارة العلـم وسـعة الاطـلاع، وبعـدها رحـل إلى مدينـة وهـران إلى مدرسـة العـالم الفقيـه أحمـد بـن خوجـة، صـاحب رائعـة در الأعيـان في أخيـار وهـران، وتوسـع في المعـارف اللغويـة والفقهيـة والنحـو والبيـان والفلسـفة والمنطـق، وصـقل ملكاتـه الأدبيـة والشـعرية، واجتهـد في حضـور حلقـات العلـم لعلمـاء وهـران مثـل الشـيخ مصـطفى الهـاشمي والشـيخ بـن نقريـد، وقضـى عـامين كـاملين في هـذه الرحلـة العلميـة، ثم عـاد إلى مسـقط رأسـه وتـزوج بابنـة عمـه الانسـة خـيرة بنـت أبي طالـب عـام (1823م)، وأقـام في القيطنـة معلماً[1].

وكانـت لـه رحـلات علميـة للقـرويين والزيتونـة[2]، وكانـت البيئـة الـتي عـاش فيهـا بيئـة إسـلامية وتربويـة إيمانيـة واجتماعيـة متماسـكة، وفي ظلهـا تكونـت شخصـيته، وهـي الـتي أثـرت في تكوينـه النفسـي والجسـماني والفكـري والاجتماعي والسياسي، وهذا التكوين يعود إلى عوامل منها:

. العامل الوراثي والبيولوجي والعقلي للأمير.

. البيئة الثقافية والاجتماعية التي نشأ في ظلها وعاش فيها.

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 92 .

[2] فكر الأمير عبد القادر للأميرة بديعة الحسني الجزائري ص 69 .

لقد سمع الأمير عن ذلك التصرف من والده الذي لاشك قد حُفر في ذاكرته وهو محاربة والده لأصحاب الطرق الصوفية الشاذة. فقد جاء في كتاب تحفة الزائر: أصل ابن الشريف من الكسانة قبيلة بوادي العبد قرب غريس، أخذ العلم في صغره عن سيدي محيي الدين في مدرسة القيطنة، ثم رحل إلى المغرب الأقصى ولقي الشيخ العربي الدرقاوي وسلك طريقته، وقفل راجعاً إلى وطنه. وجاء إلى حضرة سيدي محيي الدين زائراً، وفي بعض الأيام تكلم بحضرته بما يوجب تأديبه شرعاً فأدبه سيدي الجد بالسياط واستتابه[1].

فهذا الحادث التاريخي ليس دليلاً فقط على منزلة والد الأمير عبد القادر ومكانته الاجتماعية والدينية، إنما هو دليل على الوقوف في وجه أصحاب الطرق المنحرفة، ومحاربة البدع، ومحاربة الابتعاد عن الشرع والسنة والإجماع. والأمير عبد القادر أيضاً أثناء حكمه وفي عهد دولته حارب أصحاب الطرق المنحرفة، ووقف في وجه نشر دعوتهم وفضح أمرها[2].

فالطرق الصوفية في شمال إفريقيا أحد الروافد الثقافية والفكرية، وقد تعامل معها العلماء وفق المعايير العلمية القائمة على العلم والإنصاف في الأفراد والمناهج، لقد كان السيد محيي الدين والد الأمير عبد القادر من الشخصيات المهمة في التأثير على ابنه الأمير وكان رجلاً مهاباً محترماً، ليس لكونه قادرياً كما تردده أقلام الدعاية . فقط . وإنما لكونه عالماً فقيهاً وحكيماً وشجاعاً. امتاز بالأخلاق الإسلامية والصفات الحميدة والنبل الكريم وعلوّ منزلته العلمية وهيبة قبيلته بني هاشم التي يمتد نسبها إلى الأدارسة؛ وحتى عند ولاة العثمانيين كانت له منزلة خاصة وكان مرهوب الجانب من قبلهم جميعاً بدافع تقدير ومحبة، فأمر طبيعي ظهور هذه الاثار

[1] تحفة الزائر ، محمد باشا (1/75-76) .
[2] فكر الأمير عبد القادر ص 68 .

الوراثية على أولاده ومنهم الأمير عبد القادر، فقد برزت هذه الاثار على الأمير في سن مبكرة من ذكاء ومواهب فكرية وسرعة بديهة وشجاعة ومهارة بفنون الفروسية من ركوب الخيل والسباحة واستعمال السيف إلى جانب نفس أبية وإيمان قوي ومحبة وجدانية وعقلية لخالق هذا الكون ومبدع تلك الطبيعة الغناء التي نشأ في أحضانها، فالحياة البسيطة في هذه المزرعة والمناخ السياسي الذي نشأ فيه، كان صحياً ومتماسكاً في جزء من دولة كبرى أمنت الاستقرار والازدهار للجزائر وحاربت البدع وأصحابها[1].

3. الأوصاف المعنوية:

لقد وصف العديد من المؤرخين الأذواق والعادات والسلوك الاجتماعي لعبد القادر منها:

كان يزدري الترف في الملبس، فكانت كسوته بسيطة ولكنها نظيفة، وكان غاية في التدين، ويحمل دوماً مسبحة لا يقف عن التسبيح بها ذاكراً اسم الله. وكان باستطاعته امتطاء الفرس لمدة يوم أو يومين، وكان زاهداً مثالياً، وكان الأكل عنده ـ على الأكثر ـ «الروينة»، وهي نوع من العصيدة مصنوعة من طحين وحليب في كمية صغيرة، فلم يكن يقبل الطعام إلا لقوته وليس لذاته، ويرى في قلة الأكل وفرة للصحة، هذا ما كان يقوله، وكان عفيفاً عن الأموال وكان يمتنع من اقتطاع أي شيء من الخزينة العامة لأغراضه الشخصية، وكان يراقب موظفيه ويمنعهم من الإسراف، كما كان يحب الكتب ويهتم بجمع المخطوطات، وكان يشجع الشعراء والكتاب الذين كانت أناشيدهم الملحمية تغذي إيمان المقاتلين. وكان يتذوق الشعر وله ملكة شعرية تدلنا أشعاره عليها وتسجل أشعاره فترة تجديد في الشعر

[1] المصدر نفسه ص 72 .

الجزائري، يكمن طابعها الجذاب دائماً في كونها ذات علاقة بالفعل والعمل وأنها تحمل إيمانه الوطني، فاللغة، والصورة المجازية، وتراكيب الأسلوب... كلها مهدت لتجديد أدبي ينسجم مع مرحلة النضال والكفاح والجهاد والبناء.

كما لم يكن قاسياً بطبعه، وخيرات الأرض لم تسيطر على قلبه، وقتاله للمسيحيين لكونهم معتدين غاصبين، لا لدينهم، وكان يؤم جنوده للصلاة يومياً. وكان يتأمل ويتدبر في معاني القران الكريم الذي كان زاده الروحي ومرجعه الكبير في خطبه ومواعظه، وكان يستلهم الصلابة والثبات والصمود من إيمانه العميق والمنهج الرباني في العسر واليسر والمنشط والمكره والرخاء والشدة[1].

4. الحج:

قال تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ *لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[الحج:27 . 29].

كانت قافلة الحجيج هي أهم قافلة دينية وتجارية في الوقت نفسه، تنطلق من شمال إفريقيا إلى المشرق، وكان هناك عدة طرق للحج، يذهب الحجيج المغاربة كل سنة إلى البقاع المقدسة مصحوبين بعدد كبير من الإبل المحملة بالبضائع من الأقمشة الصوفية والأحذية المغربية، كالبلغة والشواشي بل حتى العبيد السود أحياناً، فبعد أن يتجمع الحجيج في مدينة فاس وتازة بالمغرب الأقصى، ويكونون الركب الفاسي تنطلق القافلة، فمنهم من يأتي سائراً على

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة ، عبد القادر بو طالب ص 53 ، 54 .

قدميـه، والـبعض الاخـر يمتطـي الخيـل أو البغـال أو الحمـير أو الإبـل، وتعـبر الجزائـر سـواء عـن طريـق الجريـد عـبر عـين ماضـي والأغـواط وقريـة أولاد جـلال وبسـكرة لتصـل إلى مدينـة قـابس التونسـية، أو عـبر الطريـق السـاحلي مـروراً علـى وادي الشـلف وقسـنطينة ومدينـة تـونس، وخـلال مسـار الطريـق يتضـخم الركـب بحجـيج كـل بلـد، ثم تصـل القافلـة إلى طـرابلس بعـد رحلـة تـدوم أكثـر مـن شـهرين، وفي طـرابلس يسـتجمع الحجـيج قـواهم ثم يسـتأنفون رحلـتهم إلى أن يصـلوا إلى القـاهرة بعـد أربعـين أو خمسـين يومـاً أخـرى مـن السـفر، و بعـدما ينضـموا للركـب المصـري يتوجهـون مباشـرة إلى مكـة المكرمـة لأداء فريضـة الحـج بعـد أن يكونـوا قـد قطعـوا مسـافة أربعـة الاف وسـبعمئة كلـم تقريبـاً، وفي البقـاع المقدسـة تـتم مقايضـة السـلع المحملـة مـن المغـرب العـربي بالأقمشـة الموصـلية الحريرية الشرقية والأنسجة الفارسية والهندية الثمينة والعنبر والتوابل.

وبعـد أداء فريضـة الحـج ينصـرف الحجـاج عائـدين أدراجهـم، وفي القـاهرة يتـزود الحجـيج المغاربـة بمـا تبقـى لهـم مـن أمـوال بالحريـر الخـام والقطـن، وعنـد رجـوع الحـاج إلى بلـده يكـون قـد ضـاعف عـدة مـرات قيمـة البضـائع الـتي حملهـا معـه بعـدما اجتـاز ذهـاباً وإيابـاً حـوالي عشـرة الاف كـلـم، متحصـناً بالاعتمـاد علـى الله، واحتسـابه الأجـر والمثوبـة منـه، ومسـتعينين بالله للتغلـب علـى مخـاطر ومهالـك أثنـاء الطريـق مـن وباء أو اغتيـال مـن طـرف قطـاع الطـرق وعنـد وصـول كـل إلى بلـده يتوجـه التجـار الحجـيج مصـحوبين ببضـاعتهم مباشـرة إلى إحدى الأسواق الكبيرة لبيعها[1].

5. رحلة الأمير عبد القادر مع والده للحج:

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 53 ، 54 .

تحرك السيد محيي الدين مع ابنه عبد القادر إلى الحج عن طريق البر والبحر، فكانت بدايتهم من وهران مروراً بوادي الشلف وبرج حمزة، فمدينة قسنطينة، ثم محطة الكاف، ومنها إلى مدينة تونس. وكنا في كل محطة ننزل عند إخواننا وأحبائنا الذين فرحوا بمقدمنا ومقامنا عندهم. ومن تونس ركبنا البحر متجهين إلى الإسكندرية، فزرنا معالمها ووقفنا عند باب البحر عند مقامي الشيخ أبي العباس المرسي وأبي الحسين، وانتقلوا بعدها إلى القاهرة وزاروا بالمقطم مقام مرشد السالكين الشيخ ابن عطاء الله السكندري، أحد شيوخ الطريقة الشاذلية. كما زاروا مساجدها العريقة وتعرفوا على أعيان المدينة وكبرائها وجالسوا علماءها من أمثال الشيخ علي بن محمد الميلي، والشيخ المعروف بابن الأمير، وأعجبوا شديداً بما وصلت إليه الحياة في مصر من تقدم وازدهار في شتى المجالات العلمية والاقتصادية والصناعية، وكان ذلك في عهد محمد علي باشا، وقد تحدثنا عنه سابقاً، وبعد هذه الاستراحة في مصر سافرنا مع الركب المصري ووصلوا قناة السويس فركبوا البحر الأحمر نحو جدة ثم مكة المكرمة.

وبعد أداء فريضة الحج زاروا المدينة المنورة وصلوا على الرسول ﷺ أمام قبره وترحموا على الصحابة والتابعين المدفونين بالبقيع، ومن المدينة وصلوا إلى دمشق بصحبة الركب الشامي، ومكثوا فيها عدة أشهر، وتعرفوا على مشاهير الصلحاء والعلماء والأعلام، وكانوا يقضون جل وقتهم في الجامع الأموي دائبين على القراءات وحضور حلقات الدرس العلمية التي كان يدرس فيها كبار العلماء، وقرأوا الحديث وصحيح البخاري بالجامع الأموي على الإمام المحدث عبد الرحمن بن محمد الكزبري الشافعي الدمشقي محدث الديار الشامية، والمشهور بتدريس البخاري الشريف، وكانت عامة العلماء تحضره للأخذ عنه. وأخذوا العلم على يد غيره من علماء الشام، ثم توجهوا

إلى مدينة بغداد واستقر بهم المقام فيها، وزاروا مقام عبد القادر الجيلاني، وجددوا العهد مع نقيب الأشراف وشيخ السادة القادرية الشيخ محمود القادري الجيلاني. وبعد مقام عدة أشهر غادروا بغداد نحو الشام من جديد، ولم يتجهوا غرباً مباشرة لخطورة الطريق وانتشار قطاع الطرق، ومن الشام توجهوا إلى المدينة المنورة ثم مكة وأدوا مناسك الحج للمرة الثانية، وبعد أيام التشريق انصرفوا نحو القاهرة مع الركب الحجازي الذي قدم من المغرب العربي للحج في رحلة صيفية حارة عام (1828م). ومن القاهرة اتجهوا صوب إقليم برقة، وزاروا قبر والد محيي الدين بعين غزالة قرب قرية درنة. وبعد اجتيازهم للجبل الأخضر واصلوا الطريق الساحلي ووصلوا إلى مدينة بنغازي البحرية ومنها وصلوا الطريق غرباً. وتوقفوا بمصراتة على مقام سيدي أحمد بن عيسى البرنوسي الفاسي المشهور باسم الزروق، ثم اتجهوا إلى تاجورة طرابلس الغرب، وواصلوا السير حتى وصلوا إلى بن قردان بالجنوب الشرقي الساحلي لتونس ثم اتجهوا شمالاً إلى مدينة قابس، بعدها انحرفوا إلى القيروان، ثم شمالاً إلى الكاف على الحدود الغربية لتونس ومنها دخلوا إلى الجزائر ووصلوا قسنطينة ثم قلعة بني حماد ثم برج حمزة بالقرب من مدينة البويرة حالياً فوادي الشلف مروراً على المدية ومليانة وأخيراً وصلوا إلى أهلهم بمعسكر سالمين غانمين[1].

6 . نداؤه إلى سلطان المغرب ليأخذ بزمام المقاومة:

سبقت العودة من الأراضي المقدسة سقوط العاصمة بقليل، وكان رد الفعل تجاه الغزو الفرنسي في القطينة كمثيله في كافة أرجاء البلاد. وظن الناس في البداية أن الاحتلال لن يكون إلا مؤقتاً لأنه سبقت حالات أخرى مماثلة له

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 55 ، 56 .

ولم تـدم بـل مـرت كسـحابة صـيف، غـير أن القلـق قـد بلـغ معظـم الجزائـريين عنـدما ظهـر جليـاً أن فرنسـا كانـت تنـوي البقـاء نهائيـاً في الجزائـر ومـد غـزوهم إلى كافـة الـبلاد، وقـد أدى ذهـاب الأتـراك إلى فوضـى واضـطراب في الأرجـاء الداخليـة للـبلاد، وحـاول الشـيخ محيـي الـدين وابنـه عبـد القـادر أن يعيـدا إقـرار السلام.

كمـا كـان الحـال في كـل الأرباع الأخـرى مـن الـبلاد، وكـان الشـيخ محيـي الـدين قـد تـرأس العديـد مـن اجتماعـات الأعيـان المـرابطين حـول هـذا الموضـوع بالـذات، لقـد سـادت الفوضـى كـل الأرجـاء، واقـترح الشـيخ أن يلجـأ إلى سـلطان المغـرب الأقصـى ليقـود المقاومـة، ذلـك لأن قـوة منظمـة هـي الوحيـدة الكفيلـة بالوقـوف في وجـه الغـزو. قبلـت القبائـل هـذا المقـترح وبعثـت بوفـد إلى السـلطان مـولاي عبـد الـرحمن، ليقـترح عليـه قيـادة المقاومـة ضـد الغـزاة، وقبـل السـلطان ذلـك، وبعـث ابنـه الـذي أتـى علـى رأس جـيش صـغير مكـون مـن (500) فـارس ودخـل تلمسـان بموكـب ضـخم، فكانـت البشـرى والفـرح العـارم وكـان أهـالي الجزائـر مـع التضـامن المغـاربي لـدحر فرنسـا المعتديـة الغازيـة لـديار المسلمين.

كانـت سمـة السـلطان كبـيرة في أرجـاء الجزائـر وكانـت تـؤدى صـلاة الجمعـة باسمـه كمـا كانـت تـؤدى في مملكتـه نفسـها، ولكـن هـذا الأمـر لم يـدم، ودخـل السـلطان المغـربي مـع فرنسـا في اتفاقيـة مكنـاس بتـاريخ (22 مـارس 1832م) الـتي جـرت بـين السـلطان وممثـل المارشـال، وهكـذا فـإن الوصـاية المغربيـة علـى الجزائـر لم تـدم أكثـر مـن سـنة بقليـل، وكـان علـى الوفـد الجزائـري أن يغـادر

العاصمة المغربية دون الحصول على المساعدة المرغوب فيها ماعدا اعتراف سيدي محيي الدين بالسيادة ولو الاسمية للسلطان[1].

ثانياً: بيعته:

بعد الجهود العظيمة التي بذلها السيد محيي الدين للتصدي للغزاة وقيادة القبائل للجهاد في سبيل الله رأى الناس أهمية مبايعته، ولكنه اعتذر بكبر سنه، ودفع المواطنين للتفكير في مبايعة ابنه عبد القادر لقناعتهم بقدرته على ذلك. واتفق مع الأهالي على موعد لعقد البيعة صباح الإثنين يوم الثالث من شهر رجب (1248هـ /1832م) وفي ذلك الصباح المشرق لم يفاجأ سكان مناطق غريس بقدوم زعماء مناطق بعيدة، إذ كثيراً ما كانوا يأتون للاجتماع بالشريف محيي الدين في هذا المكان، ويجلسون تحت الدردارة للتشاور معه أو لعقد ندوات فقهية أو لحل مشكلة اجتماعية، ولكن هذه المرة لاحظ السكان أن العدد أكبر من المعتاد بكثير، ولابد أن الأمر جلل، وأخذوا يتهامسون فيما بينهم. وعندما علموا أن نجل الشريف محيي الدين مرشحٌ سلطاناً على البلاد كبّروا بأعلى أصواتهم «الله أكبر» ولم لا يكون وهو شاب قوي على درجة عالية من العلم وفارس شجاع، وسيم الطلعة، شريف النسب، كريم ومتواضع، ومعظم القبائل تكن لسيدي محيي الدين وأولاده محبة واحتراماً، وبعد ساعات غصّ المكان بوفود زعماء القبائل وأعيان المدن والأشراف والعلماء وزعماء القبائل الشرقية والغربية، عطاف وسنجاس وبنو القصير ومرابطو بيجاية وجميع بنو خديد وبنو العباس وعكرمة وفليتة والمطاملية ومجاهر والبرجية والدوائر والزمالة والغرابة واليعقوبية وخيموا في مناطق أريحة من مناطق غريس حول شجرة الدردار. وكان يجلس

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر .

في ظلها بصدر المكان الشريف محيي الدين بطلعته الوقور ولباسه الجزائري وحوله جميع أفراد عائلته من إخوة وأولاد عم وأبناء.

هذه الشجرة الموغلة في القدم كانت حتى الماضي البعيد مركزاً للاجتماعات والتشاور[1].

جلس عبد القادر إلى جانب والده وإخوته الذين علت وجوههم ابتسامة الرضا لأن كلاً منهم كان يدرك أن شقيقهم عبد القادر كان أكثرهم شجاعة وقوة تحمل وكانوا يحبونه ويفخرون به، ولم يبد أي منهم اعتراضاً على اختيار أبيهم له، وعندما اكتمل هذا الاجتماع التاريخي تقدم الوالد من عبد القادر مبايعاً وشد على يده قائلاً: كيف ستحكم البلاد يا ولدي،؟ أجاب عبد القادر: بالعدل والحق الذي أمر به رب العالمين، سأحمل القران بيد وعصا من حديد بيد أخرى، وسأسير على هدى كتاب الله وسنة رسوله، ثم التفت الوالد سيدي محيي الدين مخاطباً الجموع قائلاً لهم: إنه ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين لقب ليس سلطاناً ولا ملكاً وإنما أميراً عليكم أيها الأخوة المؤمنون، ثم تقدمت عائلته تشد على يده مبايعة، وتلاهم الأعيان ورؤساء القبائل حسب مراكزهم والعلماء والأشراف وكل من حضر ذلك الاجتماع التاريخي العظيم. وكان جميع زعماء القبائل يرتدون اللباس الجزائري القومي المهيب والأنيق وكأنهم في عيد[2].

1 . مكان التوقيع على نص المبايعة:

قبل مغادرة تلك الجموع المكان وقف الشريف محيي الدين فيهم إماماً وصلى صلاة العصر، وبعد أن صلى ركعتين صلاة الاستخارة، اقترح أن

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 24 .
[2] المصدر نفسه ص 35 .

يكون التوقيع على نص المبايعة في مسجد الحسن في عين البيضاء، فوافق الجميع لما لهذا المسجد من مكانة تاريخية حافلة بالأمجاد، لقد كان منبراً علمياً ومنطلقاً للمجاهدين عام (1797م) ضد الغزو الإسباني، وشيد الباي محمد بن عثمان في محازاته معهداً علمياً تخرج فيه أعداد كبيرة من الطلبة شاركوا في تحرير وهران من قبضة الإسبان، واختاروا موعداً ليوم التوقيع على المبايعة الثالث عشر من رمضان (1248هـ) والرابع من شباط ـ فبراير عام (1833م). وكان الشريف قد كلف منذ فترة أخاه العلامة علي بن أبي طالب بن مصطفى بن المختار بكتابة نص البيعة بمساعدة بعض العلماء والأشراف كالسيد محمد بن حوا، والعالم محمد الثعالبي، والسيد عبد الرحمن بن حسن الدحاوي وإخوته العلماء والسيد محمد بن عبد الله المشرفي، وعبد القادر بن محمد بو طالب، وفي هذه المناسبة رأى ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين ـ وقبل توقيع المبايعة ـ أن من واجبه إرسال رسالة إلى الخليفة العثماني السلطان محمود يخبره فيها بالأحداث وما الت إليه البلاد بعد استسلام الدّاي حسين، والفوضى التي حدثت، وعن مقاومة الغزو واستبسال أبناء الشعب بالدفاع عن دينهم وكرامتهم ودورهم ومساجدهم[1]

كان الأمير يكنّ كل الاحترام والتقدير للدولة العثمانية، وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في محله. وسرى خبر مبايعة عبد القادر بن محيي الدين بين القبائل، فأخذت الوفود تترى على دار الشريف محيي الدين في القيطنة راغبة بالطاعة والمبايعة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلى الجهاد، وفي الموعد المحدد وبعد صلاة الفجر انطلقت عائلة الشريف محيي الدين من القيطنة على متن الجياد نحو جنوب مدينة معسكر في ضاحية العين

[1] المصدر نفسه ص 27 .

البيضـاء، حيـث يقـع المسـجد المـذكور، الـذي اشـتهر أيضـاً بجمـال بنائـه وحدائقـه العاليـة الرشـيقة الـتي غطـى نصـفها الضـباب، وفـور وصـولهم قفـزوا عـن جيـادهم وسـلموها للسياسـي، ثم خلعـوا أحـذيتهم ووضـعوها في المكـان المخصـص، ودخلـوا قاعـة المسـجد الواسـعة المفروشـة بالسـجاد الفـاخر ولفّـوا حـول أجسـادهم برانسـهم البيضـاء، ثم جلـس الشـريف محيـي الـدين وإلى جانبـه أولاده، وعنـدما دخـل رؤسـاء القبائـل الجزائريـة وقـف عبـد القـادر بـن محيـي الـدين وفي عينيـه بريـق العـزم والإخـلاص والإيمـان، وقـد تزمّـل بـرداء الهيبـة الـتي اشتهر بها ووسامة المحيا وبياض البشرة وتناسق الجسم.[1]

2. خطبة الأمير عبد القادر في الجموع ونص البيعة:

خاطـب الأمـير زعمـاء القبائـل والأعيـان وممثلـي العشـائر والعلمـاء . بعـد ذكـر اسـم الله الـرحمن الـرحيم والصـلاة علـى رسـوله . بقولـه: إنـني لسـت أفضـلكم خلقـاً وشـجاعة وحكمـة، ولم يخطـر لي هـذا المنصـب يومـاً، ولكنـني أجـبرت عليـه كمـا تعلمـون فهـو مسـؤولية أمـام الله وأمـامكم، أرجـو منـه تعـالى التوفيـق والعـون، لتطهـير الـبلاد مـن الغـزاة، ورفـع رايـة الإسـلام عاليـة في سمـاء بـلادنا، فالإسـلام هـو الـذي وحـدّ قبائلنـا بعـد شـتات وجعلهـا قـوة لا تقهـر، تـدفعنا إلى ميـادين المجـد والشـرف، وجعلنـا إخـوة يحـب أحـدنا لأخيـه مـا يحـب لنفسـه، ولا فـرق بـين عـربي وأعجمـي ولا أبـيض ولا أسـود إلا بالتقـوى، وأمـرنا بالعـدل والمسـاواة، وإذا عـدنا إلى التـاريخ نجـد كـل مـن دخـل هـذه الـبلاد غـازياً مـن رومـان وفانـدال وإسـبان هـزمتهم قـوة بأس وشـجاعة الأجـداد، وكـان هـدف غـزوهم لـبلادنا إخضـاع شـعوبنا وإذلالهـا ونهـب خـيرات بـلادنا لـزيادة رفاهيـة شـعوبهم، والـذين حـالف النصـر أعلامهـم مـن الفـاتحين حملـوا إلى هـذه الـبلاد

---

[1] المصدر نفسه ص 28 .

حضارة إلهية، وشيدوا صروحاً من القيم باقية إلى الأبد، لا ينضب معينها ودخلوا هذه البلاد لتكون دعوة الإسلام حرة فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:107]. وشيدوا مدناً راقية لا تزال اثارها تشهد عليها في مدننا في فاس، وقرطبة، وغرناطة، وإشبيلية، وفي وهران، وقسنطينة، إخوتي في الإسلام!. أيها السادة زعماء القبائل والعلماء!. أيها المجاهدون من أبناء هذا الوطن العظيم!. سنكون أقوياء، سندافع عن الراية والرسالة التي حملها لنا طارق بن زياد وموسى بن نصير، وسيظل ارتباطنا وثيقاً بدولة الخلافة العثمانية ارتباطاً روحياً بنظامها الإسلامي، ولن نكون جاحدين لأعمال الأخيار من الولاة في خدمة الإسلام ومحاربتهم لقوى الشر في بلادنا، ولن تخرج دولتنا عن طاعة الخليفة، ولن نكون عوناً لأعدائها عليها، وكما قال والدي: هذا المنصب الذي اخترتموني له لن يكون متوارثاً، وأرفض لقب سلطان أو ملك ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[التوبة:129]. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

فلاقت هذه الخطبة حماساً منقطع النظير من جموع الحاضرين، وضج المسجد بأصوات الرجال «الله أكبر». ثم نهض العالم الفقيه محمد بن حوا، وكان يرتدي الثوب الجزائري وفوقه البرنس الأبيض وعلى رأسه العمامة البيضاء، وقرأ نص المبايعة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله أجمعين، بعد مبايعة الإمام الجليل الشريف محيي الدين، وتنازله عنها لولده عبد القادر بن محيي الدين، أحيا الله بهما الدين، وأعانهما على القيام بإعلاء

[1] المصدر نفسه ص 29 .

كلمته، وأهلك بدولتهما أهل البغي والفساد والغزاة المعتدين، نحن جميعاً علماء غريس وأشرافها وما جاورها وزعماء قبائل العباس والخالدي والإبراهيمي والحساني والعوفي والجعفري والبرجي والشقراني والزلامطة ومغراوة وبني السيد وحق الخلوية والمشارف وكافة أهل وادي الحمام وزعماء الدوائر والزمالة وبني خويدم وعكرمة وفلقية والمفاحلية والغراية والحساسة وأولاد الشريف وصدامه وكل من حضر هذه البيعة، نبايع أبا المكارم ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين صاحب الفضل المجاهد الشجاع ذا النسب الشريف قامع أعداء الله الظالمين، أيده الله بنصره، نبايعه على الجهاد، والحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وعلى الطاعة، ونصرة الله في السراء والضراء، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وخسر يومه وأمسه والله الموفق.

وخرجت الجموع متفائلة مستبشرة يهنئ بعضهم بعضاً[1].

3. رسالة من الأمير عبد القادر إلى سائر القبائل في أنحاء البلاد:

الحمد لله، إلى قبيلة كذا.. خصوصاً أشرافها وعلماؤها وأعيانها وفقكم الله وسدد أموركم، وبعد فإن أهل معسكر وغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد بهم قد أجمعوا على مبايعتي وبايعوني على أن أكون أميراً عليهم وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله، وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما أنني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ورفع النزاع والخصام بينهم وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق نحو القوي والضعيف. فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعاً. واعلموا أن غايتي القصوى اتحاد الملة

[1] المصدر نفسه ص 30 .

المحمديـة والقيـام بالشـعائر الأحمديـة، وعلـى الله اتكـالي في ذلـك كلـه فاحضـروا لـدينا لتظهـروا خضـوعكم وتـؤدوا بيعـتكم وفقكـم الله وأرشـدكم، حـرر عـن أمـر ناصـر الـدين عبـد القـادر بـن محيـي الـدين، بمعسـكر في الثالـث مـن رجـب سـنة (1248هـ الموافق 1832/11/27م).

ومـا إن تمـت للأمـير البيعـة حـتى قصـد منزلـه وقـال لأم أولاده: إن أردت أن تبقـي معـي مـن دون التفـات إلى طلـب حـق فلـك ذلـك، وإن أبيـت إلا أن تطلـبي حقـك فـأمرك بيـدك لأني قـد تحملـت مـا يشـغلني عنـك. وبطبيعـة الحـال عـبرت لـه زوجتـه عـن اسـتمرارها في العـيش معـه وأن تتقاسـم معـه أعبـاء المسؤولية[1].

4 . تجربة جديدة في الحكم:

جـاء الأمـير عبـد القـادر بتجربـة جديـدة في الحكـم، جديـدة علـى العصـر الـذي عـاش فيـه وليسـت جديـدة في التـاريخ، فعنـدما رشـحه والـده للولايـة عـام (1832م) كـان أمامـه نمـاذج مـن الحكـام المسـلمين، سـلطان ال عثمـان، وشـاه إيـران، وملـك أفغانسـتان، ثم ولاة مـن أمثـال باي تـونس وباشـا مصـر وإمـام الـيمن، وقـد كـان يمكنـه أن يقلـد هـؤلاء أو حـتى يقلـد الـداي حسـين المخلـوع، ولكـن الأمـير رفـض أن يكـون أنموذجـه أحـد هـؤلاء جميعـاً، واختـار نموذجـاً جديـداً يؤصّـل بـه الخلافـة الراشـدية، ويرجـع بـه إلى حكـم الإسـلام في عهده الذهبي.

وإن الـدارس لـه يتبـين هـذا الـنهج الجديـد القـديم في عـدة سـلوكيات وإعـلانات مـن قبـل الأمـير، فقـد اتخـذ علمـاً مخالفـاً لعلـم ال عثمـان، اسـتوحاه فيمـا يبـدو مـن التقاليـد الشـعبية، وهـو قطعـة مـن القمـاش الأبـيض تتوسـطها يـد مفتوحـة،

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 480 .

والبياض رمز الطهارة والجدة والصفاء، واليد الخماسية ترمز إلى نفي الغريب والتعوذ من الحسود والشرير، والغالب على الظن أن هذه اليد كانت صفراء اللون، وعندما يرجع المرء إلى ظروف المبايعة يلاحظ أننا أمام بعث لتقاليد كاد حكام المسلمين أن ينسوها وهي الخضوع لإرادة المحكومين ودعوتهم للتعبير عن اختيارهم بمحض الحرية، وكأننا هنا أمام الظرف الذي بويع فيه الخليفة أبو بكر الصديق أو الخليفة عمر بن الخطاب، فهنا أيضاً كانت المبايعة الخاصة ثم العامة ففي مدينة معسكر كانت طقوس المبايعة تذكرنا بما جرى في المدينة المنورة.

لقد شملت مراسيم البيعة على درس من القران الكريم والمصحف باليد، مركزة على عقاب الله الذي يحل بمن تقاعس عن الجهاد والدفاع عن عرضه وأرضه ومقدساته، وكان الأمير قد تطور في لهجته حتى بلغ درجة من الحماس حولت القعود إلى قيام يتعاهدون على الجهاد، وذلك عندما التزم للحضور وقال لهم: أنني لن أعمل بقانون غير قانون القران، ولن يكون مرشدي غير تعاليم القران، والقران وحده. فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القران لنفذت فيه الحكم، وقد أكد على ذلك بقوله لهم: عليكم واجب الخضوع في كل الأعمال إلى نصوص كتاب الله وتعاليمه والحكم بالعدل طبقاً للسنة النبوية[1].

ولنقرأ في أول منشور للأمير إلى قومه: إن قبيلة كذا وقبيلة كذا قد وافقوا بالإجماع على تعييني، وبناء عليه انتخبوني لإدارة حكومة بلادنا، وقد تعهدوا أن يطيعوني في السراء والضراء وفي الرخاء والشدة، وأن يقدموا حياتهم وحياة أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدسة «الجهاد». من أجل ذلك إذاً تولينا

[1] حياة الأمير عبد القادر ، مقدمة أبو القاسم سعد الله ص 8 .

هـذه المسـؤولية الخطـيرة علـى مضـض شـديد، املـين أن يكـون ذلـك وسـيلة لتوحيـد المسـلمين ومنـع الفرقـة بيـنهم، وتـوفير الأمـن العـام لكـل أهـالي الـبلاد، ووقـف كـل الأعمـال غـير القانونيـة الـتي يقـوم بهـا الفوضـويون ضـد المسـلمين، وصـد وطـرد العـدو الـذي اعتـدى علـى بـلادنا مريـداً أن يغـل أعناقنـا بقيـوده، ولقبـول هـذه المسـؤولية اشـترطنا علـى كـل أولئـك الـذين منحـونا السـلطات العليـا ؛ أن علـيهم دائمـاً واجـب الخضـوع في كـل أعمـالهم إلى نصـوص وتعـاليم كتاب الله، وإلى الحكم بالعدل في مختلف مناطقهم طبقاً لسنة النبي ﷺ.

وبالإضـافة إلى ذلـك كـان عبـد القـادر هـو الـذي يقـود المعـارك الجهاديـة، وهـو الـذي يـؤم النـاس في الصـلاة، وكـان في مراسـلاته وأوامـره يستشـهد بالقـران الكـريم، وكـان عنـد كـل غـروب ـ بعـد العصـر ـ يقـف أمـام خيمتـه يلقـى درسـاً في الـوعظ علـى قومـه، ولم يكـن مـن الضـروري حضـور أي كـان، ولكـن لم يكـن يتخلـف أحـد إذا أمكـن عـن حضـور هـذه الخطبـة الوعظيـة، وبـذلك كـان الجميـع يجـددون يوميـاً حـرارة الغـيرة الحربيـة والدينيـة الـتي كانـت تتقـد داخـل صـدورهم، فكـان عبـد القـادر بـذلك كأنـه منبـع رئيسـي مـن الضـوء والحـرارة لقومه.

وقـد كـان عبـد القـادر هـو الـذي يجلـس شخصـياً للفصـل في المظـالم، وهـو القاضـي الأعلـى في الدولـة. وأمـا الـولايات فقـد فـوض لخلفائـه «ولاتـه» القيـام بـنفس الـدور الـذي كـان يتـولاه هـو، وكـان الأمـير لا يفصـل في القضـايا الخطـيرة كالصـلح أو الحـرب إلا بعقـد مجلـس الشـورى وعـرض القضـية أمامـه وأخـذ رأيـه وتنفيذ ما يتفق عليه الحاضرون.

إن هـذا النمـوذج الـذي سلكه الأمـير في الحكـم كـان جديـداً ـ قـديماً، كمـا قلنـا ـ لأنـه لا أحـد مـن حكـام المسـلمين عندئـذ كـان يسـلك هـذا الطريـق، ويبـدو أن

الأمير لو طال به العمر واستمر في الحكم لاختار نظام الخلفاء الراشدين أو النظام الجمهوري ولكن بمفهوم ذلك الوقت، وما نظن أنه كان سيورث الحكم لأحد من أبنائه أو أقاربه، كما فعل الأمويون ومن جاء بعدهم من حكام المسلمين[1]، وقد نص على ذلك: هذا المنصب الذي اخترتموني له لن يكون متوارثاً وأرفض لقب «سلطان أو ملك»[2].

بعد هذه البيعة الشعبية حمل الأمير عبد القادر مسؤولية الحكم، وامتد سلطانه إثر معارك دامية حتى شمل ثلاثة أرباع القطر الجزائري، وبعد أن استقام له الأمر شرع في تنظيم أمور الدولة النواة، وتشكيل الكوادر الحكومية، فعين الأكفاء من الرجال، واعتمد الفقه الإسلامي، أي التشريعات المنبثقة من القران الكريم والسنة، نظاماً لحكمه وبناء الدولة والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلين.

بهذه المرجعية الإسلامية المتكاملة، التي أثبتت قدرتها على حلّ جميع مشكلات الحياة، في جميع الأزمنة والأمكنة التي دخلها الإسلام وغمرها بسلطانه، بدءاً من عهد الرسول ﷺ إلى عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وبهدي هذا النظام الإلهي العظيم أراد الأمير عبد القادر السير في حكمه ؛ لأنه كان يؤمن أن هذا النظام وحده يمكّنه من مواجهة المشكلات المعقدة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية والعسكرية ومن الوقوف أمام تحديات الأعداء وتوسع المجتمعات وتطورها مع الزمن[3].

---

[1] المصدر نفسه ص 9 .

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 29 .

[3] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر ص 38 .

5. مفهوم البيعة:

عرّف العلماء البيعات بتعريفات عدة منها تعريف ابن خلدون: العهد على الطاعة لولي الأمر[1]، وعرفها بعضهم بقوله: البيعة على التعاقد على الإسلام.

وعرّفت كذلك بأنها أخذ العهد والميثاق والمعاقدة على إحياء ما أحياه الكتاب والسنة وإقامة ما أقامه، وكان المسلمون إذا بايعوا الأمير جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد والولاء، فأشبه هذا الفعل البائع والمشتري، فسمي هذا الفعل بيعة.

إن البيعة بمعناها الخاص هو إعطاء الولاء والسمع والطاعة للأمير مقابل الحكم بما أنزل الله تعالى، وأنها في جوهرها وأصلها عقد وميثاق بين الطرفين، الأمير من جهة وهو الطرف الأول والشعب من جهة ثانية وهو الطرف الثاني، فالأمير يبايع على الحكم بالكتاب والسنة والخضوع التام للشريعة، عقيدة وشريعة ونظام حياة والشعب يبايع على الخضوع والسمع والطاعة للأمير أو الرئيس في حدود الشريعة.

فالبيعة خصيصة من خصائص نظام الحكم في الإسلام، تفرد به عن غيره من النظم الأخرى في القديم والحديث، ومفهومه أن الحاكم والمحكوم كليهما مقيد بما جاء به الإسلام من الأحكام الشرعية، ولا يحق لأحدهما سواء كان الحاكم أو الشعب ممثل بأهل الحل والعقد الخروج على أحكام الشريعة، أو تشريع الأحكام التي تصادم الكتاب والسنة أو القواعد العامة في الشريعة، ويعد فعل مثل ذلك خروجاً عن الإسلام، بل إعلان الحرب على النظام

---

[1] المقدمة لابن خلدون ص 209 .

العـام للدولـة، بـل أبعـد مـن هـذا نجـد أن القـران الكـريم ينفـي عـنهم صـفة الإيمان[1].

قـال تعـالى: ﴿فَـلاَ وَرَبِّـكَ لاَ يُؤْمِنُـونَ حَـتَّى يُحَكِّمُـوكَ فِيمَـا شَـجَرَ بَيْـنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:65].

. والبيعة عقد لا يحتمل الإكراه.

. ويحتمل الشروط المسبقة.

. ولا إمامة إلا بعد عقد البيعة.

. وأنه لا عقد بيعة إلا برضا الأمة واختيارها.

. ولا رضا بلا شورى بين المسلمين في أمر الإمامة وشؤون الأمة.

. وأنه لا شورى بلا حرية.

. وأن السيادة والطاعة المطلقة لله ورسوله[2].

إن الإمـارة عقـد بـين الأمـة والحـاكم، يلتـزم فيهـا الحـاكم إنفـاذ الشـريعة والنصـح للأمـة ومشـاورتها، وتلتـزم لـه إن هـو وفى بـذلك السـمع والطاعـة، وينـتج مـن ذلـك أن الأمـة هـي مصـدر كـل سـلطاته، وأن لهـا عليـه السـيادة، كـل ذلـك في إطار الدستور «الشريعة»[3].

---

[1] المصدر نفسه ص 76 .
[2] الحرية أو الطوفان ، د. حاكم المطيري ص 31 – 45 .
[3] الحريات العامة ، راشد الغنوشي (262/1) .

6. وضعية البلاد عند مبايعة الأمير عبد القادر:

بينما كانت فرنسا تثبت وتدعم موقفها في الجزائر وضواحيها والمتيجة، حيث نهبت المدية من طرف البارون دي روفيفو، فإن هذا الأخير قد أخذ على عاتقه مذبحة قبيلة الأوفياء بالقرب من الحراش، وهذا ما أثار غضب قادة القبائل الذين عينوا بن زعموم قائداً لهم، فاضطر إلى التراجع نهائياً، وحينما تبين له ضعف المتمردين اثر السحق السريع لتمردهم.

كان بايلك الجزائر واقعاً تحت السلطة الفعلية للمحتل، الذي كان يثبت وجوده في البليدة التي كان ينوي انطلاقاً منها وضع حد لهجومات قبيلة حجوط، وبفضل مد الطرق التي تربط بين المراكز المتعددة في المنطقة، والتي كانت تحت تصرف «المكاتب العربية» المكونة حديثاً، كان الفرنسيون هكذا يظنون أنهم سيتمكنون من بسط الغزو على كافة أرجاء البلاد، وقد قام المحتل أيضاً بإدماج قوات السبايسية كأعوان يرافقون الجنود في مهماتهم. كذلك ظهرت بعد ذلك فرقة القناصة التي تولى قيادها ابتداء من (1831م) قاطع طريق حقيقي ذو أصول مشكوك في أمرها، وقدم للاحتلال خدمات عظيمة، غير أن ثمنها تمثل في العديد من أعمال النهب والتقتيل خاصة في منطقة القبائل وعنابة، وقد عرف باسم يوسف، وقد حمل شارع كبير في أعالي الجزائر اسمه هذا طوال الفترة الاستعمارية، وكان لفرنسا نية مبيتة ثابتة في غزو كامل البلاد على الرغم من الصعوبات التي اعترضته في التيطري وفي الشرق من طرف أحمد باي، وكذلك الاختلاف في وجهات النظر بين حكامه التي ترجع أساساً إلى اعتبارات خاصة بالسياسة الداخلية.

غير أن ما واجهه من عداء من طرف السكان اضطر فرنسا إلى التصرف بمرونة، والبحث عن وسطاء من بين القادة المؤثرين، ولو اضطره ذلك إلى

إخضاعهم بعد تقوية نفوذه عليهم باستعمال الرشوة والخديعة والقوة، هكذا كانت خطة الغزو على مراحل والتي يبينها وزير الحرب «سولت» في تعليماته، حيث أمرهم بتقدم بطيء انطلاقاً من القواعد العسكرية في الساحل بغية السعي وراء حظوظ وافرة في تحقيق نجاح دائم وثابت، عن طريق مؤسسات زراعية يقوم الأوروبيون بإنجازها.

وهكذا فالوضعية كانت مقلقة للغاية، ذلك أن الفرنسيين وهم يحتلون كل الساحل من وهران إلى عنابة كانوا قد بدأوا . بكل جراءة . في سياسة التوطين في المناطق المحتلة، كما شرعوا بتصلب في ضم القبائل إلى صفوفهم أو تحييدها وشلّها إذا ما تعذر ذلك.

بهذا فإن المهمة المناطة بالأمير الشاب كانت من الصعوبة بمكان بالرغم من الحماسة التي تلت بيعته، فكان عليه أن يحسب حساب قادة القبائل الذين أبدوا له عداءهم، كما كان عليه أيضاً أن يتحكم في اندفاع مناصريه، لأجل هذا تقيد بتكوين جيش نظامي، وكانت مدينة معسكر التي جعل منها عاصمته المؤقتة مكان التحضير لتدريب جيشه. وبهذا فإن هذه العاصمة القديمة لبايلك الغرب أخذت مكانة كبيرة في دولة الأمير عبد القادر.

لقد ترك انهيار الإدارة التركية خلافة هذه الأخيرة إلى قادة قبائل المخزن، الذين لم يكتفوا برفض الاستجابة إلى نداء الأمير الشاب الذي لم يكن ينتمي إلى طبقتهم الاجتماعية، وإنما تقربوا إلى المحتل الفرنسي ليحافظوا على امتيازاتهم.

والأمير عبد القادر الذي لم يكن يجهل شيئاً عن مساوماتهم كان ينتظر الوقت المناسب لينتهي من أمرهم، وكان مكتفياً في هذا الوقت بإثبات مكانته عند القبائل الموالية له، كمدافع عن القضية الوطنية ومكلف بمهمة

طرد المحتلين الفرنسيين من الأراضي المغتصبة، فكان ينظم حكمه طبقاً لهذا المفهوم[1].

ثالثاً: بناء الدولة:

1 . تأسيس الجيش النظامي:

بعد معارك طاحنة خاضها الأمير ضد الجيوش النظامية الفرنسية أدرك ضرورة خلق جيش نظامي قوي يدعم به أهدافه الداخلية والخارجية، فاتجه إلى إنشاء جيش نظامي قوي يدعم به أهدافه الداخلية والخارجية، فاتجه إلى إنشاء جيش حديث، واهتم بتدريبه على أحدث الفنون العسكرية، وزوده بالأسلحة المتقدمة. وقبل أن يباشر بتحقيق هذه الفكرة عقد مجلساً عاماً من رجال الدولة وأعيانها وأخذ موافقتهم على هذا الإجراء، ثم عمم بلاغاً على الأهالي جاء فيه: ليُبلغ الشاهد الغائب أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين بتجنيد الأجناد وتنظيم العساكر في البلاد كافة، فمن أراد أن يدخل تحت اللواء المحمدي ويشمله هذا النظام فليسارع إلى دار الإمارة في مدينة معسكر لتسجيل اسمه في الدفاتر الأميرية[2].

تلقى الشعب الجزائري هذا البلاغ بارتياح كبير، وسارع الشباب وتسابقوا للالتحاق بالجيش النظامي الفتي، حتى بلغ عداد أفراده عام (1839م) ثلاثة وستين ألف مقاتل. وقد قسم هذا الجيش إلى ثلاث فرق:

أولاً: فرقة المشاة ولّي على قيادتها من مشاهير الأبطال قدور بن بحر.

ثانياً: فرقة من الخيّالة ولّي على قيادتها عبد القادر بن عز الدين.

---
[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 62 ، 63 .
[2] فارس الجزائر ، العماد مصطفى طلاس ص 139 .

ثالثاً: فرقة من المدفعية ولّي على قيادتها محمد السنوسي.

واختار الأمير جميع رؤساء الجند من ذوي الشجاعة والبأس والذكاء، من الذين يتحلون بالإيمان والصبر وانتقاهم من أشراف البيوتات وزعماء القبائل مثل محمد القوشامة وسالم الزنجي وأحمد القدور وغيرهم.

ثم وضع قوانين في كتاب سماه «وشاح الكتائب» ضم أربعة وعشرين قانوناً لها أصول ولها فروع وقد وضعت جميعاً لمصلحة هذا الجيش المحمدي، ولسلامة تكوينه العسكري ولضمان قدرته على القتال وتحمل المكاره وللتدريب على الجهاد والصبر، تمكن الأمير عبد القادر من الصمود بهذا الجيش الناشئ في وجه أكبر إمبراطوريات العالم الاستعماري القديم، وعلى الرغم من إمكانات فرنسا الضخمة تمكن الأمير من محاربتها سبعة عشر عاماً استولى خلالها على أكثر من ثلثي مساحة الجزائر حالياً، وانتصر عليها في الكثير من المعارك الطاحنة التي بقي ذكرها يتردد حتى الان على ألسنة الفرنسيين قبل الجزائريين لما وجدوه من معاملة شريفة لبطل مسلم عظيم، حتى غزت أخباره بيوتهم في فرنسا نفسها، لأن الأمير عبد القادر جسّد جميل المروءات ومحاسن الفضائل في معاملة الأسرى والجرحى من جيش أعدائه[1].

وشكل الأمير عبد القادر بجانب الجيش الرسمي قوى غير نظامية تعمل على حماية مناطقها، تستطيع عند الضرورة أن تنخرط في الجيش النظامي، وذلك لتلبية نداء الأمير أو خلفائه في الولايات، وهذه القوى غير النظامية كانت تتكون غالباً من المتطوعين، وكان عليها أن تتجهز على حسابها الخاص وكان عددها بالألوف تزيد وتنقص.

---

[1] الأمير عبد القادر ، بديعة الحسني ص 48 .

وفيما يخص تسليح جيشه النظامي يعطي الأمير نفسه التوضيحات التالية:

كل جنودي النظاميين كانوا مسلحين ببنادق فرنسية أو إنجليزية تحصلت عليها خلال معاركنا، ومن عند الفارين من الجيش، أو بشرائها من المغرب.. وكان الكبريت يأتي من فرنسا، أما ملح البارود فكنت أجده في كل مكان خلال زمن السلم. وكانت المدن الساحلية الفرنسية تزودني بالرصاص، وقد أعطاني المغرب منه كمية معتبرة، كما أنني تمكنت من استغلال منجم للرصاص في الونشريس[1].

وقد كان الأمير يسهر شخصياً على كيفية استعمال الذخائر ويعطي أوامر صارمة لخلفائه كي يشحوا في عملية صرفها[2].

أ . هيكلة الجيش النظامي:

كانت المشاة مقسمة إلى كتائب تضم كل منها (1000) رجل يقودهم اغا، وكانت هذه مقسمة إلى سرايا من (100) جندي يقودها قائد، وكان يقود كل من نصفيها سياف، وكل عشرين رجل كان يقودهم ضابط صف، وكل عشرة يقودهم عريف يسمى جاويش.

كان على قادة كل هذه التشكيلات أن يتفقدها الاغا يوم السبت، والسياف يوم الخميس والسبت، أما الجاويش فكان عليه أن يتفقد رجاله كل يوم صباح ومساء.

وقد كان الانضباط صارماً جداً، وكان يراعى تطبيقه بمنتهى الدقة، وكانت مواده مجموعة في شكل قانون عام أقامه وكتبه الأمير نفسه.

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 86 .
[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 87 .

كما كان سلم الرتب محترماً بمعنى الكلمة، وكانت كل مخالفة يعاقب عليها عقاباً شديداً، وكان على الجندي أن يحافظ على نظافة سترته التي كان مسؤولاً عنها، وكذا كانت الحال بالنسبة للسلاح الذي في حوزته، وكانت العقوبة على الإخلال بهذه القوانين تتراوح ما بين السجن إلى الحكم بالإعدام . وهذا الأخير كان يقام في حالة الخيانة أو الفرار في زمن الحرب . مروراً بنزع الرتب والعقوبات الجسدية.

وكان للجندي الحق في راتب، وكان الخيالة يتلقون ضعفه، وكان يتلقى غذاءه عيناً ووفيراً في زمن السلم، ولكنه كان يخفض في زمن الحرب إلى بعض الكعك أو الروينة، المصنوعة من طحين القمح المقلي، وكان على كل شارة علامة مكتوبة.

. وكان الاغا يحمل شارة: الصبر مفتاح النصر.

. ويحمل السياف شارة: لا أضر من المخالفة وعدم الطاعة.

. أما شارة رئيس المدفعية فكانت: وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى.

وكان اللباس العسكري يختلف بحسب الرتب، فكان من الجوخ بالنسبة للضباط ومن الكتان بالنسبة للجنود، أما الأسلحة فكانت تشتمل على المدفع، والهاون «مهراز»، والبندقية «مكحلة»، والسيف، والحربة.

وكانت الألبسة والأسلحة والذخائر كلها توضع في ورشات الدولة بتاكدمت، معسكر، تازة، بوغار، مليانة..إلخ وكانت تستورد من أوروبا عن طريق المغرب.

وكان موظفون سامون يديرون هذه الورشات، وكان المعلمون خاصة من الأجانب يدرِّسون المهنة العسكرية للشباب المجندين، وكانت هناك مكافآت

مخصصة للذين يلمعون، كما كانت تدفع معاشات للمصابين ولعائلات الذين قتلوا في المعارك، كما كان هناك وسام لمكافآت الأعمال البطولية وهو صفيحة معدنية ينقش (3 أو 5 أو 7) ريشات حسب أهميتها ولهذا كانت تسمى «ريشة»، وكانت الشمسية الرمز المميز للسيادة، وهي التمييز الوحيد الذي حظى به الأمير نفسه، وكان يحملها فارس عندما يكون الأمير راكباً أو أحد من المشاة عندما يكون مترجلاً وكان في الحالتين محاطاً بالحامية السوداء. وكان العلم يحتوي على لونين الأخضر والأبيض وكان هذا اللون الأخير يشكل دائرة طرزت في وسطها يد مفتوحة، وقد استوحي منه العلم الجزائري الحالي والفرق الوحيد يأتي في استبدال اليد بهلال أحمر ما بين اللونين الأبيض والأخضر اللذين بقيا.

ولكي تثبت روح التضحية والانضباط في هذا الجيش فقد كان قانونه العام يقرأ لكل الوحدات مرتين وأحياناً ثلاث مرات في الشهر، كما كانت الشعارات التي يتضمنها تخاط على أكمام الجنود والضباط على حد سواء. نذكر من بينها: (لا أنفع من التقوى والشجاعة) على الكتف اليمنى للآغا، وعلى اليسرى: (لا أضر من المخالفة وعدم الانضباط).

وكان الأمير عبد القادر نموذجاً ومثالاً للخصال الأخلاقية الرفيعة والقتالية المحترفة، فقد أثار في نفوس جنوده وضباطه ومواطنيه صوراً رائعة للتفاني والإخلاص في خدمة القيم والمبادئ والحرص على تحرير الوطن من المحتلين الغزاة، ويقر كل كتّاب سيرته ـ بما فيهم الفرنسيون ـ أنه كان نزيهاً، وأنه كان يملك أقصى درجات الشعور بمكانة وقيمة الأموال العامة، وأنه لم يعرف سوى خدمة القضية التي كان يعلم أنها عادلة، ضارباً بذلك أسمى مثال للتفاني والشجاعة الخارقة وكل ميزاته كانت مدونة في القانون العام لكي يتخذ منه مثالاً يحتذى، وعلى هذا المنوال فقد كان يذكر خصوصاً أنه لم

يسحب أبداً من الأموال العامة للإنفاق على شؤونه الخاصة، وأنه كان دائماً يرجع إلى الخزينة العامة كل الهدايا التي كانت تقدم له لأنه كان خادماً وفياً للدولة وليس لمصالحه الخاصة[1].

ب ـ استراتيجية الأمير والدفاع عن الأقاليم:

اهتم الأمير عبد القادر بإنشاء خط دفاعي كبير بين التل والصحراء، وقد أقامه في وسط العديد من الصعوبات لأنه كان مقيد بالمدة الزمنية، ولم تكن هذه المناطق المحصنة مخصصة للصمود أكبر وقت ممكن أمام الهجمات الفرنسية بل كانت بالخصوص لأجل تمتين سلطته بالقبائل المنضمة إليه.

لقد شيد من الغرب إلى الشرق: سبدو لحماية تلمسان، وتاكدمت للدفاع عن معسكر، وتازة للتحكم في منطقة الجزائر العاصمة، وبوغار على الحد بين التنقل والصحراء، وبسكرة في جنوب قسنطينة، غير أنه قد ركز أكبر قدر من جهوده على تاكدمت لأنها كانت قريبة من تيهرت العاصمة القديمة للرستميين، وكان يعلق على تاكدمت امالاً عريضة كشف عنها في حديث أجراه مع سجين فرنسي: مازال عندي الأمل في أن أعيد تاكدمت إلى مجدها القديم، هنا سأجمع القبائل، فنحن في مأمن من هجومات الفرنسيين، ومن هذه الصخرة المرتفعة سأنقض كما ينقض الصقر من عشه فوق المسيحيين فأطردهم من الجزائر ومن عنابة ووهران[2].

وكان الأمير قد عمل على أن يجعل من تاكدمت مركزاً للثقافة وأن يبني لها جامعة، غير أنه لم يسعفه الوقت لذلك، كانت تاكدمت تبعد عن حاميات العدو الذي لا يستطيع بلوغها إلا بعد قطع التل والهضاب العليا، وهذا

---

[1] المصدر نفسه ص 88 ، 89 .
[2] المصدر نفسه ص 90 .

الموقع كان يعطي الأمير ميزة لمعرفة تحركات العدو في وقتها وتدارك خطر أي هجوم.

زيادة على ذلك فإن موقعها بين التل والصحراء جعل من السهل على البدو أن يقصدوها لشراء بضائع التل مقابل ماشيتهم وهو ما كان يسمح للأمير بمراقبتهم عن قرب لأنهم يكونون مورداً مهماً للزكاة، وقوة لا يستهان بها في الحرب. وبفضل عزلتها فقد كانت أحسن من أية مدينة أخرى لتشكيل المركز الضروري للصناعة الحربية، وهنا كذلك أنشأ بيت العملة الوطنية[1].

ج . الاستراتيجية العسكرية:

أما عن الاستراتيجية العسكرية للأمير فهي تتلخص في كلمة واحدة وهي الحركية، فقد تميز في قدرته على استعمالها عملياً حتى خصومه وفي مقدمتهم «بيجو» يشهد بعبقريته العسكرية، فقد كانت خططه العسكرية تتغير حسب الظروف، فكانت غالباً على شكل اشتباكات بكميات صغيرة، وفي بعض المرات كانت على صورة حرب مواقع، غير أن طبيعة النضال الذي كان يقوده الأمير فرضت عليه حرب العصابات التي كان يجيدها إجادة خارقة للعادة، فكانت تفاجئ وتربك الخصم، وهي التي جعلت الأمير أشهر وألمع رواد هذا النوع من الحرب.

وإذا كانت حرب العصابات تأتي دائماً بثمارها المتمثلة في تكبيد العدو خسائر ثقيلة، فإن رد فعل هذا الأخير ضد القبيلة المشتبه بها في تبليغها المعلومات يكون وحشياً لا يعرف الرحمة. ولهذا فإن الأمير لم يكن يستعملها إلا بأقصى قدر من الحيطة، وأكبر الحظوظ في النجاح، وكانت معرفة الأمير الجيدة للميدان تمنحه هو وجيشه تفوقاً ملحوظاً على القوات الفرنسية،

---

[1] المصدر نفسه ص 90 ، 91 .

فكانـت تسـمح لـه بفضـل حركيتـه ومصـالح اسـتخباراته باسـتدراج العـدو إلى الأمـاكن الأكثـر ملاءمـة، وقـد كـان الجـيش الفرنسـي علـى العكـس مـن ذلـك يبحـث عـن حـرب المواقـع، ويـرغم الأمـير علـى الاشـتباك في المعـارك، فكـان في هـذه الحالـة يصـاب بخسـائر إلا أنـه كـان أيضـاً يكبـد العـدو مثلهـا وكـان دائمـاً يتمكن من التحرز في ظروف حسنة.

وبالمقابـل فإنـه كـان يحـدث للأمـير أحيـاناً . عنـدما يـرى الظـروف مواتيـة . أن يتسبب في نشوب معارك كانت تنتهي بخسائر كبيرة في صفوف العدو[1].

وقـد تحـدث بعـض البـاحثين عـن الفـن العسـكري لـدى الأمـير عبـد القـادر، مـنهم ضـابط قـديم في الجـيش اللبنـاني وهـو السـيد أديـب حـرب وعنوانـه «الحيـاة العسـكرية للأمـير عبـد القـادر» وهـو موضـوع أطروحتـه لنيـل شـهادة الـدكتوراه مـن جامعـة القـديس يوسـف، ويوضـح المؤلـف في كتابـه العبقريـة العسـكرية للأمـير علـى ضـوء التقنيـات العصـرية الـتي كـان الأمـير قـد طبـق بعضـها وأثراهـا، يرجـع إلى المعـارك الكـبرى الـتي قادهـا الأمـير خـلال كفاحـه مـن أجـل اسـتقلال بلاده[2].

2. الحكومة المركزية:

كـان الأمـير يـرى أن تنظـيم الجبهـة الداخليـة وتوطيـدها همـا الأسـاس الأول الـذي ينبغـي أن تقـوم عليـه حـرب التحريـر، وكـان هدفـه قبـول التفـاوض والتسـاهل مـع العـدو وكسـب الوقـت لاسـتكمال أسـباب هـذا التنظـيم، وكـان الأمـير دائـم الحـرص علـى إبعـاد الطـابع الفـردي عـن سـلطته بإشـراك ممثلـين عـن العلمـاء والأشـراف ورؤسـاء القبائـل يقـل عـددهم أو يكثـر حسـب أهميـة

---

[1] المصدر السابق ص 91 .
[2] المصدر السابق ص 92 .

المسائل أو القرارات، وكان الأمير يدرك مدى عمق الروح الاستقلالية لدى القبائل وزعماء الطرق الصوفية، ومدى تأثير ذلك على عملية التوحيد مما يجعلها أكثر صعوبة، كما كان يدرك مدى كره هؤلاء للغزاة ويربطه بين التوحيد والمقاومة. وكان يأمل أن يساعده كره الأجنبي على تذليل صعوبات التوحيد، ولكن الأمر لم يكن سهلاً[1]، وقد حرص الأمير على أن تكون حكومته من ذوي الخبرات الذين اشتهروا بالكفاءة والقدرة والخبرة والعلم والفضل والتقوى، وكان الأمير يطلب منهم القسم على التقيد بالعدل وخدمة الوطن والإخلاص، وكان هناك مناد في الأسواق يطلب من كل من له حاجة أو شكوى على خليفة أو قائد أو زعيم فليرفعها إلى ديوان الأمير من غير واسطة، وكان الأمير ينصف الجميع، ومن لا يرفع ظلامته إليه فلا يلومنّ إلا نفسه[2].

وقد أسس الأمير الديوان الذي كان مقره في معسكر أو المدية أو ينقل إبان الظروف العدوانية إلى تلك الأماكن التي يرتئي أنها الأكثر ملاءمة لظروف الحرب، وكان مطبوعاً بمركزية شديدة في القرار بالرغم من اللامركزية الإدارية الواسعة، وكان على رأس الحكومة وزير أول بمساعدة ثلاثة كتاب، كاتبان للدولة أحدهما للحبوس نصب عليها الحاج طاهر أبو زيد، والاخر للشؤون الخارجية، عهد بمهامها إلى الرجل المشهور ميلود بن عراش، وكانت هناك خزينتان إحداهما عامة والأخرى خاصة، وأخيراً مجلس استشاري أو مجلس الشورى يتكون من أحد عشر عضواً، يترأسه قاضي القضاة الذي كان على علم بكل شؤون الدولة[3].

---

[1] فارس الجزائر ص 233 .
[2] فكر الأمير عبد القادر ، بديعة الحسني ص 55 .
[3] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 94 .

لقد شرع الأمير عبد القادر في تكوين جيش وطني. وفي إنشاء المؤسسات، وفي وضع قوانين جديدة مستمدة من الشريعة الإسلامية، وصك عملة باسمه، واستطاع تأسيس دولة ذات طابع جزائري خاص على قاعدة شعبية، وحدد الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها من خلال تنظيم المقاومة الجزائرية ومن أهمها:

. نشر الأمن وتأديب الخونة العصاة.

. توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد.

. مقاومة الفرنسيين بكل الوسائل.

– دفع الفرنسيين إلى الاعتراف بالجزائر كدولة وبعبد القادر أميراً للبلاد[1].

3 . تقسيم البلاد إلى ثماني ولايات:

قام التنظيم الإداري لدولة عبد القادر على أسس فدرالية، يتمثل في وجود ثماني مقاطعات إدارية، يرأس كل مقاطعة خليفة للأمير، ويتواجد هؤلاء الخلفاء في:

. تلمسان، محمد البو حميدي الوهاصي.

. معسكر، محمد بن فريحة المهاجي، ثم مصطفى بن أحمد التهامي.

. مليانة، محيي الدين بن علال القليعي ثم محمد بن علال.

. التيطري، مصطفى بن محيي الدين ثم محمد البركاني.

. مجانة، محمد بن عبد السلام المقراني، ثم محمد الخروبي.

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 110 .

. بسكرة، فرحات بن سعيد ثم الحسين بن عزوز.

. برج حمزة، أحمد بن سالم الدبنيسي.

. المنطقة الغربية من الصحراء، قدور بن عبد الباقي.

وبعد استيلائه على إقليم التيطري والسيطرة عليه وسط الترحيب العام قسمه إلى أربع مناطق أتبعها بمدينة المدية، وولّى عليها أخاه السيد الشريف مصطفى ابن محيي الدين، ثم أنشأ ديوان الإنشاء والتعمير وولى عليه السيد الحاج مصطفى بن أحمد التهامي. وقسم الولايات إلى دوائر، ووضع على كل دائرة رئيساً، وهذه الدوائر عبارة عن قبائل تتشكل كل منها من بطون وعشائر، فجعل لكل قبيلة قائداً وعلى كل بطن أو عشيرة شيخاً يرأسها. فكانت الأوامر تصدر إلى كل هذه المراتب عن طريق التسلسل وكان المشايخ يرفعون القضايا المهمة إلى القيادة العليا، وهذه بدورها ترفعها تسلسلاً حتى تصل إلى ديوان الأمير.

ونجح الأمير في ربط البلاد بإدارة شرعية تتمتع بالكفاءة والنزاهة والاستقامة، فأبعد أكثر الرؤساء الذين اشتهروا بالبطش إبان الحكم العثماني، واختار معاونيه من ذوي الأخلاق الحميدة، وأخذ يعتمد على كل من يتمتع بالعلم والشرف والفضيلة، ولم يولّ أحداً محاباة، ولا سلّمهم زمام الأمور إلا بعد أداء القسم المقدس.

وكان يتم تعيين العاملين في الدولة وفق مراسيم خاصة تُحرر بقلم كاتب الديوان الخاص، ويوضع عليها خاتم الدولة وهو خاتم كبير نقش عليه في الوسط هذا البيت:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأُسْد في اكامها

ونقش على الجوانب: الله، محمد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي، وفي دائرة صغيرة داخل الخاتم نقش «ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين» والتاريخ الهجري (1248هـ) لم يعتمد الأمير على تقاليد في الحكم نقلاً عمّن سبقه، بل أقام حكومة ذات طابع جزائري جديد، وتمكن من وضع تنظيمات إدارية وقضائية وعسكرية واقتصادية لدولته الفتية، وعلى الرغم من أن القبائل التي تتكون منها دولته كانت تتنافس فيما بينها إلا أنه كوّن منها ما يشبه «فيدرالية ذات ثماني ولايات» يحكمها قانون موحد وتخضع لنظام واحد ولسيادة واحدة. وقد وضع نظاماً عملياً يتلاءم مع حقائق القرن التاسع عشر وظروفه التي تقضي بإيجاد دولة حديثة، وأهم المبادئ التي تسلحت بها دولة الأمير العدل والمساواة وحقوق الإنسان واحترام الكرامة الإنسانية وسيادة القانون، واحترام النظام وحب الجهاد وكراهية المستعمر. وقد استُمدت مفاهيم هذه القيم من الإسلام.

واهتم الأمير بمفهوم دولة المواطنة، وتسلحت دولته بمبدأ المساواة حتى بينه وبين مواطنيه أو بين المواطنين والحكام، وكان للقضاة وحدهم حق إصدار الأحكام، والسكان جميعاً لهم الحق في التقاضي. وطبقت المساواة حتى بين أفراد القبيلة ورئيسها. ونجح الأمير في جعل الشعب يتجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الشعور بالوحدة الوطنية[1].

لقد استطاع الأمير عبد القادر أن يثير الجزائريين بخطابه الوطني الذي ترددت فيه عبارات: بلادكم، أرضكم، دينكم، نساؤكم، وحذر من هذا العدو الفرنسي الذي يريد أن يغل الأعناق وأن يعتدي على الشرف، وتوجه إلى كل القبائل وكل الزوايا وكل الجهات، وتجاوز خطابه بني فلان وبني فلان إلى

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر ص 41 .

الشعب إلى المواطنين حيثما كانوا، مهما كان انتماؤهم القبلي أو الصوفي أو الجهوي. وربما لم تعرف الجزائر قائداً من أبنائها استعمل هذا الخطاب من قبل، فقد كان تحرك الأمير عبد القادر كرجل دولة وطنية لا كرجل طريقة أو قبيلة أو جهة، لقد بذل جهوداً عظيمة في جمع كلمة الجزائريين لمواجهة العدو المشترك، من خلال إدارة منظمة وحكومة رشيدة، وجيش مجهز وتعبئة عامة لكل مواطنيه، وكان يهتم بالمواطن المعطي الفاعل في بناء الدولة والتصدي للغزاة. وكان يقول لا تسألوا عن أصل الرجل بل اسألوا عن حياته وأعماله وشجاعته ومؤهلاته وستعرفون من هو، فإذا كانت مياه النهر طاهرة مقبولة فلأنها جاءت من نبع صاف[1].

لقد امتدت سلطة الأمير عبد القادر منذ (1838م) لتشمل الأغلبية العظمى من البلاد، وإذا كان الفرنسيون مازالوا يحتلون جزءاً من التراب الوطني، فإن العمل الذي أنجزه الأمير في بضع سنين قد كان عظيماً ويبدو وشيكاً على بلوغ غايته، ولم يصبح الأمير السيد بلا منازع ولا شريك له على الجزء الأكبر والأوفر ثروة وسكناً في البلاد فحسب، لكن القبائل التي كانت مشتتة متنافرة سابقاً قد أصبحت الان موحدة تحت ظل لواء واحد، وسلطة قوية ومركزية لم يسبق لها مثيل، تضمن أمن الأشخاص والممتلكات في كل مكان، بفضل قضاء فعال ومنصف بالنسبة للجميع، في وجود جيش عصري يضمن حماية التراب ومستعد لمواجهة كافة الاحتمالات، وقد توجت كل الجهود الرامية إلى عصرنة البلاد وتوحيد الشعب الذي خرج من الفوضى التي تركته فيها القرون والعقود الماضية، وكللت بنجاح بفضل عبقرية الأمير، وتفانيه في خدمة المصلحة العامة، هو ومن معه من الرجال الذين أحسن اختيارهم، وصحيح أن العمل لم يكن قد اكتمل لكن قوامه وأساسه

---

[1] فارس الجزائر ص 236 .

كـان قـد أنجـز[1]، وقـد كانـت تلـك الجهـود المباركـة نـواة قويـة للدولـة الجزائريـة الحديثة.

4. معايير تعيين موظفي الدولة ومناصبهم:

كـان يـتم اختيـار مـوظفي الدولـة مـن أبنـاء الشـعب الجزائـري وزعمـاء القبائـل، والأعيـان، والعلمـاء، وأصـحاب المكانـة المرموقـة مـن ذوي الكفـاءات والقـدرات والملكـات الإداريـة والقياديـة، وكـان كـل موظـف في الدولـة ابتـداءً مـن أسمـى موظــف وهــو الخليفــة إلى أبســط الشــيوخ، يملــك في نطاقــه كامــل الســلطة الإداريـة والعسـكرية والماليـة. علـى قمـة السـلم كـان الخليفـة بتفـويض مـن الأمـير الـذي كـان يمثلـه ويملـك السـلطة المطلقـة في ولايتـه الـتي يقـود جيشـها في وقـت الحـرب ويـتحكم في آغاتهـا وقياداتهـا وشـيوخها، يحكـم في القضـايا الـتي تتعلـق بالدولـة وقضـايا الاسـتئناف ضـد أحكـام وقـرارات الآغـات، وقـد كانـت تتجمـع عنـده الضـرائب الـتي يرفعهـا الآغـات والقيـادة والشـيوخ، ومـدة خدمتـه غـير محـددة لأنـه كـان يختـار لكفاءتـه وإخلاصـه وقـد تبـين أنهـم جميعـاً أهـل لثقـة الأمير، فلم يخن أي منهم هذه الثقة على الرغم من محاولات العدو رشوتهم.

ومـن الجهـة الأخـرى نجـد أن انتـداب الآغـا كـان قـابلاً للفسـخ، لكنـه قابـل للتجديـد، وتـدوم مدتـه النظريـة سـنتين، وكـان الاغـا مسـؤولاً عـن الأمـن في نطـاق اختصاصـه كمـا كـان يجنـد المحـاربين، ويرفـع محصـلة الضـرائب الـتي كـان يجمعهـا القـادة والشـيوخ في منطقتـه وكـان هـو القاضـي في المسـائل الخارجـة عـن نطـاق الشـريعة بشـرط الامتثـال للاسـتئناف في قراراتـه أمـام الخليفـة، وأخـيراً فقـد كـان يراقـب قـرارات القيـادة في حـدود مسـؤوليته، وكانـت مـدة انتـداب القائـد تقـدر بسـنة مـع قابليتهـا هـي الأخـرى للتجديـد. وقـد كـان يمـارس مهامـه في

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 111 .

نطاق قبيلته علاوة على دوره كمقسط للضريبة المقدرة على منطقته، والذي يساعده على القيام به الشيوخ، فقد كان القائد يمارس سلطة دركية وفي زمن الحرب كان يقود كتيبة تشكل بالخصوص من الجنود غير النظاميين[1].

وأخيراً في سلَّم القادة يوجد الشيخ وهو على العكس من رؤسائه يجب أن يكون منحدراً من نفس القبيلة ومن نفس الجزء المنوط به قيادته، وهو يستمد سلطته من ثقة مواطنيه فيه، ومن هنا تأتي أهميته الاجتماعية بالرغم من تواضع مهمته.

ويجمع هو الاخر في نطاقه الخاص وظائف الشرطة ومحصّل الضرائب وضابط الحالة المدنية، غير أنه كان مسؤولاً بوجه خاص عن الأمن العام في قبيلته، وهي مهمة صعبة ومرهقة لأنه لم يكن يملك الحق في إصدار العقوبات على الجانحين فهذا امتياز خاص بالآغا.

كان الأمير يختار القيادة من الأشياخ الأكثر أهلية واستحقاقاً، ولأجل تفادي الرشوة كان الموظفون يعينون من الطبقة الميسورة، وبالإضافة إلى معاشاتهم ؛ فإنهم كانوا يتقاضون حصة من الضرائب والمخالفات «الخطايا» التي كانوا يجبونها[2].

5 . السلطة القضائية:

كانت السلطة القضائية في دولة الأمير عبد القادر منفصلة عن السلطة التنفيذية، بقدر ما كان من يمارسها منفذاً للقانون وليس ممثلاً للأمير، مع أن هذا الأخير هو الذي يعينه، وقد كانت صلاحيته واسعة، تتمثل في نظام الأحوال الشخصية والميراثية، والشؤون العقارية، وكان أيضاً يصادق على

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 96 .
[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 97 .

العقود المحررة من طرف الكاتب الشرعي أو الموثق الذي كان يزاول وظائفه في مقر القضاء، كما كانت صلاحية القاضي تمتد حتى إلى القضايا الجنائية.

وكان القاضي بطبيعة منصبه شخصية مهمة، وكان يتم اختياره لثقافته وخصاله الفاضلة، وكان يعين إما من بين العلماء المشهورين، أو عند تعذر ذلك فبامتحان. ولم تكن تخرج عن دائرة اختصاصه إلا القضايا المتعلقة بالأمن العام التي كانت من اختصاص الخليفة أو الاغا، وكان القاضي كغيره من الموظفين يقبض راتباً محترماً. وكان فوق ذلك يتبع الأرتال في تحركاتها، وهو مرفوق باثنين من المعاونين أحدهما مكلف بتنفيذ الأحكام.

وكان الأمير لا يسمح إلا بالأحكام المطابقة لشريعة الله التي كان يعتبر نفسه منفذاً لها[1].

فالمرجعية الدستورية العليا في دولة الأمير عبد القادر القران الكريم والسنة النبوية والاسترشاد باجتهاد العلماء والفقهاء المجتهدين، وللمذهب المالكي مكانة متميزة في دول الشمال الإفريقي وإن كانت أمور الدول لا تعتمد عليه فقط، وإنما تحتاج إلى الانفتاح على المذاهب السنية الأخرى واجتهادات فقهاء كل عصر، الذين فهموا النصوص وأدركوا حكمتها وغاياتها، ولديهم من الملكات الفقهية والتربية الإيمانية الربانية، التي تجعلهم يتحرون المصلحة العامة في المواضيع الطارئة التي لا يوجد فيها نصّ ملزم صريح مع قدرة فائقة في حساب تطور الأزمان.

ومن أشهر قضاة دولة الأمير عبد القادر العلامة قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي المراحي، والسيد عبد بن المصطفى المشرفي.

---

[1] المصدر نفسه .

وكان الأمير عبد القادر حازماً في منع شرب الخمر ولعب الميسر وبصورة خاصة بين صفوف المقاتلين، كما حظر التدخين لكونه إسرافاً، ونهى الرجال عن استعمال الذهب والفضة إلا في الأسلحة.

وكان حريصاً على رفع الظلم وإقامة العدل وتقوية المؤسسة القضائية، ويرى أن ذلك من أسباب قوة الشعب وصلابة الدول وعوامل النصر على الغزاة الفرنسيين، لقد واجه الاستعمارَ الفرنسيَّ زعيمٌ فذّ، وشعبٌ يتكوّن ودولة تُبنى على أسس راسخة بزعامته.

6 . مجلس الشورى:

اتخذ الأمير في كل مقاطعة داراً للشورى لبحث الأمور الهامة في الدولة، وجعل انتخاب أعضاء هذه المجالس «مجالس الشورى» من قبل النّواب الذين كانوا يُدعون بالخلفاء، وربط هذه المجالس بالمجلس الأعلى للبلاد المؤلف من أحد عشر عالماً وبمجالس الاستئناف، وأما العلماء الأحد عشر فمنهم السادة: أحمد المحفوظي، وأحمد بن طاهر بن الشيخ المشرفي، ومحمد بن مختار الورغي، ومختار بن مكي الحاج، وعبد القادر بن روكس، وإبراهيم ابن القاضي، وأحمد بن الهاشمي. وأما نفقات هذه المجالس فكانت تصرف من بيت المال كباقي كوادر الدولة، وأما أصحاب الوظائف الدينية وما يتعلق بها فكانت رواتبهم تصرف من خزينة وزارة الأوقاف[1].

وكان مجلس الشورى الأعلى في الدولة الفتية ينعقد والأمير في وسطه، ويتفحص الطعون في قرارات القضاة، ويشكل هذا المجلس علماء أجلاء كانوا يتمادون في التدقيق عندما تعارضهم مشاكل عويصة إلى أن يطلبوا باسم الأمير رأي العلماء المعروفين بتعمقهم في علوم الشريعة، وفي الغالب

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 45 .

كانوا يستشيرون علماء جامعة القرويين بفاس، كذلك كان يستشار علماء الأزهر في بعض الأحيان. غير أنه نظراً لبعد المسافة فإن الأمير لم يكن يلجأ إليهم إلا في الحالات الاستثنائية.

والأمير لم يكن أبداً يتخذ القرار ببساطة، وكان دوماً يستشير المجلس الذي يترأسه في أغلب اجتماعاته، والذي كان في معظم الحالات يعكس صدى الرأي العام[1].

7. الاقتصاد والمالية العامة:

لقد أنشأ الأمير نظاماً اقتصادياً تشرف عليه الدولة، الهدف منه جعل اقتصاد البلاد في خدمة الغايات القتالية بصورة خاصة، ومصلحة الفقراء والشعب بصورة عامة، فكان الجباة يخرجون مرتين في السنة بجباية الزكاة والأعشار بعد أن يقسموا على القران الكريم بألا يظلموا أحداً وألا يعتدوا على أحد، وأنشأ ديوان الأوقاف وأوكل أمره إلى أبي الحاج عبد الله الجيلاني بن فريحة، وأوكل أمور ديوان الأوقاف إلى السيد عبد الرحمن الحاج طاهر أبي زيد. كما أنشأ ديوان صناعة العملة ومعاملة الأسلحة وكل ما يتعلق بأدوات الحرب وأوكل أموره إلى السيد أبي البركات محمد الجيلاني، وأسند الأمور الداخلية إلى أبي محمد السيد الجيلاني بن الهادية، أما كتّاب الديوان فكانوا من السادة الأشراف، السيد أحمد بن أبي طالب والسيد مصطفى التهامي. وكان حاجبا الخزينة هما: السيدين محمد بن الحاج علي الريحاوي والحاج النجادي الريحاوي، وكان السيد محيي الدين بن عبد الله ناظر الإسطبلات[2].

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 98 .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 44 .

وكانت إيرادات الدولة الفتية تستعمل في نفقات الإدارة والجيش على الأغلب، ويجدر التوضيح هاهنا بأن كل الرواتب والمعاشات كانت تدفع نقداً وعيناً بالسلع الغذائية على وجه الخصوص وأنها كانت تتم بانتظام.

لقد بقيت عملة الأمير متداولة حتى بعد استسلامه، واستمرت كذلك إلى أن اتخذت السلطة الاحتلالية سنة (1849م) إجراءات خاصة لسحبها من التداول.

وكانت الخزينة العامة قيمة معتبرة بالنسبة لذلك العصر وتقوّم بالعملة الصعبة، وقطع الذهب ؛ بما يعادل أربعة ملايين من الفرنكات الحالية. وهي نتاج الصادرات إلى إسبانيا وفرنسا من الحبوب والماشية والأصواف الاتية من الضرائب، وزيادة على ذلك فكان يوجد لحاجيات الحرب كميات ضخمة من البارود والكبريت وملح البارود والمعادن. وكانت الحبوب مخزنة في مطامير موزعة على كامل إقليم الدولة[1].

8 . التجارة:

وكانت التجارة مزدهرة بفضل الأمن الذي كان مستتباً تماماً في كل الأقاليم الواقعة تحت سلطة الأمير، وكان الأمير صارماً فيما يخص قضية أمن الطرق والأسواق. وكانت العقوبات قاسية بالنسبة لمن كانوا يعترضون القوافل المحملة بالبضائع[2]. وكان سلطان فاس معجباً بجهود الأمير ونجاعتها، وذلك أن القوافل القادمة من المغرب كانت تهاجم خلال الفترة التي قبل مجيء

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 102 .
[2] المصدر نفسه ص 103 .

الأمير عبد القادر للسلطة وبيعته، مما كان يجعل المبادلات التجارية بين البلدين نادرة للغاية[1].

وكان الأمير يعين محتسباً وهو ما يشبه المفتش، وكان في الوقت نفسه يعمل على التحكم في أسعار ونوعية البضائع في الأسواق ويراقب الأخلاق التي كانت سليمة ومحترمة، ومنذ اتفاقية دي ميشال أصبح الفرنسيون الذين كانوا يحتلون الموانئ لا يستلمون أية بضاعة أساسية من دولة الأمير من حبوب وماشية وأصواف إلا بترخيص منه. وكان الإقليم الخاضع للأمير أكثر أمناً كما كان النظام به أكثر استتباباً مما هو عليه في مناطق النفوذ الفرنسية، وفي المغرب كانت الشرطة الفعّالة لدولة الأمير تهتم بالأخلاق الحميدة وتحارب الذميمة، وتحارب الكحول والتدخين والمقامرة[2]... إلخ.

9 . الدبلوماسية:

إن المعاهدة الأولى المسماة «دي ميشال» الموقعة بين الحكومة الفرنسية والأمير تخص بشروط التعيين المتبادل للممثلين، مع أنه قد كان هناك جدل بين الفرنسيين والأمير حول عبارة ممثل بالنسبة للطرف الأول وقنصل بالنسبة للثاني.

ومهما كانت العبارة، فإن الأمر كان يتعلق بدبلوماسيين معتمدين عند كلا الطرفين، ذلك أنه قد اعترف ضمنياً في هذا الاتفاق، ولو على جزء من الإقليم بالسيادة الزمنية والروحية لعبد القادر «أمير المؤمنين»، وكان الأمير يفضل اختيار هؤلاء الوكلاء الدبلوماسيين من بين اليهود، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم من رعاياه مثلهم مثل غيرهم من الجزائريين، وذلك لمهارتهم

---

[1] المصدر نفسه ص 103 .
[2] المصدر نفسه ص 103 .

الدبلوماسية، ولمعرفتهم لكلتا اللغتين، وككل الدبلوماسيين فقد كان هناك ثلاثة مهمتهم تتمثل في السهر على التطبيق الدقيق للمعاهدة، وتبادل أصحاب الجنح والجنايات والفارين من الجيش، وتطبيق الأحكام الصادرة في كلتا المنطقتين.

وكانت فرنسا في هذه الفترة تحتل مدن: الجزائر، وهران، أرزيو، ومستغانم، وكان قناصلة الأمير هم على التوالي: مادوخاي «مردوش» وابن دوران والحاج حبيب، ومحمد بن يخو وخالفه بن حمود.

وقد كان هناك أوروبيون يمثلون الأمير في الجزائر مثل كارافيني غير أنه قد اعتبر من قبل فرنسا شخصية غير مرغوب فيها وذلك تمهيداً لأزمة (1839م) وهذا ما زاد في حدة التوتر بين فرنسا والأمير وهو ما أدى إلى استئناف الأعمال العدوانية، وعلى الرغم من الروابط الوثيقة التي كانت تجمع الأمير بسلطان فاس، فإنه لم يكن بين الدولتين علاقات دبلوماسية بالمعنى المعروف وإنما تبادل للوفود في فاس. وكان هناك مكلف واحد بالأعمال هو الحاج بن جلون في فرنسا. وكان غالباً مبعوث الأمير إلى باريس هو ميلود بن عراش الذي يمكن اعتباره آنذاك كسفير معتمد لدى الحكومة الفرنسية.

وأخيراً، فإذا كانت هناك علاقات تجارية لهذه الدولة الفتية مع إسبانيا وخصوصاً مع إنجلترا، هذه الأخيرة التي كانت تحابي الأمير، وكانت في الوقت نفسه تعمل على التقرب من فرنسا، فإنه لم يوجد أي تمثيل بين هذه البلدان والأمير، وعلى العكس من ذلك فإن الأمير كان منذ توليه وحتى الشهور الأخيرة من كفاحه على علم تام بما كان يجري ليس في فرنسا فقط،

وإنما كذلك في الدول الأوروبية الأخرى[1].

10 . المخابرات:

لقد كانت مصلحة أخبار حقيقية، ويرجع الفضل في ذلك إلى مبعوثَيه اللذين كانا مركزاً كبيراً للمبادلات، وكانا له بمثابة قاعدة للإمداد ليس لتوريد الأسلحة والذخيرة فقط، بل وكذلك لنشر وجمع الأخبار، فكان يتابع ما يصدر من جرائد أوروبية ويكلف من يقوم بترجمتها، وحسب ميلود بن عراش سفيره فوق العادة في باريس، فإن الأمير كان له ابتداء من (1838م) عميل يتجسس لصالحه، وهو جنرال فرنسي متقاعد يقيم في باريس حيث كان يتمتع بنفوذ كبير وكان يخبره بكل ما قد يهمه[2]، وكان هذا الجهاز المرتبط بالأمير يتابع تحركات الفرنسيين وعملاءهم داخل القطر الجزائري بحِرَفية عالية.

11 . الثقافة:

قبل الاحتلال الفرنسي كان التعليم ينشر عن طريق الزوايا، وكان كل من العلماء والفقهاء ومثلهم الطلبة أو المدرسون هؤلاء وأولئك ؛ يجودون بعلومهم ومعارفهم كل منهم في القبيلة الخاصة به. وقد كان تعليم المواطنين من بين انشغالات الأمير منذ توليته، وهذا ليس بغريب من قبل زعيم يعترف بقيمة العلم والمعرفة والثقافة.

وهكذا فقد كانت جهوده التوحيدية تتماشى بالتوازي مع إقامة نظام تربوي عام، وقد أقيمت في الأرياف . مثلها مثل المدن . المدارس، حيث لم يكن التلاميذ يدرسون القران فقط، وإنما القراءة والكتابة والحساب وكان هذا

---

[1] المصدر نفسه ص 100 .
[2] المصدر نفسه ص 100 .

التعليم مجانياً، مثلما كان التعليم ذو المستوى الأعلى الملقن في الزوايا والمساجد، و ها هو ذا ما كتبه الأمير حول هذا الموضوع: كان أولئك الذين يبتغون قدراً أكبر من التقدم في دراستهم يرسلون مجاناً إلى الزوايا والجوامع فكانوا يجدون فيها طلبة قادرين على تكوينهم في التاريخ وعلوم الدين، وكنت أخصص للطلبة راتباً منتظماً كانت قيمته تتفاوت حسب علمهم وجدارتهم، وكانت أهمية تشجيع التعليم تبدو لي من الضرورة بمكان، بحيث أنني أكثر من مرة عفيت عن حكم الإعدام على مجرم لسبب وحيد هو كونه طالباً[1].

وكان الأمير يحرص بنفسه على صيانة الكتب والمخطوطات، وكان يعطي القبائل أوامر دقيقة من أجل صيانة الكتب ويأمر بعقوبة صارمة في حق كل من يمسك متلبساً بإتلافها أو تمزيقها، وهكذا أنشئت مكتبة كبيرة بتجميع المؤلفات والمخطوطات ذات القيمة، كان الكثير منها يؤخذ إثر المعارك أو يشترى أو يسلم من قبل الجنود الذين كانوا يُجْزَون على ذلك.

وقد أتلفت هذه المكتبة ذات الأهمية البالغة من قبل القوات الفرنسية عند سقوط الزمالة في (1843م)، وقد كان لهذا تأثير بالغ في نفس الأمير[2].

12 . الصناعة:

لم يكن بحث الأمير وتخزينه للمعادن الخالصة ضرورياً فقط لصنع عملته، بل كذلك من أجل تكوين صناعة قادرة على جعله مستقلاً عن الخارج، وقد استطاع في سنة (1839م) أن يجمع بين ألفي قنطار من الحديد ومئتين من النحاس، وتمخضت أبحاثه عن اكتشاف منجم للكبريت قام مباشرة

[1] المصدر نفسه ص 104 .
[2] المصدر نفسه ص 104 .

باستغلاله، ومنجم اخر للرصاص، وقد جعل من مدنه قواعد صناعية بإنشاء مصانع ومخازن للبارود في معسكر مليانة، والمدية، وتاكدمت، ومعامل للسلاح في مليانة بفضل استخراج الحديد الخام من جبل زكار المطل على المدينة، كما أنه أنشأ مسابك المدافع في تلمسان، ولم تكن هذه المراكز مخصصة لصنع الأسلحة فقط، كذلك كانت تصنع الملابس للعسكريين والمدنيين على حد سواء.

وكان الأمير دائم الانشغال بعدم الارتباط والتبعية للخارج. ونظراً لمحدودية إمكانياته وموارده فقد كان يعوضها بالشراء من المغرب عن طريق المكلف بأعماله في فاس، ومن وهران ومن مدينة الجزائر فيشتري كميات كبيرة من الحديد والصلب وصفائح الفولاذ والأقمشة والجوخ المخصصة بالدرجة الأولى لتجهيز جيشه. وكانت جبارة تلك الجهود التي قام بها الأمير بغية تعزيز البلاد بصناعة تمكنه على قدر المستطاع من تجهيز بلاده حتى يتحرر من التبعية للخارج[1].

يكتب الكونت دي سيفري في كتابه، عبد القادر ومساجين الحرب: كانت المشاغل والمخازن والمعامل والصناعات الحربية والسلمية والحصون والأسواق والمدن كلها تنبعث وكأنها نتاج أعمال سحرية[2].

غير أنه كان يلزمه التقنيون كذلك، وقد وجد تقنيين لصناعة النقد خاصة من الفرنسيين الذين كانوا في مجملهم من الفارين المعتنقين للإسلام.

وكان حريصاً على الاستفادة من فرنسا في جانب التقنية من خلال إرسال مواطنين إليها، لكن محاولاته باءت بالفشل من جراء التردد والتحفظ التي

[1] المصدر نفسه ص 105 .
[2] المصدر نفسه ص 105 .

ظهر من جانب فرنسا.

وكان يحرص على الاستفادة من الخبراء وأهل التخصص في ميادين الصناعة وعلم المعادن، واستفاد من خبير فرنسي كان مهتماً بالأبحاث المنجمية بعث به سلطان المغرب إليه ليقدم خدماته للأمير، وفعلاً بدأ التنقيب في جبل زكار واكتشف أن خام الحديد متوافر بكثرة، وقد استورد من إسبانيا عجلة مائية ومسقط مياه يستعمل كقوة دافعة ؛ لاستخدامها في إنشاء مصنع ذي فرن عال، ولإعطاء المشروع كامل أهميته كان الأمير يصر على معاينته بموكب من القادة السياسيين والعسكريين، وحضر الأمير كل مراحل العملية بكل اهتمام وقلق، وعندما صب قضيب الحديد قام الأمير أمام الملأ بتقبيل المهندس، وعندما برد الحديد أخذه الأمير بين يديه وتفحص كل أوجهه ثم عرضه على كل مرافقيه وأنصاره[1].

لقد كان الأمير يهتم بالتطور والرقي. بالرغم من أنه كان ابن بيئة محافظة وأسرة متصوفة ومنطقة ريفية منعزلة قريباً من مدينة معسكر التي كانت مقراً لسلطة باي الغرب، ثم إنه قضى بعض الوقت في التعليم بوهران التي كانت قبل فتحها (1792م) مدينة ذات طابع إسباني، وكان الأمير عميق التمسك بالدين وتعاليمه وبنصوص القران والسنة متمكناً من التراث العربي والحضارة الإسلامية: يحفظ الشعر والأمثال والخطب والحكم، ويعرف حياة الفلاسفة والرياضيين والأطباء. ومع ذلك وجد نفسه بحكم ظروف بلاده على قمة هرم السلطة، فكان عليه أن يوائم بين التقليد والتجديد بين التراث التليد والحضارة الغربية الغازية.

[1] المصدر نفسه ص 106 .

وقد استجاب الأمير لضغط هذه الحضارة في عدة مجالات دون التضحية بمقدساته، فأدخل نظماً ومصانع وأجهزة لا عهد لقومه بها، وقد عرفنا ذلك عنه، وفي بعض مراسلاته مع الفرنسيين سيما مع ملك فرنسا لويس فيليب، وردت عبارات تدل على أنه كان ينتظر أن يتعاون مع الفرنسيين على إدخال المفيد من الحضارة الأوروبية على شعبه[1].

لقد كان الهدف الأسمى والأشمل لعبد القادر هو جعل عرب وأمازيغ الجزائر شعباً واحداً ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم، وبعث روح الوطنية فيهم، وإيقاظ كل قدراتهم الهامدة سواء للحرب أو للتجارة أو للزراعة أو للأخلاق والتعليم.

وكان ينشد توحيد الشعب وتوعيته وإلحاقه بركب العالم المتقدم وبناء دولة تجمع بين الإسلام وحاجات العصر[2].

وكل المؤرخين الفرنسيين يذكرون رسالته المؤثرة التي بعث بها إلى الملكة إميلي في هذا المضمار: عوض أن تبعثي إلي بجبنائك الأمجاد كي يقاتلوني، فليأتوا ليساعدوني على أن أضع في بلادي أسس حضارة تكونين قد أسهمت فيها، فتكونين قد حققت هدفين اثنين تنزلين السكينة على قلبك النابض بالأمومة وتسعدين كلا من رعاياك ورعايانا، وعسى الله أن يحفظ لك كل ما هو عليك عزيز وغال.

لم يكن هناك رد عملي وفعلي، فروح الغزو والسيطرة التي كانت المحرك الدائم لفرنسا، لم تكن تطيق أن ترى أمة إسلامية عصرية على وجه الأرض[3].

---

1 حياة الأمير عبد القادر ص 16 .
2 حياة الأمير عبد القادر ص 16 .
3 الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 106 .

13 . إنشاء المشافي:

اجتهد الأمير عبد القادر في تطوير دولته وأحدث أموراً كثيرة، ومن أهمها إنشاء المشافي العامة والخاصة، فكان في كل مقاطعة عدة مستوصفات ومشافي خاصة بالمقاتلين تصحبهم في كل موقعة ومعركة، وعيّن لكل مشفى أربعة أطباء أكفاء يرأسهم طبيب. ومن مشاهير الأطباء في دولة الأمير: الحكيم أبو عبد الله الزراوالي، وكان عالماً بخصوص الأعشاب على اختلاف أنواعها، ومن اختصاصاته إخراج الرصاصة من العضو المصاب بوضع نوع من الأعشاب على الجرح فتخرج الرصاصة من دون الحاجة إلى جراحة بعد وقت قصير وبسهولة ومن دون ألم. وكان إنشاء هذه المستشفيات أحد أهم المنجزات التي كان له فيها فضل كبير[1].

واستعان الأمير بالعلماء وفقهاء الإسلام في الجزائر والمغرب لكي يكون على ثقة عن عدم تجاوز دولته أحكام الشرع في قراراتها، ودفعته الظروف الجديدة إلى طلب التطوع من السكان لخدمة مزارع الدولة وأملاكها التابعة لبيت المال بشكل نظام تعاوني عرف «بالتدويرة»[2].

رابعاً: معاركه ومعاهداته:

1 . إخضاع القبائل:

كان أول عمل قام به الأمير حملات إخضاع القبائل التي رفضت البيعة، فخرج مباشرة بعد البيعة وقام بحملة واسعة بين القبائل العربية والبربرية، فأخضع القبائل التي لم تعترف بالبيعة وفرض عليها أن تعترف بقرار الجماعة وعفا عمن يستحق العفو، وعاقب من يستحق العقاب، وعاد سالكاً طريق

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجدية ص 46 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 481 .

الساحل حتى وصل إلى مرفأ أرزيو وكان قاضيها أحمد بن طاهر قد دخل في محادثات مع حاكم وهران الفرنسي وطلب منه احتلال المرفأ، فقبض عليه الأمير وساقه إلى معسكر حيث أمر باعتقاله، بعد أن عين من يسير أمور الميناء.

وبعد عودته من أرزيو قرر تأديب القبائل التي تنشر الفوضى بين المواطنين وكانت تقوم بالسلب والنهب[1]، وكانت قبيلة فليتة تشتمل على بطون وعشائر، وكان من عادتها السلب والنهب وقطع الطرق والتعرض للسابلة، وبقي هذا شأنها منذ عهود موغلة في القدم، فكم روّعت من قبائل مجاورة لها وسطت على أموالها. وعندما بويع الأمير طلب الشعب منه وضع حد لعدوان هذه القبيلة فاستجاب له، وتوجه بالجيش وحط بالبطحاء في منطقة تعرف باسم «بهيرة»، ومنها أرسل إلى قبيلة فليتة وما جاورها من القبائل رسُلاً يطلب إليهم الالتزام بالشرعية، ويبلغهم قرار الشعب الجزائري الذي أصبح بموجبه أميراً للبلاد، فكان جوابهم العصيان ورفض الطاعة، فأسرع بجيشه قاصداً قبائل فليتة فهاجمها وكانت أوامره إلى الجند: ألا يحرقوا بيتاً ولا يقتلوا طفلاً أو شيخاً أو امرأة ولا يهلكوا غرساً ولا شجرة. وبعد انتصاره عليهم استأمنوا فأمّنهم، وردّ عليهم أموالهم وولىّ عليهم عمالاً «أي حكاماً بالمعنى الحديث» يثق بهم[2].

2. الهجوم على وهران:

تناهت إلى مسامع الأمير أن حاكم وهران الفرنسي قد أغار على قرية الدبة جنوبي قلعة هوارة، ونكّل بأهلها، وأخذ القضية السيد قدور الدمجي أسيراً، فسارع إلى قطع الطريق على العدو ومنعه من تحقيق هدفه، وما إن اقترب

---

[1] المصدر نفسه .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجدية ص 49 .

العـدو مـن «الـدار البيضـاء» حـتى أدركـه الأمـير، وانـدفعت سـيول فرسـان الجـيش المحمـدي تسـابق الـريح نحـو القـوات الفرنسـية، وكانـت أهـازيج الحـرب تخـرج مـن صـدور هزتهـا الحماسـة وملأهـا الإيمـان، وانهـال المقـاتلون مـن الأوديـة والمرتفعـات، واستشـهد في ذلـك اليـوم مـن القـادة المسـلمين علـي بـن حبيـب الرحاوي والميلود المغراوي، أما العدو فقد كانت خسائره كبيرة فادحة.

وكانـت هـذه أول معركـة للأمـير داخـل الـبلاد، وحملـت رياح النصـر أنبـاء انتصـارات الأمـير إلى القيـادة في مدينـة الجزائـر، وفي الخـامس عشـر مـن نيسـان عـام (1833م) عُـزل الجنـرال «بويـه» حـاكم وهـران المهـزوم وعُـيّن الجنـرال «دي ميشـيل» مكانـه حاكمـاً علـى المدينـة، فسـار إليهـا بقـوة كبـيرة فوجـدها تحـت حصـار جـيش الأمـير مغلقـة الأبـواب، وبلغـه أن الأمـير قبـل رجوعـه إلى «معسـكر» كلّـف بعـض القبائـل بمراقبـة حصـون المدينـة ومسـاعدة الجـيش المحمـدي علـى متابعـة حصـار وقتـال الفرنسـيين. وعنـدما لم يسـتطيع الـدخول إلى المدينـة ابتـنى حصـناً بالقـرب منهـا في منطقـة تـدعى «بنفـور» وأخـذ يشـتري ضمائر ضعيفي الإيمان من أفراد القبائل المجاورة والدوائر لمساعدته[1].

3 . الإصلاح بين القبائل:

عنـدما وصـل الأمـير عبـد القـادر إلى ناحيـة نهـر «مينـة» تنـاهى إلى مسـامعه أن قتـالاً نشـب بـين قبائـل البربـر، فوصـل في الوقـت المناسـب وأصـلح بيـنهم وعاقـب مثـيري الفتنـة وعقـد صـلحاً بيـنهم وقعـه رؤسـاؤهم نصـه كمـا يأتي: قـد أبرمنـا بحـول الله وقوتـه، الصـلح المـبرم بـين أولاد الأكـراد وقبيلـة أولاد شـريف، وقبائـل يسـلم وقبائـل الشـرقية، ومحـونا أثـر مـا كـان بيـنهم مـن بقـايا حميّـة الجاهليـة، وألزمنـا كـل فريـق مـنهم بالانضـباط وطاعـة الأنظمـة المرعيـة في الدولـة،

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 50 .

وبرفع كل قضاياهم إلى من ولّيناه أمرهم، وجعلنا عقوبات شديدة على من يخالف الأنظمة أو ينقض أمر هذه المصالحة أو يتسبب بإفسادها فيكون قد عرّض نفسه لسخط الله وغضبه[1].

كان الأمير يؤكد أن الغاية الوحيدة لقبوله هذا المنصب وهذه القيادة هي أمن البلاد واطمئنان الشعب على نفسه وأمواله وأعراضه وتمتعه بحقوقه الدينية، ثم طرد الغزاة الفرنسيين. ولا يمكنه ذلك إلا بمساعدة أبناء هذا الشعب بالمال والرجال، وإن المكاسب التي تحصل عليها الدولة هي عائدة إلى الشعب. وكان في أكثر خطبه التي يضطر إليها يقول: لا أظن أنه يخطر في بال أحدكم أن الأموال التي تدفعونها للجباة أبتغيها لنفسي أو لنفقاتي الشخصية ولعلكم تعلمون بأني من سلالة عريقة وأن عائلتي مليئة، وكان الشعراء والوعّاظ ورجال القوافل والمنشدون في الأسواق يؤكدون هذه المعاني. وقد جاء في بعض الأناشيد الشعبية في بلاد القبائل أن الأمير لا يطمح أبداً إلى العرش والعظمة، وأن رغبته فقط هي أن يخضع الناس لأوامره كإخوة ليدخل معهم مدينة الجزائر ويطرد الفرنسيين منها، وعندما لا ينفع الإقناع كان الأمير يلجأ إلى الحزم والقوة، وعندما ينتصر كان الحزم ينقلب حلماً، والقوة عفواً، ولكنه لم يكن يرحم الذين يتعاونون مع الفرنسيين ويثبت عليهم ذلك، وكان يستشهد بالآية الكريمة ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيمًا ﴾[النساء:107].

ولدى عودة الأمير عبد القادر لمدينة معسكر بلغه خلع ابن نونة قائد الحضر في مدينة تلمسان للطاعة، فسار إليه وهزمه، ففر واستعاذ بضريح

[1] المصدر نفسه ص 50 .

الولي أبي مدين، فلحق به ودخل الضريح وأمّن ابن نونة، وعاد لمعسكر بعد أن رتب شؤون تلمسان[1].

4 . وفاة والده واستمرار المعارك:

وفي طريق عودته من تلمسان بلغه نبأ وفاة والده وذلك في (3 ربيع الأول سنة 1249هـ الموافق تموز 1833م)، وبعد قيامه بمراسيم دفن والده العظيم علم أن الفرنسيين المتحصنين على البحر في منطقة مهاجر، راحوا يتعاملون مع بعض قبائل الناحية بالبيع والشراء، فباغت جنود الحامية وهم خارج الحصن يرعون قطعانهم فأمعن فيهم قتلاً، فلاذوا بالفرار وعادوا للحصن فأسر بعضهم وغنم سائر قطعان مواشيهم. وكان أمام المرسى عدد من المراكب وصلت للتو فتوجه لها وغنم ما فيها من مؤونة وذخائر. وعندما وصل الخبر للقائد العام الفرنسي بالجزائر قام بعزل الجنرال بويه وعيّن مكانه الجنرال دي ميشيل حاكماً على وهران في (15) نيسان، أفريل (1833م)، ووصل وهران فوجدها محاصرة من طرف المسلمين وبعد أيام علم بحضور الأمير نفسه، فخرج بقوات ضخمة لنجدة حصن عقور الذي هاجمه الأمير، وتصدى الأمير للقوة الفرنسية التي كانت بقيادة الجنرال بوبريص فهزمها وشتت شملها وهرب عساكر العدو نحو سور المدينة. وعلم بعد هذه المعركة أن قبائل أرزيو جددوا علاقاتهم مع الفرنسيين بإيعاز من رئيسهم المعتقل في معسكر، وعلم من عيونه المبثوثة في المنطقة أن شخصاً اسمه طوبال يخرج كل يوم مع ضباط فرنسيين في رحلات صيد، فترصّد لهم الأمير وهاجمهم وجردهم من سلاحهم وأسرهم.

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 482 .

وعندما علم جنود حامية أرزيو الفرنسية بالهجوم ركبوا المراكب وهربوا إلى وهران، ودخل الأمير أرزيو فقبض على رؤوس القبائل التي تعاونت مع العدو، وأصلح بين سكانها، وترك حامية تحمي المدينة، وعاد لمعسكر فكوّن مجلس قضاء حاكم القاضي أحمد بن الطاهر البطيوي وحكم عليه بالإعدام.

وعندما لاحظ الفرنسيون نجاح الأمير في تجميع الشعب حوله وكبح القبائل التي أبدت تعاوناً معهم قاموا بعمل يمس هيبة الأمير، فغزو مستغانم مباغتة ودخلوها، ففر أكثر سكانها إلى الريف المحيط بها، وعلم الأمير بذلك فتوجه بجيش ضم الكثير من القبائل التي هبت لندائه بالجهاد، وكان العدو قد قام منذ دخوله المدينة بتحصين سورها ونصب المدافع عليها وحاول الأمير تدمير السور بالمعاول والفؤوس فلم تفلح محاولته، فانسحب بجيشه إلى مخيمه وأمر بأن يحفر نفق من المخيم إلى السور، ووصل النفق السور، فحفر تحت أسسه وملئ بالبارود وأضرمت النار فانفجر، لكن الانفجار لم يكن كافياً فقد فتح فتحة صغيرة لا تكفي لدخول الجيش إلى المدينة. وعندما تأكد الأمير أن الجيش الفرنسي تحصن بالمدينة ويرفض الخروج لمنازلته وأن اقتحامها غير ممكن، عاد إلى مدينة معسكر.

وما إن تأكد القائد الفرنسي دي ميشيل من رفع الأمير للحصار حتى خرج من مستغانم وتوجه إلى أرزيو فاحتلها وترك حامية في حصنها ثم عاد إلى وهران. وفي طريقه أغار على قبيلتي الدوائر والزمالة فأسر عدداً من رجالهم ونسائهم، وعندما طلبوا رد أبنائهم الأسرى اشترط عليهم الانتقال إلى ضاحية وهران والإقامة بها وقبول الخضوع للسلطة الفرنسية، وفي نيته استعمالهم كوسيلة تضمن موارد التموين لجيشه بالحبوب والمواشي، وقبلوا وانتقلوا إلى حيث أراد العدو، وعلم الأمير بذلك، فأرسل وفداً حاور رؤساء القبيلتين وبيّن لهم أن رضوخهم لإرادة العدو خروج عن الإسلام فتراجعوا،

وعـادوا إلى منـازلهم الأولى وأفسـد بـذلك خطـة القائـد الفرنسـي الـذي فشـل في فك عزلته.

واتبـع الأمـير خطـة تتمثـل في إرسـال كوكبـات مـن الفرسـان خفيفـة تغـير علـى القبائـل الـتي تتعامـل تجـارياً مـع العـدو وتعاقبهـا وتفـرض عليهـا تطبيـق أوامـره بصـرامة بعـدم التعامـل مـع جـيش العـدو، وتغـير علـى حاميـات العـدو بعـد أن ترصـد خـروج جنـوده خـارج الأسـوار، فتعمـل فـيهم قـتلاً وأسـراً وغنيمـة. فاشـتد الحصـار علـى العـدو الـذي صـار يأتي بتموينـه عـن طريـق البحـر مـن خـارج منطقة وهران[1].

وأمـر الأمـير القبائـل بعـدم التعامـل مـع الفرنسـيين وعـدم بـيعهم أي شـيء، وكـانوا يعتمـدون في تمـوينهم علـى حبـوب ومواشـي هـذه القبائـل. وأحـس الجنـرال دي ميشـيل بالخطـر الـذي يتهـدد قواتـه الـتي صـارت محاصـرة بـلا غـذاء. ونظـراً لعـدم اسـتطاعة قواتـه الخـروج مـن وهـران ومحاربـة الأمـير فقـد قـرر فـتح مفاوضـات معـه، وأرسـل للأمـير عـدة رسـائل تجاهلهـا في بدايـة الأمـر ظنـاً منـه بأنهـا مجـرد حيلـة القصـد منهـا تهدئـة المعـارك ريثمـا تصـله إمـدادات جديـدة، لكـن عنـدما اقتنـع الأمـير بجديـة الطـرف الفرنسـي في الحـث علـى التوصـل إلى اتفـاق رد علـى الجنـرال بعـد أن استشـار مجلـس شـوراه، وأرسـل وفـداً مـن وزيـر خارجيتـه الميلـود بـن عـراش والاغـا خليفـة بـن محمـود وتقابـل الوفـدان خـارج مدينـة وهـران في (25 رمضـان سـنة 1249هـ الموافـق 4 /2 /1834م) وبعـد مفاوضـات طويلـة بـرهن فيهـا الوفـد المفـاوض الجزائـري علـى براعـة في التفـاوض، اتفـق الطرفـان علـى صـيغة الاتفـاق وتحـرك الوفـد الجزائـري نحـو معسكر يعرض مسودة الاتفاق على الأمير[2].

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 484 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 484 .

ولقد بقي الأمير بعيداً عن أهله وعائلته طيلة أربعة عشر شهراً متصلة في تلك الفترة من حياته حيث نظم قصيدته المشهورة التي جاء فيها:

تسألني أم البنين وإنها ... لأعلم من تحت السماء بأحوالي

ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني ... أجلي هموم القوم في يوم تجوالي

وأغشى مضيق الموت لا متهيباً ... وأحمي نساء الحي في يوم تهوال

يثقن النساء بي حيثما كنت ... ولا تثقن في زوجها ذات خلخال

أمير إذا ما كان جيش مقبلاً ... وموقد نار الحرب إذ لم يكن صالي

إذا ما لقيت الخيل إني لأول ... وإن جال أصحابي فإني لها تال

أدافع عنهم ما يخافون من ردى ... فيشكر حسن الخلق من حسن

وأورد رايات الطعان صحيحة ... وأصدرها بالرمي تمثال غربالي

ومن عادة السادات بالجيش ... وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي

وبي تتقي يوم الطعان فوارس ... تخالينهم في الحرب أمثال أشبال

إذا ما اشتكت خيلي الجراح ... أقول لها صبراً كصبري وإجمالي

وأبذل يوم الروع نفساً كريمة ... على أنها في السلم أغلى من الغالي

وعني سلي جيش الفرنسيين ... بأن مناياهم بسيفي وعسالي

سلي الليل عني كم شققت أديمه ... على ضامر الجنبين معتدل عال

سلي البيد عني والمفاوز والربا ... وسهلاً وحزناً كم طويت بترحالي

فما همتي إلا مقارعة العدا ... وهزمي أبطالاً شداداً بأبطالي

فلا تهزئي بي واعلمي أنني ... أُهاب ولو أصبحت تحت الثرى

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 204 .

5. معاهدة ديمشال:

توالت الضربات المتتالية على الحاميات الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل حدب وصوب، فاستنكر عدد من البرلمانيين الفرنسيين الاحتلال المنظم للجزائر بسبب الثمن المالي والبشري الباهظ الذي دفعه الشعب الفرنسي، ولما طرحت الميزانية المخصصة لمواصلة الحرب في الجزائر أمام البرلمان الفرنسي للمناقشة تم إقرار تكوين لجنة من طرف الملك لويس فيليب في (7 جويلية 1833م) عرفت فيما بعد باللجنة الإفريقية مهمتها تقصي الأوضاع وجمع المعلومات والحقائق وتقديم اقتراحات، وجاءت اللجنة إلى الجزائر ومكثت مدة ثلاثة أشهر، من (2 سبتمبر 1833م إلى 9 نوفمبر 1833م)، خلصت إلى نتيجة مفادها ضرورة احتفاظ فرنسا بالنقاط الرئيسية التي تم احتلالها وهي مدن الجزائر ووهران وبجاية وعنابة والجهات المحاذية لها فقط، باعتبارها ممتلكات فرنسية بإفريقيا دون الدخول في عمق التراب الجزائري، وذلك لإنقاذ الشرف القومي الفرنسي، كما عللوا ذلك. فوافق البرلمان على هذه المقترحات، غير أن الجنرال فوارول لم يكن ينتظر نتائج اللجنة وراح يأمر الجنرال تريزل بالهجوم على ميناء مدينة بجاية واحتلاله في (6 أكتوبر) من نفس العام.

وخلال تلك الفترة استطاع الأمير عبد القادر أن يضرب حصاراً اقتصادياً على المدن المحتلة بعدما أصدر قراراً بمنع المبادلات التجارية مع المحتلين، وأصبحت الحاميات الفرنسية في مأزق خطير أمام هذا الحصار لأنها كانت تعتمد على القبائل الجزائرية في تموينها بضرورات الحياة.

وأمام هذا الوضع راح الجنرال ديمشال يستغل كل حادثة ليكتب إلى الأمير رسائل من أجل فتح مفاوضات لعقد اتفاق سلمي مع الأمير، منها الطلب

الخاص بإطلاق سراح الجنود الفرنسيين الذين اعتقلوا بعد أن هاجمتهم قوات المجاهدين وقتلت منهم، وطلب من الأمير يرجوه فيه العفو عن الأسرى المنكودي الحظ. ويذكّره بأنه شخصياً قد سبق له أن أطلق سراح أسرى من العرب من دون شرط عندما سقطوا أسرى في يده بعدما هجم عليهم في (8 ماي 1833م) وكان نص رسالته كالتالي: إنني لا أتردد في أن أكون البادئ في اتخاذ هذه الخطوة إن كان وضعي كما هو، لا يسمح لي أن أفعل ذلك، ولكن شعوري الإنساني يحملني على الكتابة إليك، لذلك فإنني أطلب حرية أولئك الفرنسيين الذين سقطوا في كمين بينما كانوا يحمون عربياً. إنني لا أتوقع أن تجعل إطلاق سراحهم مرهوناً بشروط معينة، ما دمت أنا قد أطلقت في الحال سراح بعض أفراد قبائل الزمالة وقبائل الغرابة عندما سقطوا في يدي نتيجة الحرب، ومن دون شروط، بل قد عاملتهم أحسن معاملة، فإذا كنت تود أن تكون رجلاً عظيماً فإني أرجو أن لا تتأخر في الكرم وأن تطلق سراح أولئك الفرنسيين الذين هم الان رهن يدك[1].

وقد رد الأمير عبد القادر على رسالة الجنرال ديمشال بتحرير مختصر يُظهر دقّة أفكار الأمير وحسن سياسته، فقد جعل اللوم على فرنسا التي أرسلت قواتها وجيشها عبر البحار لمحاربة الجزائر[2]، فأرسل الجنرال ثانية يطلب الأسرى، ولما لم يستجيب له الأمير أيضاً أرسل للمرة الثالثة كتاب تهديد، فأجابه الأمير برسالة يقول فيها: أنتم لا تقدّرون قوة الإسلام، مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على هذه القوة، وانتصارات الإسلام معروفة لديكم، ونحن وإن كنا ضعفاء كما تزعمون، فقوتنا بالله الذي لا إله إلا هو، والحرب

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 75 .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 56 .

سجال يوم لنا ويوم علينا، غير أن الشهادة في سبيل الله هي ما نصبو إليه، ودويّ القنابل وأزيز الرصاص وصهيل الخيول هي أطرب إلينا من صوت الغواني، فإن كنتم جادّين في الوصول لاتفاقية وعقد صلات وديّة بيننا وبينكم فأفيدونا لنرسل لكم رجلين من كبار قومنا للمفاوضة حيث أننا لاحظنا من رسائلكم المتعددة رغبتكم في الجنوح إلى السلم[1].

وكان في نيّة الأمير من هذه الخطوة مناورة سياسية يحقق بها هدفه للاستعداد والبناء وليس معاهدة ترمي إلى الصلح الدائم.

وفور تسلم الجنرال ديمشال رسالة الأمير أوفد مردخاي موسوي بعد تسليمه رسالة جديدة عدّل فيها من لهجته يقول فيها: إلى سمو الأمير عبد القادر، أيها الأمير الذي لم يكن بعيداً أبداً عن فعل أي أمر حسن، فإن كان سموكم يقبل أن يتفاوض في أمر معاهدة بيننا، نوقف بها سفك دماء أمتين اقتضت الإرادة الإلهية ألا تكونا تحت سلطة واحدة، سيكون لي أمل كبير في الحصول على نجاح اتفاقية المفاوضة بيننا[2].

وكان تاريخ رسالة الجنرال هذه في كانون الأول من عام (1833م)، وعندما تسلّم الأمير هذه الرسالة وقرأها أيقن أن عدوه وقف موقف المستغيث، فعقد اجتماعاً حضره جميع أفراد مجلس الشورى والأعيان وأطلعهم على مضمون رسالة الجنرال دو ميشيل، وبعد تدارس الموضوع الذي كان يحتاج لأكثر من اجتماع قرروا بالإجماع تأجيل الردّ على الرسالة بشكل رسمي، واكتفوا بإبلاغ الرسول رأيهم هذا: أي تأجيل الردّ على الرسالة.

---

[1] المصدر نفسه ص 56 .
[2] المصدر نفسه ص 57 .

وصلت الرسالة الشفوية إلى الجنرال، ثم أخذت رسائل الجنرال تتوالى في طلب الهدنة وفي (الرابع من فبراير ـ شباط عام 1834م) أرسل الأمير وزير خارجيته الميلود بن عراش والاغا خليفة بن محمود للتداول في أمر الهدنة مع الجنرال ديمشال، وكانت المقابلة بين القادة الفرنسيين ومندوبي الأمير خارج مدينة وهران على بعد فرسخين منها، وجرت المباحثات بشكل ودّي.

وقد كان في ذهن مندوبي الأمير صورة كاملة لما يجب القبول به وما لا يجب الاتفاق عليه، لذلك جاء صك الاتفاقية وفق إرادة الشعب الجزائري ومصالحه في تلك الفترة من التاريخ، وفي يوم السابع عشر من شهر (شوال عام 1246هـ الموافق السادس والعشرين من شهر فبراير ـ شباط عام 1834م) وقع الاتفاقية الجنرال ديمشال وبعد ذلك عرض بن عراش الاتفاقية المذكورة على الأمير فوقعّها بدوره وقال المؤرخ الفرنسي لويس دونلوت، إن الميلود بن عراش وزير السلطان عبد القادر ومعتمده الخاص في عقد المعاهدة، استُقبل استقبالاً رسمياً فيه كل معاني الاحترام وكان أمراء الجيش الفرنسي مصطفين كلّ على حسب رتبته العسكرية يستمعون لما جاء في صك الاتفاقية وبعد تلاوتها وقعّها الجنرال ديمشال[1].

كانت لدى الأمير حاجة ماسّة جداً إلى الهدنة لتقوية الجبهة الداخلية، وتنظيم جيشه الفتيّ، واعتبر هذه الهدنة مناورة عسكرية يتفرغ فيها لبناء الدولة الإسلامية وتقوية الوحدة الوطنية، ذلك أن عصيان بعض القبائل ووقوف البعض الاخر مع الفرنسيين أربك قواته وأرهق قدراته على الاستمرار في الكفاح ضد المستعمر الغاصب، ومن جهة ثانية تمكن بهذه

[1] المصدر نفسه ص 58 .

الهدنـة مـن التركيـز علـى جبهـة واحـدة مهمـة، لأن الحـرب علـى عـدة جبهـات كانت خطرة وقاسية لذلك لابد من تحييد إحداها.

ولم تـرتح الحكومـة الفرنسـية لهـذه الاتفاقيـة، علـى الـرغم مـن توقيـع الملـك عليهـا، وكانـت تـرى فيهـا مكاسـب كبـيرة للعـرب، ومـع الأيام أخـذت تفكـر بشـكل جدّي في نقضها.

قـال المـؤرخ الفرنسـي لـويس دونلـوت: إن دولـة فرنسـا قـد حاولـت أن تـنقض هـذه الاتفاقيـة، واسـتعملت الكثـير مـن المكائـد، لكـن ذكـاء هـذا الأمـير الشـاب حديث السنّ ودهاءه السياسي عرقلا مساعيها وأطالا مدة الهدنة[1].

. نص معاهدة ديمشال:

تمكـن الأمـير عبـد القـادر في المرحلـة الأولى مـن مواجهـة الجـيش الفرنسـي وإجبـاره علـى الاكتفـاء بالبقـاء في مـدن مسـتغانم، أرزو، ووهـران، واضـطر الجنـرال الفرنسـي ديمشـال أن يـبرم معاهـدة مـع الأمـير عبـد القـادر في سـنة (1833م) والتزم فيها الطرفان بما يلي:

ـ يعـين الأمـير وكـلاء لـه في مـدن مسـتغانم، ووهـران، وأرزو، كمـا تعـين فرنسـا وكيلاً لها في معسكر.

. احترام الديانة الإسلامية.

. التزام الفريقين برد الأسرى.

. إعطاء الحرية الكاملة للتجارة.

. التزام كل طرف بإرجاع كل من يفر إلى الطرف الاخر.

---

[1] المصدر نفسه ص 58 .

ـ لا يسمح لأي أوروبي أن يسافر داخل البلاد إلا إذا كان يحمل رخصة من وكلاء الأمير وموافقة الجنرال الفرنسي[1]

كانت شروط الجنرال مكتوبة بالفرنسية وموقعة من الأمير، وشروط الأمير مكتوبة بالعربية وموقعة من الجنرال، وهذا يؤكد أهمية اللغة في تجسيد السيادة الوطنية في دولة الأمير عبد القادر.

وبعد تبادل الوثائق جرى حديث طريف بين الجنرال والوزير ميلود نورده في شكل حوار:

ـ كنت عازماً قبل عقد المعاهدة أن أطلب من دولتي عشرة الاف جندي زيادة على ما عندي، وأخرج من هذه المدينة وأتابع محاربتكم مدة شهر، وما يدريك يا الميلود أن حملة كهذه من شأنها أن تلحق الضعف بسلطانكم؟

ـ يا سيادة الجنرال إننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب، ولكن محاربة هجوم وإقدام ولو فعلت ما قلت وخرجت بهذه القوة كنا نتقهقر أمامكم متوغلين في الصحراء بأهلنا وأثقالنا وفي حال هذا التقهقر نناوشكم القتال حتى لا ترجعوا عنا، ثم نصابركم حتى تضعف شوكتكم، ومتى سنحت الفرصة وتورطتم في فيافي الصحراء قلبنا الكرة عليكم وأحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية وتكون ذخائركم نفدت وقوتكم ذهبت وعساكركم تعبت، فحينئذ ماذا كنت تصنع أيها الجنرال؟

وتملك الجنرال العجب من بلاغة هذا الجزائري الذي رد على صلفه وغروره في تواضع وإيجاز مبرزاً تكتيكاً عسكرياً لم يكن يخطر على بال.

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 111 .

وبعد المعاهدة عيّن الأمير سفراءه، وسماهم وكلاء في مدن الجزائر ووهران وأرزيو متجنباً إعطاءهم لقب سفراء حتى لا يعترف بملكية هذه المدن لفرنسا، وليوحي بأنها جزائرية، وأن ممثليه فيها مجرد وكلاء له يقيمون في أرض جزائرية وهذا يبرهن على رقي دبلوماسية دولة الأمير، وعيّن الفرنسيون سفيراً لهم في «معسكر» الكومندان عبد الله ويسون وهو من مماليك مصر الذي انخرط في صفوف الجيش الفرنسي، واعتبرت المعاهدة نصراً للأمير، فقد اعترفت رسمياً باستقلال الأمير الذي فاوض الجنرال الفرنسي عن طريق مندوب عنه وفوضه بالتوقيع عليها، واحتفظ لنفسه بالمصادقة عليها مثله مثل ملك فرنسا، وكتأكيد على سيادة دولة الأمير فقد نصت المعاهدة على تبادل التمثيل القنصلي وتبادل المجرمين بين الطرفين، وناقش وزير الدفاع الفرنسي الشروط التي فرضها الأمير في هذه الاتفاقية، لكنه وافق عليها في النهاية بهدف كسب الوقت ريثما تُعد العدة للسيطرة الكاملة على سائر البلاد الجزائرية، وصادق الملك على المعاهدة.

ومن ضمن الشروط التي فرضها الأمير على المفاوض الفرنسي احتكاره لتجارة الحبوب، وألا تشتري فرنسا الحبوب الجزائرية إلا عن طريقه. وضُمِّن هذا الشرط في ملحق خاص بالمعاهدة، وبالرغم من أن الطرف الفرنسي وقع على هذا الملحق، إلا أن فرنسا تراجعت فيما يتعلق بهذا الشرط بدعوى أن الملحق كتب بالعربية[1] والحقيقة إنه لم يكن ملحقاً، إنما كان بنوداً داخلة في صلب المعاهدة، كشروط الأمير[2].

[1] الجزائر في التاريخ ص 487 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 487 .

6 . اعتراف سلطان مراكش وبسط الأمير لنفوذه:

في العاشر من شهر تموز عام 1834م وصل وفد السلطان عبد الرحمن بن هشام أمير المغرب الأقصى لتهنئة الأمير عبد القادر بالانتصارات الباهرة، حاملاً إليه الهدايا الثمينة مع كميات وافرة من الأسلحة والذخائر وعدد من الجنود الفرنسيين الذين فروا إلى المغرب الأقصى وألقي القبض عليهم هناك، وقد أرسلهم السلطان إلى الأمير عبد القادر ليرى رأيه فيهم، فسلمهم الأمير إلى السلطات الفرنسية حسب مضمون المعاهدة ونصوصها[1].

وبعد المعاهدة شرع الأمير عبد القادر يطبق خطته التوحيدية، فقام على الفور بمهاجمة القبائل الرافضة لمبايعته قرب تلمسان وأخضعها وذلك يوم (1834/7/12م)، وكان لهذا الانتصار أكبر الأثر في بسط نفوذه على غرب البلاد باستثناء مدينتي وهران ومستغانم وقلعة تلمسان.

بعد أن دان الغرب للأمير توجه إلى ناحية مدينة الجزائر وحاول إخضاع القبائل هناك، لكن ديمشال أبلغه أن هذا العمل سيسيء إلى علاقاته مع فرنسا، وطلب منه عدم الاقتراب من مدينة الجزائر وشجعه على السيطرة على قسنطينة والأقاليم الداخلية، وظل الوجود الفرنسي مقتصراً على مدن الجزائر ووهران وبجاية وعنابة.

وانطلق الأمير في توحيد القطر تحت سلطته والحدّ من توغل الفرنسيين داخل البلاد، فقام بضم تيطري إلى دولته بالرغم من احتجاج ديمشال وانتهز فرصة قيام أتباع الطريقة الدرقاوية بثورة دينية فهاجم مليانة ومدية واحتلهما، وتمكن بذلك من الاقتراب من مدينة الجزائر. شعر الفرنسيون بأن الأمير يبسط نفوذاً من شأنه أن يجمع الشعب كله تحت دولته، فبدأوا يحيكون

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 49 .

المـؤامرات ضــده، فــدفعوا بعــض القبائــل القريبــة مــن مدينــة وهــران أن تتمــرد عليه، لكن الأمير هزمهم وطلبوا منه المعونة فاستجاب لهم.

وعــاد الأمــير إلى مدينــة معســكر بعــد أن أعــاد القبائــل المتمــردة إلى ســلطته في مســاحة واســعة مــن الــوطن. وتوجــه إلى مدينــة تلمســان فــدخلها واســتقبله ســكانها اســتقبالاً حــافلاً وأقــام فيهــا زمنــاً قــام بإصــلاح أمورهــا، وعلــم وهــو في تلمســان أن بعــض عشــائر الــدوائر والزمالــة تحركــت نحــو وهــران للاحتمــاء بالمحتــل، فســارع إليهــا ورد بعضــها، ونــزل بــوادي الكحيــل فحضــر لــه رؤســاء عشــائر الــدوائر، فــأمرهم أن يتركــوا المنطقــة وينتقلــوا إلى ناحيــة معســكر، وعــيّن لهم محلة العرقوب ليقيموا فيها منازلهم.

قــام الأمــير بحــث النــاس علــى العمــل المجــدي مــن زرع ورعــي وتجــارة، تحســيناً لأحــوال الرعيــة، وســرعان مــا عــمَّ الأمــن، واختفــى الشــقاق بــين القبائــل، بســبب قيــام خلفــاء الأمــير بحــل النزاعــات وفقــاً لشــريعة الله، وتمكــن هــذا الأمــير الشــاب خــلال عشــرين شــهراً مــن تاريــخ بيعتــه مــن بســط ســلطته علــى منــاطق واســعة بواســـطة الترغيـــب والترهيـــب مـــع رجحـــان كفـــة الترغيـــب، وكـــان المواطنـــون يســتجيبون للأمــير طواعيــة اقتناعــاً مــنهم بأن حكمــه مبــني علــى أحكــام الشــريعة الإســـلامية، ولم تشـــذ ســـوى عشـــائر الـــدوائر والزمالـــة لتعوّدهـــا منـــذ عشـــرات الســنين علــى العــيش علــى اســتغلال الشــعب واكتســاب المــال مــن النــاس بــدون حق، مستغلين التفويض الذي منحه لهم الحاكم في عهد الأتراك[1].

وقــد تمكــن الأمــير بفــرض شــرط في معاهــدة دي ميشــيل يــنمّ عــن فهمــه لأمــور الاقتصاد.

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 490 .

وينص هذا الشرط على أن العمليات التجارية التي يقوم بها الفرنسيون لشراء المواد التموينية لابد أن تتم في ميناء أرزيو تحت نظر ومراقبة موظفي إمارته، وأن كل البضائع التي تأتي من الداخل تدخل هذا الميناء ومنه تصدر لفرنسا وأوروبا، وترسل منها المواد التموينية إلى مدينتي وهران ومستغانم اللتين يحتلهما الفرنسيون بالقدر الذي يكفي أهلها.

كان موظفو الإمارة يشترون البضائع من الناس ويقومون بشحنها إلى أوروبا، وسخط التجار الفرنسيون على هذه المعاملات التجارية التي جمدت سائر نشاطهم، وغضبوا على الجنرال دي ميشيل الذي قبل هذا الشرط التجاري المدمر لهم، وشكوا للجنرال الذي أجرى اتصالاً مع الأمير الذي أمر بتخفيف هذه الإجراءات التجارية. علم الأمير أن سكان وهران ومستغانم المحتلتين يعودون لمنازلهم، فأمر الأمير وكلاءه بمنعهم من العودة حتى لا يستغلوا من المحتل، وحتى يبقى هذا معزولاً عن الأهالي[1].

7 . استبدال الجنرال ديمشال:

استبدلت الحكومة الفرنسية الجنرال ديمشال الذي فشل في نظرهم، بإعطائه للأمير قوة بالمعاهدة التي وقعها معه، وعيّنت بديلاً له كحاكم لوهران الجنرال تريزل، كما عيّنت الكونت دوروان دورلون والياً على الجزائر، مع تكليفه بالمحافظة على المعاهدة، لكن الجنرال ما إن وصل وهران حتى راح يبث الدسائس ضد المعاهدة التي لم يكن يؤمن بها.

واتفق أن ترافق وصول تريزل وهران مع اتصال سكان تيطري بالأمير وإرسالهم بيعتهم له، وفكر الأمير في ذلك ملياً، ثم قرر عدم اتخاذ قرار فيها إلا بعد الاتصال بالوالي الفرنسي، فأرسل وزير خارجيته الميلود بن عراش

[1] الجزائر في التاريخ ص 491 .

رسالة إلى الكونت يهنئه فيها بتوليه الولاية ورد فيها: إن معتمدي ابن عراش وجهته إلى حضرتكم ليبلغكم التهنئة والتبريك من قبلي على الجزائر، وقيامي بالمحافظة على أمور المعاهدة، وأوعزت إليه أن يفاوضكم في أمور تعيّن عليّ إجراؤها، لتوطيد الراحة في جميع المقاطعات الداخلية في السهول والجبال والمناطق التي على ساحل الجزائر وجوارها ووهران والمدية، وخشيت أن يكون ذلك سبباً مكدراً لما بيننا من المصافاة.

وقد أوحى الأمير برسالته أن يده ينبغي أن تكون طليقة في جميع الأقاليم ماعدا المدن الأربع التي بيد الفرنسيين، وكان يريد أن يرتكز على جواب الكونت لتبرير ضم التيطري إلى امارته.

وبعد أن أكرم وفادة مبعوث الأمير رد الكونت بالرسالة التالية: وصلني كتابكم وبلّغني معتمدكم ما تعلقت به إرادتكم في الجهة الشرقية، حيث إنه جعل مقاصد سموكم توطيد الراحة العامة كما هو المطلوب والمرغوب فيه عند دولة فرنسا ورجالها، وإني امل نجاح مقاصدكم ورفاهية شعبكم وسعادة البلاد، ولك أن تعتقد بأنك لا تقاوم في كل أرض تقصد الاستيلاء عليها، بشرط أن تكون لك قوة على أخذها[1]. وكان الكونت يضع بين عينيه وصية حكومته: بأن لا يغضب الأمير عبد القادر، وأن يعمل كل ما من شأنه تجنب طلب قوات عسكرية من باريس، وشعر الأمير بأن يديه طليقتان فقرر التوجه إلى تيطري، وعندما تأهب للسفر كتب إلى حاكم الجزائر يخبره بذلك فكان جواب الكونت ما يلي: فهمت ما تضمنه تحرير سموكم والذي أرى أن هذا العزم خال من الصواب، ليكن في علمكم أن الجنرال ديمشال لم تكن له سلطة ولا حكم إلا على إيالة وهران، ولذلك لم

[1] الجزائر في التاريخ ص 493 .

يتعرض لما يتعلق بباقي الولايات، ومهما توسعت دائرة التأويل فيما جرى في معاهدة الثامن والعشرين من فبراير، فلا يكون لكم طلب إلا على إيالة وهران، وبناء على ذلك فلا نسمح لكم أن تدخلوا إيالة تيطري، ولا أن تتجاوزوا وادي الشلف شرقاً إلى كوجيلة، وعلى العموم فلكم أن تحكموا في البلاد التي هي لكم الان بحسب شريعة الإسلام، وبذلك نكون أصدقاء ولا أقدر أن أرضخ لعساكركم أن يدخلوا ولاية تيطري، لأن كل ما يجري هناك يخصني وإني مستمر مع ساكني الأقاليم على السلم، ومرتكز على تعيين مراكز فرنسية في البليدة وبوفاريك متى رأيت ذلك مناسباً.

وردّ الأمير على مراسلة الكونت برسالة قال فيها: لقد وصلني تحريركم وتعجبت مما ذكرتموه فيه. إن مرمى أفكار حضرتكم بعيد عن الإصابة، لأن محافظتي على السلم لا يجهلها أحد، ولولا ذلك ما احتجت إلى مذاكرتكم فيما أجريه في وطني، وقصارى الأمر أنه لا يبعد أن يكون بعض أهل الفساد ألقى في ذهن حضرتكم ما أوجب أن يكون جوابكم على هذا الأسلوب، وعلى كل حال فإني عدلت الان عن النهوض إلى تيطري، إبقاء للسلم ورعاية له[1].

8 . محاربة الأمير للشعوذة والدجل:

كانت الوفود تتسابق مقدمة الطاعة للأمير عبد القادر مثل رئيس قبيلة أنكاد حليف الدوائر، وابن عربي رئيس قبيلة أولاد خويدم وغيرهما.

وقف الأمير متأملاً في رسالة الكونت ولم يتابع السير ورأى التريث وعدم الذهاب إلى تيطري، إذ كان لا يريد أن يأتي حصاد مكاسب المعاهدة قبل الأوان ؛ وهو لم يستكمل بعد بناء الدولة والجيش، ولا يزال أمامه الكثير من

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 494 .

المصاعب لتحقيق الوحدة الوطنية داخل البلاد، فجمع المجلس العسكري لدراسة الأمر. وفي هذه الأثناء كان سكان إيالة تيطري يقيمون الزينات ويستعدون لاستقبال أمير البلاد ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين، وعندما طال انتظارهم له، ظهر بينهم رجل اسمه الحاج موسى بن حسن ويُعرف بأبي حمارة، جاء هذا الرجل منذ زمن من مصر، فاستوطن بلاد أولاد نائل وأظهر النسك والصلاح. وعندما تأخر الأمير في دخول إيالة تيطري جمع أبو حمارة حوله بعض المريدين، وخطب في الناس طالباً منهم الطاعة له فقاوموه وأطلقوا عليه وعلى جماعته النار من مدفع كان في حوزتهم من أيام الحكومة العثمانية، فانفجر هذا المدفع، فأوهمهم هذا الرجل أن تلك معجزة من معجزاته وكرامة له، فحدث شغب كبير وبلبلة وسادت الاضطرابات إيالة تيطري ووصلت أخبار تلك الاضطرابات إلى القوات الفرنسية[1].

وانتظر الأمير عبد القادر ماذا يفعل الفرنسيون مع أبي حمارة، وعندما تأكد له أنهم صمتوا عن ذلك قرر التحرك نحو تيطري خاصة بعد علمه أن عشائر الدوائر والزمالة بدأت تتحرك ضده متشجعة بحركة أبي حمارة، وأوعز لأخيه الكبير محمد سعيد أن يراقب الفرنسيين من ناحية مستغانم وأرزيو، وإلى البوحمدي والى تلمسان أن ينحدر بجيشه نواحي وهران ليشغل حاكمها، وتوجه هو إلى تيطري بعد أن وافق المجلس العسكري بالإجماع. ولما علم أبو حمارة جمع جموعه وخطب الناس ووعدهم بالنصر، وقال لهم اية نصرنا ستكون أن مدفع ابن محيي الدين لن يعمل فينا، وأن باروده عند المواجهة سيصير ماء. ثم كتب إلى الأمير يدعوه إلى الجهاد.

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 494 .

وقرر الأمير مواجهة أبي حمارة واتخذ من هذه المواجهة عملاً تربوياً للقضاء على الخزعبلات التي تشوه الإسلام والبدع، والتقى الجمعان في بلاد وامري، وكان شاع بين الجنود تخوفهم من كرامة الدجال المزعومة، فألقى الأمير فيهم الخطاب التالي الذي برهن فيه عن سخطه على الخزعبلات والدجل والبدع وحرصه على تحرير أبناء بلاده من ظلمات الجهل ليدخل بهم بوابة الحضارة والعصور النيّرة، فقال:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى اله وأصحابه، أما بعد فاعلموا أن الحق تعالى قلدني هذا الأمر للمدافعة والذب عن الدين والوطن، وقد بلغكم خبر هذا الرجل، فإن تركته وشأنه أخاف على الوطن أن تغتاله غوائل الفرنسيين على حين غفلة، وينشأ عن ذلك من المفاسد ما يعسر علينا إصلاحه، هذا وإني أختبر أمره الذي كاد أن يوقع في قلوبكم ما يؤول بكم إلى تشتيت الشمل وتبديد الجمع، وذلك أني أطلق عليه مدافعي ؛ فإن كان الأمر كما زعم، فأنا أول مطيع له بعد اختبار أحواله من جهة الشرع، وإن كان الأمر يخالف زعمه فهو دجال من دجالي هذا الوقت[1].

ثم أمر بالزحف وإطلاق المدافع على أبي حمارة، فلما نزلت القذائف على جموعه انهزموا بعد أن تصوروا أن كرامة قائدهم ستجمد القذائف في مدافعها، وتفرقوا في الجبال والأودية، وفر الدجال تاركاً نساءه وأولاده وسائر سلاحه وعتاده في مخيمه، وانطلق جنود الأمير يطاردون فلول الضالين، وشعر الأمير بانخداع القبائل التي تحارب مع الدجال، فترك لرؤسائها مجال الاتصال به عندما علم برغبتهم، فتقدموا منه وطلبوا منه العفو، وبينوا له أنهم كانوا واقعين تحت سحر كراماته المزعومة، فعفا عنهم، وجاء الطلب من أبي

---

[1] المصدر نفسه ص 495 .

حمارة بردّ نسائه وأولاده له، فاستجاب الأمير لطلبه، ثم توجه الأمير إلى المدية فدخلها، وجاءته الوفود من سائر أنحاء الولاية فبايعته، وبعد أن قام بإصلاح شؤونهم عيّن خليفة على الولاية وهو السيد محمد البركاني.

وشاع خبر هذا النصر العظيم، وحاول الجنرال تريزل أن يتخذ من سيطرة الأمير على ولاية تيطري نقضاً للمعاهدة وطالب بشن حرب على الأمير، لكن الحاكم العام رفض مقترحه قائلاً: لست مأموراً من الدولة بنقض المعاهدة، وغير مستعد الان لفتح باب الحرب، ويجب علينا أن نتعامل مع الأمير بالحكمة، ونسعى معه لتجديد المعاهدة مادام في المدينة التي استولى عليها وعلى إيالتها، ونتغاضى عما فعله، ونتجنب الصدام به. فوافق أعضاء قيادته على ذلك[1].

9 . الحكومة الفرنسية تسعى لتعديل بنود المعاهدة:

في (الرابع من يوليو عام 1836م) وصل وفد من الحكومة الفرنسية برئاسة سنت أيبوليت وبندران يحملان هدايا فاخرة إلى جانب صورة عن تعديل بنود في معاهدة دي ميشيل حررها مستشارون سياسيون وعسكريون ونص هذه الشروط:

. يعترف الأمير برئاسة ملك فرنسا على إفريقيا.

ـ تكون سلطة الأمير عبد القادر محصورة في إيالة وهران المحدودة بنهر الشلف ونهر أرهيو إلى كوجيلة.

. تعطى الرخصة العامة للأفراد للسفر في سائر جهات البلاد.

[1] المصدر نفسه ص 496 .

. إعطاء الحرية التامة للتجارة الداخلية.

ـ لا يصير تسليم ولا استلام شيء من الغلال والبضائع إلا في الأساكل التي بيد الفرنسيين.

ـ يدفع الأمير عبد القادر ضريبة سنوية للدولة مع وضع رهائن للأمن على ذلك.

ومعنى هذه الشروط تجريد الأمير من أي نوع من أنواع السيادة وجعله مجرد موظف في الإدارة الفرنسية[1].

استقبل الأمير الوفد ثم أمر بإكرام قادتهم بتقديم واجب الضيافة، وتركهم للاستراحة وطلب اجتماع المجلس الاستشاري المكون من اثني عشر رجلاً بما فيهم الأمير، وبعد جلوسهم قرأ عليهم رسالة التعديل، فكان رأي كل منهم مطابقاً للآخر، وهو أن الجنرال تريزيل لم يعد أمامه سوى خيار واحد وهو الخضوع لسلطة الدولة الجزائرية في كل ما يتعلق بداخل البلاد، وأن الأمير يستطيع فعل ما يشاء ؛ لذلك يريد الان تعديل المعاهدة بشكل تصبح فيه لاغية، وقال الأمير عبد القادر مخاطباً أعضاء المجلس: نحن الان في مكانة ممتازة بفضل جهادنا، أما طلب اعترافنا بسيادة فرنسا في البند الأول فهذا أمر مستحيل[2]. ثم جلس وراء مكتبه الخشبي وأمسك ريشته وكتب بخط يده جواباً على المقترحات واحتجاجه بشدة على تعديل بنود المعاهدة وأنه يراه خرقاً صارخاً لمعاهدة ديمشال وكتب: لقد أعطينا أمراً لوكيلنا ميلود بن عراش ليؤكد لكم عن أفضل الطرق لإقامة الهدوء بيننا وبينكم ونطلب:

أولاً . الاستمرار بالوضع الراهن.

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 497 .

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 76 .

ثانياً . رفضنا طلبكم باعتبار ملك فرنسا ملكاً على إفريقيا.

ثالثاً ـ إن البند الأول في المعاهدة ينص على التوقف عن الحرب بيننا وبينكم فقط، ولا ينص على الاعتراف بسلطة فرنسا.

وختم الرسالة ولم يسلمها إلى الوفد إلا بعد أن اصطحبه برحلة استعراضية إلى إقليم تيطري ووهران، وظهر الضابط سانت هيوليت، وعند دخول موكب الأمير إيالة تيطري كانت أشعة الشمس في طريقها إلى المغيب وراء الأفق، ولكنها أضفت على هذا الموكب الكثير من المهابة وأخذت زغاريد النساء تسمع من بعيد، وطلقات البنادق تختلط بأصوات الرجال «الله أكبر» تعلن عن قدوم موكب أمير البلاد الرسمي، تتقدمه كوكبة من الفرسان حاملة راية الجهاد، ثم ظهر أمير البلاد ببرنسه الأبيض ممتطياً صهوة جواده الأسود وقد مرّ وسط الزحام الشديد ؛ وكان الناس يسأل بعضهم بعضاً: ما هذه القوة الإلهية والسياسة الحكيمة التي جعلت أميرنا يتخذ من أعدائه أتباعاً له، وليس ببعيد عنه أن يجعلهم يستسلمون له ويعتقدون أن أي مقاومة له تعتبر مجرد جنون.

عاد الوفد إلى مدينة الجزائر مبهوراً بقوة أمير البلاد وشعبيته التي تفوق الوصف، وسلموا الرسالة الجوابية إلى الكونت وبعد قراءتها كتب فوراً رسالة جوابية قال فيها: بعد التحية والتعظيم، قد وصلني من سموكم بيد رسولي السنت أيبوليت، وأرى أنه من الأفضل إجراء مباحثات معكم شخصياً عن قرب ويمكن أن تكون في مدينة وهران. لقد أراد الحاكم بعد هذه الرسالة الاجتماع بالأمير في مقره، ولكن تريزيل أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة لأنها خطوة تفسر بضعف الدولة الفرنسية، عدا عن التزلف للأمير عبد القادر،

وهـذا فعـل في غـير مصـلحة فرنسـا، فـاقتنع الكونـت وتـرك الأمـر للجنـرال تريزيل[1].

10 . حاكم وهران تريزيل ينقض معاهدة ديمشال:

ومـا إن غـادر الكونـت وهـران حـتى راح تريزيـل يطبـق خطـة تآمريـة مسـتفزة للأمـير عبـد القـادر، وفكّـر فوجـد في عشـائر الـدوائر والزمالـة ضـالته، فأخـذ يغـريهم بالأمـوال والحمايـة، فـأذعنوا والتحقـوا بالسـلطة الفرنسـية، وكتبـوا وثيقـة استسـلموا فيهـا إلى القـوات الفرنسـية، وأصـبحوا بموجبهـا رعـايا فرنسـيين، وبعـد توقيـع الاتفـاق عـيّن الجنـرال تريزيـل مصـطفى بـن إسماعيـل قائـداً علـيهم ومحمـد المـرازي نائبـاً لـه، وجنّـدهم جميعـاً وسـلّحهم بأحـدث الأسـلحة ووهـبهم الرتـب العاليـة والميـزات المغريـة. ودخـل علـى الأمـير في أحـد الأيام أربعـة رجـال مـن مخـابرات دولتـه وأعلمـوه بأمـر تلـك القبائـل وذلـك الاتفـاق الخطـير، فأرسـل علـى الفـور كتـاباً إلى مصـطفى بـن إسماعيـل زعـيم قبيلـة الزمالـة يـذكره بالقسـم الـذي أقسـمه علـى مبايعتـه عـام (1832م) ويـذكّره أيضـاً بأنـه مسـلم جزائـري عـربي، وقـول الله تعـالى: ﴿الَّـذِينَ يَتَّخِـذُونَ الْكَـافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِـنْ دُونِ الْمُـؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[النساء:139].

وقولـه تعـالى: ﴿وَتَعَـاوَنُوا عَلَـى الْـبِرِّ وَالتَّقْـوَى وَلاَ تَعَـاوَنُوا عَلَـى الإِثْمِ وَالْعُـدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[المائدة:2].

ثم طلـب منـه الرجـوع إلى منـازل القبائـل قـرب تلمسـان[2]، ولم يكتـف الأمـير بإرسـال هـذا الكتـاب إلى الـزعيم مصـطفى بـن إسماعيـل والـزعيم المـرازي وإنمـا بعـث خطـاباً إلى شـيوخ تلـك القبائـل وعمّمـه جـاء فيـه: أمـا بعـد، فلـيكن في

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 78 .
[2] المصدر نفسه ص 78 .

علمكم جميعاً أنه قد طالما نصحناكم ووعظناكم وبيّنا لكم ما يجب عليكم شرعاً أن تفعلوه أو تتركوه فلم تقبلوا ذلك ولم تلتفتوا إليه، والان بلغ السيل الزبى، فلابد أن ترجعوا عن غيكم وتسلكوا جادة الإسلام التي مضى عليها اباؤكم، وتتركوا منازلكم التي أنتم فيها الان وترجعوا إلى منازلكم الأولى بقرب تلمسان، وإلا فلا تلوموا إلا أنفسكم لما يحلّ بكم من الانتقام بحول الله وقوته[1].

ورفض هؤلاء عرض الأمير، فاتصلوا بالجنرال تريزيل طالبين الدعم المادي والعسكري والدعم الفرنسي. فبعث بمطالبهم إلى الحاكم العام للموافقة على ما تم الاتفاق عليه بين القبائل المتمردة والجنرال تريزيل، وعبّر الحاكم العام عن تحفظه للجنرال، وأرسل مبعوثاً خاصاً للأمير يفاوضه حول هذه المسألة، لكن تريزيل أخبره غاضباً بأن يعتبره مستقيلاً من منصبه في حال إصراره على رفض التعهد بحماية القبائل المتمردة على دولة الأمير عبد القادر. فاضطر الحاكم العام إلى الموافقة على اقتراحه، وجاء رد الأمير حاسماً في رسالة أرسلها للحاكم العام جاء فيها: إن ما قام به حاكم وهران مخالف لنصوص معاهدة ديمشال، التي تنص على أن هروب رعية أحد الطرفين يرده للآخر. إن الحكومة الفرنسية ملزمة بأن ترد إليّ كل مذنب هارب ولو كان رجلاً واحداً فكيف بالعشيرة والقبيلة. وعلى هذا فإن قبائل الدوائر والزمالة من جملة رعيتي التي أحكم فيها بموجب شريعتي. والان أبلغك البلاغ الأخير إنك إن رفعت الحماية عنهم فنحن على ما كنا عليه من المعاهدة التي جرى الاتفاق عليها قديماً، وإلا فإني لا أستطيع مخالفة شريعتي في التخلي عنهم، حتى أنك لو أدخلتهم إلى وهران لقلة دينهم فلابد أن ألاحقهم وأطالبهم بالرجوع عن خطئهم. فإن كنت لابد مصرّاً على موقفكم فاطلب وكيلكم

[1] الجزائر في التاريخ ص 499 .

من عندي، واختر لنفسك ما يحلو، وميادين المعامع تقضي بيننا، ومسؤولية إهراق الدماء وإتلاف الأموال راجعة إليك والله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد[1].

كان للغة المادة والمكاسب الدنيوية والمراكز الفانية والمغريات التي قدمها الجنرال تريزيل لزعماء القبائل المتمردة أثرها، وجمع مصطفى بن إسماعيل الناس في إحدى الساحات وخطب فيهم قائلاً: إن الفرنسيين سيقدمون لنا كل ما اتفقنا عليه من الهبات والأموال والمواشي والحماية أيضاً والسلاح وإنني اعترفت خطياً برئاسة ملك فرنسا على البلاد ومحاربة كل من يقف في طريق ذلك[2].

11 . إعلان الحرب:

دعا الأمير عبد القادر مجلس الشورى والمجلس العسكري لاجتماع طارئ فور التأكد من هذه الأخبار، وبعد مناقشة هذا الوضع المستجد، أقر الجميع الخروج إلى المساجد وكان يوم جمعة وبعد الصلاة اعتلى أمير البلاد المنبر، وخاطب الناس قائلاً: كلكم تعلمون أن الله قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾[التوبة:123].

إن هؤلاء المحتلين لا عهد لهم ولا ذمة، عاهدناهم فنكثوا، وإن تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا وهدموا هذا الصرح الإسلامي العريق من أساسه على حين غفلة، وهاهم قد خدعوا قبائل الدوائر والزمالة من ضعيفي الإيمان والنفوس وفقدان الشعور بالكرامة.

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 499 .

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 79 .

أيها المسلمون قد قررنا العودة إلى المقاومة المسلحة فهلم جميعاً إلى الجهاد، ومن قتل منا قضى شهيداً، ومن بقي حياً نال العز وثواب الجهاد.

ثم رفع سيفه وهزه ثلاث مرات وقال: إن كل حفنة تراب من أرض الجزائر هي أرض محتلة، فصاح الرجال بصوت واحد «الله أكبر» وصاحوا: إننا نعاهدك يا ناصر الدين على الشهادة أو النصر.

خرج نداء الحرب من المسجد مدوياً وعلا نشيد المقاومة يملأ الافاق، وأسرع الكثير من الرجال لتسجيل أسمائهم في الديوان العسكري، وتقدموا شيوخاً وشباباً تمهيداً للانضمام للجيش النظامي[1].

أ . معركة المقطع وانهزام الجنرال تريزيل:

في الأول من أيام سنة (1836م) سار الأمير على رأس جيش من ألفي فارس وألف من المشاة لملاقاة الجنرال تريزيل الذي بدوره خرج من وهران بفرقة من الخيّالة وخمسة الاف جندي وأربعة مدافع جبلية وعدد كبير من المركبات الاحتياطية، تتقدمهم مجموعات من الدوائر والزمالة، هذه المعلومات نقلت إليه عن طريق جهاز مخابرات دولة الأمير وأكدت له أيضاً أن قوات العدو وصلت إلى تلال مدينة وهران. ونظم الأمير قواته بأن جعل البوحميدي قائداً للمشاة في الميمنة وبو شقور قائداً للميسرة، وجعل مكانه هو في الوسط وخيّم السكون برهة من الزمن، ثم نودي الله أكبر، وملأت أصداء هذه الصيحة الروابي والأحراش وإذا بهدير مدافع الفرنسيين يصمّ الاذان، وبدأت معركة حامية الوطيس، كان الفرسان المجاهدون من مهرة الرماة، فحاصروا العدو من كل الجهات وتغلبوا عليه.

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 80 .

وأخذ الفرنسيون المنهزمون يتسارعون إلى داخل الأحراش من دون تنظيم تاركين وراءهم أسلحتهم ومعداتهم الحربية وقتل منهم عدد كبير. وكما ذكر المؤرخون أمثال الدوق أرليون: كان من القتلى الكمندان أودينو بن المارشال دون دي تريجو، مما أثر سلباً في معنويات الجنود الفرنسيين. واحتل الأمير منطقة سيلة، وسيطرت قواته على جميع تلك النواحي، وقد قام القتال يومين متتالين دون توقف وقد أجهد العطش المجاهدين، إذ طال عليهم القتال، لكن الله أكرمهم بالنصر، واستمر العدو منهزماً إلى وهران عن طريق أرزيو، فخطط الأمير لملاقاته عند نهر هبرة المعروف بالمقطع، واختار عدداً من الفرسان الأشداء وبينهم عمه علي بو طالب، ففاجأوا الجنرال تريزيل مع من تبقى معه من قواته قرب النهر، فدبّ الذعر في القوات الفرنسية المنهزمة، وأخذ بعضهم يرمي نفسه بالماء لدى سماعهم صهيل خيول المجاهدين. وخاض الأمير ومن معه لججاً من الدماء تحت وابل من الرصاص، واستولى على سائر العجلات وما فيها من ذخائر، وهكذا استمر المجاهدون على الرغم من التعب الشديد في تمشيط المنطقة.

ولم يجد الجنرال تريزيل مسلكاً يسلكه هارباً منهم، فاندفع مع من تبقى معه من القوات إلى ساحل البحر يرجو الخلاص، ولكن وعورة المنطقة والجهل بطبيعتها حالت بينه وبين الانسحاب المنظم، ودبّت الفوضى بين جنوده، وغرقت أكثر العجلات بمدافعها في تلك المخاضات الخطرة، واقتحم أكثرهم سبيل النهر تاركين وراءهم قتلى وجرحى كثيرين، وبدأ الليل يجيش بالعتمة وأخذ الظلام المرعب الممزوج بهدير المياه وأصوات الرصاص يملأ الفضاء الرحب، وفي سرعة الوميض، بعد قليل من الراحة، عادت للمجاهدين حماستهم للقضاء على فلول العدو المنهزم، وكان الأمير في المقدمة وتكللت

جميع خططه بالنجاح، وتمت هزيمة الجنرال الذي وصل مدينة وهران ليلاً بأسوأ حال متخفياً مع قليل من الجنود.

ومن المجاهدين الذين استشهدوا في هذه المعركة «المقطع» الاغا قدور بن بحر، ومن أعيان الجيش العربي خليفة بن محمود الذي كان وكيلاً في مدينة أرزيو، والسيد محمد بن الجيلاني الورغي، والسيد محمد المشرفي الذي كان أيضاً من قادة المجاهدين وطلب ناصر الدين الأمير عبد القادر أن يتم دفن هؤلاء المجاهدين وفق الشعائر الإسلامية، وبعد ذلك اتجه إلى نواحي سيك وبعث بالأسرى والغنائم إلى العاصمة «معسكر»، ثم كتب إلى نوّابه في مليانة والمدية يبشرهم بما تحقق من الانتصار.

وبهذه المناسبة نظم له ابن عمه علي بو طالب الذي رافقه في هذه المعركة، وكان إلى جانبه قصيدة مطلعها:

رميت يا كهف الأنام للعُلى وكل باغ سُقته للردى
بُشرى لك الفتح الذي هنئت بالنصر وإدراك المنى[1]

ولما بلغ حاكمَ مدينة الجزائر المحتلة خبرُ هذه المعركة، أصدر فوراً أمره إلى الجنرال تريزيل بالتخلي عن منصبه كحاكم لمدينة وهران، وعيّن مكانه الجنرال دو لورانج. وقال أحد المؤرخين إثر هذه المعارك التي خسر فيها الفرنسيون الافاً من الجنود بين قتيل وجريح: إن بعض نواب المجلس في باريس أعلن أن احتلال الفرنسيين للجزائر هو من الأعمال الشائنة التي تضر بسمعة فرنسا[2].

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 72 .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 72 .

وقـال تـيري رئـيس الحكومـة: إن غـزونا الجزائـر عمليـة خاسـرة إلى الان لم تنجح، ولا أقول ذلك انتقاداً لمقدرة قواتنا العسكرية ...إلخ

وبعـد انتهائـه مـن الكـلام عـلا ضـجيج النـواب في المجلـس، واختـل نظامـه، ثم اجتمعـوا مـرة أخـرى بعـد اسـتراحة واتخـذوا قـرارات منهـا عـزل الكونـت دو رولان حـاكم مدينـة الجزائـر وتوليـة المارشـال كلوزيـل مكانـه، والهجـوم علـى عاصـمة الأمير معسكر واحتلالها[1].

ب . الأمير يفرض حصاراً على المستعمر ويهاجم مدينة الجزائر:

أرسـل الأمـير مـن عاصـمته لخليفتـه بمليانـة السـيد محيـي الـدين بـن عـلال وأمـره بأن يجمـع جيوشـه ويهـاجم مدينـة الجزائـر، فـانطلق علـى رأس خمسـة الاف مقاتـل فقـاموا بتـدمير قـرى ومـزارع الكولـون بمتيجـة وقتلـوا مـنهم الكثـير ووصـلوا حـتى أبـواب مدينـة الجزائـر، ثم عـادوا محملـين بالغنـائم والأسـرى، كمـا أمـر خليفتـه في تلمسـان البوحميـدي أن يتحـرك بجيشـه ويشـاغل وهـران، وفي أيام اسـتطاع الأمـير أن يفـرض علـى المـدن الـتي يحتلهـا الفرنسـيون حصـاراً خانقـاً[2]، وشـارك بنفسـه في حصـار مدينـة الجزائـر. وكـان الأمـير يعمـل علـى تحقيـق مقولتـه بأنـه لـن يسـمح للطـير بالتسـرب إلى المـدن الـتي يحتلهـا الفرنسـيون، حـتى أضـحى هـؤلاء الغـزاة مغلـولي الأيـدي وفي أشـد الضـيق، كـأنهم أسـرى داخـل حصونهم يحاولون التخلص من الحصار بشتى الوسائل[3].

ج . معركة مدينة «معسكر» عاصمة الأمير:

وصـل الجزائـرَ الجنـرالُ كلوزيـل مصـحوباً بالـدوق دورليـان ولي العهـد الفرنسـي،

[1] المصدر نفسه ص 73 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 501 .
[3] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 75 .

وأحضر معه إمداداً عسكرياً هاماً، وفي الحال قرر التوجه لوهران واحتلال عاصمة الأمير، وعلم الأمير في الوقت المناسب بتوجه العدو[1]. وجمع الأمير المجلس العسكري ومجلس الشورى وعقد جلسة عمل قال فيها: لقد بلغني أن المارشال الجديد يستعد لاحتلال هذه المدينة ظناً منه أنه بذلك يكسر شوكة قدراتنا ويضعف معنوياتنا، وباعتبار أن مدننا من أجمل مدن العالم، وبصورة خاصة تلمسان ومعسكر هذه المدينة الرائعة التي تحتل موقعاً جغرافياً مميزاً، فإذا أراد العدو الوصول إليها سيصل إليها بعد قطع مسافات واسعة من السهوب المتعرجة والوعرة المسالك. وكما علمت أن إمدادات ضخمة وصلت كلوزيل، وأنه مصمم على دخول عاصمتنا، وأنا لا أريد حرباً تقوم بداخلها تزهق فيها أرواح السكان الامنين وحامية حصن سعيدة لا تستطيع الصمود أمام اثني عشر ألف جندي مدرب، لذا أقترح ترك كلوزيل يدخلها ولكن قبل ذلك نخليها من السكان، فإذا دخلها وجدها خالية. وإذا طال احتلاله لها قال أحد أعضاء المجلس مجيباً الأمير: حينذاك نعد هجوماً كبيراً على مدينة الجزائر لنخرجهم منها وننتهز فرصة ابتعاد عشرات الالاف من الجنود الذين كانوا يحمونها مع قادتهم، وسأل اخر: ما الغاية من هذه الخطة؟

أجاب الأمير:

أولاً: المحافظة على السكان من شيوخ وأطفال.

ثانياً: إنقاذ هؤلاء السكان من ويلات الحرب داخل المدينة، والتي ستكون حرب شوارع تهدم أثناءها الدور وتحترق المتاجر، ومن لم يمت بقنابل المحتلين سيموت فزعاً ورعباً من أصواتها التي تسبب الأذى لآذان الأطفال وربما تصيبها بالصمم، هذا إذا نجوا من الحرائق والقتل برصاص المحتلين.

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 501 .

ثالثـاً: إذا جمعنـا قواتنـا وحاولنـا مـنعهم مـن الوصـول إلى هـذه المدينـة وفشـلنا ـ لا سمـح الله ـ بهـذه الحالـة ألا يخـرج كـل مسـؤول منـا أهلـه وعائلتـه منهـا قبـل دخـول الأعـداء، ويبعـدهم عـن سـاحات القتـال إلى أمكنـة امنـة؟ كمـا هـي العـادة في مثـل ظـروف كهـذه، فـأنا شخصياً أشـعر بأن كـل أم مؤمنـة مـن هـذا الشـعب هـي أمـي، وكـل أخـت هـي أخـتي، وكـل أب هـو أبي وأخـي، فالـذي أريده لعائلتي أريده لكل عائلة في هذا الوطن.

رابعـاً: إذا جهـزنا أنفسـنا للـدفاع عـن المدينـة والوقـوف في وجـه اثـني عشـر ألـف جنـدي مهـاجمين، واسـتطعنا الانتصـار علـيهم وإجبـارهم علـى الانسـحاب.. بعـد أيام، أو ربمـا أسـابيع ـ ولاشـك ـ فـإن كلوزيـل سـيعيد الكـرّة للمـرّة الرابعـة وكـم سـتكون أعـداد الخسـائر مـن الشـهداء، ومـا سـيكون حجـم التـدمير لمـدينتنا، وفي حـال فشـلنا في إنقـاذ مـدينتنا ودخلهـا كلوزيـل منتصـراً بعـد تكبيدنا خسائر فادحة ماذا نكون قد ربحنا؟

فخـيّم الصـمت علـى المجلـس، ثم بعـد دقـائق رفـع أكثـر الرجـال مـن أعضـاء المجلس أيديهم بالموافقة على الخطة.

وبسـرية تامـة تم نشـر الأوامـر بإخـلاء المدينـة وبطريقـة نظـام البريـد المتحـرك، يعـني كـل جـار يخـبر جـاره، وكـل زميـل يخـبر زميلـه. وأمسـك الأمـير بيـد والدتـه يسـاعدها علـى امتطـاء العربـة الـتي كانـت أمـام داره، فسـارت بجميـع أفـراد عائلتـه لـيلاً نحـو قصـر كاشـرو، وهـو قصـر قـديم شـيد في غابـة. وهـي أرض تملكهـا عائلـة الأمـير منـذ غـابر الأزمـان، وتقـع علـى بعـد أميـال مـن مدينـة معسـكر، بنـاه أجـداد سـيدي محيـي الـدين والـد الأمـير منـذ قـرون. وكـان بنـاؤه على الطـراز الأندلسـي وعـدد غرفـه ثلاثـة وأربعـون غرفـة، وعـدد مـن الحمامـات، وخارجـه إسـطبلات واسـعة للخيـول، وبئـر مـاء وكـان لازال صـالحاً ومـاؤه

عـذب، واستضـافت عائلـة الأمـير في هـذا القصـر عـدداً كبـيراً مـن الأقـرباء والجـيران. ووصـل كلوزيـل إلى مشـارف مدينـة معسـكر بعـد ثلاثـة أيام مـن السـير، ولم يصـادف أي كـائن في طريقـه أو أيـة صـعوبات كبـيرة ودخلـت قواتـه المدينـة فوجـدتها خالية مـن الحركـة، وكأنها مدينـة أشـباح، كانـت المتـاجر مغلقـة وعنـدما فتحـت بالقـوة وجـدت فارغـة، لا أسـواق لبيـع الخضـار والفواكـه ولا مخـابز ولا مطـاحن تعمـل، والمخـافر خاليـة مـن الحـرس، حـتى الميـاه كانـت مقطوعـة. وكانـت قـوات كلوزيـل تكـاد تسـقط مـن الإعيـاء والعطـش والجـوع، وكـان يأمـل ويمـنّي جنـوده بغـزو المخـابز وحوانيـت الأطعمـة فـور وصـولهم المدينـة، وقبـل دخـولهم في معـارك لاحـتلال المدينـة وإجبـار الأمـير عبـد القـادر علـى الاستسـلام وخروجـه مـن عاصـمته إمـا أسـيراً أو قتـيلاً. ولكـن كلوزيـل لم يجـد أحـداً يقاتلـه في المدينـة، وكمـا يـذكر المؤرخـون أن اليهـود فقـط مـن سـكان المدينـة رفضـوا تركهـا، وعنـدما دخـل كلوزيـل أسـرعوا بالمثـول بـين يديـه وقـدموا الطاعـة ولكـن لم يقـدروا أن يفيـدوه بشـيء، ولم يتمكنـوا مـن تهدئـة روعـه مـن هـول المفاجـأة لأنهـم كـانوا أعجـز مـن معرفـة فكـر الأمـير ومـا كـان يخطـط لـه، فشـاركوا كلوزيـل في شـكوكه الـذي لم يأمـر جنـوده بـدخول أي دار خوفـاً مـن مفاجأة قاتلة تنتظرهم بداخلها.

ولم يـنم كلوزيـل تلـك الليلـة وهـو يـذرع أرض غرفـة أحـد المخـافر الـتي اختارهـا وهـو يفكـر ويتسـاءل عـن سـر فـراغ المدينـة مـن السـكان، وظـن أن هنـاك مخططـاً لإفنـاء قواتـه، فأخـذت الشـكوك والهـواجس تمـلأ رأسـه، وفي صـباح اليـوم التـالي أمـر جنـوده بالانسـحاب مـن المدينـة، والعـودة بمـا بقـي معهـم مـن المـؤن الغذائيـة الـتي كـانوا يحملونهـا مـن وهـران، واعتبرهـا كافيـة حـتى وصـولهم إلى المقـرّ، وبعـد

انسحاب اخر جندي من «معسكر» يجرّ أذيال الخيبة ويرتجف من البرد وغزارة الأمطار[1].

وصلت الأميرَ أخبارُ عودة قوات كلوزيل من حيث جاءت وعلى نفس الطريق، وكان مختبئاً داخل الأدغال على المرتفعات المحيطة بالطريق، ولم يكن باستطاعة كلوزيل اكتشافها، وعندما شاهد الأمير بمنظاره الحربي جيش العدو يسير ببطء يجر عرباته وخيوله المثقلة بالعتاد انتظر حتى وصل أمامه اخر جندي، وأمر القائد مصطفى بن التهامي باصطحاب كوكبة من الفرسان ليخبروا سكان مدينة معسكر بزوال الخطر ويساعدهم على العودة إليها. وحذّر الأمير المجاهدين من إطلاق أي رصاصة على جيش العدو، ثم أمر بالتحرك داخل الأدغال بهدوء، والتخفي بأغصان الأشجار، وكان جيش العدو يسير على الطريق، وفوقه على المرتفعات الاف المقاتلين يسيرون بسرعة أكبر لقطع الطريق عليه، ولم يأمر أمير البلاد بالهجوم إلا بعد أن عمّ الظلام، حينذاك انهال الفرسان على الجند الذين فوجئوا بالهجوم، فأخذوا يضعون المتاريس يختبئون وراءها ويطلقون النار على غير هدى، فدبت الفوضى بينهم، فوصلت أخبار الهجوم إلى كلوزيل الذي كان يسير في مقدمة جيشه، فعاد ونظم صفوفه، ولكن قوات الأمير كانت أسرع بالهجوم عليه من مواقعها في أعالي الهضاب غير مبالين بقنابل المدفعية وأصوات الرصاص، فهجموا على عربات المدفعية واستولوا عليها، والتحم الفريقان حتى منتصف النهار، وكثر عدد القتلى في جيش كلوزيل فأمر بالانسحاب، فكان جنوده يفرغون العربات من العتاد والذخيرة ويضعون مكانها جرحاهم، ويفرون نحو طرق وعرة.

[1] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره ص 96 .

واكتفى الأمير بهذا الانتصار والدرس الذي كبدّ فيه كلوزيل خسائر فادحة، وكانت قواته بأشد الحاجة إلى الراحة، فعاد بها إلى المخيم، فوصله ليلاً، وكعادته قبل دخول خيمته توضأ وصلى جماعة صلاة العشاء بعد سماعه صوت مؤذن المعسكر، وسجد شكراً لله.

وفي اليوم التالي بعد صلاة الفجر أمر بالاستعداد للرحيل والعودة إلى العاصمة، فأطلقت المدفعية كالعادة ثلاث طلقات إشارة للرحيل، ترفع أثناءها أعمدة الخيام وتحمل الذخائر ويمتطي الفرسان صهوات جيادهم، وكانت عادة الأمير بعد هذه الاستعدادات الخروج من خيمته والقفز على جواده ثم يثب به وثبتين، ثم يتقدم الجيش بالمسير. ولقد عمت الأفراح في المدينة عندما وصلت الأخبار بقدوم طلائع الجيش الجزائري، وظهر الفارس المنتصر إنه ناصر الدين الأمير عبد القادر بن محيي الدين على أبوابها، فعلت أصوات النساء بالزغاريد والرجال بصوت واحد «الله أكبر» واصطف رجال المراسم بألبستهم العسكرية يرحبون بعودة أمير البلاد إلى عاصمته[1].

د . توالي المعارك بين الأمير والمارشال كلوزيل:

علم الأمير عبد القادر بواسطة عيونه أن المارشال كلوزيل قرر الهجوم على تلمسان، وأنه أرسل عملاءه من قبائل الدوائر والزمالة لفتح الطريق له، فقرر الأمير تطبيق نفس الخطة التي طبقها في مدينة معسكر، وذلك بإخلائها من سكانها الذين غادروها بما خف وزنه من الأثاث والمتاع.

ووصل كلوزيل تلمسان يوم (1836/1/13م) على رأس جيش ضخم من (11000) جندي. فوجد الأمير في استقباله، ودارت المعركة من الفجر إلى الزوال، وخرج الذين كانوا متحصنين بالقلعة وفتحوا أبوابها للعدو يوم (12

---

[1] الأمير هبد القادر الجزائري حياته وفكره ص 97 .

ينـاير) فمكنـوه مـن احـتلال المدينـة، وفـرض كلوزيـل ضـريبة باهظـة علـى السـكان حـتى علـى عملائـه، وذلـك قصـد تغطيـة نفقـات الحـرب، واضـطر النـاس لبيـع مجـوهرات نسـائهم لـدفع الضـريبة. وكـان المـرابي اليهـودي لازاري وسـيطاً يشـتري المجـوهرات بأبخـس الأثمـان، وكانـت خسـارة العـائلات مضـاعفة. وشـارك في هـذا النهـب الضـابط المملـوكي التركـي العميـل يوسـف، فضـج النـاس مـن ذلـك، وقـد كتـب الضـابط بيلسـيه دي ريينـو عـن ذلـك فقـال: كـل هـذا تم باسـم فرنسـا، لقـد كـان الجـيش يشـعر بالعـار والخـذلان[1]، وبقـي الأمـير يترصـد خـروج كلوزيـل مـن تلمسـان، فخـرج بعـد أن تـرك حاميـة فيهـا قاصـداً وهـران فوجـد جـيش الأمـير أمامـه، ودارت معـارك بـين الطـرفين لمـدة عشـرة أيام، وهُـزم كلوزيـل ولم يـتمكن مـن الوصـول إلى وهـران، فعـاد إلى تلمسـان وتحصّـن بقلعتهـا وبقـي بهـا أيامـاً، ثم حـاول الخـروج منهـا فـالتقى بـه الأمـير وحاربـه وألحـق بقواتـه خسـائر كبـيرة. وصـمم كلوزيـل علـى التقـدم سـالكاً طريقـاً اخـر عـبر السـاحل فوصـل مرسـى رشـكون وتحصـن بهـا. فحاصـره الأمـير مـدة شـهرين كـاملين قضـاها في مناوشـات قتاليـة، وعنـدما يـئس كلوزيـل مـن التقـدم بقواتـه بـراً اسـتنجد بنائبـه، فأرسـل لـه مراكـب نقلتـه مـع جيشـه بحـراً، بعـد أن حمـل مـا أمكن حمله من العتاد.

غـادر كلوزيـل وهـران إلى الجزائـر بعـد أن نصـب الجنـرال دار لانـج واليـاً عليهـا والجنرال بيريجو قائداً على الجيش.

كانـت قبائـل حجـوط مسـتمرة في حملاتهـا علـى الكولـون والمراكـز العسـكرية في المتيجـة، وأمـا البـاي العميـل ابـن عمـر فقـد هـرب مـن مليانـة وهـو يعـيش بالجزائـر، والعميـل محمـد بـن حسـين الـذي عيّنـه الحـاكم العـام بايـاً علـى التيطـري

[1] الجزائر في التاريخ ص 502 .

ثار عليه المواطنون فهرب وتخفى في مطامير للحبوب، فأرسل كلوزيل قوة إلى المدية ضمن حملة دامت (12) يوماً من (3/29 إلى 1836/4/9م)، فاحتلها وترك عليها العميل الباي بن عمر وترك له كمية من السلاح والعتاد، لكن هذه الحملة فشلت فما إن عاد الجيش للعاصمة حتى ثار سكان مدية على الباي العميل واعتقلوه وساقوه مكبلاً إلى الأمير، فخرج الجنرال بيريجو من وهران على رأس (3000) جندي نحو تلمسان وتمكن من ربط الصلة بهذه القوات بين المدينتين، وعلم الأمير فانتقل إلى ندرومة ليتمكن من مراقبة تحركات العدو، واتصل بالقبائل التي كانت تقيم بوادي تافنة ورتب قواتها ووزعها على مواقع اختارها، ثم هاجم العدو بغتة يوم (7 نيسان ـ أبريل) وألحق به خسائر كبيرة اضطره إلى أن يتخذ خطة دفاعية على شكل مربعات متجهاً إلى وهران[1]، وكان الأمير يقوم بالهجوم على أطرافها يقتل ويأسر ولم يصمد المدفعيون الفرنسيون للهجوم، فتخلوا عن بطارياتهم التي غنمها المجاهدون، وبعد عناء كبير تمكن الجنرال من الوصول إلى وهران ولكن بعد خسائر كبيرة في الجنود والعتاد.

وبعد هزيمة الجنرال بيريجو قررت الحكومة الفرنسية إرسال (3000) جندي على رأسهم بيجو إلى وهران لمحاربة الأمير (1836/7/1م)، فتوجه إلى تلمسان لفك الحصار عن حاميتهم المحاصرة من الأمير، وعندما التقى بالأمير دارت معركة في واد سكاك غير متكافئة يوم (1836/7/6م) هُزمت فيها قوات المسلمين، وتمكن بيجو من فك حصار تلمسان وربطها بوهران، وعاد لها فأخبر باريس بانتصاره.

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 503 .

فقام الأمير بجمع جموعه وفرض حصاراً طويلاً على تلمسان دام تسعة أشهر، لدرجة أن كافينياك قائد الحامية الفرنسية فيها قال: كنت أشتري القط الواحد للأكل بأربعين فرنكاً.

ويُروى أن الأمير قرأ صحيح البخاري في هذا الحصار أربع مرات، وفي أثناء الحصار علم أن الأتراك بالمدية قد تمردوا وأثاروا الفتنة، فترك قيادة الحصار لابن عمته مصطفى بن التهامي، وتوجه على رأس كوكبة من فرسانه إلى المدية فأنزل العقاب على رؤوس الفتنة وأعاد النظام لها وولى عليها أخاه مصطفى بن محيي الدين ثم عاد إلى تلمسان، وهكذا تمكن الأمير بعبقرية عسكرية وتنظيمية فذة من مواجهة كل هذه المشاكل وإيجاد الحلول لها، فكان يقطع مئات الكيلو مترات حاثاً القبائل على الصمود والتنظيم، ويقيم تحت الخيمة أشهراً محاصراً للعدو دون كلل[1].

وقد لخص المؤرخ الفرنسي ألكسندر بالمار هذا كله فقال: لقد تمكن الأمير عبد القادر من إعادة بناء قوته التي اعتراها التفكك والتلاشي ثلاث مرات:

الأولى: عندما استولى الجيش الفرنسي على عاصمته.

الثانية: عندما غزا تلمسان.

الثالثة: بعد معركة سكاك.

وكل حادثة من هذه الحوادث كانت كافية لإسقاط أعظم سلطان، ومع ذلك فإنها لم تؤثر في أمره، ولم تحصل منه فرنسا على طائل. ولهذا فإني أقول: لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة لا تفارق ذاته

[1] الجزائر في التاريخ ص 504 .

طرفة عين، ومن هنا نعلم أنه كان في أقرب وقت يسترجع ما يفقده من قوة[1].

كان الأمير عبد القادر في حروبه يهتم بأخلاق الفرسان، ويأمر جنوده بعدم التمثيل واحترام الأسرى، فقد كانت العادة عند القبائل في تلك الأصقاع قطع رأس العدو وتقديمه على حربة للزعيم أو القائد، وكان لكل رأس مكافأة، ولكن أوامر الأمير عبد القادر منذ توليه قيادة حكم البلاد كانت تقضي بأن يجلد كل مقاتل يحمل رأساً، وبتقديم مكافأة مجزية لكل من يأتي بأسير حياً، وهذا قرار اتخذه منذ اليوم الأول ووضعه ضمن قوانين الجيش. وكانت تعليماته إلى كل مقاتل يأسر جندياً فرنسياً أن يحسن معاملته وكان هذا القرار من طرف واحد.

أما العدو فقد كان يقوم بأعمال يندى لها جبين الإنسانية بالنسبة للأسرى والمواطنين على حد سواء، من هذه الأعمال قطع رأس الأسير أو جدع أذُنه. وكانت تُعطى علاوات للجيش، منها علاوة (10) فرنكات لكل جندي فرنسي عن كل أذن لأسير جزائري. ولم يبطل هذا القانون إلا في عهد نابليون الثالث. كتب أحد الجنود الفرنسيين رسالة إلى قائده الجنرال مونتياب جاء فيها: قطعت رأسه ومعصمه الأيسر وجئت إلى المعسكر أحمل رأسه على حربتي ومعصمه معلق بسوار بندقيتي، تلك هي الطريقة التي يجب أن نحارب بها العرب، يجب ترحيل جميع العرب من هنا إلى جزر الماركيز، يجب سحق من لا يركع تحت أقدامنا[2].

---

[1] المصدر نفسه ص 504 .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 78 .

12. مقاومة أحمد باي في نواحي قسنطينة:

عندما استقر الأمر لأحمد باي في مدينة قسنطينة جمع أعضاء الديوان وتباحث معهم في المسألة المتعلقة باعتراف فرنسا ليكون باياً على أن يواصل دفع الجزية إليها، فكان رد جميع أعضاء الديوان هو الرفض، لأن قسنطينة تابعة لباشا الجزائر وتمتثل لأوامره، وهي بدورها تمتثل لأوامر إسطنبول، ولهذا لابد من الكتابة إلى السلطان محمود الثاني والحصول على موافقته، وفي هذه الأثناء علم أحمد باي أن القائد الفرنسي في الجزائر قد عزله من منصبه وعيّن في مكانه سي مصطفى شقيق باي تونس، وبذلك صارت قسنطينة تابعة لتونس حسب رأي الجنرال كلوزيل الذي كان يحكم الجزائر. وهذا هو الذي دفع الباي أحمد أن يعيّن ابن عيسى خزناجياً أي أميناً للخزينة، ويضرب النقود باسمه.

وعندما تمكنت فرنسا من ميناء عنابة بدأت تهدد أحمد باي بالإطاحة به، وأرسلت جيشاً قوياً بقيادة كلوزيل للقضاء عليه، لذلك جند أحمد باي (1500) رجل من المشاة و(5000) من الفرسان واستعد لمواجهة الجيش الفرنسي في واد الكلاب وواد الأحد الذي يوجد تحت سيدي مبروك، لكنه انسحب إلى مدينة قسنطينة عندما شعر أنه غير قادر على محاربتهم لأن جيشهم كان أقوى، وبناء على ذلك استدرجهم الباي أحمد إلى المدينة ثم هاجمهم من الخلف ومن داخل المدينة وألحق هزيمة بالفرنسيين الذين قهرتهم الطبيعة، حيث أن الأمطار الغزيرة التي تهاطلت في تلك الأيام قد ساهمت في التأثير سلباً على خطط الفرنسيين، واعترف الحاج أحمد باي أنه كان على استعداد للتفاوض مع الجيش الفرنسي والاحتفاظ بمرتبته كباي، فقال: ولكنني عندما رأيت أنهم جاؤوا بباي ليستبدلوني وأكثر ليهينوني ؛ إذ اختاروا

لهذا الغرض مملوكاً من تونس، لم أعد أرى شيئاً اخر غير المقاومة النشيطة، وهذا ما فعلت، وقد كان علي أن أفعله من قبل[1].

وبدون شك فإن هذه الهزيمة الثقيلة التي ألحقها الحاج أحمد باي بالفرنسيين في عام (1836م) هي التي دفعت الجيش الفرنسي إلى إعداد جيش ضخم يتكون من (16000) جندي يقودهم كبار جنرالات فرنسا المعرفون بقدراتهم القتالية تحت قيادة دامريموت.

وفي اليوم الأول من شهر أكتوبر (1837م) ابتدأ الجنرال دامريموت قائد الحملة الفرنسية ورئيس أركانه بيريقو العمليات العسكرية ضد قوات أحمد باي، انطلاقاً من سطح المنصورة المطلة على مدينة قسنطينة. وقد حاول أحمد باي أن يعتمد نفس الخطة التي ساعدته على الانتصار في المرة الأولى وهي مواجهة الجنود الفرنسيين من داخل المدينة المحصنة وضربهم من الخلف، لكن هذه المرة لم تنجح الخطة لأن عدد جنود الفرنسيين كبير، وتمكنوا في هذه المرة من معرفة فجوة ساعدتهم على التسرب إلى المدينة واحتلال الثكنة الكبيرة التي كانت توجد بها، وعندما رأى ابن عيسى خليفة أحمد باي والمسؤول عن الدفاع، أن الفرنسيين تسربوا إلى المدينة وأن المقاومة أصبحت غير مجدية أمر السكان أن يخرجوا من المدينة، وقد استشهد في هذه المعارك محمد بن البجاوي قائد الدار، وذلك بالإضافة إلى شخصيات كبيرة في المدينة، ولكن الشيء الذي ينبغي التذكير به هنا هو أن الجنرال دامريموت ورئيس أركانه بيريقو قد لقيا حتفهما في بداية المعارك، حيث أن الباي أحمد قد صوب مدفعه الكبير الموجود في باب الجديد نحو مكان تجمع القادة الفرنسيين، وتمكن من إطلاق النار على الفرنسيين وقتل رئيس العمليات

---

[1] المصدر نفسه .

العسكرية ورئيس أركانه، وقد خلفه في منصب القائد العام للقوات الفرنسية الجنرال فالي الذي استولى على المدينة فيما بعد، وتوفي معه الجنرال كومب وزميله الجنرال كارامان بعد بضعة أيام.

وبالنسبة للباي أحمد فإن هذا الاحتلال لمدينة قسنطينة سنة (1837م) ما هو إلا بداية للمقاومة الجزائرية ضد قوة الاحتلال الأجنبية، وبالفعل فقد اجتمع بقادة المقاومة وأعد معهم خطة تقضي بقطع جميع الاتصالات مع مركز القوات الفرنسية بمدينة عنابة، لكن أحد مساعديه المقربين بو عزيز بن قانة، وكان فقد سلطته في الصحراء لصالح فرحات بن سعيد، اعترض على خطة الباي أحمد واقترح عليه أن لا يبقى الجيش في قسنطينة، وإنما يتوجه إلى الصحراء حيث يوجد فرحات بن سعيد الذي أصبح يعمل مع الأمير عبد القادر الذي اعترف به شخصياً على قبائل الصحراء. وخوفاً من وقوع انشقاق في صفه وافق الباي أحمد، وأثناء ذهابه إلى الصحراء بعث إليه الفرنسيون رسالة يطلبون فيها منه الاستسلام.

ومع أن فرحات بن سعيد كان يعتبر هو الخليفة المعتمد من طرف الأمير عبد القادر على الصحراء، فإنه كان ينوي الذهاب إلى قسنطينة والتحدث مع أحمد باي أو الفرنسيين، إلا أن ذهاب أحمد باي للصحراء حسب نصائح ابن قانه دفع بسعيد بن فرحات أن ينضم إلى الفرنسيين ويتحالف معهم مقابل أن يعترفوا به كشيخ للعرب، وأن يمدوه بجيش قوي ليحارب أحمد باي وابن قانه، لكن الفرنسيين رفضوا اقتراحه وطلبوا منه أن يقوم بهجوم على أحمد باي ويأتيهم برأسه وآنذاك يعترفون به.

وبالفعل دخل مع أحمد باي في معركة حامية الوطيس، لكنه انهزم وهرب إلى وادي سوف. ثم إن مرض أحمد باي وعدم قدرته على جمع وتوحيد

الصفوف لمحاربة الفرنسيين وتمركز الجيش الفرنسي في كل المناطق، قد أنهك قواه وأجبره على التفاوض مع فرنسا والاستسلام لها يوم (5 جوان 1849م). وكما هو معروف رفض التوجه إلى فرنسا ومات بمدينة الجزائر سنة (1850م) وتم دفنه بزاوية سيدي عبد الرحمن.

وباختصار، فإن أحمد باي قد قاوم الفرنسيين لمدة (18) سنة وظن الفرنسيون أنه ضعيف نظراً لعدم وجود قبيلة تحميه وتشد أزره، لكنه فاجأهم وتحدى جبهة الخونة في الداخل وجبهة باي تونس وقاوم حتى النهاية[1].

وهو صاحب المقولة الشهيرة: لا وطن لي إلا الجزائر، ولا دين لي إلا الإسلام، ولا لغة لي إلا العربية[2].

وهو صاحب المقولة الأخرى: إذا كان المسيحيون بحاجة إلى بارود ستردونهم، وإذا نفذ خبزهم، سنقسم خبزنا معهم، ولكن حتى وإن بقي أحد منا على قيد الحياة فلن يدخلوا قسنطينة[3].

ولاشك أن أحمد باي من الشخصيات المتميزة سياسياً وعسكرياً إلا أن عدم دخوله تحت زعامة الأمير عبد القادر أضعفته وأضعفت موقف المقاومة، فبعد أن توحدت معظم قبائل ومدن الجزائر وأجبرت الدولة الفرنسية على الاعتراف بالأمير عبد القادر، وأبرمت معه المعاهدات الرسمية، وأرسلت الدول الأجنبية قناصلها إليه، عرض الأمير عبد القادر مرات عديدة على أحمد باي بأن ينضم إليه ويتحالف معه ؛ فقد كان عليه أن يستجيب لنوازع الوحدة وتوحيد الصفوف ضد المحتل الفرنسي.

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 119 .
[2] الحاج أحمد باي ، د. بو ضرساية بو عزة ص 7 .
[3] المصدر نفسه ص 353 .

وكان الأمير عبد القادر يحترم أحمد باي ولم يكن له أي خصومة أو بغضاء، وأشاد بجهاد أهالي قسنطينة، والشيخ ابن البجاوي ومن معه من العلماء والأبطال الذين أبوا إلا الموت تحت أسوار بلدتهم على الحياة تحت سلطان فرنسا[1].

13 . اختراق المخابرات الفرنسية لدولة عبد القادر:

استطاع ليون روش عميل المخابرات الفرنسية أن يخترق دولة عبد القادر، وأن يصل إلى مكان مقرب من الأمير ويصبح مترجمه الخاص، ولعب دوراً خطيراً تحت قناع الإسلام، واعتبر حلقة من حلقات الاستعمار في اختراقها للجزائر، فمن المعروف أن الحملات الاستعمارية الكبرى باتجاه العالم الإسلامي، كانت تسبقها حملات مركزة للجوسسة للتعرف على الأرضية التي سيتم احتلالها، وكان من العادة أن يقوم بالمهمة مجند في أجهزة المخابرات لديه خبرة واسعة بالأرض، وأكبر مثال على هذا الجاسوس بوتان الضابط في الهندسة العسكرية، الذي أرسله نابليون بونابرت إلى الجزائر عام (1808م)، حيث قام بإجراء دراسة دقيقة، التي على أساسها تم احتلال الجزائر، لكن بعد الغزو العسكري سرعان ما اكتشف المحتل أن هناك مساحات كبيرة لم يتمكن من غزوها، فاحتلال الشعوب يقتضي التعرف بدقة على جغرافيتهم النفسية وخريطة عقولهم.

وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حركة الجوسسة الاستعمارية بإرسال رجال ونساء حتى يتغلغلوا في الشعوب وينفذوا إلى أعماق النسيج الاجتماعي ويقدموا التقارير الدقيقة والوافية عن تجربتهم في الداخل، وستظل أسماء مثل ليون روش بارزة في مسيرة حافلة لهؤلاء الذين اخترقوا وتغلغلوا إلى أعماق

[1] حوار مع عبد القادر الجزائري ص 104 .

المجتمع، فلم تكن التقارير العسكرية والأمنية كافية للسيطرة على هذه المجتمعات، بل كان من الواجب النفاذ بعمق في ألياف الحياة الاجتماعية والدينية والتجوال في دروسها والدخول إلى عمق أعماقها.

فليون روش الجاسوس ـ كغيره من الجواسيس ـ ندبته الحكومة الفرنسية في بداية غزوها للجزائر ليكون جاسوساً على الأمير عبد القادر، وأوعزت إليه أن يتظاهر عنده بالإسلام، وأن يتوصل أن يكون موضع ثقته ومحل أمانته، ففعل ذلك ونجح، وأقام معه حوالي سنتين، كان خلالها يبعث بكل تفاصيل دولة الأمير عبد القادر إلى حكومته الفرنسية، ولم يكتف بهذا فقط، بل تخصص في إثارة الفتن بين الأمير عبد القادر والقبائل الأخرى، فكان هدفه إضعاف قوة المسلمين وتشتيتها من حول الأمير[1].

أ ـ قصة دخول ليون روش الجزائر:

ولد ليون بفرنسا بمدينة غرونوبل في يوم (27 سبتمبر 1809م)، وبعد وفاة أمه كليمونتين شمبانو ذهب عند عمته، وبدأ دراسته الثانوية في ثانوية غرونوبل ثم أكملها في ثانوية تورنون ونال شهادة البكالوريا عام (1828م)، وبعدها بدأ دراسته الجامعية في جامعة غرونوبل في تخصص الحقوق وبقي يدرس لمدة ستة أشهر فقط، ثم رحل إلى مرسيليا بعد أن أرسله أبوه للعمل هناك مع تاجر صديق له، فعمل معه وسافر بين فرنسا وشرق أوروبا، وزار العديد من دول شرق أوروبا، وكان عمره آنذاك يقارب العشرين عاماً، كان أبوه الفونس ملحقاً بخدمات العتاد العسكري في الجزائر منذ الحملة الفرنسية (1830م)، واهتم بالعمل الفلاحي في ضواحي الجزائر، واقتطعت له مزرعة في سهل متيجة مساحتها حوالي (200)

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 107 .

هكتاراً وكان يقوم بخدمتها بعض الجزائريين، ونظراً لتعدد مهامه، كتب إلى ابنه يطلبه للحضور ليساعده في الفلاحة بعد أن غاب عنه مدة طويلة.

وجاء إلى الجزائر بعد انقطاعه عن والده لمدة أربع سنوات، وعاش في مدينة الجزائر واختلط بالأهالي الجزائريين والأتراك والكراغلة والحضر، وتعلم اللغة العربية على يد رئيس مجلس قضاء الجزائر الشيخ عبد الرزاق بن بسيط، وتمكن من اللغة العربية وتحدث بها بطلاقة. وتعرف على العلماء والقضاة وأعيان المجتمع، وعرض نفسه كمترجم بين الفرنسيين والأهالي. وكان تعلمه للغة أمراً مدروساً ووسيلة مهمة للاختراق الاستخباراتي[1].

ب . مطية الجوسسة:

جعل ليون من تفانيه في تعلم اللغة العربية والدخول في الإسلام مطية للجوسسة التي كان قد كلف بها من قبل.

كانت المخابرات الفرنسية أوكلت إليه أمر مراقبة الأمير عبد القادر، ورسمت له الخطط المناسبة، واستغلت المخابرات الفرنسية معاهدة التافنة التي نصت في بندها الرابع على السماح للمسلمين بالعيش أينما أرادوا، ولهم الحرية المطلقة في الانتقال من دولة الأمير إلى الأماكن التي يحتلها الفرنسيون، وكذلك يباح للفرنسيين أن يسكنوا دولة الأمير. فأوعزت المخابرات الفرنسية إلى ليون روش لمهارته في اللغة العربية ومعرفة تقاليد الجزائريين وثقافتهم، للالتحاق بمعسكر الأمير والتظاهر باعتناق الدين الإسلامي والدخول في وسط جيشه والتقرب منه للتعرف على أحواله والقيام بمهمته.

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 108 .

غـادر ليـون روش مقـر أبيـه في إبـراهيم رايـس، واسـتقر عنـد قبيلـة بـني موسـى في منطقـة متيجـة وقـد كانـت تـربطهم بـه علاقـة سـابقة، إذ كـان يخـرج معهـم في رحـلات للصـيد خـلال السـنوات الماضـية، وأعلـن إسـلامه ونطـق بالشـهادة، وسمـي بعمـر بـن عبـد الله. وبـدأ بإقامـة الصـلاة وإعـلان الشـعائر الإسـلامية علناً.

ومـن بـني موسـى بـدأ يـنظم اتصـالاته مـع بعـض الفرنسـيين والجزائـريين بهـدف جمـع المعلومـات الكافيـة عـن أحـوال دولـة الأمـير عبـد القـادر الفتيـة، ووصـل إلى مـدينتي بوفاريـك والبليـدة وأظهـر إسـلامه أمـام الحـاكم فلفـت نظـره، واستبشـر بـه خـيراً، وفـرح بـه أشـد الفـرح لاعتقـاده بأن الله قـد هـدى نصـرانياً مـن الشـرك إلى الإيمـان. فاستضـافه وأكرمـه وقدمـه لمـرابط المدينـة سـيدي بلقاسـم سـيدي الكبـير، الـذي وثـق بـه علـى حسـن نيـة، فأقـام عنـده وعمـل علـى إقنـاع سـيدي بلقاسم بتزكيته والتوسط لدى الأمير حتى يلتحق به ويقدم خدماته له.

وعـاد ليـون روش إلى أولاد سـيدي موسـى، وحمـل متاعـه في طريقـه إلى مليانـة ففتحـت لـه الطريـق ووصـل إلى مدينـة مليانـة، حيـث كـان يقـيم صـديقه عمـر باشـا الـذي كـان يعلـم أن ليـون روش ينـافق ويتظـاهر باعتنـاق الإسـلام، فاستضـافه وقـدم لـه النصـح عـن كيفيـة سـيرته وأوصـاه بالحـذر في تحركاتـه والفطنة في سلوكه لكي لا يجلب شكوك المسلمين حوله.

وفي هـذه الأثنـاء كـان خليفـة الأمـير محمـد بـن عـلال غائبـاً عـن المدينـة، فاتصـل ليـون روش بنائبـه وكاتبـه قـدور بـن رويلـة، وشـرح لـه قصـته المزيفـة عـن دخولـه في الإسـلام وأنـه يريـد الالتحـاق بالأمـير عبـد القـادر ليقـدم لـه خـدمات جليلـة، واستبشـر قـدور بـن رويلـة ووعـده بأن يصـطحبه هـو بنفسـه إلى معسـكر الأمـير ويطلب من الخليفة محمد بن علال أن يقدمه للأمير شخصياً.

وعندما سار الأمير عبد القادر إلى الشرق وعسكر على ضفاف وادي نوغه جيء به عند الأمير، فاستقبله فصار يخبره ويؤكد له أنه اعتنق الدين الإسلامي بكل إخلاص، وطلب منه الدخول في خدمته[1].

وأمر الأمير عبد القادر أحد العلماء بالاعتناء بهذا الشاب وتفقيهه في أمور الدين الحنيف وقراءة القران وآداب الشريعة الإسلامية، وفي وقت قصير أتقن ليون روش هذه العلوم وسُرّ الأمير لذلك، واستجاب الأمير لطلبه الزواج من إحدى الفتيات المسلمات، وهكذا أصبح ليون روش مسلماً ومقاتلاً أيضاً إذ كان يشارك في المعارك في تلك الفترة[2].

وشرع ليون روش يرتب أمور عمله لأداء مهمته الحقيقية كجاسوس، وطفق في جمع المعلومات ومراسلة الفرنسيين وتعريفهم بأحوال الأمير العسكرية والسياسية وغيرها. ووصف الأمير في تقاريره وصفاً دقيقاً في شخصه ومناقبه ولباسه وأوصافه الجسمية والخلقية والدينية والثقافية، وبيّن عدله واحترامه لتعاليم الإسلام وهيبته واحترام الجنود والمواطنين له، ولم يترك شاردة ولا واردة تتعلق بالأمير ودولته وقع عليها إلا أرسلها في تقاريره.

وفي بداية عام 1838م أثناء إقامته في مدينة تلمسان حين أوفده الأمير عبد القادر ليتعلم القران وتعاليم الإسلام ؛ شك أهلها في نواياه الحقيقية، وأخبروا الخليفة البوحميدي، ولما أحس ليون روش بالعيون تراقبه فرّ إلى مدينة وهران، ثم وصل إلى خيام بني عامر قرب عين تموشنت، وفي خيمة الاغا انكشف أمره، فعاد أدراجه إلى الخليفة البوحميدي، ودافع ليون روش عن نفسه من تهمة الفرار إلى العدو دون إذن مسبق والخيانة العظمى التي تستحق الإعدام، وفضلاً عن ذلك طلب وثيقة سفر ليتوجه إلى الأمير عبد

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 113 .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 61 .

القادر ويشتكي له من قسوة المعاملة التي لم تكن تليق بمكانته. واتخذ موقف المهاجم أمام الخليفة البوحميدي، وراح يعاتبه على عدم الثقة فيه رغم أنه مبعوث من طرف أمير المؤمنين، وأن قلبه يعمره الحب والرغبة في الإسلام وله الحق كغيره من المسلمين في حسن المعاملة، حينها اعتذر البوحميدي له في أدب ووعده بمنحه رخصة السفر وتوفير الأمان له إن رغب في ذلك، ولكنه حذره من العودة إلى مثل ما قام به من عملية الفرار.

وفي شهر فيفري (1838م)، بعث ليون روش برسالة مطولة إلى جهاز المخابرات فصّل فيها النظام الإداري والعرفي الذي كانت تسير عليه قبائل غرب الجزائر وشرح لهم ما عرفه عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والدينية التي كان يمارسها الأهالي.

وفي أوائل شهر (أفريل 1838م) وصل إلى مدينة المدية، فجثى أمام الأمير عبد القادر راكعاً باكياً، واشتكى إليه من ظلم وجور الخليفة البوحميدي ورجاله، وسوء معاملتهم له، وأنهم اعتبروه كافراً وليس مسلماً أتى من أجل خدمة الأمير ونصرة الحق على الباطل، وإظهار النور على الظلام[1]، وبالغ في التضرع والخداع حتى حنّ قلب الأمير عليه باعتباره مسلماً غريب الديار، فصدّقه وأصبح من حاشيته وعيّنه كاتباً ومستشاراً ورفيقاً يقرأ عليه ويترجم له ما يكتب في الصحف الفرنسية، وكان يحضر حتى في مجالسه السرية التي كان يعقدها مع كبار دولته[2]، وكان اختراقاً هائلاً وعظيماً ساهم في القضاء على دولة الأمير وإضعافها وتكسير مقوماتها ومؤسساتها.

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 114 .
[2] حوار مع الأمير عبد القادر ص 115 .

ج . انكشاف أمر الجاسوس:

في نهاية عام (1839م) سافر الأمير عبد القادر إلى تلمسان لتنظيم شؤون الدولة والجهاد دون أن يترك أية أوامر تخص ليون روش، فانتهز فرصة غيبته وخادع الناس بمهمة مزعومة إلى مدينة مليانة ليتفقد مصانع الأسلحة وأخذ كل ما يحتاجه من وثائق من بينها خريطة جغرافية جزائرية، وجهاز بوصلة وخاتمه بصفته كاتب الأمير، ورافقه جاسوس اخر هو ايزدور الذي كان يعرفه منذ أن كان يقيم عند أبيه من قبل، كما أخذ عدداً من الرسائل استعملها في شكل برقيات ليخادع بها كل من اعترض طريقه ولتساعده في معرفة المواقع، وتوجه نحو مدينة وهران فاراً نحو الجيش الفرنسي. ولما وصل إلى منطقة معسكر أخبر من اعترضه من أهلها أنه ذاهب في مهمة إلى معسكر وتلمسان بأمر من الأمير إلى وكيله في وهران، ووصل ليون روش بصحبة رفيقه إلى مركز الجيش الفرنسي في ناحية الكرمة بالقرب من وهران، ثم انتقل من هناك إلى مقر حاكم الإقليم، ونسي الأميرَ ودولته وطفق يحارب مع الجيش الفرنسي ويطارد قوات المجاهدين حتى سنة (1844م)، فكرّمته دولته الفرنسية وعيّنته بأعلى المراكز، وكافأته على نجاحه في المهمة التي كلف بها[1].

وذكرت الأميرة بديعة الحسني الجزائري في كتابها القيم بأن ليون روش استطاع تزوير رسالة باسم الأمير عبد القادر إلى أمير مكة مقلداً خطّه ووقعها بختمه الخاص وهرب حاملاً الرسالة إلى فرنسا، متجهاً إلى باريس، وأطلع حكومته على الرسالة فحمّلته هدية ثمينة، وأمرته بالسفر إلى مكة، فارتدى اللباس الجزائري وأخذ الهدية والرسالة وسافر إلى مكة فوصلها معززاً

[1] المصدر نفسه ص 119 .

مكرّماً. وهناك قابل الشريف محمد بن عوف أمير مكة وسلمه الرسالة والهدية، فأكرم أمير مكة وفادته وعامله معاملة رسل الملوك، وبعد أيام وكما هي العادة، وكما كانت تقضي التقاليد العربية ؛ سلمه أمير مكة رسالة جوابية ومعها هدايا ثمينة إلى الأمير عبد القادر، فرجع حاملاً هذه الأشياء إلى فرنسا وسلم إلى حكومته الرسالة التي كان يُفترض تسليمها إلى الأمير، وبعد قراءتهم الرسالة تأكدوا أنه لا علاقة للأمير بأمير مكة، ولم يسبق أن ساعده بشيء.

وبعد نجاحهم في هذه العملية التجسسية أعادوا الكرّة مرات عديدة، فمرة كانوا يرسلون الجواسيس على أنهم سيّاح ومرة على أنهم تجّار، ولكن جميع تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل، إلا أنه بعد هروب ليون روش وافتضاح أمره أصبح الحذر شديداً لدى المسلمين، والأوامر صريحة وواضحة بهذا الخصوص.

وقد ألّف ليون روش كتاباً تاريخياً بعنوان «اثنتان وثلاثون سنة في الإسلام» أصبح مرجعاً كبيراً لكثير من المؤرخين والكتّاب، ووصف فيه مقابلته الأمير في معسكر عين شلالة فقال: رأيت وسط المعسكر خيمة كبيرة يقف ببابها جمهور كبير إنها خيمة السلطان، وكان جالساً وحده في صدر الخيمة، فغضضت من بصري وتقدمت نحوه ببطء، ثم ركعت ولثمت يده كما هي العادة عندهم، ظننت أنني أحلم عندما رأيت عينين خضراوين تحيط بهما أهداب سوداء كثيفة، كان يحمل بيده مسبحة وتحيط بوجهه لحية سوداء حريرية، ولو بحث فنان عن صورة لعابد من عُبّاد القرون الوسطى يضعها على لوحته فإنه لن يجد حسب رأيي نموذجاً أفضل من الأمير ببرنسه

الأبيض وجلسته اللطيفة، وعلى الرغم من مكانته العظيمة التي كانت تسمح له بالتعالي والسموّ، كان طيباً لبقاً، ولم يكن أحد من الحرّاس بجانبه[1].

14. معاهدة تافنة:

استغل الأمير توجه كلوزيل إلى قسنطينة فأصدر أمره إلى خليفتيه مصطفى التهامي و البوحميدي بالتوجه على رأس جيش إلى وهران ومحاربة القبيلتين اللتين تحالفتا مع الفرنسيين وهما قبيلة الغرابة وقبيلة البني عامر والعشائر المتحالفة معهما، فاكتسح الجيش جنودهما واستولى على مواشيها وألحق بها هزيمة قاسية. وأمر الأمير خليفته محمد بن علال أن يتوجه إلى الجزائر فانطلق بجيشه إلى متيجة ونواحي الجزائر، يدمر مزارع الكولون ويستولي على مواشيهم ويأسر بعضهم، ووصلت قواته إلى أبواب العاصمة التي هرب الفرنسيون وراء أسوارها وأغلقوا أبوابها. وعاد إلى حاضرة ولايته وبعث رسولاً يخبر الأمير بتعيين داميمون حاكماً عاماً خلفاً لكوزيل المعزول يوم 12/2/(1837م).

وانتشرت أقاويل في باريس مفادها: أن الأمير عبد القادر معجب جداً بالمدنية الغربية، ويعمل من أجل تجديد شباب القومية العربية، وتصور الفرنسيون أن بإمكانهم أن يجعلوا منه أميراً مسلّماً بالاحتلال، يحكم الداخل لصالح فرنسا. وعُيّن الجنرال بيجو قائداً للجيش الفرنسي في وهران، الذي وصلها على رأس (15000) جندي بتعليمات صارمة بضرورة عقد صلح جديد مع الأمير ووقف الحرب معه.

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 511 .

وجاء هذا القرار الفرنسي بعد أن تمكن الأمير من فرض حصار صارم على المدن المحتلة من الفرنسيين. وأرسل الفرنسيون إلى الأمير عبد القادر ابن دران اليهودي ليفاوض الأمير على الهدنة.

أرسل الجنرال بيجو الرسالة الأولى عارضاً شروطاً شديدة رفضها الأمير، الذي أجاب برسالة عرض فيها شروطه، ورد بيجو على الشروط بشروط مخففة، وهو يلقبه بسلطان العرب، وأرسل الأمير مرة أخرى جواباً على الرسالة بشروط رفضها بيجو وقرر وقف التفاوض والخروج للحرب. فخرج واحتل تافنة، وعلم الأمير فأرسل رجاله يستنفرون القبائل للجهاد، وعندما تأكد بيجو من قوة تحرك الأمير وألا قبل له بمواجهته الان تراجع وقرر العودة للمفاوضات.

وعاد الجنرال بيجو إلى الجزائر في (نيسان . أبريل 1837م) مشترطاً عدم رضوخه للحاكم العام بالجزائر، رابطاً علاقته مباشرة مع وزارة الحربية، واستقر في وهران ودخل في مفاوضات مع الأمير عبد القادر، واشتكت الوزارة بأنه كان يتجاوز تعليماتها وبأنه تنازل كثيراً للأمير. وكرر بيجو مع الأمير ما سبق أن فعله ديمشال[1].

انتدب الأمير ممثلاً له يتفاوض مع بيجو، وطلب هذا أن يعترف الأمير صراحة بالسيادة الفرنسية على مناطق محددة وتكون للأمير سيادته.

ورفض الأمير شروط بيجو الذي عرض عليه مناطق أخرى لاسترضائه كولاية تيطري. ومن باب إثارة الحزازات بين بيجو والحاكم العام بالجزائر ؛ كان يفاوض الاثنين معاً، فاندلع جدال بين القائدين الفرنسيين حول

[1] الجزائر في التاريخ ص 512 .

اختصاص كل منهما، وتدخلت الحكومة الفرنسية فكلفت بيجو بمفاوضة الأمير.

أرسل الأمير مرة أخرى مبعوثاً هو السيد حمادة السقّال رئيس حضرة تلمسان، وبعد أخذ ورد حررت معاهدة تافنة يوم (1837/5/20م) وشروطها مختصرة كما يأتي:

أولاً: يعترف الأمير بسلطنة فرنسا على مدينة الجزائر ووهران.

ثانياً: يبقى لفرنسا في إقليم وهران ومزغران وموغران وأراضيها ووهران وأرزيو بحدود معينة يصير كل ما بداخلها من الأراضي للفرنسيين.

ثالثاً: على دولة فرنسا أن تعترف بإمارة الأمير عبد القادر على إقليم وهران وإقليم تيطري والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من إقليم الجزائر بحسب التحديد المعين في الشرط الثاني أن يمد يده لغير ما ذكر من أرض الجزائر.

رابعاً: ليس للأمير سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا، ويباح للفرنسيين أن يسكنوا في مملكة الأمير، كما أنه يباح للمسلمين أن يسكنوا في البلاد التابعة لفرنسا.

خامساً: يمارس العرب الساكنون في أراضي الفرنسيين ديانتهم بحرية.

سادساً: على الأمير أن يدفع للجيش الفرنسي (30000) كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بمكيال وهران، وخمسة الاف رأس بقر، يؤدى ذلك على ثلاثة أقساط.

ســابعاً: يسوغ للأمير أن يشتري من فرنسا البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الأسلحة.

ثامنــاً: على فرنسا أن تتخلى للأمير على أسكلة رشكون ومدينة تلمسان وقلعة المشور مع المدافع القديمة التي كانت فيها.

تاسعاً: تكون التجارة حرة بين العرب والفرنسيين.

عاشراً: يكون رد المجرمين بين الطرفين.

حادي عشر: يتبادل الممثلون بين الطرفين.

بعد توقيع المعاهدة طلب الجنرال بيجو أن يجتمع بالأمير فعين له هذا مكاناً وزماناً، وجاء الجنرال في جيش ضخم قصد التأثير على الأمير، وأعد الأمير عدته وجاء في موكب كبير على رأس جيش يتكون من (15000) فارس، سائرين بنظام عجيب في سهل يموج بهم، وظهر الأمير وقد أحاط به نحو مئتين من رؤساء القبائل ممتطين لخيول عراب، متمنطقين بأسلحة مصقولة، والأمير يتقدمهم على جواد عربي أسود من أجمل ما عرف بين جياد عصره، وحوله ستة من السياس. تقدم منه الجنرال فتصافحا ثم ترجلا، ودار الحوار التالي بين الرجلين:

. إنك تكسب أيها الأمير بهذه الهدنة حيث أنني بمدتها لا أخرب المواسم.

ـ هذا لا يضرنا يا جنرال، حتى إني أعطيك الرخصة بأن تخرب ما تقدر عليه، ولا يمكن لك أن تخرب إلا مقداراً زهيداً، ومع ذلك عند العرب حبوب وافرة.

ـ أظن أن العرب لا يفكرون مثلك فهم يرومون الصلح، وبعضهم أثنى علي لكوني حافظت على المواسم كما وعدت ومنهم حمادة الصقال.

ـ فأجاب الأمير مبتسماً ما هي المدة التي يمكن رجوع الجواب فيها من فرنسا؟

. لا تكون أقل من أسبوعين.

ـ حيث أن الأمر كما ذكرت فلا نجدد العلاقات التجارية ولا نحدث شيئاً من مقتضيات المواصلة إلا بعد ورود الجواب من فرنسا.

ثم افترق الرجلان، ويروي ابن رابح أحد الضباط الفرسان الذين كانوا في حرس الأمير: أنه عندما وقف الأمير لوداع الجنرال قرّب إليه فرسه الأدهم الشهير ليركبه، وبعد أن صافح الجنرال ونزع يده من يده التفت إلى الفرس وعلا عليه في أقل من لمحة، وحركه بركابه فمرق بين الخيل مروق السهم، واندفع به ثلاث دفعات متوالية وعلى وتيرة واحدة، فانبهر الجنرال لذلك، وتعجب من سرعة ركوب الأمير وخفة الفرس وبقي واقفاً برهة من الزمن ينظر نظر المتحير. ثم ركب فرسه ومضى، وبعد أن سار الأمير مسافة بعيدة عن موضع الاجتماع، أمر الجنرال أحد ضباطه أن يرجع إلى المحل ويأخذ مسافة ما بين تلك الدفعات الثلاث، فكانت مسافة ما بين كل منها تقرب من ثلاثين ذراعاً.

وقد نالت اللغة العربية موقعها السيادي بالمعاهدة وهو موقف ثابت للأمير، فقد ورد في نصها ما يأتي: حرر نص المعاهدة على شطرين عربي وفرنسي، فكتب الأمير اسمه بخطه على الشطر العربي وختم عليه بخاتم الإمارة، وكتب

الجنرال بيجو اسمه بخطه على الشطر الفرنسي بخاتمه الرسمي. وأعطى بيجو (5000) بندقية للأمير.

وصادق الملك لوي فيليب على المعاهدة بتاريخ (1837/6/15م).[1] وقد علق عليها رجال السياسة الفرنسيون: على أنها جعلت الأمير الأقوى بدون نصر عسكري. لكن في ذهن الجنرال بيجو فكرة يعمل من أجلها وهي تأمين جانب الأمير والتفرغ للإعداد لاحتلال قسنطينة وهزيمة أحمد باي. ثم العودة إلى محاربة الأمير. وهذا ما لم يفهمه أحمد باي الذي رفض باستعلاء الانضواء تحت راية الأمير الذي يعتبر أقوى قائد عرفته المقاومة، ولو كتب لهذين الرجلين أن يتفقا لأمكن للتاريخ أن يغير مجراه[2].

وبعد المصادقة على المعاهدة أعطى بيجو أمراً للجنرال كافينياك بإخلاء تلمسان التي دخلها الأمير في موكب مبهر، واستقبله الشعراء بقصائدهم وأنشد هو قصيدة حيا فيها تلمسان.. ورد فيها:

ونادت أعبد القادر المنقذ الذي	أغثت أناساً من بحار هواها
لأنك أعطيت المفاتيح عنوة	فزدني أيا عز الجزائر جاهاً

وما إن وضعت هذه المعاهدة موضع التنفيذ حتى اتجه الأمير لتقوية الأوضاع الداخلية لدولته[3]، فتوجه لمحاربة من شقوا عصا الطاعة.

أ. محاربة من شقوا عصا الطاعة:

ما إن وضعت هذه المعاهدة موضع التنفيذ حتى اتجه الأمير لتقوية الأوضاع الداخلية لدولته، فتوجه لمحاربة من شقوا عصا الطاعة، وبدأ بقضية محمد بن

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 515 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 515 .
[3] المصدر نفسه ص 516 .

عبد الله البغدادي، فقد سبق أن حضر هذا الدعيّ من بغداد قبل سنوات، وزعم أنه من ذرية الولي عبد القادر الجيلاني، وأكرمه الشيخ محيي الدين والد الأمير، واستغل انشغال الأمير في ترتيب أمور دولته فتوجه إلى قبائل الزناخرة وأولاد نائل، والتقى بأكبر مشاغب ضد الأمير وهو مختار محمد بن عودة الذي قدمه على أنه البديل للأمير، ووصفه بأنه محمد بن عبد الله المنتظر، فاجتمع له خلق كثير. فقرر الأمير وضع حد لذلك، وتوجه له على رأس ثمانية الاف فارس وألف من المشاة وقطع من المدفعية. والتقى بالمنشقين في بلاد أولاد مختار، ودامت المعركة ثلاثة أيام تعب فيها الأمير في كسر شوكتهم، ثم نصره الله عليهم.

وقد توالى عليه شيوخ القبائل بالناحية فشفعوا في العصاة فقبل الأمير شفاعتهم وعقد لمحمد بن عودة رئيساً على قبائل الناحية بعد أن طلب العفو.

أما عن البغدادي ففي أثناء هروبه تمكن بعض أنصار الأمير من أسره وتسليمه للأمير الذي عفا أيضاً عنه، فانتقل للمغرب الأقصى واستقر به.

وبعد هذا الانتصار قام الأمير بجولة بالجنوب فقدمت له وفود من الأغواط عرضت عليه طاعتها وطلبت منه تعيين من يسوس أمورهم، فعيّن السيد الحاج العربي بن السيد الحاج عيسى الأغواطي، وأقام بالمدية فاستقبل العديد من الوفود التي قدمت له من سائر أنحاء القطر، حيث ألقى في الجهاد درساً في التوحيد.

وخرج من المدية على رأس جيشه بهدف تقويم اعوجاج قبائل وادي الزيتون، فهزم جموعهم وأسر رؤساء الفتنة، وجمع العلماء للحكم على هؤلاء الذين سبق لهم أن شقوا عصا الطاعة وشملهم عفو الأمير، فحكم عليهم مجلس

العلماء بالإعدام، ومثُل أمامه (18) رجلاً منهم لتنفيذ الحكم فيهم، ولما طلب منهم التوبة، أجاب أحدهم: إن قطع أعناقنا أولى من تقديم الطاعة فأمر الأمير الجلاد فقطع رأسه، ثم توالى الثاني والثالث فقطعت رؤوسهم إلى أن وصل الدور إلى شيخ هرم، فقُدم له وهو يرتعد خوفاً، فهجم أطفاله على الأمير ووقفوا يتباكون، وبينهم طفلة صغيرة السن خاطبت الأمير بقولها: بحق الله ووالديك وأولادك أن تعفو عن والدي. فلما سمع الأمير كلامها غلبت رحمته على غضبه وأمر بالعفو عن والدها وعن الباقين، واحتضن البنت وقبلها لتسببها في حلمه، وأعلن العفو عمن خالفوه ورد أموالهم لهم، ولما سمعت القبائل المعارضة بذلك هرعت إليه وطلبت العفو، وعاد إلى المدية بعد أن ثبت كل رئيس قبيلة على قبيلته[1].

ب . التصدي للمتمرد محمد التيجاني:

سبق أن استقبل الأمير وفوداً من قبائل الأغواط حيث طلبوا منه قبول انضمام ناحيتهم إلى دولته، فقبل وعيّن على ولايتهم السيد الحاج العربي، لكن محمد الصغير التيجاني رفض الانضواء تحت راية الأمير واستطاع التأثير على بعض القبائل فتبعته، فتوجه له الأمير على رأس جيش يوم (1838/6/12م) قوامه (6000) فارس و (3000) من المشاة وثلاثة مدافع وستة هاونات، ووصل المنطقة بعد عشرة أيام سيراً في الصحراء، وكان التيجاني يتحصن في حصن بعين ماضي، حاول الأمير فتح ثغرة في الحصن، أو نفق يتسلل منه جنوده، لكن المحاولات باءت بالفشل، فقرر فرض حصار منيع عليه دام ستة أشهر، وعندما عض الجوع سكان الحصن ضغطوا على التيجاني الذي أرسل يوم (19 نوفمبر . تشرين الثاني) إلى

[1] الجزائر في التاريخ ص 518 .

خليفة الأمير السيد الحاج مصطفى التهامي يستأمن على نفسه وأهله وسكان الحصن وطلب منه منحه مهلة أربعين يوماً لإخلاء الحصن، فعرض الخليفة الأمر على الأمير فقبل وأخلى الحصن في التاريخ المحدد وأمر الأمير بتدميره[1].

كان محمد التيجاني يعتقد أن الأمير عبد القادر سيهزم، وخطب في مريديه بقصره بعين ماضي قائلاً: إن عبد القادر سيفشل بحربه ضد فرنسا، حتى إن انتصر لا يفيدنا بشيء، فنحن التيجانية خلفاء الله في أرضه[2].

بهذه القناعة كان التيجاني يتعامل مع أمير البلاد الذي كان يعتبرهم من المرابطين على الرغم من ملاحظاته على بعض أفكارهم وتصوراتهم ولكنه اعتبرها بينهم وبين رب العالمين، ولكن عندما قرأ رسالة بخط محمد التيجاني مرسلة إلى المارشال فاليه كتب له فيها: أشغل أنت الأمير من جهة البحر، وأنا سأشغله من جهة الصحراء. هذه الرسالة لم تصل إلى فاليه لأنها وقعت بيد فرسان الأمير أثناء أحد المكائن، ومنذ ذلك الحين والأمير يتحين الفرص لإخضاع هذا المتمرد الذي كان يظنه من المتعبدين فخاب ظنه فيه، والذي لم يقتصر عمله على عدم دفع الزكاة التي فرضت على أساس شرعي فقهي، وإنما تصل إلى درجة الخيانة[3].

وكان في ذلك المكان من الأغواط جنوب الصحراء نبع ماء منذ أقدم العصور، سمي المكان باسم العين «عين ماضي» شيّد فيه أجداد محمد التيجاني ثلاثمائة بيت وقصراً منيفاً وأبراجاً تحيط بها جدران كثيفة من الحجر، وزاوية تدرس فيها الطريقة التيجانية التي من أهم مبدأ في عقيدتها

---

[1] المصدر نفسه ص 521 .
[2] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره ص 115 .
[3] المصدر نفسه .

هو السلام، وهذا ما جعل الأمير وأركان دولته في البداية يظنون بهم الخير والصلاح، ولكن الأيام كشفت حقيقة هذه العقيدة، وأن مفهوم السلام عندهم هو القبول بحكم الأقوياء، حتى لو كانوا من الغزاة المحتلين، وتهيئة النفوس لقبول الاستعمار والاحتلال على شرط عدم المساس بهيئتهم الشخصية ومصالحهم الذاتية البحتة، وأيقن الأمير أن الحرب ليست بينه وبين جنرالات المحتلين فقط وإنما بينه وبين قوى الشر في البلاد أيضاً، ومن خيمته داخل الأدغال أخذ يدير أعماله الإدارية، ويوقع على القرارات التي تستوجب توقيعه[1].

ونتيجة الحصار اضطر التيجاني إلى التسليم، ونزل على شروط الأمير عبد القادر وهي:

ـ أن يرسل الشيخ أحد أولاده ليظل رهينة عند الأمير ريثما يتم الجلاء عن الحصن.

. أن يدفع الشيخ مصاريف الحصار للدولة.

. له الحق بأخذ جميع أمواله بلا استثناء[2].

فقبل التيجاني هذه الشروط ووقع عليها، وأرسل ابنه فأمّنه الأمير وأحسن معاملته، وقبل انتهاء المدة كان الشيخ قد خرج بأهله من الحصن، وبعد ذلك بأيام وقبل عودة قواته إلى مراكزها أمر بتهديم الحصن والسور وسائر الأبراج وسوّاها بالأرض وغوّر ماء الابار، فسارعت أكثر القبائل المحيطة بالحصن إلى دفع الزكاة، وكاتب وفد منها أمير البلاد. وعندما جلسوا بين يديه قال لهم: أيها المسلمون، لقد نصرنا الله على العصاة، أيها الرجال إننا

---

[1] المصدر نفسه .

[2] المصدر نفسه .

نبني دولة تصون أعراضكم وتحميها وتؤمن لكم العزة والكرامة وتحمي أموالكم ودينكم، إن الله سبحانه وتعالى أراد لي تحمل هذه المسؤولية التي ليست مسؤوليتي وحدي، إنما مسؤوليتكم، وبناء الدولة والمحافظة على نظامها وقوانينها هي جهاد، لأن الجهاد في سبيل الله ليس فقط قتال العدو، وإنما أيضاً البناء وتقوى الله، فاتقوا الله في أنفسكم وفي دولتكم الإسلامية ونظامها الإسلامي الإلهي العظيم الذي تجدون فيه حلولاً لجميع المشاكل التي تعترض حياتكم الاجتماعية والزراعية والاقتصادية، فقفوا بقوة في وجه تحديات المحتلين وإغراءاتهم فهي مؤقتة وزائفة. فعلت أصواتهم «الله أكبر» وخرجوا وألسنتهم تلهج بالدعاء لأمير البلاد[1].

وكانت معاملة الأمير للأسرى الذين وقعوا في قبضته من أتباع التيجاني أثناء الحصار متقدمة ومتميزة. فقد كان جلّ هؤلاء الأسرى يقيمون مع المقاتلين بنفس الخيام يأكلون معهم ويصلّون خمس أوقات في اليوم معهم، وبعد أيام أعادوهم إلى الحصن، فأخبروا ذويهم عما شاهدوه من قوة جيش الأمير ونظامه، وشاعت هذه الأخبار كالنار في الهشيم بين سكان الحصن، فذهب عدد من المريدين لمقابلة شيخهم قائلين: انظر ما ال إليه حالنا وأنت الذي علمتنا عدم مجابهة بعثة وإن كان أقوى منا، وهذا العدو مسلم مثلنا يصلي صلاتنا ويتكلم لغتنا ونحن من بايعناه منذ سنوات، ولقد سمعنا أن الفرنسيين المحاصرين في وهران اضطروا لأكل القطط والفئران نتيجة الحصار الذي فرضه الأمير عليهم. فهز الشيخ رأسه وأمرهم بالخروج من الحصن رافعين الراية البيضاء طالبين مقابلة الأمير[2]، وتمّ بعد ذلك ترتيب أمور الاستسلام وفق الشروط التي تمّ ذكرها.

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 118 .

[2] المصدر نفسه ص 116 .

ج . مراجعة علماء المغرب الأقصى:

كان الأمير يعمل على إحاطة دولته بسائر أنواع الضبط التشريعي والإداري، وكان يضطر إلى إنزال العقاب بالقبائل العاصية المتعاونة مع العدو، وأراد أن يحيط علماء المغرب ببعض المشاكل التي تواجهه وطلب منهم الإجابة فأرسل برئاسة عبد الله سقاط أسئلة موجهه إلى علماء المغرب الأقصى طالباً منهم الإجابة عليها، وقد أجاب عليها شيخ الإسلام الإمام التسولي. وقبل الاتصال بالعلماء قصدت البعثة سلطان المغرب حاملة رسالة من الأمير.

وكانت الأسئلة تدور حول: كيف تعامل القبائل المنهمكة في المحرمات والعصيان؟ كيف يعاقب الجواسيس والنصاب؟ وما هي الأشياء التي لا يجوز بيعها للنصارى؟ كيف يعاقب العاصي بالمال وما فيه من الخلاف وتضارب الأقوال؟ كيفية تحريم ترك الإمام ونواب الرعية على ما هم عليه من المفاسد وارتكاب المظالم؟ وما هو حكم المتخلف عن الاستنفار للجهاد وما العقاب المسلط عليه؟ وما ينبغي أن يفعله الإمام قبل أن يستنفر الناس؟ ما هي الأمور التي يجوز أن يُتصالح حولها مع العدو؟ ما هي المصادر التي يجوز أن يرتزق منها الجيش في حال فراغ بيت المال من الأبدان والمال؟ ما حكم من ساكن العدو الكفور ورضي بالمقام معهم فيما لهم من البلاد والثغور؟

كان قصد الأمير من هذه الاستشارة القانونية من علماء المغرب إبراء ذمته أمام الله وتجنبه أن يعاقب خارج أحكام الشريعة، وتقوية موقفه أمام الناس الذين سيشعرون بأن الأمير يطبق عليهم ما أمر به الله بشهادة علماء متعمقين في الشريعة وأصول الدين[1].

[1] الجزائر في التاريخ ص 525 .

د ـ التوسع في بناء الحصون ومصانع الأسلحة:

كانت معاهدة التافنة هدنة مؤقتة يلتقط فيها الأمير أنفاسه ويزيد فيها من قوته العسكرية والاقتصادية لا غير، ولقد ذكر الصحفي البريطاني شارل هنري شرشل بعضاً من نصوص هذه المعاهدة المهمة، وبناء على ذلك اعترف سلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام بسلطة الأمير، مرسلاً إليه الهدايا الثمينة. وكتب ليون روش فقال: لقد خلع المبعوث الرسمي للسلطان عبد الرحمن في (3 يوليو من عام 1839م) قفطان المبايعة على الأمير عبد القادر، وهذا يعني اعترافه به كملك مع الهدايا النفيسة، وكذلك حذا حذوه أمير الحجاز وغيره من الحكام الذين اعترفوا بهذه الدولة الفتية[1].

وبهذه الهدنة المؤقتة نظم الأمير الكثير من الأمور التي تهُمُّ الشعب والجيش، وشيّد الكثير من القلاع والحصون: فأمر ببناء حصن في الخط الفاصل بين السواد والصحراء وحصون أخرى منها حصن سعيدة، وحصن سبدو في الجهة الغربية، وحصن تاكمدت الشهير في الجهة الجنوبية والشرقية وحصن بوغار، وحصون سبأ وعريب وبو خرشفة وحصن طازة، ولما مرّ في جولة له بحصن طازة ورأى المنشآت التي شُيّدت في أقصر زمن حمد الله وشكره، وارتجل هذه الأبيات وأمر بكتابتها على باب الحصن بخط كبير مقروء:

الله أعلم أن هذا لم يكن ... منّي على الأمد الطويل دليلا
كلا وإن منيّتي لقريبة ... منّي وأصبحُ في التراب جديلا
ورضا الإله هو المنى ويكون ... من بعد انتفاعُ الخلق طويلا[2]

كما أن مصانع عديدة أُنشئت في المدن التي كانت تحت سيطرة الأمير، وإن مطاحن البارود وإذابة الحديد اخذة بالعمل، وهي تنتج قناطير من

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 81 .
[2] المصدر نفسه ص 82 .

البارود يومياً. وأنشئت مصانع كثيرة في قلعة بني راشد وحصن بلال وحصن شرشال، كما كانت تصنع المدافع في تلمسان وغيرها من المدن والحصون.

وهذه المعلومات العسكرية، كانت تصل إلى السلطات الفرنسية بواسطة خبراء من جنسيات مختلفة بسرية تامة ويضيف دولا كروا: وإلى الان يوجد ثلاثة مدافع في متاحف باريس نُقش على سبطاناتها بالخط العربي الجميل «عُمل في تلمسان وقت إمارة ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين سنة (1255 للهجرة)».

وقد أُمر حينذاك كلُّ من يحصل على بارودة فرنسية أن يسلمها إلى رئيس معامل السلاح ويأخذ ثمنها اثني عشر ريالاً جزائرياً، وجعل الأمير في الحصون الكثير من الكوادر الصناعية لإصلاح الأسلحة وسروج الخيل، وكان أغلبهم من المسلمين القرداحية المشهورين بهذا النوع من العمل. ووضع الحاميات المسلحة في المضائق والنقط الهامة في البلاد كمخافر أمن، وجعل ألبستها في الشتاء الجوخ الأحمر[1].

وكتب الصحفي شرشل: إن هذا الشاب على الرغم من صغر سنه بنى دولة فيها جميع المؤسسات الرسمية التي لم يسبق لغيره أن أسسها قبلُ في تلك البقاع من العالم ومنها فتح المدارس والمشافي الحكومية.

هـ المارشال بيجو يخشى من توسع دولة الأمير:

أصاب بيجو غضب شديد عندما علم بانتصار الأمير على التيجاني وهزيمة بني عروس أيضاً وإخضاعه لمعظم القبائل وتوسعه في بناء الحصون والمصانع وتطوير الجيش النظامي، وأنه في طريقه لإنشاء إمبراطورية جزائرية يصعب

[1] المصدر نفسه ص 85 .

التفاهم معها، فكيف بالسيطرة عليها؟. وأصبح خطره أكبر على مدينة الجزائر، ومازال يعتبرها مدينة محتلة مع اعترافه بسيطرة الفرنسيين عليها، لأنه أمر واقع لا يستطيع نكرانه، ورسائله إلى الملك تدل على ذلك، وعلى مفهومه للمعاهدة، وبهذا المنطق بدأ المارشال بيجو يقنع زملاءه من المارشالات.

وكان الدوق أرليون ـ الذي اشتهر بذكائه، وهو الوحيد الذي كان يجد أعذاراً للأمير ـ كان قد صرح ذات يوم للمارشال فاليه برأيه قائلاً: إنني لا أستطيع المشاركة في أمر يهدد السلام مع الأمير عبد القادر، ولا أريد استفزازه، وهذه قناعتي ولا أوافق على احتلال مليانة والمدية ونسف المعاهدة.

لكن بيجو كان مصمماً على التخلص من المعاهدة بأي شكل[1].

وقد بعث المارشال بيجو في رسالة في (24 نوفمبر/تشرين ثاني عام 1841م) إلى وزير الدفاع: هل نستطيع أن نجري في كل مكان..؟ هل نستطيع أن نصدّ جميع الضربات؟ هل نستطيع تجنيد مئة ألف رجل لملاحقة رجل واحد هو عبد القادر؟ من الواضح أننا لا نستطيع ذلك، لذلك يجب علينا الوصول إلى السكان الذين يمدونه بالعون، ولابد من عمل متواصل لحصاره وتقويض أركان قوته من الداخل.

لقد توهمت فرنسا أن هذه الاتفاقية ستجنبها شروراً كثيرة كانت تتهيب منها، ومنها دخول قواتها الصحراء واجتياز جبال أوراس الصعبة المسالك والمختلفة المناخ لاحتلال كامل التراب الجزائري، وكما تدل الأحداث كانت تفضّل بالدرجة الأولى التحالف مع الأمير، ثم تحقيق السيطرة الاقتصادية، ومن ثمّ السيطرة السياسية، وهذا أفضل لها من خوض غمار حروب ومعارك

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 120 .

دامية طويلة الأمد ترهقها اقتصادياً وعسكرياً، لكن الأمير كان صعب الانضواء، ومدركاً تمام الإدراك لمجريات الأمور[1].

وظل الأمير على هدفه الراسخ وهو أن بقاء الفرنسيين في الجزائر . رغم انتصاراتهم . إنما هو بقاء السحابة الصيفية. وكان يرفض رفضاً قاطعاً الاعتراف بالسيادة الفرنسية على الجزائر في كل المواثيق والمراسلات. وكان على يقين من أن موجة التاريخ وإن تصاعدت مع الفرنسيين في عهده، فإنها ستنحسر وتتراجع لا محالة وتتكشف بعد ذلك عن فظائع ارتكبت في حق الإنسانية تحت غطاء الموجة العاتية.

فقد كتب رسالة إلى بيجو سنة (1841م): إن فرنسا ستمضي وسنتراجع نحن، ولكنها بدورها ستضطر إلى التراجع وعندئذ سنعود. وقد شبه الأمير مقاومته وهي في عنفوانها بالموجة التي لا تتأثر بلمسة من جناح طائر: هل تتوقف الموجة عن الصعود والتضخم عندما يلامسها جناح طائر أثناء طيرانه السريع؟ تلك هي صورة مروركم في الجزائر[2].

وبعد ثلاث سنوات من الهدنة وجد كبار السياسيين والعسكريين في فرنسا أن هذه الاتفاقية هي هدنة مؤقتة وليست صلحاً كما أرادوها، وأن الاستمرار فيها ينطوي على أخطار كبيرة على المصالح الفرنسية، وتأكدوا أن الأمير عبد القادر بدهائه السياسي وقدراته العسكرية وفريقه المتميز ومجالسه الشورية التي لاحظوها تنمو يوماً بعد يوم، وشعبيته التي تزداد انتشاراً واتساعاً سنة بعد سنة، كانت تهديداً لمصالحهم. ورأوا ضرورة القضاء عليه بكل الوسائل المتاحة لديهم في مفهومهم الاستعماري، وهكذا بدأت الخطط تحاك في باريس وأخذت الإمدادات العسكرية والمالية تتواصل بحراً

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 86 .

[2] حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله ص 11 .

إلى مدينـة الجزائـر. ووصـلت أخبـار هـذه الإمـدادات إلى أسماع الأمـير بفضـل جهـاز مخابراتـه، فبعـث إلى خلفائـه في الـولايات والثغـور ينـبههم ويحـذرهم مـن غدر الأعداء، ويأمرهم بالتأهب للقتال إذا دعت الحاجة لذلك.

كـان الأمـير يريـد إطالـة أمـد الهدنـة، فعمـد إلى إرسـال رسـائل إلى ملـك فرنسـا يشـرح لـه مسـاوئ بعـض بنـود المعاهـدة، ومغبـة انتهـاك حرمـة الـبلاد مـن قبـل قواتـه في بـلاد ليسـت لـه. ويطلـب منـه تـرك المطـامع في الـتراب الجزائـري واحتلالـه علـى الـرغم مـن إرادة أهلـه، قـائلاً: وإن مـا أقـوم بـه أوجبتـه علـيَّ شـريعة الـدين، الـذي أؤمـن بـه، وإن واجـبي القـومي والـديني يأمـرني بعـدم التخلـي عـن شـبر مـن أرض وطـني، وقـواتكم تحتـل قسـطاً عظيمـاً مـن بـلادنا، وتحـاول التوسـع علـى حسـاب شـرفنا وكرامتنـا، وهـذه كلهـا أسـباب تلزمنـا باستنشـاق الحـرب وبالله المسـتعان. فاسـحبوا وكلاءكـم مـن بـلادنا، والمسـؤولية عليكم وحدكم.

كانت هذه اخر رسالة كتبها الأمير قبل إعلان الحرب[1].

خامساً: استئناف الحرب:

قـام المارشـال بيجـو بإرسـال قـوة مسـلحة مـن جنـوده دخلـت منـاطق دولـة الأمـير مـن غـير إذن مـن السـلطات، وهـذا خـرق صـريح لبنـد مـن بنـود المعاهـدة، ومـرت ببـاب الحديـد وجـاءت الأخبـار عـن طريـق المختصـين للأمـير، فكتـب إلى سـلطان المغـرب رسـالة حدثـه فيهـا عـن اسـتفزازات المحتلـين، طالبـاً منـه النصـح فجـاء جـواب السـلطان ومختصـره مـا يلـي: بعـد الحمـد لله وحـده والصـلاة والسـلام علـى نبيـه الكـريم، ابـن عمنـا ومحـلّ ولـدنا الـذي نظـم بـه الله شمـل الأمـة وجلّـى بنـور صـدقه الشـدائد، حـامي حمـى الإسـلام، الأمـير المجاهـد

[1] الأمير عبد القادر ، سيرته المجيدة ص 88 .

الحاج عبد القادر بن محيي الدين، أيدك الله بنصره وتوفيقه، وقد وافانا الوفد من جنابكم، وعملاً بحسن ظنكم قابلناه بالقبول الحسن، فأنت والحمد لله من دينك على بصيرة، ومن سياستك على أقوَم سيرة، فقد مارست أحوال العدل سلماً وحرباً، واطلعت على بعض دسائس الأعداء، فأمرهم كله غدر، فكن على بصيرة وأبدِ تحبباً و وداداً وانتظر غدراً وعناداً، ولقد فُعل ذلك بالأندلس وأهلها، وعندك شاهد وبرهان، وليس الخبر كالعيان، قال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[النساء:71]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾[آل عمران: 73].

وأيّ خير يحبه العدو للمسلمين، فإذا كانت النهضة لله والعزيمة لنصرة الدين كللت المطالب، وإنما الأعمال بالنيات، أيدكم الله بالتوفيق من عنده، ونسأل الله أن يجدد بك الاثار، ويجعلك من الأئمة المهتدين ويصلح بك وعلى يدك، امين.

من الولي عبد الرحمن ابن المولى هشام ابن المولى محمد في أواخر (ذي القعدة 1254هـ). وأرسل مع هذه الرسالة عدداً وافراً من الأبقار والأنعام وهدايا من المفروشات. وفهم الأمير عبد القادر من جواب السلطان تأييداً لما سيقرر[1].

1 . اجتماع الأمير مع أعيان الدولة:

وفي السادس من شهر كانون الأول عام (1839م) عقد اجتماعاً دعا إليه كبار زعماء القبائل وأعضاء مجلس الشورى ووزراءه وقادة الجيش، وأطلعهم على رسالة السلطان عبد الرحمن ورأيه، ومرور الجنود من باب الحديد، وأمور أخرى تدل على إمكانية الغدر وعدم الوفاء وقال: إنني أقترح إعلان الحرب

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 121 .

لئلا نفاجأ بما لا تحمد عقباه.

فشكل الأمير فوراً وزراء حرب، ولم يفرض ضرائب على السكان مع أن زعماء القبائل عندما سمعوا نداء الحرب تسابقوا لتقديم أنفسهم وأموالهم، ولكن لم يطلب منهم شيئاً سوى عدم تقديم العون للمحتلين.

وكانت استطلاعات الرأي وحماس السكان حتى في زمن السلم تقول: إن أمير البلاد إن فرض شيئاً لا يكون لنفسه، لأنه مليء ومزارعه في القيطنة وحول قصر كاشرو تمده بأكثر ما تحتاج إليه عائلته من الأموال، وأنه يعيش حياة بسيطة ليس فيها أثر للأبهة والعظمة وعظمة الملوك، وإن واردات الدولة من المناطق الشاسعة بالإضافة إلى الزكاة يبدو أنها ساهمت في بناء الدولة[1].

2 . معارضة بعض القبائل للحرب:

جاءت المعلومات الاستخباراتية للأمير أن قبائل أولاد نائل وأولاد مختار وموسى وعبيد شكلوا وحدة لمعارضة العودة إلى الحرب، وأنهم يستعدون لمقاومة الجيش النظامي للدولة، ويجهزون رجالهم، فعرض الأمر على أركان قادة الجيش، وأخذ القرار بالتصدي لهم وأمر أمير البلاد ابن علال بتجهيز قوة من (12 ألف) فارس وعدد من المدافع لمحاصرة تلك القبائل وإرهابهم. وفي الموعد الذي حددوه لابن علال خرج من مدينة معسكر، وكان قد مضى عليه أسابيع لم يدخل داره فيها، فأرسلت إليه زوجته للعودة إلى الدار ليوم واحد فأجابها برسالة قصيرة كتب لها فيها: أنتِ منذ اليوم الأول لمبايعتي قبلت عقد زفافي إلى أخرى وهي بلادي وما عليك الان إلا الصبر

[1] المصدر نفسه ص 124 .

الجميل، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:155].

ودام حصار هؤلاء ثلاثة أيام كانوا خلالها يتحصنون وراء متاريس أقاموها فوق المرتفعات قرب حصن بو غار، وعندما أدركوا أن لا فائدة لهم من تلك التحصينات استسلموا، وتقدم ابن المختار شخصياً ورمى سلاحه أمام الأمير وطلب العفو، ولم يكتف الأمير بالعفو عنه وإنما عينه قائداً على تلك القبائل التي هزمت من غير قتال. وهكذا أصبح ابن المختار من أكثر المناصرين إخلاصاً للدولة، وتقدم الزعماء لتقديم الولاء للأمير، والترحيب به وتكونت حول الأمير دائرة واسعة من الرجال فخاطبهم الأمير بقوله: إننا لم نأت إليكم لإخضاعكم بالقوة، وإنما جئت إليكم كمجاهد يقاتل لإعلاء كلمة الله وهزيمة المحتلين لبلادكم، وإذا قلتم إن أعداءنا أقوى منا فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[آل عمران: 149].

ـ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[النساء:139].

. وقال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء:138].

واستمر الأمير بمخاطبتهم بكل ود ومحبة ثم قال: إن الله بشرّنا فذكر في كتابه: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة:249].

واعلموا أن الفرنسيين قد تركوا بلادهم وجاؤوا لأخذ أرضنا والاستيلاء على خيرات بلادنا ليزيدوا من رفاهية شعوبهم، غير أننا سنكون الشوكة التي وضعها الله في عيونهم، وإذا وقفتم معي فسنعيدهم إلى بلادهم خاسئين، ولا أطلب منكم سوى المحافظة على قوانين دولتنا الإسلامية، إنني أدعوكم إلى

الجهاد في سبيل الله، ولن أولي عليكم إلا من تريدونه وتقبلونه.

ثم طلبوا من الأمير قبول ضيافتهم، ووضعوا أمامه أطباق مغطاة باللحوم، من كل قبيلة قصعة، فاضطر الأمير لمجاملة الجميع فتذوق من كل قصعة لقمة، وغادرهم. ومنذ تلك الزيارة لمناطق جرجرة أصبح اسمه ملهماً لشعرائهم وموضوعاً لأغانيهم الشعبية، وأصبحت قوة الأمن أثناء الهدنة على درجة عالية من اليقظة، وبات الناس امنين في تجوالهم وحياتهم، وأصبحت المرأة تستطيع، كما يذكر المؤرخون، أن تخرج وحدها من غير خوف، واختفت البدع التي كانت تمارس في الزوايا، وعاد معظم السكان إلى هدي القران الذي كانوا مبتعدين عنه، ولم يعد أحد يتجرأ على شرب الخمر أو بيعه، وكذلك الميسر، وحرم الغش على التجار، وكان رجال الأمن بمثابة المحتسب في فجر الإسلام يتجولون في الأسواق، يراقبون الباعة والأسعار ويمنعون الغش والطغيان والفساد، والمناصب الحكومية لم يكن يَشغلها سوى رجال عرفوا بالسمعة الطيبة والنظيفة والشخصية القوية والنسب المعروف، كانوا قدوة يحتذى بهم وحكاماً صالحين[1].

3. رسائل الأمير إلى ملك فرنسا وقادتها:

عاد الأمير من مناطق جرجرة بعد اطمئنانه على سير الأمور فيها، وكلّف لجنة برئاسته بالتحقيق في مرور القوات الفرنسية من باب الحديد ودخولهم مدينة سطيف، وخرجت اللجنة بالتقرير الاتي: عندما شوهدت أعداد كبيرة من الجنود الفرنسيين تتجه نحو مدينة سطيف، أسرعت القبائل المقيمة في ذلك المكان وطلب شيوخهم مقابلة قادة الجنود، فقابلهم كبار الضباط وأطلعوهم على رخص من الأمير بتوقيعه وختمه تسمح لهذه القوات بالمرور

---

[1] المصدر نفسه ص 125 .

كزوار، وطلبوا من يرشدهم إلى باب الحديد، فرأى الشيوخ أن من واجبهم إكرام الضيوف زوار دولتهم، ولم يكن أحد منهم قد سمع بإلغاء المعاهدة والعودة إلى الحرب، فأرسلوا معهم من يرشدهم إلى الطريق وهم سعداء بتسهيل زيارة ودية للضيوف، وعادت تلك القوات بعد يومين إلى مدينة الجزائر كأنها انتصرت متخيلة أنها احتلت الجزائر كلها، فأقاموا لهم الزينات، وقدمت الأوسمة. ومن جهة أخرى اعتبر أمير البلاد هذا الفعل غدراً ونقضاً هاماً للمعاهدة، فأرسل رسالة غاضبة شديدة اللهجة إلى ملك فرنسا، ورسالة أخرى إلى المارشال فاليه الذي قاد الحملة قال فيها: إن القصد من فعلكم هذا إظهار التعدي على حقوقي وما هو ناقض للمعاهدة مبطل لها، وبناء عليه أعلن لكم أنني عزمت على استئناف الحرب، وبالله المستعان. فارفعوا وكلاءكم من بلادي، وأنذروا قومكم المقيمين فيها، والمسؤولية عليكم وحدكم، إن خرق المعاهدة جاء منكم، وحتى لا تتهموني بخيانة تعهداتي فإنني أخبركم إنني قررت استئناف الحرب، فاستعدوا إذن واتخذوا كل الاحتياطات التي ترونها[1].

4 . نداء إلى الشعب والأوامر إلى خلفاء الأمير:

بينما كان أمير البلاد يرسل رسائل الاحتجاج إلى ملك فرنسا والمارشالات في مدينة الجزائر، في الوقت نفسه وجه نداء إلى شعبه والأوامر إلى خلفائه في المدن يأمرهم بالاستعداد للحرب، وبزيارات للمستشفيات وتفقد أنظمتها وتلبية حاجتها من أطباء وممرضين وأدوية، وكتب رسائل إلى زعماء القبائل الموالية له يطلب منهم الاستعداد للجهاد في سبيل الله وتطهير البلاد من المحتلين والغزاة، ومما جاء في ندائه الموجه إلى الشعب: ليكن في علم سائر

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 126

الخلفاء والآغوات والقواد وكافة المسلمين أهل بلادنا الدائنين بطاعة الله ورسوله ثم طاعتنا، وفقكم الله للقيام بفريضة الجهاد وأعانكم بالقوة والإمداد.

إن الفرنسيين قد ظهر عدوانهم واتضح اعتداؤهم، فتجاوزوا الحدود المقررة بيننا وبينهم، ومروا في بلادنا بين قسنطينة والجزائر بدون إذن منا، فتأهبوا . أعانكم الله . للحرب وهيئوا سيوفكم للطعن والضراب، واستعدوا للدفاع عن دينكم ووطنكم، وأجمعوا أمركم للذب عن موردكم وعطنكم. وحيث إن ما في بيت المال من النقود لا يفي بنفقات الحرب، فقد تعين عليكم أن تفرضوا على أنفسكم ومن يليكم إعانة جهادية، وسارعوا بالحضور إلى المدية، فإنني أنتظركم فيها. واعلموا أن النجاح موقوف على إخلاص النية، فوجهوا قلوبكم إلى الله تعالى واطلبوا منه تأييد كلمته وتشييد أركان دينه بكم والسلام عليكم[1].

وأخذ الأمير عبد القادر يعقد اجتماعات يومية للمجلس الحربي ويصرح في كل مرة قائلاً للقادة: إن الوقت كالسيف إن لم تقطع به الوقت قطعنا، وإنني أشعر بإيقاع الزمن الذي يجب علينا استغلاله لصالح دولتنا. يجب استدراج العدو إلى المناطق البعيدة عن المدن لئلا تصبح هذه المدن الرائعة ساحات لمعارك دامية، وخرائب تحتضن جثث الأطفال والشيوخ والمرضى، وتصبح نساؤنا عرضة للقتل أو الأسر. فكان الأمير يتحرك بسرعة هائلة ينظم ويتفقد بنفسه حاميات الحصون والمشافي الميدانية، وكان يقول: إن الحاكم الذي لا يهتم بصحة شعبه يعتبر اثماً.

[1] الجزائر في التاريخ ص 528 .

ومن الأنظمة التي وضعها للجيش قانون يأمر بدقة اختيار الضباط بمواصفات محددة، أولاً: أن يكون الضابط صحيح البنية، ينحدر من أسرة معروفة أصيلة، لم يتهم بخيانة أو قتل، مثقفاً دينياً، يقوم بالفروض المعروفة في الشرع، ويمتاز بالشجاعة متخلقاً بالأخلاق الإسلامية ورباطة الجأش. ونظام الحاميات في الحصون يلزم الضابط بالعيش مع جنوده يشاطرهم معيشتهم ويشرف على تدريبهم اليومي. ومن مهمات هذه الحصون أيضاً حماية المدن ونصب الكمائن للعدو. ويذكر المؤرخون أن هذه الاستراتيجية غطت جوانب عسكرية عديدة هجومية ودفاعية. وبعد استكمال الأمير لهذه الجولات الميدانية والتنظيمات الإدارية والعسكرية والسياسية صدرت أوامره إلى القيادات العسكرية بالزحف إلى معسكرات العدو[1].

5. الزحف إلى معسكرات العدو وحصونه:

في السادس من شهر (كانون الأول سنة 1839م) عقد الأمير اجتماعاً دعا إليه أعضاء مجلس الشورى وزعماء القبائل والخلفاء وقادة الجيش والعلماء واتخذوا بالإجماع قرار استئناف القتال، وصدرت الأوامر إلى القيادات العسكرية بالزحف إلى معسكرات العدو وحصونه، وعُيّنت أماكن وخطط وبرنامج مدروس لكل فرقة، وقبل أن تعطى ساعة الصفر تحرك الأمير على رأس فرقة نحو الشعة الذي كان الحد الفاصل في أثناء الهدنة واشتبك هناك في تلك الأحراش مع القوات الفرنسية وانتصر عليها وأمر بتشديد الحصار على مدينة وهران، وكلّف عددا من فرسانه النظامية مراقبة جميع الطرق المؤدية إلى وهران واعتقال كلّ من يحاول فك الحصار والتجارة مع الأعداء المحتلين.

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 89 .

وقد كان أول من دفع حياته ثمناً للخيانة السيد المدني قاضي أرزيو الذي بعث إلى الحامية الفرنسية قطيعاً من الأغنام يبلغ عدده (300) غنمة و (500) جواد، وحوكم ومن ساعده ونُفذ فيهم حكم الإعدام بالرصاص. وحاصر «عين مالفي» واحتلها، ثم تحرك على رأس قوة من فرسانه المشاة، وهاجم قبائل الدوائر والزمالة في ضواحي وهران واكتسح معسكراتهم، وأسر الكثير من رجالهم[1]، وانطلق ابن سالم بقبائل الحجاجطة وغيرها فاكتسح المتيجة وهدم سائر المزارع والمعسكرات، ودمر في أيام ما بناه الفرنسيون في سنوات، وتحولت بوفاريك من قرية كولونيالية نموذجية إلى مقبرة دفنت فيها كل مشاريع الاستيطان.

ولم تكد تنتهي سنة (1839م) حتى هرب الكولون الناجون من القتل من المتيجة إلى داخل مدينة الجزائر، فقد طاردهم المجاهدون حتى حديقة التجارب ثم عادوا إلى موقعهم بالمغانم والسلاح والذخائر[2].

وقد وصلت هذه الأخبار إلى بيجو الذي استشاط غضباً واستولى عليه الهلع. وجاء في التقرير السري الذي أرسله رجال الاستعمار إلى وزير الدفاع في باريس: إن الأمير عبد القادر يتابع ملاحقة جيشنا الذي هُزم في سيدي إبراهيم، والمئات من جنودنا يتسابقون في أثناء الانسحاب إلى نواحي أرزيو وهم في غاية الإنهاك والخوف، ولم يبق إلا عدد قليل لم يقتل أو يؤسر[3].

أ. تحرك المارشال فاليه الحاكم العام:

في (فبراير . شباط 1840م) تحرك المارشال فاليه الحاكم العام على رأس جيش ضخم نحو المدية، فاحتل البليدة، ثم قصد المدية فاعترضه خليفة

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 89 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 528 .
[3] المصدر نفسه .

الأمـير بمليانــة وناشــبه الحــرب واتصــل القتــال يومــاً كــاملاً، ولحقــت أضــرار جسيمة بالفريقين ثم عاد المارشال للجزائر.

وفي (1840/3/15م) احتــل الجــيش الفرنســي وعلــى رأســه المارشــال فاليــه شرشــال وكانــت عبــارة عــن قريــة صــغيرة يســكنها البربــر والكراغلــة، وقبــل أن يصــل شرشــال اعترضــته القبائــل القريبــة منهــا وأوقفــت تحركــه أيامــاً جعلــت المارشــال يفكــر في العــودة دون دخــول شرشــال، وتمكــن مــن التقــدم بعــد أن كبــده المقــاومون خســائر جســيمة، ثم عــاد المارشــال للجزائــر بعــد أن تــرك بهــا حاميــة، وكانــت الإمــدادات تتواصــل مــن فرنســا إلى قواتهــا بالجزائــر وفي أفريــل ـ نيســان وصــل الجزائــر مــن فرنســا ابنــا الملــك الــدوق دومــال والــدوق دورليــان علــى رأس جــيش ضــخم فخــرج جــيش قوامــه (12000) جنــدي بقيــادة المارشــال فاليــه إلى المدينــة يصــحبه ابنــا الملــك، وكــان الأمــير بهــا فتحــرك منهــا ورابــط في مضــيق موازيــة، واصــطدم بالعــدو (1840/5/11م) ودامــت المعركــة حــتى سقوط الليل.

وفي الغــد اســتؤنفت الحــرب والــتحم الجيشــان واســتعملت الســيوف والحــراب والخنــاجر، وتمكــن العــدو مــن اجتيــاز المضــيق وتقــدم المجاهــدون يناوشــونه نحــو المدينــة، وكــان كلمــا وصــل غابــة أو وادياً اســتقبله المجاهــدون بكمــين، وعنــدما أحــس الأمــير بأن جــيش العــدو لا بــدّ واصــل إلى المدينــة أمــر بإخلائهــا. فغــادر النــاس منــازلهم نحــو الجبــال المحيطــة بالمدينــة بمــا خــف وزنــه، ودخــل العــدو المدينــة يــوم (18 مــايو ـ أيار)، وبعــد أن تــرك بهــا حاميــة مــن (5000) جنــدي وعلــى رأســها الجنــرال دوفييــه عــاد إلى الجزائــر، واصــطدم بالكمــائن والقــنص الــتي كــان ينصــبها لــه الأمــير مــن قمــم الجبــال وأطــراف الــوديان وغــابات الزيتــون، واســتغرقت عــودة الأعــداء أيامــاً قضــوها في أهــوال، وقــرر ابــن الملــك الــدوق دورليــان التوجــه نحــو مليانــة، فقتــل في إحــدى المعــارك في الطريــق، فأشــاع

الفرنسيون أنه وقع من عربته فمات. وقد سميت مدينة الأصنام فيما بعد باسمه[1].

وعندما علم الأمير بتوجه العدو إلى مليانة تقدم نحوها بسرعة فوصلها قبل العدو وأمر سكانها بإخلائها، واعترض المجاهدون الجيش الفرنسي لوقت طويل ففرقوا قوته بحيث وصل مليانة منهوكاً وذلك يوم (1840/6/5م). وكان المارشال فاليه قد أرسل وهو في الطريق رسائل إلى قبائل الناحية يدعوها فيها لطاعة الدولة الفرنسية، فأجابه شيوخ القبائل المذكورة برسالة جاء فيها: لقد ارتكبتم عظيم الذنب بتعديكم على بلادنا أولاً، ثم سعيكم في تغيير ديننا، أما علمتم أن سائر الأديان والنواميس الأزلية تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم والتعدي على الحقوق، كما هو منصوص عليه في الإنجيل الذي أرسله الله على نبيه ورسوله عيسى على نبينا وعليه السلام، فلو كنتم على دينه كما تدعون ما قطعتم البحر إلينا لتأخذوا بلادنا وتغيّروا ديننا[2].

ويعترف الفرنسيون بالخسائر الرهيبة التي تكبدوها وهم يحتلون الجزائر قرية قرية، فقد لخص بيسكا توري الكاتب السابق للجنة الخاصة للتحقيق معاناة الفرنسيين هذه فقال: إن إفريقيا هي الخراب في السلم، والإنهاك وقت الحرب، إن إفريقيا هي الشؤم هي الجنون.. وإذا تقرر الدفع فيها بدون حدود فأنا مع هجرها والتخلي عنها. وفي (1839م) كتب الجنرال كفينياك يقول: إن المقاومة الجزائرية في فكر الشعب تتمثل في مقته للمحتل.

وهكذا احتل فاليه ثلاث مدن بخسائر كبيرة، وترك حاميات بها عجزت عن الربط بينها، وفرضت عليها كوكبات فرسان الأمير المتحركة سجناً داخل

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 530 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 530 .

ثكناتهم ينهشهم الجوع والمرض[1].

وبسبب حرب الجزائر عملت بريطانيا على عرقلة النفوذ الفرنسي، ففي اتفاقية لندن (1840/7/15م) أي بعد نقض معاهدة التافنة مباشرة، عُزلت فرنسا ولم يُسمح لها بالمشاركة فيها بحيث شاركت فيها الدول الكبرى الأربع فقط وهي بريطانيا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا، وأمام هذه الخسائر الجسيمة التي تكبدها الجيش الفرنسي تحت قيادة الجنرال فاليه لدى احتلاله للمدن الأربع وقتل ابن الملك، قررت الحكومة إعفاء فاليه، وتعيين الجنرال بيجو حاكماً عاماً للجزائر يوم (1840/12/29م) ورأي بيجو تصفية مقاومة الأمير واحتلال الجزائر بالكامل، عسكرياً واستيطانياً تحت راية المسيحية التي جسدتها البابوية التي ترى . كما كتب جوليان . ضرورة افتكاك الأرض التي شرفها القديس أوغستين من البرابرة[2].

ب . الجنرال بيجو يطبق خطة تدمير الريف وحرقه:

لقد فهم بيجو بعمق أسلوب الأمير في الحرب المتمثل في تجنب المعارك الكبرى المفتوحة، واعتماد الغارات الخاطفة، ولهذا فقد غير تكتيك الجيش الفرنسي وجعله يعتمد على المشاة في وحدات خفيفة صغيرة سريعة المناورة والتنقل، المرتكزة على أدلة جزائريين بقيادة ضباط المكتب العربي بالجيش، الذين يتكلمون العربية ويعرفون تقاليد البلاد، وكان يكره المدفعية ويرى أنْ لا فائدة منها في حرب الجزائر المؤسسة لا على المدن وإنما على الريف المزروع بقبائل بدوية رحّل، وأمر بالتوقف عن استعمال العربات واستبدالها بالبغال والجمال لحمل الأثقال، وجعل أساساً لخطته تدمير البنية الاجتماعية

[1] المصدر نفسه ص 531 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 531 .

للشعب بتدمير الريف والقبائل.

فكـان يحـرق حقـول الحبـوب في مواسـم النضـج، ويقطـع أشـجاره المثمـرة، ويعاقـب كـل قبيلـة مقاومـة بتجريـدها مـن أرضـها وتمليكهـا للكولـون وطردهـا للصـحراء، وكانـت خطتـه مبنيـة علـى إبادة الشـعب، بحيـث يقـدر عـدد الـذين قتلـوا مـن الجزائـريين نصـف تعـداد السـكان الـذي قـدّر عـدده سـي حمـدان خوجـة سـنة (1833م) بعشـرة ملايـين نسـمة، كانـت سياسـة بيجـو: دمّـر، أحـرق، انهـب. وعمـل بيجـو علـى حرمـان خصـومه مـن مـواردهم وأرزاقهـم حـتى أن سـكان مقاطعـة وهـران اضـطروا ذات ليلـة إلى اللجـوء مـع أطفـالهم ومرضـاهم إلى ثلـوج جبـال أطلـس، وعمـدت القـوات الفرنسـية الـتي كانـت تـراقبهم إلى إغـلاق منافـذ المغـاور الـتي لجـأ إليهـا هـؤلاء السـكان في أعـالي الجبـال وذلـك بأغصـان الأشـجار اليابسـة، ثم أوقـدت فيهـا النـار فمـات مـن بـداخلها خنقـاً بالـدخان. وشـدد بيجـو هجماتـه علـى المجاهـدين بشـكل لم يسـبق لـه مثيـل، محـاولاً احـتلال بعـض القـلاع، وقـام بحرائـق ومـذابح ينـدى لهـا جبين الإنسانية[1].

وفي مراسـلة للأمـير إلى بيجـو قـال لـه: عنـدما يتقـدم جيشـك ننسـحب، وعنـدما تنسـحب نتقـدم، نحـارب عنـدما نـرى ذلـك مناسـباً لنـا، أنـت تعـرف أننـا لسـنا جبنـاء. إن مواجهـة قواتـك الضـخمة مباشـرة جنـون، ولهـذا نقـوم بإنهاكها ثم نطاردها ونجهز عليها، ويكمل على ما تبقى من جيشك المناخ.

ويقـول الضـابط سـانتارنو: إذا طـاردناهم يطـيرون كالعصـافير، وعنـدما نـذهب يتبعوننا.

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص532 .

ج ـ الإمدادات من فرنسا واستمرار بيجو في التدمير:

وصل بيجو للجزائر يوم (1841/2/22م) ومعه (88000) جندي علاوة على ما هو موجود بالجزائر، وما أن وصل حتى أرسل له الأمير رسالة جاء فيها: اعلموا أنني بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا أعتبر قوتكم، لعلمي أنكم لا تضرونني بشيء، إلا أن يضرني الله به، ولا يلحقني منكم إلا ما قدره الله علي وقضاه، وإني منذ أقامني الله في هذا الأمر وجعلني ضداً لكم ؛ ما قاتلتكم بعسكر إلا ويكون عدده ثلثاً من عساكركم التي تكافحونني بها، ومدة ملكي كما لا يخفى ثماني سنين ومدة ملككم يتعدى مئات السنين، وعساكركم كثيرة والاتكم الحربية قوية، أنا أعرض عليكم أن يخرج ابن الملك ليبارزني، فإن غلبته تتوجهون بعساكركم إلى بلادكم وتتركون سائر المدن التي في أيديكم الان بما فيها من الذخائر والمهمات، وإن غلبني فإنكم تستريحون مني ويبقى لكم الوطن من غير منازع.

لقد استمرت المعارك مع الجيوش الفرنسية، وكانت خطط الأمير عبد القادر متنوعة ومتجددة، وهزم الجنرال بيجو في معركتي إيالة وهران ومتيجة على الرغم من كثرة جنوده وحداثة أسلحتهم. وفي شهر أيلول جرت معركة مريرة قرب مستغانم خسرها أيضاً العدو الفرنسي، وعلى إثر هذه الهزيمة طالب المارشال فالي المزيد من الإمدادات العسكرية من فرنسا، وفي السابع والعشرين من ذي القعدة وصل عشرون ألف جندي مدرب، فسار بهم من مدينة الجزائر ماراً ببليدة ومنها سار نحو المدية فاعترضته حاميتها ونشبت معركة دامت يوماً كاملاً من دون أن يحقق المارشال أي تقدم، وخسر في هذه المعركة ما يقارب من ثلاثة الاف جندي بين قتيل وجريح، وقد وصف أحد الصحافيين الحربيين هذه المعركة بقوله: مع أن قواتنا كانت أضعاف قوات العرب، تقهقر جنودنا من المشاة النظاميين أمام هجمات قوات

الأمـير، فقـد انقـض العـرب علـى القافلـة الـتي كانـت في الوسـط كالسـيل غـير ابهــين بالرصــاص ؛ ممــا اضــطر جنــودنا لقطــع الأحزمــة والفــرار، بينمــا كــان الـبعض يسـقط في الأراضـي الموحلـة ممـا جعلهـم يسـبحون فيهـا، وحـتى مـؤخرة الجيش أصابها الهلع، إذ لم تتوقع أن تكون ضربات العدو بهذه القوة[1].

ووصـف الـدوق أرليـون أيضـاً هـذه المعركـة فقـال: هـذه الجمـوع الكبـيرة مـن قواتنـا أصــابتها البلبلــة ولم تســتطيع الصــمود فــلاذت بالفــرار، وبقيــت تــدور حــول نفسـها في ضـياع ولهـاث، فقـد انتـاب هـذا الجـيش نـوع مـن الهـذيان إذ كنـا نـرى بعضـا مـنهم عـراة مجـردين مـن السـلاح يجـرون ويصـيحون بأعلـى أصـواتهم أمـام العــرب. والــبعض الاخــر لم يعــودوا يبصــرون فــألقوا بأنفســهم في نهــر ليســبحوا فيـه، واخـرون انحنـوا أمـام الشـمس يلتمسـون العـون، لعلهـم فقـدوا شـعورهم حـتى بغريزة البقاء[2].

كانــت قــوة الأمــير عبــد القــادر تكمــن في اســتحالة العثــور عليــه في المكــان الرحــب الواســع، في حــرارة شمــس إفريقيــا المحرقــة، في مكــان نــدرة الميــاة، وأيضــاً في حياة الترحال التي خطّها كأسلوب لمحاربة فرنسا[3].

لقــد اعــترف خصــومه القــادة العســكريون بعبقريتــه الفــذة وأظهــروا إعجــابهم بالأمــير مثــل المارشــال بيجــو ولامــور ســبير وشــاغارنيه وكــانوا يتســاءلون: الحــرب مســتمرة ولكــن هــل يمكــن أن نتســاءل عمــن يســتحق مزيــداً مــن الإعجــاب؟ أهــم جنــودنا المــدربون الشــجعان المجهــزون بأحــدث الأســلحة ؛ أم الرجــل الــذي يقاتل مليونا وستمئة ألف جندي بأقل من عشرة الاف جندي محارب؟

فــارس ينزلــق بــين كتائبنــا ويضــرب القبائــل المتعاونــة معنــا في المــؤخرة، ويــدمّر

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 95 .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 96 .
[3] المصدر نفسه ص 101 .

أجنحتنا ويُفلت منا في حالات كثيرة، في الوقت الذي نظن أنه لاشك واقع في أيدينا إذا به يشتت صفوفنا[1]؟

وقال الجنرال بيجو عن الأمير عبد القادر: خصم صنديد نخشى بطشه.

ومنذ فترة وقعت في يدي رسالة من جندي قتيل كان يودُّ إرسالها إلى أهله في فرنسا سنة إحدى وأربعين. كتب: إلى والدي وإخوتي أخبركم بأن حياتي في خطر، إننا متجهون من مدينة الجزائر إلى المدية ومليانة ولاشك أننا سنصادف أخطاراً ومهالك ولا أدري هل أعود أم لا. ولا يخفى أن الموت ينتظرنا في كل مكان واحتماله قريب، يوجد عندي ألفا فرنك أريد إعطاءها لوالدي لينفق منها على أولادي، ولا يتركهم بلا ألبسة جديدة. ثم أقول لكم إن رصاص العرب يصبُّ علينا كالمطر وسيوفهم تحصد رؤوسنا بقوة، هذه هي حالنا هنا.

هذه هي حال جنودنا ولكن إن استطعنا الوصول إلى جبهة العدو الداخلية وتمكنا من تفتيتها نكون قد حققنا نصراً كبيراً[2].

بعد الإخفاق الذريع الذي مني به المارشال بيجو بدأ عملياً بإعداد خطة جديدة، تضمنت حملات عسكرية وغير عسكرية الغاية منها تفتيت الوحدة الوطنية، ونشر الإشاعات الكاذبة وتضليل السكان ورجال القبائل، وخلق معارك جانبية لا صلة لها بالدفاع عن الوطن، وقد استخدم العدو من جهة أخرى طرق التعذيب والترويع إلى جانب الترغيب السخي بالأموال والمراكز، ونجح بيجو في هذا المجال بعد أن أخفق عسكرياً مدة خمسة عشر عاماً متوالية[3].

---

[1] المصدر نفسه ص 103 .

[2] المصدر نفسه ص 108 .

[3] المصدر نفسه ص 104 .

6 . خطة بيجو الجديدة الزحف الشامل:

أصبحت الإمدادات تتوالى من فرنسا على قواتها في الجزائر، وعقد الجنرال بيجو مجلساً عسكرياً وخاطب قواته قائلاً: إن الأمير عبد القادر كما ترون قد نزل بجيوشه من جبال وانشريس وأصبح قرب التلال، وقد استعاد سائر بلاد الشلف ونهر مينة في الجنوب وأصبحت في قبضته وجميع ما يحاذيها من عرب وبربر لم يخرجوا عن طاعته: لذا يجب علينا الخروج دفعة واحدة من قواعدنا في مدينة الجزائر واحتلال المدن والحصون مهما كلفنا ذلك من خسائر[1]، وبعث بيجو بالرسائل إلى زعماء القبائل فجاءه رد من زعماء الشراقة والغرابة كبني ثقران وبني غدوة وهذا نصُّ الجواب:

إلى من اتبع الهدى:

لقد وصلنا تحريرك وفهمنا مرادك وهو دعوتنا إلى طاعتكم على أن تجعلوا بلادنا سعيدة مباركة، ونحن نجيبك أن لا سعادة توازي سعادتنا بالجهاد وحماية الوطن والثبات في وجه مخططاتكم، وإن ديننا يأمرنا بالدفاع عن البلاد، ويعدنا بالجنة عند الاستشهاد. ويجب أن تنظروا إلى سلطاننا كما ننظر له نحن، فهو يقاتلكم بقوات قليلة العدد والعدة، فلا مزية لكم علينا وأنتم تملكون خزائن الذهب ودولتكم قديمة منذ ألف سنة وهي تجمع الأموال وتهيئ الجيوش، وجئتمونا بأعداد من الجنود بعدد نفوسنا وأشجارنا ومواشينا وجبالنا، فلا مزية لكم ولا فخر بأن تخرجونا من دورنا وتحرقوا أغلالنا وتغتصبوا أراضينا. ومهما طال الزمن فالنصر لنا، لأن حربكم ظالمة لا تكافؤ فيها ؛ ثم تعدوننا بأموال الدنيا والله سبحانه وتعالى وعدنا بالجنة

[1] المصدر نفسه ص 109 .

في الاخرة، هـذا جوابنـا: حُـرر في العشـرين مـن ربيـع الثـاني والحـادي عشـر مـن حزيران في سنة (1841م)[1].

وفي منتصـف ذلـك العـام وصـلت الحشـود الهائلـة مـن فرنسـا واجتمـع بيجـو بهيئة حربه وقال لهم ما خلاصته:

. نستولي على سهولهم التي ترعى فيها ماشيتهم ويزرعونها.

ـ نختـار النقـاط الاسـتراتيجية ونبـني فيهـا مراكـز تشـرف علـى الطـرق الـتي تتنقـل عبرها.

. نضع وحدات قوية في الحدود الفاصلة بين المناطق.

. لابد أن يتعلم ضباطنا العربية.

فـأمر بتقويـة التحصـينات وبنـاء تحصـينات جديـدة حـول المنـاطق الـتي يحتلونهـا مثـل متيجـة، وأمـر الإبادة «الـرازيا» علـى القبائـل، كـان يأخـذ مـن القبائـل كـل مـا تملـك: المواشـي، النسـاء، الأطفـال، وكـان يسـتخرج مـن المطـامير الحبـوب المخزنة ويأخذها أو يتلفها.

عـين المارشـال بيجـو علـى الجهـة الشـرقية الجنـرال بركـو باي ديلـي، والجنـرال بارتسـمي علـى منطقـة الجزائـر، وتوجـه بالقسـم الأكـبر مـن الجـيش إلى مسـتغانم يرافقـه دتيمـور والـدوق دومـال، وبعـد إقامتـه أيامـاً في مسـتغانم غادرهـا نحـو قلعـة تاكـدمت عـن طريـق مجـاهر، فـأمر الأمـير عبـد القـادر أهلهـا بالجـلاء عنهـا حـاملين مـا خـف مـن الـذخيرة الحربيـة والمـؤن، وكانـت وحـدات فرسـان الأمـير تناوشـه علـى طـول الطريـق ودخلهـا في (1841/5/25م) فوجـدها خاليـة، ثم توجـه منهـا إلى معسـكر الـتي أخلاهـا سـكانها أيضـاً، ثم عـاد إلى مسـتغانم، وفي

[1] المصدر نفسه ص 109 .

عودتـه ترصـد لـه الأمـير عنـد فـج عقبـة خـده وفـج فرقـوف ودارت معركـة في الفـج الأول طـوال النهـار خسـر فيهـا الطرفـان العديـد مـن القتلـى والجرحـى، واستغل بيجو سقوط الظلام وانسل عبر الفجين.

أرسـل الأمـير عبـد القـادر لبيجـو رسـالة قـال فيهـا: إني أراك أيهـا الحـاكم تبـذل جهـدك في تعطيـل مواسمنـا لتقـلّ الحبـوب عنـدنا، ظنـاً مـنكم أن ذلـك أقـوى سـبب لخضـوع أهـل الـبلاد. والحـال أن هـذا لـيس بشـيء عنـدهم، فـإن هممهـم ليسـت متعلقـة بلذائـذ الأطعمـة والأشـربة مـثلكم، بـل يكفـيهم مـا يسـدون بـه رمقهـم ويقـيم أودهـم، علـى أنـه يوجـد عنـدهم مـن صـنوف الحبـوب المحفوظـة في الابار المعـدّة لها مـا يكفـيهم سـبع سـنين اتيـة، ومـا تأخذونـه أنـتم فهـو جـزء مـن جملـة أجـزاء، ولا أراكـم في هـذا إلا كمـن مـلأ قدحـه مـن البحـر. وبالجملـة فـنحن لا نـترك قتـالكم مـا دمـتم في طغيـانكم، والحـروب قـد تربينـا عليهـا فـنحن أهلهـا مـن المهـد إلى اللحـد، وحروبنـا كمـا علمـتم لا نرجـع فيهـا إلى قـانون يحصـرها، بـل نحـن فيهـا مخـيرون مطلقـون نصـرّفها كيفمـا شـئنا. اخـر يونيـو - حزيران (1841م).

بعـد أن قضـى بيجـو أسـابيع بمسـتغانم إثـر عودتـه مـن واقعـة عقبـة خـدة خـرج بجيوشـه بـين (9/19و 11/19)، إلى شمـال ولايـة معسـكر فتفقـد قبائـل أولاد خليـف وصـبح وغيرهـا الـتي دانـت لـه بالطاعـة، ثم قصـد قبيلـة هاشـم بسـهل إيغـرس فـدمر منازلها وأحـرق مزارعهـا ثم قصـد سـعيدة الـتي خطهـا الأمـير وأسـكن فيهـا مهـاجري مسـتغانم ودخلهـا فوجـدها خاليـة فقـد أخلاهـا أهلهـا، فـدمرها وأخضـع القبائـل القريبـة منهـا كـأولاد إبـراهيم والحساسـنة والجعـافرة. وحـاول فـرض باي مـن طرفـه علـى القبائـل لكنـه فشـل. وتجنـب الأمـير مقاتلـة بيجـو فتوجـه إلى قبائـل الـدوائر والزمالـة قـرب وهـران العميلـة للعـدو فحاربها وغـنم منهـا، وعلـم بيجـو بـذلك فعـاد إلى وهـران وكتـب رسـالة إلى رؤسـاء قبائـل

الشـراقة والغرابـة وبـني شـقرون وبـني غـدو يـدعوهم إلى الطاعـة فأجـابوه برسـالة طويلـة جـاء فيهـا: مـن القبائـل المتمسـكين بـدينهم الإسـلامي الوثيـق العـرى إلى النصـراني بيجـو.. قـد وصـلنا مكتوبـك الـذي تركتـه في موضـع نزولـك مـن بسـاتين بـني يخلـف.. وأمـا بلـدنا فلـيس لكـم في الاسـتيلاء عليهـا نتيجـة، وهـب أنكـم اسـتوليتم عليهـا وأقمـتم فيهـا ثلاثمئـة سـنة مثـل مـن ملكهـا قـبلكم، فـإنكم لابـد وأن تخرجـوا منهـا كمـا خرجـوا وتُمسـوا كـأمس الـذاهب. حـرر في (1841/6/20م)[1].

أ . سقوط مدينة تلمسان:

كـان عـام (1842م) عامـاً سـاخناً مليئـاً بالأحـداث الخطـيرة المؤسـفة، فقـد أخـذ ميـزان القـوى يختـلّ بشـكل كبـير يومـاً بعـد يـوم، بعـد ذلـك الجسـر البحـري الـذي امتـد عـبر المتوسـط مـن فرنسـا إلى مينـاء مدينـة الجزائـر المحتلـة حـاملاً الجنـود المـدربين والعتـاد وأجهـزة الـدمار، وأدرك المجاهـدون الخطـر الـذي يـواجههم وعلـم الأمـير أن المـدن وقواعـده المحصـنة تكـاد تصـبح مهـددة، وفي التاسـع مـن شـهر كـانون حملـت إليـه رياح الحـرب أخبـار حملـة يُعـدّها المارشـال بيجـو لاحـتلال مدينـة تلمسـان. فـأمر بإخلائهـا لأنها مدينـة مفتوحـة لا يمكـن الـدفاع عنهـا، وأمـر أيضـاً بتـدمير المصـانع المتواجـدة فيهـا لـئلا يسـتفيد منهـا العـدّو، وتمّ ذلـك قبـل وصـول العـدو إليهـا، وأمـا السـكان الـذين بارحوهـا فلقـد عادوا إليها ليلاً وقدموا الطاعة للعدو[2].

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 535 .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 105 .

ب ـ مطاردة القبائل:

وبعد احتلال تلمسان خرج بيجو لسبدو فدخلها ودمرها، وجرت بينه وبين القبائل المحيطة بها حروب، وتمكن من هزيمتها فعبرت له عن طاعتها، ثم عرّج على نواحي سعيدة، ثم قصد بلدة القيطنة فأحرقها وهي بلدة عائلة الأمير اختطها جده مصطفى بن المختار سنة (1206هـ) ووصفها النقيب دي مونرون فقال: تلك البلدة مبنية بوسط واد زاخر بالأزهار تندهش منه الأبصار، وكان لا يظن أنه يوجد بأقصى إفريقيا أبنية محكمة البناء كأبنيتها.

وبعد أن سيطر بيجو في خرجاته على النقاط الاستراتيجية وأخضع قبائل الجبال بين ندرومة وتافنة وأسس منها «جامعة قبائل ندرومة» تحت شعار «حلفاء لا مهزومون» متبعاً أسلوب الأمير، قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام:

ـ قسم تحت نظره ومركزه في نواحي الشلف.

ـ **والثاني** تحت قيادة الجنرال شانكرني ويكون مركزه البليدة.

ـ **والثالث** تحت قيادة الجنرال لامور يسيير ويكون مركزه معسكر.

وفي اخر الشتاء خرج كل إلى المنطقة المحددة له، وراحوا يطاردون القبائل التي تركت منازلها وارتحلت إلى الصحراء: كانوا يستولون على مواشيها، ويحرقون أكواخها وخيامها، ويفرغون مطاميرها من الحبوب في عمليات إبادة عرفت باسم «الرازيا» تستهدف ضرب مصادر قوت وحياة القبائل وفرض الطاعة عليها، فبيجو مثلاً أرسل تهديداً للقبائل المقيمة بين سفوح الشفة والبحر غرب متيجة بأنه سوف لا يكتفي بحرق حقول الحبوب، بل سيقطع

الأشجار المثمرة. ومع هذا فإن القبائل التي تنضم مرغمة للفرنسيين تتمرد عليهم بمجرد أن تسنح الفرصة لذلك[1].

7. فظائع الجيش الفرنسي:

ارتكب جيش الاحتلال أكثر الفظائع وحشية ضد المدنيين والتي سماها المؤرخون بالرازيا ويروي العقيد مونتانياك قائلاً: أخبرني بعض الجنود أن ضباطهم يلحون عليهم ألا يتركوا أحداً حياً بين العرب، كل العسكريين الذين تشرفت بقيادتهم يخافون إذا أحضروا عربياً حياً أن يجلدوه.

ويقول النائب البرلماني طوكفيل: إننا نقوم بحرب أكثر بربرية من العرب أنفسهم، لم نستطع هزم العرب حربياً، فهزمناهم بالتدمير والجوع.

ويقول مونتانياك: لقد محا الجنرال لامور يسيير من الوجود خمسة وعشرين قرية في خرجة واحدة، إنه عمل أكثر انعداماً للإنسانية. ويروي: فبمجرد أن حدد موقع القبيلة انطلق سائر الجنود نحوه، ووصلنا الخيام التي صحا سكانها على اقتراب الجنود، فخرجوا هاربين نساء وأطفالاً ورجالاً مع قطعان ماشيتهم في سائر الاتجاهات، هذا جندي يقتل نعجة، وبعض الجنود يدخلون الخيام ويخرجون منها حاملين زرابي على أكتافهم، وبعضهم يحمل دجاجة، وتضرم النار في كل شيء، ويلاحق الناس والحيوانات وسط صراخ وثغاء وخوار، إنها ضجة تصمّ الاذان، مدينة معسكر يوم (1841/12/19م) الفظائع «الرازيا» كما يسميها الفرنسيون لا تهدف إلى معاقبة المخطئين وإنما صارت مصدراً لتموين الجيش، كان كل ما ينهب يباع ويوزع ثمنه على الضباط والجنود ربع الغنائم للضباط والنصف للجنود[2].

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 536 .

[2] الجزائر في التاريخ ص 561 .

ويقــول النقيــب لافــاي: كــان الضــباط يخـيرون الفلاحــين بــين أن يقــدموا لهــم الأكـل أو الإبادة، كنـا نخيم قـرب القريـة، يعطـيهم الجنـرال مهلـة لإعـداد الطعـام أو المـوت، كنـا نوجـه سـلاحنا نحـو القريـة وننتظـر ثم نـراهم يتوجهـون لنـا ببيضـهم الطازج وخرافهم السمينة ودجاجاتهم الجميلة وبعسلهم الحلو المذاق[1].

ويعلــق ش.أ. جوليــان: وتنتشــر الــرازيا فتصــير أســلوباً للتــدمير المــنظم والمنهجــي الــذي لم يســلم منــه الأشــخاص ولا الأشــياء. إن جنــرالات جــيش إفريقيــا لا يحرقــون الــبلاد خفيــة، إنهــم يســتعملون ذلــك ويعتبرونــه مجــداً لهــم ســواء كــانوا ملكيين أم جمهوريين أو بونابارتيين.

ويقــول مونتانيــاك: إن الجنــرال لامــور يســيير يهــاجم العــرب ويأخــذ مــنهم كــل شــيء: النســاء والأطفــال والمواشــي، يخطــف النســاء، ويحــتفظ ببعضــهن رهــائن والــبعض الاخــر يســتبدلهن بالخيــول، والبــاقي تبــاع في المــزاد كــالحيوانات، أمــا الجميلات منهن فنصيب الضباط[2].

ويـروي الضـابط المراسـل لسـانت أرنـو: إن بـلاد بـني مناصـر رائعـة، لقـد أحرقنـا كـل شـيء ودمـرنا كـل شـيء، اه مـن الحـرب، كـم مـن نسـاء وأطفـال هربـوا منـا إلى ثلــوج الأطلــس فمــاتوا بالــبرد والجــوع.. إننــا نــدمر، نحرق،ننهــب، نخــرب البيوت ونحرق الشجر المثمر.

ويقــول مونتانيــاك: النســاء والأطفــال اللاجئــون إلى أعشــاب كثيفــة يســلّمون أنفســهم لنــا.. فنقتــل، ونــذبح، وصــراخ الضــحايا واللاقطــين لأنفاســهم الأخــيرة يخــتلط بأصــوات الحيــوانات وهــي تثغــو وتخــور، كــل هــذا ات مــن ســائر الاتجاهـات، إنـه الجحيم بعينـه وسـط أكـداس مـن الثلج. إن كـل العمليـات الـتي

---

[1] المصدر نفسه ص 562 .
[2] المصدر نفسه ص 562 .

قمنا بها تثير الشفقة حتى في الصخور إذا كان عندنا وقت للشفقة، ولكننا نتعامل معها بلا مبالاة جافة تثير الرجفة في الأبدان. ويقول الجنرال كاروبير: ينفذ جنودنا هذا التدمير بحماس، إن التأثير كارثي لهذا العمل البربري والتخريب العميق للأخلاق الذي يبث في قلوب جنودنا وهم يذبحون ويغتصبون وينهب كل واحد منهم لصالحه الشخصي[1]. ويقول النقيب لافاي: لقد أحرقنا قرى لخريمس في قبيلة بني سنوس، لم يتوانَ جنودنا عن قتل العجائز والنساء والأطفال. إن أكثر الأعمال وحشية هو أن النساء يقتلن بعد أن يغتصبن، وكان هؤلاء العرب لا يملكون شيئاً يدافعون به عن أنفسهم[2].

8 . شهادات ضباط فرنسيين على صلابة الشعب الجزائري:

اعترف المارشال بيجو بمناقب الأمير وصلابة الشعب الجزائري فقال يوم (1845/3/17م): لم نأخذ من هذا الشعب أي شيء إلا بالقوة. وصرح يوم (1842/6/15م): إن القبائل التي قمعت تبقى مطيعة، أخضعنا العرب بالسلاح ولا يمكن أن نحافظ على هدوئها إلا بالسلاح.

ويصرح بيجو أمام البرلمان الفرنسي: اه لو لم يكن بالجزائر عرب أو لو كان هؤلاء يشبهون تلك الشعوب الخشنة في الهند، لما نصحت بلادي بأن تخصص مبالغ مالية كبيرة للاستيطان، لكن وجود هذه الأمة الصلبة والمعدّة جيداً للحرب يفرض علينا أن نغرس وراءها وإلى جانبها وفي وسطها شعباً قوياً قدر الإمكان.

ويقول شيوخ القبائل للمارشال بيجو: إنك تحرق وتدمر مزروعاتنا وتقطع

---

[1] المصدر نفسه ص 563 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 563.

شعيرنا وقمحنا وتنهب مطاميرنا ؛ فأرسل رجلاً مقابل رجل أو عشرة مقابل عشرة أو مئة مقابل مئة أو ألفاً مقابل ألف، وسترى إن كنا سنتراجع.

ويقول دوق دورليون: إن هؤلاء الرجال يلحقون الضرر بالفرنسيين أكثر مما ألحقته الجيوش الأخرى بهم، إنهم يفرضون على الجيش الفرنسي ألا ينام وأن يكون دائم اليقظة.

ويصرح في (1843/2/17م): إن تنظيم الأمير مبنيّ على معرفة كاملة بالأوضاع المحلية، وبعلاقات القبائل بعضها ببعض وبالمصالح المتنوعة، وباختصار هو مبني على معرفة كبيرة للرجال والأشياء، ولابد من الحفاظ على هذا كله في حكمنا.

ويقول الجنرال بودو يوم (1847/4/27م): كل نساء القبائل أسفوا لاضطرارهم إلى خدمتهم لنا، ويخفون نواياهم الحقيقية إزاءنا، وسوف ينقلبون ضدنا في أية فرصة تسنح لهم وهذا يدخل في طبيعة الأشياء، يجب ألا تكون لنا ثقة كبيرة فيهم.

وكأن هذا الجنرال يتنبأ بما سيحدث على يد الباشان مقراني بعد ربع قرن.

كان بيجو يرى أن الاستيطان هو الذي يثبت أقدام الفرنسيين بالجزائر، فيقول: يكون الاحتلال عقيماً بدون استيطان. ويعترف الفرنسيون بصلابة الشعب الجزائري فيلخصها ابن الملك الفرنسي الدوق دومال: لقد كان احتلال الجزائر طويلاً وصعباً، كانت عراقيل النفاذ للداخل من الشمال إلى الجنوب تتمثل في الجغرافية، وفي العداء الشرس لوطنية حربية مؤسسة على إسلام حصين لا يقهر، كلها تعيق التقدم وتزيد من الخسائر.

كان الجيش الفرنسي في الجزائر يزداد عدده كل سنة:

. ففي سنة (1831م) كان عدده (18000).

. وفي سنة (1837م) ارتفع إلى (42000).

. وفي سنة (1844م) ارتفع إلى (90000).

. وفي سنة (1848م) ارتفع إلى (108000).

وشارك في جيش الاحتلال الفرنسي الكثير من الأوروبيين. ففي سنة (1833م) كان عدد الفيالق الأوروبية ثلاثة فيالق ألمان وسويسريان اثنان بالجزائر العاصمة وفيلق واحد إيطالي داخل الجزائر وفيلق واحد إسباني بوهران، وفيلق بلجيكي في عنابة وكل هذه الفيالق كانت منصوبة في إطار اللفيف الأجنبي، قال عنهم الجنرال كاروبير: إن جنود الفيلق الأجنبي هم بقايا جيوش أوروبا، أغلبهم قتلة ولصوص فارون من الجيوش.

ويتغلب الجنود الفرنسيون على أهوال المقاومة بالسكر، يروي بعض الضباط الفرنسيين: كانت الخمر هي الضرورة للبطولة وهي المشجع لاستعمار إفريقيا، تحرك الشجاعة وتمنع الخوف[1].

9. رسائل الأمير إلى الحكومات العربية والأجنبية:

اقترح بعض كبار القادة العسكريين على الأمير إخلاء الحصون من حُماتها وضمهم إلى قوات الفرسان المتحركة، واجتمع المجلس العسكري وأقر الأمر، فحرر الأمير عدة رسائل إلى عدد من الحكومات الإسلامية والمجاورة طالباً العون والمساعدة السريعة منها:

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 560 .

. رسالة إلى السلطان عبد المجيد خان في الدولة العثمانية:

يشرح له فيها الأخطار التي تهدد البلاد وهي رسالة مطوّلة فيها صرخة استغاثة.

ـ **ورسالة إلى الحكومة البريطانية** التي كانت على خلاف مع الحكومة الفرنسية بسبب توتر العلاقات بين فرنسا وبريطانيا اتصل بها وعرض عليها عقد معاهدة معها، لكن الفرنسيين عملوا على تخفيف التوتر مع البريطانيين، فلم تستجب لندن للأمير[1].

ـ **وأرسل رسالة إلى السلطان** عبد الرحمن بن هشام حاكم المغرب، ورسالة إلى قاضي فاس الشيخ عبد الهادي يستفتيه في أمور الجهاد، وفيما يتعلق بمهادنة الأعداء، ورسالة أخرى إلى علماء فاس والرباط، ولم يكن بالأمير حاجة إلى فتاوى فقهية، لكنه أراد من هذه الرسائل إيقاظ الشعوب الإسلامية وحثها على إعلان الحرب على العدو المستعمر[2].

وكانت الدول العربية والإسلامية جميعها تغطّ في سُبات عميق، وليت الأمر اقتصر على هذا فقط، بل أخذ البعض يساعد العدو، بل يقاتل إلى جانبه بكل ما يملك من قوة. وعلمت السلطات الفرنسية بهذه المراسلات فطلبت من السلطان عبد الرحمن بن هشام ملك المغرب أن يمنع دخول المساعدات عبر حدوده للأمير، ويضع حداً لنشاطه ولنشاط قواته أيضاً، فأجابها بأن بلاد الريف خارجة عن طاعته وتخضع للأمير عبد القادر، وكان يظن أن ذلك ينجيه ويعفيه من المسؤولية، ولكن الذي حصل العكس[3]، وسيأتي ذلك لاحقاً بإذن الله.

---

1 الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 110 .
2 المصدر نفسه ص 110 .
3 المصدر نفسه ص 112 .

سادساً: عاصمة الأمير «المدينة المتنقلة»:

دعا الأمير ذات صباح في مدينة المدية المجلس العسكري الاستشاري للانعقاد وخاطب الجميع بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وبفضل الله وإحسانه مازالت انتصاراتنا مستمرة، ومازالت حصوننا تحرس المدن، والمصانع فيها تمدنا بالأسلحة، ولكن بحال هوجمت حصوننا بقوات لم نستطع حمايتها والدفاع عنها وعن المصانع التي كلفتنا الكثير، فلماذا لا نخلي الحصون من هذه المصانع وننقلها إلى مكان امن؟ أما المدن التي لا نريدها ساحات قتال فماذا يضرنا لو تركنا العدو يحتلها مؤقتاً ونقاتله بعيداً عنها كما يفعل الان؟

هذه المدن لن يستطيع العدو تغيير أي نظام إداري فيها ولا في الخدمات ولا في القضاء ولا في أي أمر إداري، وكل ما سيفعله هو وضع ضابط فرنسي في غرفة الوالي وعدد من الجنود يتجولون في شوارعها، ولكنهم لن يرحموا عائلاتنا من النساء والأطفال، ولنتذكر ما فعلوه بعائلة ملكهم لويس السادس عشر، كيف عذبوها وأهانوا أطفالها وكيف سحبوا زوجته ماري أنطوانيت إلى المقصلة. بهذا الأسلوب المتوحش تصرفوا مع ملوكهم فكيف تتخيلون سيتصرفون مع عائلاتنا إذا وقعوا في أيديهم؟

ووقف القائد الكبير بوحميدي بعمامته البيضاء وبرنسه الأحمر وسيفه الذي لا يفارق خاصرته وأجاب قائلاً: ربما سيأخذونهن أسرى يضعوهن في أقبية سجونهم ويساوموننا عليهن كرهائن، ووقف أحد الأعضاء وقال: أقترح أن تبعدوهن إلى قصر كاشروا، فأجاب الأمير: وإذا هاجموا قصرنا في كاشروا بقوات هائلة لا قبل لنا بقهرها؟ فوقف القائد بن علال قائلاً: يا مولاي ماذا في ذهنك من حل؟ وما خطتك؟ فلنستمع إليها، وبعد ذلك نعطيك

رأينا فيها.

كان الأمير في هذه الجلسات يتكلم وهو جالس فقال: فلننشئ مدينة متنقلة. فأخذ أعضاء المجلس ينظر كل منهما إلى الاخر مذهولاً[1]، وشرح الأمير لهم فكرته واقتنعوا بها، وشرع في تأسيس عاصمة كبيرة رحالة مؤلفة من خيام كثيرة ومضارب عديدة، فخطط لبنائها، وفي مدة قصيرة ظهرت إلى الوجود على أروع الأساليب، وسمي ما يخصه منها الزمالة، وما يخص الأعيان والعامة بالدائرة، وما يخص الجند منها بالمحلة، واتخذ فيها مضارب لمعامل السلاح، وأخرى لوضع العتاد الحربي، ومثلها للذخائر، وفسطاطاً كبيراً لاجتماع المجلس العام، واخر اتخذه مسجداً وأعدت مضارب بعيدة عن السكن للباعة والسوق التي كانت تجبى إليها المؤن وسائر ما يلزم، وكانت تضم مضارب للحرفيين بمختلف الأنواع من نجارة وحدادة وغيرها، وكان يسودها نظام تسييري متقن. وكانت هذه العاصمة تتمتع بمنظر جميل، وقدر عدد سكانها بعشرات الالاف وبعضهم يرى أنه كان مئتي ألف نسمة[2].

ووجد الأمير عبد القادر صعوبة في إقناع من كان يجب عليهم الحياة في الصحراء والانتقال من بيوت الحجر إلى بيوت الشعر، فنظم بهذه المناسبة قصيدة غايتها الترغيب بالحياة الجديدة والقصيدة هي:

يا عاذراً لأمرئ قد هام في الحَضَر	وعاذلا لمحب البدو والقفر
لا تذمّنّ بيوتاً خفّ محملها	وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني	لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقباً	بساط رمل به الحصباء كالدرر

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 130 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 537 .

أو جلت في روضة قد رق منظرها بكل لون جميل شائق عطر
تستنشقن نسيماً طاب منتشقا يزيد في الروح لم يمرر على قذر
أو كنت في صبح ليل هاج هاتنه علوت في مرقب أو جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها سرباً من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيا لها وقفة لم تبقِ من حزنٍ في قلب مضن ولا كدّاً لذى ضجر
نبادر الصيد أحياناً فنبغته فالصيد منا مدى الأوقات في ذُعُر
فكم ظلمنا ظليماً في نعامته وإن يكن طائراً في الجو كالصقر
يوم الرحيل إذا شدّت هوادجُنا شقائق عمّها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كُوىً مرقعات بأحداق من الحَوَر
تمشي الحداة لها من خلفها زجل أشهى من الناي والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نُركضها شليلها زينة الأكفال والخصر
نطارد الوحش والغزلان نلحقها على البعاد وما تنجو من الضمر
نروح للحي ليلاً بعد ما نزلوا منازلَ ما بها لطخ من الوضر
ترابها المسك بل أنقى وجاد بها صوب الغمام بالآصال والبكر
نلقى الخيام وقد صُفت بها فعدن مثل السماء زهت بالأنجم الزهر
قال الألى قد مضوا قولاً يصدقه نقل وعقل وما للحق من غير
الحسن يظهرُ في بيتين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشَّعَر
أنغامنا إن أتت عند العشي تَخَلْ أصواتها كدوي الرعد بالسحر
سفائن البر بل أنجى لراكبها سفائن البحر كم فيها من الخطر
لنا المهاري وما للريم سرعتها بها وبالخيل نلنا كل مفتخر
فخيلنا دائماً للحرب مسرجة من استغاث بنا بشّرْه بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً وأي عيش لمن قد بات في حفر
لا نحمل الضيم ممن جار نتركه وأرضه وجميع العز في السفر
وإن أساء علينا الجار عشرته نبينُ عنه بلا ضُرّ ولا ضرر

نبيــت نار القــرى تبــدو لطارقنــا ... فيهـا المـداواة مـن جـوع ومـن خصـر

عـــدوُّنا مـــا لـــه ملجـــأ و لا وزر ... وعنـــدنا عـــاديات الســـبق والظفـــر

شـــرابها مـــن حليـــب مـــا يخالطـــه ... مـــاء ولـــيس حليـــب النـــوق كـــالبقر

أمـــوال أعـــدائنا في كـــل آونـــة ... نقضـــي بقســـمتها بالعـــدل والقـــدر

مـــا في البـــداوة مـــن عيـــب تـــذم بـــه ... إلا المـــروءة والإحســـان بالبـــدر

وصـــحة الجســـم فيهـــا غـــير خافيـــة ... والعيـــب والـــداء مقصـــور علـــى الحضـــر

مـن لم يمـت عنـدنا بالطعن عـاش مـدى ... فـــنحن أطـــول خلـــق الله في العُمُـــر

فكـان مشـهد مدينـة الخيـام يحـرك أفئـدة المهـاجرين ويسـتهوي قلـوبهم ويشـعل مشـاعر الحميـة والحماسـة فـيهم، وكانـت هـذه المدينـة نشـيداً وطنيـاً يعلـو علـى مناكـب الـرياح فيصـل إلى أسمـاع الـوطن، يخالطـه صـليل السـيوف وأزيـز الرصـاص وهتـاف الرجـال «الله أكـبر». هـذه المدينـة خلعـت علـى الـروابي والهضـاب حُلّـة مـن البهـاء، فكانـت أينمـا حلّـت حـلّ الازدهـار وتعطّـر الفضـاء بنسـائم الحريـة. ومـا كـان المجاهـدون يعـودون مـن حملاتهـم إلى هـذه المدينـة المتحركـة حـتى تنقلـب أهـازيجهم الحماسـية إلى نسـائم مـن الحـب والتقـوى والعواطـف الصـادقة ومشـاعر الأمـل، الأمـل بالانتصـار والعـيش الرغيـد بعـد تطهير الوطن من الغزاة وتقويض صروح كبريائهم.

1 . معركة حصن داكمت:

في صـباح الخـامس عشـر مـن شـهر أيار سـنة (1842م)، سـار الجنـرال لامـور سـيير تصـحبه قـوة كبـيرة مـن الجنـود إلى حصـن داكمـت واشـتبكوا مـع الأمـير، وكـان مخطـط العـدو احـتلال الحصـن مـرة أخـرى، هـذا المركـز الهـام الـذي شـيده عبـد القـادر بـن محيـي الـدين وكـان أهـم حصـونه، وحاصـر لامـور سـيير الحصـن عـدة أيام ثم تحصـن في مكـان قـرب الحصـن، وكـان إلى جانـب الجنـرال رئـيس قبيلـة الـدوائر مصـطفى بـن إسماعيـل علـى رأس قـوة كبـيرة مـن رجالـه. وانتظـر

الأمـير إلى أن عسـعس الليـل وفاجـأهم بهجـوم مـن عـدة اتجاهـات، هجـوم لم يكونـوا يتوقعونـه، وقـد كانـت هـذه خطتـه في أكثـر المعـارك: الهجـوم بـدل الـدفاع، فانهـال الفرسـان بخيـولهم علـى قـوات العـدو يدوسـون الجمـوع بحوافرهـا غـير مبـالين بالرصـاص والقـذائف. وقـد وصـف أحـد الصـحفيين هـذه المواجهـة بقولـه: إن العـرب كـانوا يقـاتلون بجنـون ولـيس بشـجاعة[1]. وقتـل في هـذه المعركـة القائـد المتعـاون مـع فرنسـا مصـطفى بـن إسماعيـل عـمّ المـازري زعـيم قبيلـة الـدوائر، وراه أحـد المجاهـدين يتخـبط بدمـه، فقطـع رأسـه وجـاء بـه علـى رأس حربـه إلى مركـز القيـادة صـائحاً هـذا رأس الفتنـة الخـائن ابـن إسماعيـل. وانتهـت هـذه المعركـة بنصـر المـؤمنين وهزيمـة الغـزاة مـن دون أن يتمكنـوا مـن دخـول الحصن والتمركز فيه[2].

2. هزيمة المارشال بيجو في مضيق عقبة خده:

شـاهد بعـض فرسـان الأمـير شـرذمة مـن جنـود العـدو بقيـادة المارشـال بيجـو الـذي كـان يلاحـق الأمـير، وشـاهدوا مـؤخرة جيشـه تحميهـا قـوات كبـيرة، فـأدركوه ونشـبت معركـة هلـك فيهـا أكثـر جنـده إذ لم تـتمكن هـذه القـوات مـن الصـمود لحـين وصـول النجـدات، وحاصـرهم المجاهـدون في مضـيق مـن عـدة جهـات، ثم انقضـوا علـيهم كالأسـود، فحـاول المارشـال النجـاة بمـن بقـي معـه مـن الجنـود بعـد أن خسـر أربعـة وخمسـين، لكـن القتـال تواصـل عنيفـاً حـتى بـزوغ الفجـر، وكـان هنـاك بـين الصـخور شـهيدان صـعدت روحهمـا الطـاهرة إلى السـماء، الأول القـدور بـن بحـر مـن كبـار قـادة الجـيش المحمـدي والثـاني الخليفـة محمد بن الجيلاني.

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 115 ، 116 .
[2] المصدر نفسه ص 116 .

وفي غبش الصباح الباكر هدأ كل شيء، ولفّ الصمت ذلك الوادي الموغل في القدم، وأصبح الانضباط على أشده بين المتقاتلين، وأفلح العدو في الانسحاب المنظم حاملاً جرحاه متسللاً بين الصخور والأودية الوعرة والرماة الجزائريون يلاحقونه بسهامهم مما اضطر البعض منه لاتقاء الأخطار بالاختفاء وراء الصخور، وتحدث الجنرال دو فيغير الذي كان يرافق تلك الحملة فقال: بعد خروجنا من مضيق الموت سرنا إلى سهل الزيتون فوجدنا حامية من جنودنا أخذت بمساعدتنا على نقل الجرحى والموتى إلى مدينة الجزائر، وفي طريقنا وجدنا مدينة خالية من السكان ولم يبق من عماراتها سوى مساجدها القوية البنيان فاتخذناها مأوى للمرضى من جنودنا، ولعدم وجود حطب للتدفئة استعملنا سقوف المنازل لسد العوز، وكان يجب علينا عدم إطالة البقاء في هذه المدينة الجميلة الواقعة على تل زاهر كبير، وكانت تضم اثار قلعة قديمة، وكان من عادة العرب عدم ترك أي شيء يُستفاد منه، ورأينا أن الإسراع بإخلائها وعدم المكوث فيها طويلاً أمر يفرضه الواقع المحزن[1].

3. بر الأمير بوالدته:

وصل موكب الأمير إلى مدينته الجديدة الزمالة، وكان الأمير يسير في مقدمة الفرسان، وعندما وصل إلى مضارب عائلته ترجّل وسلّم جواده إلى السياس، ثم دخل خيمة والدته وقبل أن يزيل عن جسمه غبار المعارك والطريق تقدم من والدته وانحنى يقبّل يديها، وجلس عند قدميها وأخذ يحدثها عن اخر معركة وانتصاره فيها، وعمن استشهد من فرسانه، وعمن قتل من الأعداء وهي تستمع إليه بكل اهتمام، ثم سألته عن بقية المجاهدين وأحوالهم قائلة:

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 118 .

يا بني أشعر بوشائج قوية وخيوط تربطني بالمجاهدين من أنصارك أصحاب الوفاء وهؤلاء المؤمنين أشعر بخيوط خفية تربطني بهم، خيوط قدسية خفية تجعل يدي في جوف الليل وابتهالاتي في التهجد وصلواتي ترتفع لهم بالدعاء.

فأجابها وهو يقبّل يديها بحنان: هذه الجلسات يا أماه تحت قدميك هي من أفضل الأوقات المحببة إلى النفس، فهي تزودني بطاقات هائلة من القوة والاطمئنان، وأشكر رب العالمين الذي وهبنا أنا وإخوتي أماً مثلك مجاهدة مثالاً للصبر والتقوى تستحق الإجلال والاحترام بين يديها الحنونتين[1].

4 . زيارات ميدانية وتوجيهات قيادية:

وبعد أيام من الراحة خرج الأمير عبد القادر بصحبة بعض فرسانه من القادة العسكريين والعلماء والأطباء أيضاً للقيام بالزيارات الميدانية التي اعتاد القيام بها قبل انتقاله إلى مدينة الخيام، فزار المستشفيات في المناطق التي لازالت تحت سلطته، ووقف أمام أطباء إحدى المشافي وخاطبهم بقوله: عليكم نقل العلوم الطبية في معاهدكم إلى الطلاب المتفوقين في العلوم، والاهتمام بعلم النبات وتركيب الأعشاب بشكل طبي لجعلها مفيدة لوضع العقاقير من هذه الأعشاب، لقد دفعت الأموال الطائلة من موارد مزارع عائلتي لشراء كتب طبية لعلماء عرب ومؤلفات نادرة، ككتاب «الأدوية المفردة» للطبيب العالم أحمد بن محمد الغافقي، ومؤلفات ابن سيناء، وابن البيطار، والصوري، وأبو القاسم الزهراوي، وبعد انتهاء الأمير من هذه الجولات عاد إلى الزمالة فوجد رسالة تنتظره من خليفته على مناطق جرجرة أحمد بن سالم فأجابه بالرسالة التالية:

---

[1] الأمير عبد القادر حيات وفكره ص 135 .

الحمد لله وحده:

أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله وشكره في الشدائد، كن صبوراً، فالصبر مفتاح الفرج. كن شجاعاً واجمع قواتك بين وقت واخر، واتلُ عليهم الآيات القرآنية، آيات الجهاد، وشدّ من عضدهم، وصارحهم برأيك، واستمع إلى مطالبهم وآرائهم، وخذ بأحسنها ولا تهملها وتحمّل هفواتهم، لكن لا تتهاون مع المتخاذلين منهم فهذه الأحوال الصعبة لن تدوم، وإن شاء الله أكون معكم عندما تتاح لي فرصة[1].

وأرفق هذه الرسالة بقصيدة من نظمه ضمّنها كل ما يحمله قلبه من محبة لهؤلاء المجاهدين، أقتطف منها هذه الأبيات:

يا أيها الريح الجنوب تحمّلي	مني تحية مغرَمٍ وتجمَّلي
واقرِي السلام أُهيل ودِّي وانثري	من طيب ما حُمِّلت ريح قَرنفُل
أدّي الأمانة يا جنوب وغايتي	في جمع شملي يا نسيم الشمأل
واهدي إلى من بالرياض حديثهم	أزكى وأحلى من عبير قرنفُل
حاولت نفسي الصبر عنهم فقيل	مه ذا محالُ ويك عنه تحوَّل
كيف التصبُّرُ عنهم وهم هم	أرباب عهدي بالعقود الكمَّل
أيُحلُّ ريبُ الدهر ما عقدوا وكم	حلّت عقودي بالمنى المتخيَّلِ
تفديهم نفسي وتفدي أرضهم	أزكى المنازل يا لها من منزل
أفدي أناساً ليس يُدعى غيرهم	حاشا العصابة والطراز الأوّل
يكفيهم شرفاً وفخراً باقياً	حمل اللواء الهاشميّ الأطول
قد خصّهم واختصّهم واختارهم	ربُّ الأنام لذا بغير تعمّل
إن غيرُهم بالمال شحّ وما سخا	جادوا ببذل النفس دون تعلُّل
الباذلون نفوسهم و نفيسهم	في حبّ مالكنا العظيم الأجلل

[1] المصدر نفسه ص 140 .

كـم يضـحك الـرحمن مـن فعلاتهـم ... يـوم الكريهــة نِعــمَ فعــلُ الكُمَّــل

الصـادقون الصـابرون لـدى الـوغى ... الحـــاملون لكـــل مـــا لم يُحمَـــل

إن غـــيرهم نال اللذائـــذ مســـرفاً ... هــم يبتغــون قِــراع كتــب الجحفــل

وألـــذّ شـــيء عنـــدهم لحـــمُ العـــدا ... ودمـــاؤهم كـــزلال عـــذب المنهـــل

النـــازلون بكـــل ضـــنك ضـــيّقٍ ... رغمـــاً علـــى الأعـــداء بغـــير تهـــوُّل

لا يعــرف الشــكوى صــغير مــنهم ... أبـــداً ولا البلـــوى إذا مـــا يصـــطلي

كـم نافسـوا كـم سـارعوا كـم سـابقوا ... مـــن ســـابق لفضـــائل وتفضّـــل

كـم حـاربوا كـم ضـاربوا كـم غـالبوا ... أقـــوى العـــداة بكثـــرة وتمـــوُّل

كـم صـابروا كـم كـابروا كـم غـادروا ... أعـــتى أعـــاديهم كعصـــف مؤكـــل

كـم جاهـدوا كـم طـاردوا وتجلّـدوا ... للنائبـــــات بصــــــارم وبمقــــــول

كـم قـاتلوا كـم طـاولوا كـم مـاحلوا ... مـن جـيش كفـر باقتحـام الجحفـل

كـم أدلجـوا كـم أزعجـوا كـم أسـرجوا ... بتســـارع للمـــوت لا بتمهـــل

كـــم شـــرّدوا كـــم بـــدّدوا وتعـــوّدوا ... تشـــتيت كـــل كتيبـــة بالصّـــيقَل

يـومُ الـوغى يـوم المسـرّة عنـدهم ... عنـــد الصـــياح لـــه مشـــوا بتهلّـــل

فـــدماؤهم وســـيوفهم مســـفوحة ... ممســـوحة بثيـــاب كـــلّ مجنـــدل

لا يحزنـــون لهالـــك بـــل عنـــدهم ... مـــوت الشـــهادة غبطـــة المتحـــوّل

ا المـوت بالبـيض الرقـاق نقيصـة ... والـــنقص عنـــدهم بمـــوت الهمّـــل

يا ربُّ يا رب الـــــبرايا زدهـــــم ... صـــبراً ونصـــراً دائمـــاً بتكمُّـــل

وافـتح لهـم مـولاي فتحـاً بيّنـا ... واغفـــر وســـامح يا إلهـــي عجِّـــل

يا رب يا مـــولاي أبقهـــم قـــذىً ... في عـــين مـــن هـــو كـــافر بالمرســـل

وتجـــاوزنْ مـــولاي عـــن هفـــواتهم ... والطُـــف بهـــم في كـــل أمـــر مُنـــزل

يا رب واشملهـــــم بعفـــــو دائـــــم ... كـــن راضـــياً عـــنهم رضـــا المتفضـــل[1]

---

[1] المصدر نفسه ص 142 .

5. الهجوم على المدينة المتنقلة:

في عام (1843م) باتت البلاد مسرحاً للعمليات العسكرية والنشاط الحربي، وكان الأمير يصول ويجول بقواته شرقاً وغرباً، والمجاهدون من حوله يحصدون رؤوس المحتلين ويلقون في نفوسهم الرعب واليأس.

وذات يوم جمع المارشال بيجو زملاءه من الضباط وقال لهم: الحرب مستمرة وعبد القادر يقاتل بعشرة الاف مئة ألف من جنودنا المدربين، إنه فارس شجاع ينزلق بين كتائبنا ويضرب ثم يختفي بلمح البصر، يدمر أجنحتنا القوية ويفلت منا في الوقت الذي نظن أنه أضعف منا، يشتت صفوفنا، وليس هذا فقط بل إنه يضرب القبائل التي تتعاون معنا بأسلوب اخر عن حربه معنا، ولا توجد معركة خسرنا فيها أقل من (600) جندي وعشرات الضباط. ولكن هل تعلمون أين تكمن قوته الان؟ هي في المدينة المتنقلة وعلينا اكتشاف مكانها وتدميرها[1].

وبعد مرور سنتين على عمر هذه المدينة الأعجوبة كان على الأمير إعداد قوات لمقاتلة قوات لامور سيير التي تمركزت في أحراش سرسو، فخرج من الزمالة على رأس ثلاث الاف مقاتل وترك (500) كان بينهم جرحى لم تشف كلومهم بعد، وكبار السن وإخوة الأمير وأولاد أعمامه. ووصل الأمير إلى مشارف أحراش سرسو فشاهد جنود العدو ينصبون الخيام، ويستعدون للراحة، فأمر فرقة من المجاهدين لتكمن في تل قريب من الحرش. وأعدّ أخرى جعلها تحاصر العدو، وكعادة الأمير أمر الفرقة الأولى بالهجوم مناوشة من غير أن يعرف العدو مصدر النار، ثم ظهرت وأرخت العنان لجنود لامور سيير باللحاق بها في الغابة وهناك كان الأمير قد وضع الكمائن ونشبت

[1] المصدر نفسه ص 143 .

معركة وانهال فرسان الأمير من كل جهة، ودبت الفوضى بين صفوف العدو وشاهد لامور سيير جنوده يتساقطون بين أشجار الغابة بعد أن قاتلوا حتى الرمق الأخير دفاعاً عن أنفسهم، فأمر بالانسحاب يجر أذيال الخيبة.

وجلس الأمير على إحدى الصخور يداعب سلاحه، وشاهده أحد المجاهدين فأقبل عليه يهنئه بالنصر فلم يتسم كعادته وقال: إن قلبي مقبوض لا أدري لماذا، وسار نحو الغدير فتوضأ وصلى بالمجاهدين، وما أن فرغ من الدعاء حتى أقبل فارس من المدينة المتنقلة وأخبره أن بعض المتعاونين أرشدوا العدو لمكان مدينة الخيام. وبالتأكيد لولا هؤلاء المرشدين الخونة لاستحال على العدو معرفة مكانها، وقال الفارس: عندما بدأت الشمس تغيب في كبد السماء بعد مغادرتك يا مولاي بساعات ؛ لاحظنا فرساننا بألبستهم البيضاء يظهرون من جديد وكأنكم غيرتم الخطة وعدتم، وكانت الشمس تسدد سهامها النارية نحو الرمال فلم نكتشف الخديعة ؛ أن جنود العدو ارتدوا ملابس فرساننا إلا بعد دخولهم مضاربنا، ففزع كل من في الحي لمقاومتهم حتى النساء. ودارت معارك دموية داخل مضاربنا وكانت أصوات الرصاص تتعالى مع أصوات النساء والعدو حرق ودمر كل شيء ونهب، والان السكان متفرقون بين الشعاب والتلال بعد حرق خيامهم.

فسأل الأمير: هل من شهداء؟ أجاب كثير ولكن الأسرى كانوا أكثر وبينهم محمد بن علال، ومحمد الخروبي، وقدور بن رويلة على ما أذكر، فقفز الأمير فوق جواده وأمر فرسانه بالعودة، ووصل ذلك المكان وهو يسبح في غسق مريع والسكان مبعثرون بين التلال كالنجوم المتناثرة في السماء. وتسابق المجاهدون فما من أحد منهم إلا له أم أو زوجة أو أولاد أو قريب في هذه المدينة وأخذوا يفتشون عن ذويهم بين التلال، وراح الأمير يسأل عن والدته

وأهلـه وزوجتـه فوجـد أهلـه لم يبـارحوا مضـاربهم، ووالدتـه داخـل مسـجد قـد احترق نصفه تقرأ القران، وزوجته وعائلته يلملمون ما تبقى من متاعهم.

وعنـدما شـاهدت الجمـوع الأمـير اجتمـع الرجـال حولـه وشخصـت أبصـارهم إليـه حـائرين، فمـا كـان مـن الأمـير إلا أن بادرهـم بقولـه: نحـن جميعـاً في هـذا المكـان مجاهـدون نسـاء ورجـالاً وأطفـالاً. ينبغـي لنـا ألا نجـبن ولا نيـأس، بـل نكـون أشـد إصـراراً علـى تحمـل الأذى والقـدرة علـى التضـحية لـدفع هـذا الأذى عـن الـوطن وتلقـين العـدو ضـربات أكثـر قـوة وطـرده خـارج بـلادنا، ثم انطلقـت هذه الأبيات من فمه محتدمة كاللظى:

وما نبـالي إذا أرواحنـا سـلمت ... بما فقـدناه مـن مـال ومـن نشـب

فالمـال مكتسـب والجـاه مرتجـع ... إذا النفـوس سـلمت مـن العطـب

قـال هـذه الأبيـات ويـده ممسـكة بلجـام جـواده تكـاد تتجمـد مـن الـبرد. ثم أمـر بتحـرك لـواء مـن الفرسـان لمطـاردة فلـول المهـاجمين، ولابـد مـن الـرد السـريع، وانطلـق هـو علـى رأس قـوة مـن الجـيش نحـو أسـهل طريـق للزمالـة أدرك أن العـدو لابد سالكه في طريق عودته[1].

6 . الرد السريع على من هاجم المدينة المتنقلة:

رفـع الأمـير يـده مشـيراً إلى الجـيش بالتحـرك لإنقـاذ الأسـرى وإعـادة مـا نهـب ؛ بعـد أن أمـر فرقـة مـن الجـيش بالانطـلاق نحـو التـلال وقسـم اخـر مـن المشـاة نحـو الأحـراش باتجـاه منطقـة طـاكين، وسـارت كـل مـن هـذه الفـرق في دروب مختلفـة علّ إحـداها تصـادف الـدوق دومـال ابـن ملـك فرنسـا وتنقـذ الأسـرى، ومـا أن وصـل الأمـير إلى الـتلال حـتى شـاهد جـيش الـدوق يسـير وهـو مثقـل بالغنـائم، فـأمر فرسـانه بالهجـوم، وإذا بـذلك الليـل البهـيم يتحـول إلى حـزم مـن نـيران

[1] المصدر نفسه ص 147 .

البنادق، وكان صهيل الخيول يتعالى ممزوجاً بتكبيرات المجاهدين «الله أكبر»، وصيحاتهم جعلت أوصال قوات العدو ترتعد خوفاً وتهتز رهبة. وعلا غبار المعركة واشتد أزيز الرصاص وأصوات قنابل المدافع، والمجاهدون يقفزون من مكان إلى اخر، يفتشون عن الأسرى الأبطال، إلى أن وجدوهم مكبلين في العربات، ففكوا وثاقهم وجمعوهم بالأمير الذي أصبح برنسه كالغربال من كثرة ما وقع فيه من رصاص، وأكثر من ذلك ففي نهاية المعركة قتل حصانه فقفز منه على الأرض. وإذا بضابط فرنسي يصيح: قد وقع، فالتف على الفور حوله خمسة من جنود العدو بقيادة هذا الضابط الذي ما لبث أن قتل برصاص زملائه. وعندما شاهد الجنود الأربعة قائدهم ملقى على الأرض أسرعوا باللحاق بالمجاهدين، وعندما حُقق معهم ووُجهت إليهم الأسئلة عن تصرفهم هذا، أجابوا: إنه الإعجاب الشديد بشجاعة هذا الفارس ؛ كنا مأخوذين ومبهورين بشخصية هذا البطل الأسطورة، ولم ندر بأنفسنا إلا ونحن نقف بجانبه[1].

حال الظلام بين الأمير وبين باقي قواته، فظن بعضهم أنه قتل بعدما رأوا جواده المقتول والمهماز ملقى على الأرض. وشاع الخبر كالصاعقة واهتزت له الروابي والجبال، ووصل بسرعة البرق إلى الزمالة التي لم تكن قد لملمت جراحها من حملة الأمس، وهلعت النفوس وغشي الأفئدة حزن عميق. وفي هذه اللحظات المفجعة برز إلى الساحة من بين الخيام فارس ملثم طفر إلى جواد واندفع يسابق الريح عبر الشواطئ والخلجان إلى أن التقى المقاتلين العائدين من جحيم المعركة، وأماط اللثام عن وجهه وإذ به لالا خديجة شقيقة الأمير، وصاحت بأعلى صوتها: «الله أكبر» أيها المجاهدون «الله أكبر» يا جنود الحق، الله حي لا يموت، وأخذت تجول بجوادها وهي ممسكة

---

[1] المصدر نفسه ص 147 .

بعنانه تزرع الحماسة والثقة بين المقاتلين، وعادوا جميعاً إلى الزمالة ولكن البشائر قد سبقتهم بنجاة الأمير وخليفته محمد بن علال وبقية الأسرى.

بعد هذه المعركة الدفاعية المشرفة عقد الأمير المجلس الاستشاري في المضرب المخصص للديوان، واستعرض مع مستشاريه والقادة الأحداث التي مروا بها، ثم قرروا بالإجماع نقل هذه المدينة والارتحال بها إلى مناطق الحساسة في الجهة الغربية من البلاد، ولم يكن نقلها بالأمر السهل، فلقد بلغ عدد سكانها ثلاثمئة ألف إنسان ؛ يذهب القسم الأكبر منهم للقتال والباقي يعيشون كخلية نحل والكل يعمل بنظام عجيب: المرأة مثلاً تخرج صباحاً بعد صلاة الفجر إلى الغدران تحمل الماء ثم تعود لتقوم بتنظيف الأولاد وإعدادهم وإرسالهم إلى المدارس، ثم تذهب إلى الأسواق لشراء حاجيات عائلتها، ثم تحضر الطعام لأسرتها وتنتظر عودة زوجها إن كان عاملاً أو موظفاً. كانت حياتهم قاسية في الشتاء والصيف ولكن الإيمان بوحدة المصير جعلت سكان هذه المدينة من أكثر أبناء الشعب الجزائري سعادة. وفي كل مرة كان يعود بها المجاهدون وفي مقدمتهم أمير البلاد رافعين رايات النصر، يخرج السكان رجالاً ونساء يزغردون ويكبرون فتختلط أصواتهم بألحان موسيقى القدوم.

وفي كل مرة كان الأمير يقف على الرغم من متاعب القتال والطريق ؛ لا يترجل قبل أن يكلم الجماهير التي تلتف حوله، يذكرهم بالقيمة العظيمة للعيش في هذه الخيام، مرة يقول لهم: إن مدينتكم هذه خلعت على الروابي والهضاب حلة من البهاء، فأين ما وجدت عطّرت الفضاء بنسائم الحرية، وأينما حلّت تفتحت الأزهار، وإن هذه الحماسة التي تستقبلوننا بها تتحول في كل مرة إلى نسائم من الحب والتقوى والشكر لله العلي القدير والأمل

بالانتصار والعيش بكرامة بعد تطهير الوطن من الغزاة وتقويض صروح كبريائه.

كان كلام الأمير يستهوي قلوب سكان هذه المدينة ويشعل مشاعرهم والحمية في أعماقهم، وكان كلامه في كل مرة أناشيد وطنية وإيمانية تدخل القلوب فتؤنسها لأنها تخرج من قلب مؤمن[1].

7. إعادة بناء المدينة المتنقلة:

أعيد بناء هذه المدينة في جنوب مناطق الحساسنة بسرعة قياسية، وعلقت اللافتات على مداخل المضارب، ترشد السكان إلى الحارات، وعليها نقشت الأسهم والأرقام لئلا يضيع أحد عن خيمته، فكان التنظيم والتقسيمات مذهلة في تكوين هذه المدينة، وأخذ الناس يتهامسون فيقول أحدهم للآخر: لو كنا نعيش في إحدى المدن وحدث مثل هذا الهجوم علينا ؛ ألا نكون الان نحن وأطفالنا تحت أحجار مساكننا نموت ببطء ولا يدري بنا أحد؟ وقال اخر: زوجتي حامل ولا أرى بأساً من إنجابها فوق الهودج في حال اضطررنا للرحيل فور وصول أخبار تحذرنا من الأعداء، في المرة الماضية لو رأينا الخديعة التي تعرضنا لها لرحلنا قبل وصول العدو ونجت مدينتنا المدهشة[2].

وكان الطلاب من القرى المجاورة يشاهَدون وهم يحملون أدوات الدراسة على أكتافهم يسارعون للالتحاق بمعاهد هذه المدينة المتنقلة لأن معاهدها كانت تدرس العلوم بجميع موادها.

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 149 .

[2] المصدر نفسه ص 150 .

وواصل الأمير حملاته العسكرية منطلقاً من هذه المدينة، وذات يوم سمع أن القوات الفرنسية أخذت تقصف مدينة أغادير، وهددوا السلطان باحتلال مدنه. وعلى أثر ذلك عقدت اتفاقية في مدينة طنجة قبل السلطان بها ووقع على محاربة المجاهدين بقيادة الأمير عبد القادر والقضاء على مقاومته لفرنسا واعتقاله وتقديمه إلى السلطات الفرنسية واعتبار المقاومة تمرداً. وبعد توقيع السلطان على هذا الاتفاق أخذ يرسل رسائل إلى زعماء القبائل التي تقف مع المقاومة وتساعد الأمير وتقدم له العون.

8. الأمير عبد القادر وسلطان المغرب:

كان تأثير رسائل سلطان المغرب ضعيفاً على النفوس في البداية. واستمر الأمير عبد القادر في جهاده بمعاونة هذه القبائل إلى جانب إرسال المبعوثين الأكفياء لتوعية زعماء القبائل في الثغور والصحراء، وتولد لدى الأمير شعور بأن السلطان اتخذ قراره بعد تلك المعاهدة، وأن المظاهرات والاحتجاجات التي قامت بها القبائل على الحدود جعلته يعيش في قلق وخوف وليس من قنابل بيجو، وإنما من شعبية عبد القادر التي وصلت إلى حد مبايعته أسوة بأشقائهم الجزائريين. ولكن الأمير رفض ذلك بشدة، وأرسل إلى السلطان رسائل يطمئنه بها أنه ليس له أطماع بعرشه ولا يهدف لأكثر من تطهير الجزائر من الفرنسيين.

وبعد نقل الزمالة إلى قرب الحدود المراكشية أشار على الأمير خلفاؤه أي وزراؤه بالقيام بعمل أكثر إقناعاً للسلطان من الرسائل.

وفي صباح أحد أيام الخريف عقد اجتماعاً لمجلس الشورى في أحد مضارب الديوان، وبعد جلوس الجميع تكلم الأمير فقال: بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا يجوز لنا القيام بأي عمل إلا بعد ذكر اسمه تعالى، والآن سأطلعكم

على رسالة السلطان عبد الرحمن إلى أحد زعماء قبائل بني مسناسن وقعت بيد أحد أعواننا سلمها إليّ، وهي من ستة رسائل أرسلت إلى القبائل.

إن السلطان يحرض القبائل على التمرد كما ترون ويتدخل في شؤون دولتنا، وأكثر من ذلك إنه يطلب من هذه القبائل تقديم العون للفرنسيين الذين عقد معهم صلحاً دائماً يعدّه مشرفاً، ويعتبر عودتنا إلى الحرب بعد صلح تافنة عملاً جنونياً مخالفاً للشريعة الإسلامية. وتابع الأمير كلامه فقال: يبدو أن السلطان كان يريد منا اقتسام الوطن بيننا وبين العدو، أي تقسيم التراب الجزائري، لذلك تراجع عن تأييدنا بعد عودتنا إلى الحرب. إنه لا يريد إزعاج العدو ولا مقاومته، وإنما القبول بوجوده والاعتراف به رسمياً والخضوع لمطالبه ووضع مصالحه في المقام الأول في سياستنا، وأنّ جيشنا يجب أن تكون مهمته حماية نظام يكفل للفرنسيين مصالحهم، وباختصار يريد السلطان منا أن نكون عملاء لا حكاماً أمراء.

فوقف محمد عبد الرحمن رئيس قبيلة الأحلاف بعد انتهاء الأمير من كلامه واقترح إرسال وفد من ذوي المراكز الكبيرة في الدولة لمقابلة السلطان باسم الأمير ومحاولة إقناعه بنوايا أمير البلاد الطيبة نحوه، وبأن الأمير ليس له مطامع أكثر من تحرير البلاد.

وتم تشكيل الوفد في تلك الجلسة بعد أن تقدم خليفة الأمير ونائبه البوحميدي الولهاصي، وتقدم أيضاً محمد بن عبد الرحمن الخليفة الاخر للأمير. وسار الوفد في اليوم الثاني من شهر أيلول عام (1847م) وأخذت القافلة تبتعد رويداً رويداً والأمير ينظر إليها و يا له من حدث موجع ولكن لابد منه إنه أخرسهم في الكنانة. ومضت القافلة تحت ظلال الشفق الممتد فوق الغابات حتى كثبان الصحراء، والتفت الفارس يلقي اخر نظرة على

الزمالـة مودعـاً وتـوارت القافلـة وراء أشـجار الصـنوبر والبلـوط تحـف بهـا قلـوب المجاهدين وأيديهم مرفوعة بالدعاء إلى الله ترجو لهم التوفيق.

وقـف الأمـير عبـد القـادر وسـط ذلـك الجمـع وارتجـل هـذه الأبيـات فقـال وهـو في طريق عودته إلى داخل المضارب:

قلّـدت يـوم البـين جيـد مـودّعي ... درراً نظمـت عقودهـا مـن أدمعـي
وحـدا بهـم حـادي المطـايا فلـم أجـد ... قلـبي ولا جلَـدي ولا صـبري معـي
ودّعـتهم ثم انثنيـت بحسـرة ... تركـت معـالم معهـدي كـالبلقع
ورجعـت لا أدري الطريـق ولا تسـل ... رجعـت عِـداك المبغضـون كمرجعـي
يا نفـس قـد فارقـت يـوم ... طيـب الحيـاة ففـي البقـا لا تطمعـي[1]

وصـل الوفـد إلى فـاس فاسـتقبل السـلطانُ المجاهـدَ البطـل البوحميـدي بكـأس مـن السـم أفقدتـه الحيـاة واستشـهد هـذا الفـارس وهـو يقـوم بمهمـة جليلـة، وفي حصـن تازة استشـهد أيضـاً باليـوم نفسـه خليفـة الأمـير علـى المدية محمـود بـن عيسى البركاني[2].

وصـلت أخبـار هـذه المصـائب إلى الأمـير عبـد القـادر فاسـتقبلها اسـتقبال المـؤمن بالقضـاء والقـدر، وكانـت خيبـة أملـه في سـلطان المغـرب كبـيرة. لقـد رضـخ لضـغوط فرنسـا ووقـع معهـا معاهـدة سـلام (يـوم10 سـبتمبر 1844م)، وكـان مـن أهـدافها وضـع الأمـير عبـد القـادر في وضـعية الخـارج عـن القـانون في كامل التراب المغربي والجزائري.

وقـد استشـاط الشـعب المغـربي غضـباً وأراد مبايعـة الأمـير عبـد القـادر، ولكنـه رفـض ذلـك. فقـد كـان الشـعب المغـربي يكـنّ للأمـير تعاطفـاً معـه ويعتـبره بطـلاً

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 153 .
[2] المصدر السابق .

للجهاد، وكان لذلك الاتفاق أثر سيء على الشعب الجزائري والمغاربي، وكانت تلك المعاهدة بين سلطان المغرب وفرنسا بإشراف إنجليزي[1].

أ . معركة إيزلي وعواقبها:

كانت معركة إيزلي الشهيرة التي سميت كذلك لأنها وقعت على ضفاف وادي إيزلي بالقرب من وجدة حيث كان ابن السلطان معسكراً هناك بغية حماية حدوده وليس الهجوم. وتعد هذه المعركة الحاسمة حسب قول بيجو من ضمن أحداث الحرب الأكثر إثارة للدهشة، وظهرت عنها العديد من التأويلات بحيث لم يبقَ أمامنا إلا الافتراضات. وقبل كل شيء فإنه من المستحيل أن يتم سحق الجيش المغربي الذي كان الفرنسيون يقدرونه بـ (30000) رجل في بضع ساعات إلا إذا قبلنا بأن المهمة التي أسندت إلى المغاربة في حالة هجوم فرنسي هو الاكتفاء بطلقات بارود شرفية خاصة، وأن الاتفاق الذي عقد السلم الذي أرضى السلطان قد توصل إليه بدعم وضمان من إنجلترا.

أما الافتراض الثاني فهو أن عدد القوات المغربية قد بولغ فيه، وحسب أحد المؤرخين «الملمين بالموضوع»، فإنه كان أقل حتى من جيش بيجو، وكانت ستسحقه «القوة العددية» لجيش بيجو إلا أن هذا الافتراض لا يفسر كيف يمكن لمعركة أن تنتهي في مثل ذلك الوقت القصير حتى وإن أخذنا بعين الاعتبار عدم كفاءة الأمير المغربي أمام خبرة الجنرال، فهذا الأخير كان قد أعلن من قبل أنه يملك جيشاً بينما «لا يملك محمد إلا حشداً من الغوغاء وأنه سيخترقه اختراق السكين للزبدة».

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 173 .

والحقيقة أن الأمير الذي كان يراقب المعركة بصحبة (1500) فارس على بعد بضعة أميال منها لم يكن يستطيع ـ حتى وإن رغب ـ أن يتدخل أمام كارثة لم تكن سريعة فقط، بل حاسمة كذلك، ولو أنه لاحظ روحاً قتالية من جانب جيش سلطان المغرب ومعركة حقيقية قد اندلعت لكان قلب بثقل عبقريته وبسالة رجاله الكفة، ولتقبلهم إخوانهم المغاربة بالفرح والسرور، والشيء المؤكد الوحيد هو أن هذه المعركة مهما كانت طبيعتها كانت حاسمة بالنسبة لبيجو فقد كان يقول لجنوده: أن مستقبل الجزائر يتوقف على هذه المعركة، فإذا خسرناها سوف نضطر للعودة من حيث أتينا.

وقد كان يقول الحق، لأن الاتفاق الذي كان السلطان قد قبله سيصبح غير ذي موضوع، وهذا لن يكون إلا في صالح الأمير، وكانت إنجلترا ستعدل موقفها دون أن تمنع السلطان من مساعدة الأمير مع الاحتفاظ بعرشه، وكانت ربما ستقنع حكومة باريس بضرورة الخروج من مأزقها في الجزائر، لقد كان للانتصار صدى كبير في باريس، وتحصل بيجو إثره على لقب «دوق»، كما سمي أول شارع كبير في الجزائر باسم هذه المعركة[1].

ب ـ استمرار الحرب:

وعلى الرغم من عناده ووسائله البربرية فإن بيجو لم يتمكن من القضاء على الأمير حيث أنه كان في كل مرة كان يبشر بنهاية أمره، فقد كان خصمه الذي لا يقهر يبرز من جديد بضربات موجهة ضد الجيش الفرنسي، ويعيد إشعال نار الحرب التي لم يكن يريدها وإنما فرضت عليه فرضاً.

وفي الأيام الأخيرة وبينما كان من عادة بيجو أن يدلي لمحيطه ببيانات صاخبة حول نهاية عبد القادر ؛ فإنه في أوائل (1844م) عندما كان

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 174 .

الأمير لاجئاً في المغرب لإعادة تنظيم قواته ؛ قام بيجو باقتراح حقيقي على الأمير بواسطة «ليون روش» رجل المخابرات الفرنسية، وكان الاقتراح بأنه نظراً لأن الحرب قد انتهت بالنسبة للأمير، فإن بيجو سيسمح له ويساعده هو وحاشيته على الذهاب للعيش بمكة، وقد كان رد الأمير: إن ساعة جهاد الكفار تساوي أكثر من سبعين سنة في العيش بمكة[1].

إن وضعيته «الخارج عن القانون» التي جاءت بها معاهدة طنجة لم تكن بطبيعة الحال قابلة للمعارضة، لذلك فإنه انطلاقاً من التراب المغربي أين كان مقره، كان يفكر في القرون التي سيرجع فيها إلى الجزائر، وأيضاً في الحالة البائسة التي كان عليها هو ودائرته، وقد تمكن ابن سالم بعد الكارثة التي ألحقها به بيجو في (17 ماي 1844م) وما تبعها من تدمير لخمسين قرية قبائلية في أسفل منطقة سباعو من الاتصال بالأمير بعد التعبير عن القلق الذي تولد عن غيابه، فقد طلب ابن سالم من الأمير أن يظهر من جديد ليبعث الأمل في نفوس المسلمين الذين انتابهم اليأس.

ومن المؤكد أن هذا الحدث قد أثبت للأمير بأن النهاية لم تحن بعد، وأن الوضعية . وإن كانت خطيرة . فإنها ليست ميؤوساً منها، وأن وجوده مع رعاياه حتى أولئك الذين كانوا تحت نيران الاستعمار كان ضرورياً وسيمكنه من مواصلة الجهاد[2].

ومن الرسائل التي جاءت من أحمد بن سالم للأمير كتب في إحداها: لقد أشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره، ودخل الشك على الناس في وجودكم الشريف، وأشاعوا أن والدتكم تصدر المكاتيب والتحارير اللازمة باسمكم الكريم، وقد بلغني أن الفرنسيين عازمون على الزحف إلى بلادنا وليس

---

[1] المصدر نفسه ص 174 .
[2] المصدر نفسه ص 174 .

عنـدي ثقـة أكيـدة بطاعـة القبائـل وانقيـادهم إلى كلمـتي. فـأنا أسـألكم بالله تعـالى أن تـردوا إلي الجـواب عـن هـذا المكتـوب بخـط يـدكم الشـريفة. فأجابـه الأمـير بخطـه: إني اطلعـت علـى مكتـوبكم، مخـبراً بأن خـبر مـوتي قـد امتـد إلى الشـرق، فـاعلم أن المـوت لا مفـر منـه ولا محيـد عنـه ؛ إذ هـو مـن قضـاء الله الـذي لا يـرد، والاقتـدار مـا أؤمـل بـه مهاجمـة أعـداء ديننـا، فكـن في راحـة ساكن البال صبوراً، ومتى استقر الأمر لنا هنا نتوجه إلى نواحيكم[1].

وبعـد نقـل الأمـير الزمالـة إلى المغـرب الأقصـى قـرر الاسـتمرار في غزواتـه علـى القـوات الفرنسـية داخـل الجزائـر، وعمـل بيجـو علـى التصـدي لـه وقـال لهيئـة أركانــه: إن قلــوب المغاربــة تعلقــت بعبــد القــادر بســبب اتباعــه للشــريعة الإسـلامية ؛ بحيـث صـارت القوافـل تسـير في المنـاطق الـتي يتواجـد بهـا، عكـس المناطق الأخرى. إنه يمثل خطراً على فرنسا وعلى المغرب الأقصى أيضاً.

وأرسـل إلى حكومتـه يخبرهـا بخطـر الأمـير بالمغـرب ويطلـب منهـا التـدخل لـدى السلطان لوضع حد لوجوده هناك[2].

وأمـر بيجـو الجنـرال لامـور يسـيير والجنـرال بيجـو بالتوجـه إلى الحـدود المغربيـة، فنـزلا في مقـام السـيدة مغنيـة شمـال تلمسـان، وقامـا بهـدم مقـام الوليـة مغنيـة الـتي يجلّهـا السـكان، وعلـى إثـر اسـتفزاز الفرنسـيين لسـكان الحـدود المغربيـة وسـخط الشـعب المغـربي مـن ذلـك ؛ خشـي السـلطان ثـورة الرعيـة عليـه، فبعـث إلى عاملـه بوجـدة ابـن الكنـاوي طالبـاً منـه الاتصـال بالفرنسـيين والطلـب مـنهم الكف عن الاستفزاز.

---

[1] الجزائر في التاريخ ص540 .
[2] المصدر نفسه ص 541 .

فاستهزأ الضباط الفرنسيون برسوله، فزحف الكناوي على رأس جيش على الفرنسيين الذين دخلوا التراب المغربي، وانهزم الجيش المغربي وهي أول معركة بين المغاربة والفرنسيين[1].

وبعدها كانت معركة إيزلي التي انهزم فيها الجيش المغربي، وهددت بريطانيا فرنسا بالحرب، ودخل الطرفان في مفاوضات طلب فيها الفرنسيون من السلطان اعتبار الأمير عبد القادر بالمغرب خارجاً عن القانون ومنع المواطنين المغاربة من التعامل معه، ودفع غرامة (12) مليون فرنك فرنسي. وأبرمت اتفاقية طنجة في (9/10 /1844م) ومعاهدة لالة مغنية بين المغرب وفرنسا يوم (1845/3/18م). وانتشر السخط بين الشعب المغربي على السلطان الذي انهزم جيشه في أول معركة مع الفرنسيين خلال ساعات وقبل الشروط المجحفة التي فرضها عليه الفرنسيون، وارتفعت أصوات الكثير من القبائل تطالب بالثورة على السلطان، وإعطاء الطاعة للأمير عبد القادر الذي كاتبه بعض رؤسائها فرفض مسعاهم طالباً منهم الوفاء للسلطان.

راح الأمير يرسل الوحدات تغير على القوات الفرنسية في الجزائر وعلى القبائل المتعاملة معها، ووصلت هذه إلى سيدي بلعباس وتيارات وتاكدامت، فذعر بيجو وجنرالاته لهذا واتصلوا بالسلطان فهددوه،أرسل هذا إلى الأمير يطلب منه المغادرة. ولما وصل رسول السلطان أدرك أن الأمير لا يمثل خطراً على السلطان بل إنه يحث القبائل المغربية على ولائها للسلطان، وأن هدفه الجهاد داخل الجزائر[2].

---

1 الجزائر في التاريخ ص 541 .

2 المصدر نفسه .

ج ـ مساندة أبطال المغرب للأمير عبد القادر:

ومن أبطال المقاومة الجزائرية أبو معزى وهو مراكشي من أولاد سيدي الطيب بنواحي وزان، دخل الجزائر حوالي سنة (1835م) وقام بنشر دعاية ضد الفرنسيين في مناطق وهران الجنوبية، ثم انتقل إلى زواوة يحث أهلها على الجهاد فاستطاع أن يجمع حوله خلقاً كثيراً، وبما أنه كان مستقلاً في حركته عن الأمير عبد القادر فقد ظن الفرنسيون أولاً أنه يمكنهم الاعتماد عليه في إضعاف سلطة الأمير، ثم عادوا يرهبون منه، بعد أن نازلهم سنتين كبدهم فيها خسائر فادحة، وتوّج عمله بالانضمام إلى الأمير عبد القادر الذي عينه خليفة له على جبال زواوة، فقاتل معه إلى أن اضطر الأمير سنة (1845م) إلى الالتجاء لمراكش فعاد أبو معزى إلى الجزائر واستمر في قتاله.

ولما عاد الأمير في نفس السنة انضم أبو معزى إليه مرة أخرى، والتفّت من حولهما كافة قبائل وهران والجزائر وسجلوا النصر العظيم على الفرنسيين في معركة سيدي إبراهيم بغرب جامع الغزوات ؛ الأمر الذي اضطر من أجله «بيجو» لطلب جيش قوامه عشرة الاف جندي، قسمها إلى ثمانية عشر جحفلاً طارد بها الأمير وخلفاءه، فوقف أبو معزى وقفة عظيمة واستمر في القتال حتى تغلبت عليه هذه الجحافل، واضطر للاستسلام فاعتقل ونقل إلى حصن «هام» في شمال فرنسا في نفس الغرفة التي كان نابليون الثالث معتقلاً فيها قبل توليه الحكم، وبعدما صدر العفو عنه انتقل إلى تركيا حيث رحب به العثمانيون وخصصوا له معاشاً.

وفي حرب القرم انضم للجيش العثماني وقاتل في صفوفه وسقط في القوقاز في أسر الروم، ثم توفي في مدينة باطوم، وقد ادّعى من بعده ستة أفراد

جزائريين أنهم هم أبو معزى وقد جرح اخرهم في إحدى المعارك وأسر، ثم أحيل على المحكمة العسكرية فكان موقفه رهيباً وجرى بينه وبين رئيس المحكمة الحوار الاتي:

. سأله الرئيس من أنت؟ قال: أنا بو معزى.

. لماذا قاتلت فرنسا؟

. لكونها دولة باغية طاغية معتدية علينا.

. ألم تر أن العرب انضموا إلينا؟

ـ هؤلاء العرب قسمان: الأكثرية منهم أبرياء يخافون على حياتهم، والأقلية سفلة خونة لا يبحثون إلا عن رضا الحاكم مهما كان، وعن توشيح صدورهم بشريط أحمر.

. ماذا تنتظر منا؟

. لا يهمني ما أنتظره منكم.

. وإذا أطلقنا سراحك ماذا تفعل؟

. أعود للجهاد في سبيل الله.

. وإذا قتلناك؟

. سأتقدم لله ناطقاً بالشهادتين.

. وإذا سجناك؟

. سأقضي أوقاتي عابداً طالباً من الله أن ينصر العدل على الظلم.

ـ لماذا تكرهنا؟

ـ لأنكم ظُلاّم طغاة.

وقد حكم عليه بالسجن ثم أطلق سراحه بعد ذلك[1].

9ـ الأمير عبد القادر ينطلق من المغرب وينجد خليفته ابن سالم في زواوة:

ثم انتقل الأمير في لمح البصر فغزا قبيلة صدامة في وادي العبد متجاوزاً بيجو ولامور يسيير اللذين لم يكونا بعيدين عنه، ثم قبيلة الأحرار وغنم منها وراح ينتقل من قبيلة إلى قبيلة ويفرض الطاعة عليها أو تعود له طوعاً اقتناعاً منها بأنه عاد عن غيبته قوياً، ولم يزل ينتقل إلى أن وصل إلى زواوة ودخل جبال جرجرة والتقى بخليفته السيد أحمد بن سالم وعلم بتعقب العدو له فقطع أربع رحلات في رحلة واحدة، فسمي بأبي ليلة لأنه لا ينام في مكان أكثر من ليلة.

وقد غزا بني هيدورة من القبائل الذين دانوا بالطاعة للفرنسيين، وما إن حل ببلاد القبائل حتى اجتمعت له قبائل زواوة فاختار منهم (5000) فارس، وغزا بهم متيجة من الشرق وراح يدمر مزارع الكولون ويحرق منشاتهم وهرب من نجا من الموت لائذاً بأسوار الجزائر، قام الأمير بكل ذلك وبيجو يبحث عنه في عمالة وهران، ثم تحرك عائداً نحو الغرب حتى نواحي المدينة ناشراً بين الناس أنه عاد للجهاد بقوة، ثم عاد لجرجرة ومنها توجه إلى الشمال ونزل بأرض فليسة قرب دلس، وراح يشن الغارات المتتابعة على سهل متيجة وقد مضى عليه أكثر من سنة بعيداً عن زوجته وأهله، فأنشد شعراً قال فيه:

---

[1] الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، علال الفاسي ص 5 ، 6 .

بـنيّ لـئن دعـاك الشـوق يومـاً وحنّـت للّقـا منـا القلـوب

ورمـت بأن تنـال مـنّي وصـلا يصـح بعيـدَه القلـب الكئيـب

فـإني منـك أولى باشـتياق وناري في الفـؤاد لهـا لهيـب

وإن أخفـي اشـتياقي في فـؤادي فـإن الشـوق يكتمـه الأريـب[1]

وفي تلك الأيام العصيبة قال قصيدة أخرى ذكر فيها أهل الجهاد:

لنـا في كـل مكرمـة مجـال ومـن فـوق السّـماك لنـا رجـال

ركبنـا للمكـارم كـل هـول وخُضـنا أبحـراً ولهـذا زجـال

لنـا الفخـر العمـيم بكـل عصـر ومصـر هـل بهـذا مـا يقـال؟

ورثنـا سُـؤدداً للعـرب يبقـى ومـا تبقـى السـماء ولا الجبـال

فبالجـد القـديم علـت قـريش ومنـا فـوق ذا طابـت فعـال

وكـان لنـا دوام الـدهر ذكـر بـذا نطـق الكتـاب ولا يـزال

ومـن لم يـزل في كـل عصـر رجـال للرجـال هـم الرجـال

لهـم همـم سمـت فـوق الثريا حمـاة الـدين دأبهـم النضـال

سـلوا عنـا فرنسـا تخـبركم ويصـدق إذ حكـت منهـا المقـال

وهكـذا تمكـن الأمـير في سـنة مـن قطـع مئـات الكيلـومترات والاتصـال بعشـرات القبائـل والـدخول لـبلاد زواوة وإعـادة خليفتـه البطـل ابـن سـالم إلى وضـعه بعـد أن ارتفعـت معنـويات القبائـل، وجـن جنـون بيجـو فهـو يطلبـه بالغـرب فيظهـر بالشـرق مهاجمـاً متيجـة بجيش قـال فيـه المؤرخ البريطـاني شرشـل: عجـب الفرنسـيون مـن شـجاعة عبـد القـادر وسـرعة اختفائـه، فكأنـه يطـير في الهواء.

[1] الجزائر في التاريخ ص 545 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 546 .

وشهد له في محافل باريس الجنرال يوسف بأنه أشجع ما عرفت الأمم من الرجال، وبأن غرابة اختفائه السريع تحيّر العقول[1].

ويقول النقيب كلير: إن الحملة التي قام بها هذا الأمير أثارت إعجاب كل العسكريين الذين ينحنون بالرغم عنهم أمام هذه العبقرية، إنه العدو اللامرئي، والذي يوجد في الوقت نفسه في كل مكان، فهو يخترق الصحارى ويتسلل عبر منحدرات جبل عمور، ويدخل سهول المغرب بعد أن يوجه قبائل الغرب نحو الحدود، ثم يظهر فجأة بالشرق بعد أن يقوم بالانتقام من القبائل المتعاونة معنا، وبحركة ذاتية يمر بفرسانه الألف والخمسمئة بين طوابيرنا فيقطع عشرين رحلة في ليلة واحدة، فكيف يمكنك أن تواجه هذه الحركة العجيبة بقيادة طوابير عاجزة ومنهكة في المطاردة، وحدات متعبة وبمعنويات متدنية بسبب نتائج سلبية؟ إننا نعتمد على الوقت أكثر من اعتمادنا على عبقرية الذين يقودوننا[2].

توجه الأمير غرباً محاذياً للصحراء والعدو يطارده والقبائل تتجنبه خوفاً من بطش وانتقام الفرنسيين وإفقارهم لها، وعندما نزل على أولاد السيد ابن الشيخ البكري في بلدتهم بالبيّض تلقوه بالتكريم والاحترام وقال له كبيرهم: إنا نسألك بالله تعالى ألا تعرضنا للحرب والبلاء مع عدو ديننا ودنيانا بإقامتك عندنا في بلادنا، فإن الفرنسيين لا يخفى عنادهم وظلمهم، ولولا أنهم أشد الخلق عتواً وظلماً واعتداء ما تسلطوا علينا وقصدوا أن يملكوا بلادنا، وأين بلادهم؟ فهم في بر ونحن في بر اخر، ومع ذلك فهم اعتدوا علينا وقصدوا أن يملكوا بلادنا ورقابنا.

[1] المصدر نفسه ص 546 .
[2] المصدر نفسه ص 547 .

فلما سمع الأمير عبد القادر قول هذا الشيخ رق لهم وأشفق عليهم وارتحل عنهم مغرباً إلى دائرته وكانت على نهر ملوية فيما وراء جبل بني زناسن.[1]

10 . موت الأسرى وموقف الأمير من ذلك:

علم الأمير عبد القادر لدى وصوله بقتل الأسرى الفرنسيين الذين أسروا في موقعتي الغزوات وعين تموشنت وكان عددهم (177)، فأسف لذلك ووبخ خليفته الذي نفذ القتل في غيابه دون مشورته. وكان الأمير مشهوداً له بالمعاملة الطيبة للأسرى وفق أحكام الدين الإسلامي، وأمر بإطلاق عشرة ضباط فرنسيين أسرى وأرسل معهم رسالة إلى ملك فرنسا قال فيها: لقد شاع في غيابي أن الفرنسيين عازمون على تحرير أسراهم بالقوة من أيدي العرب، ثم فشا بين الناس أن سلطان مراكش عازم على إنقاذهم من يد خليفتنا رغماً عنه، فكان هذا من سوء سلوك نوابكم سبباً لما وقع بالأسرى من غير إذن منا ولا علم لنا، والان وقد أطلقنا سراح عشرة ضباط مع الرئيس كورلي دي كوفري وهم يعلمون بما أجريناه.

ثم سلمهم في (أكتوبر سنة 1846م)[2]، دون أي مقابل مادي أو مالي. وقد شهد الكثير من الضباط والجنود الذين كانوا أسرى عند الأمير عبد القادر وكتبوا عن فترة أسرهم واحتوت كتاباتهم على حقائق تاريخية دلت على حسن ورقيّ المعاملة المستمدة من الشريعة الإسلامية التي أمرت بذلك.

وفي إحدى الأيام كان من الأسرى نساء، فأمرت والدة الأمير بأن تكون إقامتهن في خيم بجانب خيمتها، وأن يحرسن برجال من ذوي الشهامة

---

[1] .الجزائر في التاريخ ص 547 .

[2] الجزائر في التاريخ ص 547 .

والعفة وأمرت بالاعتناء بهن، حتى لم تنساهن من قهوة الصباح[1].

11. سلطان المغرب يشن الحرب على الأمير عبد القادر:

لقد احتضن الشعب المغربي الأمير عبد القادر، خاصة قبيلة بني يزناسن وأهل وجدة والريف وغيرهم، واستشهد الكثير منهم مع الأمير في جهاده ضد الغزاة الفرنسيين، واختلط دم المغاربة مع الجزائريين وكتبوا ملحمة جديدة في تاريخ شعوب المغرب الحرة، ولقد استخدمت فرنسا كل قواها من القصف واستقدام الجيوش لمنع المغاربة من دعم الأمير عبد القادر.

وبدأت المشاكل بين الأمير والسلطان عبد الرحمن الذي أرسل للأمير يأمره بمغادرة التراب المغربي ويذكر له: إنه لا سبيل إلى خلاصك إلا بأحد أمرين ؛ إما أن تسلم نفسك إلينا، وإما أن تخرج من الحدود، فإن أبيت أن تجري أحدهما طوعاً فنحن نجريه كرهاً.. ثم أوعز إلى القبائل القريبة من الدائرة بالتضييق على قواته.

فأطرق الأمير ملياً مفكراً وكتب إلى السلطان ما ملخصه: أما بعد فإني كاتبتكم أولاً والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعديها على من تبعني وسوء معاملتهم لهم لأنهم كلهم أولاد دين واحد، فلم يأتني جواب على ذلك ومع ذلك فأنا صابر ومتحمل كراهة سفك دماء المسلمين مدة ستة أشهر، طمعاً في رجوعكم عن البغي والطغيان إلى العدل والإحسان، مع قدرتي عليهم في كل ان، فإن لم تردعهم الان عن أفعالهم وترجعهم عن قبيح تصرفاتهم فإني ألتزم المحاماة عن حقوقي والمحافظة على شرف أتباعي ولذا بادرت بإخباركم والسلام.

---

[1] الأمير حياته وفكره ص 158 .

وكتب الأمير إلى علماء مصر يستفتيهم في الخلاف بينه وبين السلطان، وأرسل لهم رسالة طويلة جاء فيها: ..ثم أمرني بترك الجهاد فأبيت لأنه ليس له علي ولاية ولا أنا من رعيته، ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعاً من يجد صبراً، وأسقط من المجاهدين ركناً، ثم أخذ يسعى في قبضتي فحفظني الله منه، ولو ظفر بي لقتلني أو لفعل بي ما اشترطه عليه الفرنسيون، ثم أمر بعض القبائل من رعيته أن يقتلونا ويأخذوا أموالنا، فأبوا جزاهم الله خيراً.

فأجابه العلامة الحجة الشيخ محمد عليش مفتي المالكية بالديار المصرية: نعم يحرم على السلطان المذكور . أصلح الله أحواله . جميع ذلك الذي ذكرتم، حرمته معلومة من الدين بالضرورة لا يشك فيها من في قلبه ذرة من الإيمان، وما كان يخطر ببالنا أن يصدر من مولانا السلطان عبد الرحمن وفقه الله تعالى مثل هذه الأمور مع مثلكم، فإنا لله وإنا إليه راجعون خصوصاً وأنتم جسر بينه وبين عدوه[1].

واشتد الخلاف بين الأمير والسلطان عبد الرحمن الذي أرسل جيشاً كثيفاً بقيادة قائده الأحمر، وكان الأمير مخيماً بين أرض توزين ومطالسة من قبائل الريف، فاستعد للدفاع عن نفسه، ولما اقترب الأحمر وخيم على بعد مرحلة أرسل الأمير له رسالة قال له فيها: إنني لا أريد إلا المسالمة وإقامة المهاجرين تحت أنظار السلطان، ولا أتمنى الصدام معكم وأنا أحذرك من قتال المسلمين للمهاجرين.

وعندما علم الأمير بأن الأحمر توجه لحربه قاد فرسانه الأشداء واعترضه في تافرسيت فاستولى بسهولة على معسكره، وثار بعض الجنود المغاربة سخطاً

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 549 .

علـى حـرب المهـاجرين فقتلـوا قائـدهم الأحمـر، ثم توجهـوا بحريمـه وأولاده إلى الأمـير، فأرسـلهم بحـرس إلى السـلطان في فـاس، وسـخط الشـعب المغـربي علـى سـلطانه لشـنه الحـرب علـى مسـلمين مجاهـدين إرضـاءا لنصـارى معتـدين[1]، وجهـز السـلطان عبـد الـرحمن جيشـاً مـن خمسـين ألـف جنـدي، وأسـند قيادتـه لابنـه وولي عهـده محمـد وابنـه الثـاني أحمـد فسـارا لمحاربـة الأمـير، ونـزل الجـيش السلطاني على ثلاث مراحل من الدائرة في مكان اسمه سلوان.

وقـرر الأمـير يـوم (1847/12/10م) بـدء الهجـوم، وأشـار علـى مسـاعديه أن يسـتعملوا حيلـة يبـاغتون بهـا عـدوهم وينشـروا في صـفوفه الـذعر قبـل المعركـة. فـأمر بإحضـار جملـين وشـدّ علـى كـل منهمـا حـزمتين مـن الحَلفـاء بعـد أن طلاهمـا بالقطـران والقـار والزفـت وأمـر بأن يكـون إيقـاد النـار في الحـزمتين مقـترناً بالهجوم على العدو.

وفي ليلـة الرابـع عشـر مـن الشـهر المـذكور سـار الأمـير بجيشـه نحـو سـلوان، ولمـا قـرب منـه رتـب جيشـه للهجـوم دون أن يشـعر الخصـم وأمـر بتقـدم الجملـين أمـام الجيش، ثم أضـرمت النـار في الحـزمتين فنفـر الجمـلان وهاجمـا خيـام الجـيش السـلطانيّ، وحمـل جنـود الأمـير حملـة رجـل واحـد، وصـحا جنـود الجـيش السـلطاني علـى مشـاعل تنتشـر راكضـة بـين خيـامهم فانتشـر الفـزع بيـنهم، وعنـدها انطلـق رصـاص جـيش الأمـير، فهـرب الأعـداء تاركـين خيـامهم وأسـلحتهم، وتقـدم المهـاجمون حـتى وصـلوا إلى سـرادق ابـني السـلطان، فوجـدوا حراسـه قـد أحـاطوا بهمـا وراحـوا يـدافعون عـن الأمـيرين، واسـتمرت المعركـة طـوال اليوم وتمكن فيها الأمير من هزم خصمه الظالم[2].

---

[1] المصدر السابق .

[2] الجزائر في التاريخ ص552 .

كـان سـلطان المغـرب قـد قـرر التعـاون مـع فرنسـا وبـذل الجهـد معهـا للقضـاء على الأمـير عبـد القـادر وراسـل زعمـاء القبائـل الـتي كانـت مـع الأمـير، ومـن هـذه الرسـائل الـتي أرسـلها إلى زعـيم قبيلـة أنكـاد ووقعـت في يـد الأمـير: بلغنـا أن الأمـير عبـد القـادر مـازال مسـتمراً في إثارة الفـتن وجلـب الشـر للمسـلمين ونقـض الصـلح الشـرعي الـذي عقـده مـع الفرنسـيين، ومـا يقـوم بـه الان هـو عمـل غـير شـرعي، ولا يقبلـه الـدين، ومـن يتبـع هـذا الرجـل فقـد باع دينـه وباء بالضـلال وحـاد عـن شـرع الله وقـد أعـذر مـن أنـذر، في الثالـث مـن رمضـان سنة (1263هـ) من الوالي عبد الرحمن وختمها بتوقيعه[1].

لقـد اسـتطاعت فرنسـا أن تضـغط علـى سـلطان المغـرب وتجنـده لصـالح مشـروعها في الجزائـر، واسـتفادت مـن نفـوذه للتـأثير علـى القبائـل الموالية لعبـد القـادر، وفي الوقـت نفسـه كـان المارشـال بيجـو يطمـع إلى المزيـد مـن تأييـد القبائـل لـه، واعتمـد في سياسـته مـع السـكان طريقـة الترهيـب والترغيـب يحـرق المـزارع وحقـول القمـح والشـعير ويحمـل معـه الهـدايا إلى جانـب الأسـلحة المـدمرة. وتعـرّض المارشـال بيجـو لهـزائم متلاحقـة، وبسـبب ذلـك أعفـي المارشـال بيجـو مـن منصبه، وعـين بـدلاً منـه ابـن الملـك الـدوق دومـال حاكمـاً عامـاً حيـث وصـل الجزائـر يـوم (1847/5/4م) وثبـت الجنـرال لامـور يسـيير علـى وهـران وعـين الجنـرال بيجـو حاكمـاً علـى قسـنطينة والجنـرال كفينيـاك حاكماً على الجزائر[2].

وبـدا واضـحاً في عـام (1847م) أن الطـوق الفـولاذي بـدأ يضـيق حـول المقاومـة، وأصـبحت هجمـات العـدو أشـدّ ضـراوة وقـوة بعـد أن تمّ لـه تفتيـت

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 167 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 549 .

جبهة الأمير الداخلية وضمن طاعة أكثر القبائل له، ودُمّرت الزمالة ولم يبق من أقسامها سوى الدائرة وأُحرقت المحاصيل الزراعية لتجويع المجاهدين[1].

سابعاً: الحصار الشديد واتفاقية مشروطة:

اشتد العداء بين الأمير وسلطان المغرب وبالغ السلطان في تضييق الخناق على الأمير، فسار مع من بقي معه من المجاهدين متجهاً نحو الصحراء وأمر بنقل الدائرة إلى مناطق عجرود، وتقدم بجنوده بمحاذاة النهر، ووضع الكمائن للعدو بين الأحراش، وخطط لها قواعد تعود إليها بعد انتهاء مهماتها، وسار غازياً إلى الجهات الشرقية، غير عابئ ببيجو ولامور يسيير[2].

وكان السلطان عبد الرحمن مستمراً في مراسلة القبائل التي بايعت الأمير عبد القادر، ويستخدم علماء بلده في اتهامه بأنه زائغ عن الهدى، وقال: إن من يتبع هذا الرجل فقد باع دينه وباء بالضلال والردى وحاد عن شريعة الهدى وقد أعذر من أنذر، في الثالث من رمضان سنة (1263هـ) من الولي عبد الرحمن بن المولى هشام.

وهذه الرسائل وغيرها فعلت فعلها في نفوس هؤلاء الزعماء، ومن المعروف في ذلك الزمان أن قائد القبيلة أو زعيمها ؛ إذا اقتنع بأمر ما سار على هديه جميع أفرادها من دون مناقشة. وعلى القارئ أن يتخيل ما حدث سنة (1847م، 1848م) فقد بات الأمير عبد القادر يقاتل على عدة جبهات، بل كان يرى بأم عينيه فرسانه الأبطال يتساقطون برصاص إخوانهم العرب المسلمين، وشاهد أشهر قائد لديه الشهير محمد بن يحيي يسقط صريعاً في إحدى تلك المعارك المؤسفة:

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص135 .
[2] المصدر نفسه ص 137 .

وظلـم ذوي القـربى أشـدُ مضاضـة　　على المرءِ مـن وقـع الحسـام المهنـد[1]

1 . القرار الخطير:

بالـغ السـلطان عبـد الـرحمن في عدائـه للأمـير إلى الحـد الـذي جعلـه يحـرّض عليـه زعـيم الأحـلاف في الريـف الشـيخ بـوزيان وزعمـاء بـني سناسـن وأنكـاد، ولم يكتـف بـذلك بـل أرسـل ذات مـرة جيشـاً بقيـادة الأحمـر وأمـره بالاسـتيلاء علـى مقـر الأمـير .كمـا مـرّ معنـا .. وفي أواخـر سـنة (1847م) لم يعـد الأمـير يحـارب جنـرالات فرنسـا وجنودهـا المـدربين، بـل شُـيّد بينـه وبيـنهم سـدٌّ مـن صـدور المسـلمين شـيده السـلطان عبـد الـرحمن وفـرض علـى الأمـير واقعـاً مـراً مرفوضـاً مـن قبـل المـؤمنين وهـو قتـال الإخـوة، ففرضـت علـى الأمـير معـارك مؤسـفة شـغلته ومنعتـه عـن الاسـتمرار في مقاومـة المسـتعمرين، هـذا الهـدف العظـيم الـذي حمـل الأمـير والمجاهـدون معـه السـلاح مـن أجلـه ثمانيـة عشـر عامـاً، كـان فـراش الأمـير خلالهـا ظهـر جـواده. وفي أواخـر هـذه السـنة لم يـر الأمـير أمامـه جنـود المسـتعمرين، بـل رجـالاً وجنـوداً مسـلمين يحاصـرونه مـن كـل جانـب ويتـأهبون للانقضـاض عليـه وعلـى مـن تبقـى معـه مـن المجاهـدين المـؤمنين بعدالـة قضيتهم وبالله والوطن وبسيرة أميرهم الصحيحة والشرعية[2].

وفي ليلـة مـاطرة شـديدة الظـلام نظـر هـؤلاء المجاهـدون إلى وجـه الأمـير، وتحـدث معهـم فقـال لهـم: إن المعلومـات الـتي لـدي بأن الطريـق الوحيـد للوصـول إلى الصـحراء هـو مضـيق غربـوس. وقـال: بإمكاننـا فـتح هـذا المضـيق ولكـن بعـد اشـتباك أخطـر مـن الـذي جـرى قبلـه، لأن البـدء بالهجـوم والقيـام بالقتـال

[1] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة ص 142 .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 146 .

«قتال الإخوة» وإسالة دماء من يقولون: ربنا الله، وسيدافعون عن أنفسهم حتى الموت، هذا أولاً، وثانياً علينا التحرك فوراً وحمل جرحانا كي لا يقعوا بيد من لا يرحم، لذلك لا أرى إلا التسليم بقضاء الله والرضا به، لقد أجهدت نفسي في الذب عن الدين والبلاد وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر والبادي، وذلك من حين اهتز شبابي وافتر عن شباة الهنديّ نابي، وأقمت على ذلك ما ينوف على ثماني عشرة سنة، أقتحم المهالك وأملأ بالجيوش الجرّارة الفجاج والمسالك، وأستحقر العدو على كثرته وأستسهل استقصاءه، وأتوغل . غير خائف . أوديته وشعابه، وأرتب له في طريقه الرصائد وأنصب له فيها المكائد والمصائد، تارة أنقض عليه انقضاض الجارح، وأخرى أنصب له فيها انصباب الطير إلى المسارح، وكثيراً ما كنت أبيّته فأفنيه، وأصبحّه فأبرد غليلي منه وأشفيه، ولازلت في أيامي كلها أرى المنية ولا الدنية، وأشمر عن أقوى ساعد وبنان، وأقضي حق الجهاد بالمهند والسنان، إلى أن فقدت المعاضد والمساعد، وفني الطارف من أموالي والتالد، ودبت إليّ من بني ديني الأفاعي واشتملت عليّ منهم المساعي، والان بلغ السيل الزبى والحزام... فسبحان من لا يكيد له كائد، ولا يبيد ملكه وكل شيء بائد. ثم طرح الأمير فكرة وقف الحرب لأنه المطلوب من الأعداء شخصياً كحاكم لدولة وقائد للجيش النظامي وليس وقف المقاومة، لأنها بيد الشعب وليس بيده ولن تقف إلا بزوال الاحتلال، والشعب لا بد سيصحو يوماً عاجلاً أو اجلاً، ويكتشف أكاذيب المحتلين وغدرهم، والذين استسلموا للأعداء وحاربوه بسلاح المحتلين سيدركون يوماً أيّ مصير قادهم إليه تحالفهم مع الأعداء؟ ولمصلحة من كان تحالفهم؟

أدرك الأمير ما كان يدور في خلد هؤلاء الأبطال من رجاله فقال مرتجلاً بعض الأبيات لتخفيف جمود تلك اللحظات:

إن يسلبِ القومُ العدا ملكي وتُسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تُسلمِ القلبَ الضلوع
أجلي تأخّر لم يكن يهواه قلبي والخضوع
ما سرت قط إلى قتال وكنت امل بالرجوع
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع[1]

ثم قال: نحن لا نخشى الموت، فالشهادة في سبيل الله جلّ ما نبغيه ونسعى إليه، واستشهد بقول الله تعالىَ: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**[آل عمران: 169]**. ثم استشهد بجملة لمفتي المالكية العلامة الحجة محمد علوية في الديار المصرية: ما من ميت يتمنى العودة إلى حياة الدنيا إلا الشهيد لما يجده عند ربه من الخيرات مما لا يخطر على بال بشر. ثم استأنف: الشهادة في سبيل الله هي مطلبنا. ولكن إذا استطعنا الخروج مما نحن فيه الان، والوصول إلى التخوم المجاورة ووادي عجرود حيث ترابط الجيوش الفرنسية ومهاجمتها، ثم الانسحاب نحو مقرنا في الدائرة لكان خيراً عظيماً لنا ونصراً مؤزراً. وأجابه أحد المجاهدين: لكن كيف لنا الخروج وقوات السلطان تجوب الطرق، وتحاصر المسالك والمنعطفات بحثاً عنا، والعيون هنا من حولنا تراقب حركاتنا وسكناتنا، وقد بتنا وكأننا في معتقل كبير للأعداء؟

ولم تدم هذه الأحاديث بينهم أكثر من دقائق ووقف الطبيب المختار وسأل الأمير: ماذا بعد وقف الحرب؟ أجاب الأمير: الهجرة من البلاد، لأنني شخصياً مستحيل علي العيش ولو للحظة واحدة تحت راية ليست راية بلادي الإسلامية، وليست راية دولتي. فوافق الجميع على قرار وقف

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 175 .

الحرب[1]، حقناً للدماء الغالية التي ستُزهق من الطرفين المراكشي والجزائري بغير طائل.

2. طرق باب الاستئمان الزمني لأجل الهجرة:

كانت الطريقة من الخروج من هذا المكان وتحقيق مقصد الهجرة عن طريق الاستئمان الزمني، وهو طلب الأمان وإعطاء الفرصة للخروج من أجل الهجرة في سبيل الله تعالى، فعندما تساءل الحاضرون في مجلس الأمير عبد القادر كيف الخروج إلى الهجرة والخروج من هذا المكان الذي نحاصر فيه، أجاب ابن علال وكان من الفقهاء: سنطرق باب الاستئمان الزمني. قال الأمير: نعم أيها الأخوة سنطرق هذا الباب، وهو باب معروف في الجهاد في الإسلام، والهجرة في ظروفنا هذه أعتقد أنها أصبحت حقّاً علينا وإن لم نطرق بابها نكون اثمين بحق أنفسنا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[النساء:100].

ـ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[النحل:41].

وذكر أقوالاً كان كتبها لبعض خلفائه جواباً لاستفساراتهم حول الهجرة، وقد جاء في القران ذكر الهجرة مراراً وذم تاركها، والله جعل لها شروطاً، وقال رسول الله ﷺ : «لا تنقطع الهجرة حتى يغلق باب التوبة، ولا يغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها». أما الهجرة من مكة إلى المدينة فقد انقطعت بالفتح أي بفتح مكة ثم تابع الأمير كلامه فقال: سأرسل رسالة شفهية إلى الجنرال لامور يسيير ممثل الدولة التي تحتل بلادنا ليخبرها باسمي بأنني أريد طريقاً امناً يقصد ترك البلاد والسفر إلى الإسكندرية أو عكا، فإن

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 176 .

وافــق فــالخيرة فيمـــا اختـــاره الله، وإن رفــض نكـــون أمـــام الله لم نأل جهـــداً، ونتحــرك بمــا عنــدنا مــن قــوة لفــتح مضــيق غربــوس والاتجــاه نحــو الصــحراء في حــال انتصــارنا، ولاشــك أنهــا ستكون مغــامرة ولكــن لا خيــار لنــا، لأننــا حيثمــا توجهنــا ســوف نجــد ســداً مــن صــدور إخــوة لنــا في الــدين جنــدهم الأعــداء ليتخذوا منهم حاجزاً ودروعاً لهم[1].

لم يطــرق الأمــير عبــد القــادر أبــواب الســلطان عبــد الــرحمن في أي تســوية معــه للأسباب التالية:

. لأن السلطان مرتبط باتفاقية مع فرنسا بشأن الأمير ومقاومته.

ـ لأن قــوات الســلطان تحاربــه بموجــب الاتفاقيــة وهــي اتفاقيــة طنجــة عــام (1844م) الــتي نصــت علــى موافقــة الســلطان علــى مقاومــة الأمــير والقضــاء على دولته والقبض عليه وتسليمه إلى القوات الفرنسية.

ـ الســلطان عبــد الــرحمن لا يمكنــه عقــد أي اجتمــاع مــع الأمــير ســواء كــان اســتئماناً وطلبــاً للهجــرة أو وقفــاً للحــرب مــثلاً إلا بعــد الرجــوع إلى الســلطات الفرنسية، لأنه كان مكبلاً بتلك الاتفاقية[2].

3 . الرحيل:

ســار مبعــوث الأمــير عبــد القــادر يحمــل الرســالة الشــفهية فصــادف عــدداً مــن الكمــائن في طريقــه أشــهروا الســلاح في وجهــه وأرغمــوه علــى الترجــل، ومــن هــذه الكمــائن قــوة مــن المســلحين بقيــادة ابــن خيــوة مــن قبيلــة الــدوائر. وبعــد أن علــم بمهمــة المبعــوث أرســل معــه عــدداً مــن جنــوده رافقــوه حــتى معســكر لامــور يســيير، فبلّــغ المبعــوث الرســالة الشــفهية إلى الجنــرال الــذي كــان جالســاً في

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 177 .
[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 177 .

خيمته وأمامه على الأرض عدد من الخرائط فانتصب واقفاً وضرب كفاً بكف سروراً، وعلت وجهه علامات الفرح، فأخذ على الفور ورقة بيضاء من الطاولة ووضع عليها ختمه ووقعها بإمضائه ثم سلمها إلى الفارس قائلاً: فليضع الأمير طلباته ونحن على استعداد لتلبيتها، ثم أعطاه سيفه هدية للأمير دليلاً على قبولهم وقف الحرب، ثم أرسل كتاباً إلى الدوق دومال ولي العهد، ورسالة إلى الملك يقول له فيها: إني في هذه اللحظات ممتط جوادي للذهاب للاجتماع بالأمير عبد القادر، ولا يوجد عندي لحظة من الوقت لأبعث لجلالتكم نسخة من هذا الكتاب الشفهي الذي وصلني منه أو نسخة من جوابي عليه، ولكنني أستطيع القول: إنني اتفقت مع الأمير على حسب طلبه أن يذهب هو وعائلته إلى الإسكندرية أو بلاد الشام، وإني قبلت بجميع طلباته ووقعت عليها، وأنا ملزم بتنفيذها حرفياً، وأرجو أن توافقوا جلالتكم على ذلك.

وقبل أن يصل الكتاب الرسمي من الملك ركب الدوق دومال ولي العهد بارجة إلى مرفأ جامع الغزوات، وأرسل إلى الجنرال يخبره بموافقته على طلبات الأمير كلها وأمره أن يعطي الأمير مزيداً من الثقة، وأخذت الرسل تسعى بين الأمير والدوق دومال ثلاثة أيام بلياليها من دون توقف للتوقيع على جميع الطلبات بشكل رسمي. وأول هذه الشروط تتعهد فيه فرنسا بعدم التعرض للسكان والمجاهدين منهم بالشر، وبإعطائهم الأمان في أموالهم وأنفسهم ودينهم، وعدم اعتراض أو منع من يريد السفر معه من العسكريين والأنصار والأهل. وكان ثمة شرط واحد لنفسه ـ وهو الأهم ـ الاستئمان

الـــزمني ريثمـــا يصـــل إلى البلـــد الـــذي حـــدده في الاتفـــاق وهـــو عكـــا أو الإسكندرية[1].

وبعــد عــدة أيام مــن المفاوضــات تم التوقيــع مــن قبــل الجميــع علــى طلبــات الأمــير، فســار بأهلــه «مــن تنخريــت» متجهــاً إلى مرفــأ الغــزوات، وكــان ينتظــره الــدوق دومــال وليّ العهــد والجنــرال لامــور ســيير وعــدد مــن قــادة جــيش العــدو وضــباطه، وهــذا مــا لم يتوقعــه الأمــير وفــوجئ بــه، وفي أثنــاء ذلــك مــرّ بمقــام سيدي إبـراهيم المكـان الـذي هـزم فيـه القـوات الفرنسـية عـدداً مـن المـرات، وكـان اخـر انتصـار لـه علـيهم في هـذا المكـان منـذ وقـت قريـب، فـأمر بإيقـاف الموكـب وصـلىّ ركعتـين علـى أرواح الشـهداء، وكـان يرافقـه أهلـه وبعـض أعوانـه وعـدد مـن أفـراد حاشـيته المقـربين، وعنـدما وصـل موكبـه إلى المرفـأ المـذكور اسـتقبله الــدوق والجنــرال بكــل احــترام اســتقبالاً رسميــاً وتَرجّــل الأمــير عــن حصــانه الأدهـم، وقدّمـه هديـة للـدوق، ثم قـدم لـه الـدوق أيضـاً بندقيتـه وسـاعته هديـة فقبلهــا، وبعــد فــترة مــن الاســتراحة ســار الجميــع[2] إلى المرســى وقــد اصــطف النــاس يمينــاً وشمــالاً وهــم يبكــون، وكــان الفرنســيون الحاضــرون يعجبــون كيــف كــان النــاس بمــن فــيهم الجنــود الجزائريــون بالجــيش الفرنســي يبكــون ويقبّلــون برنسـه وهـو مـار إلى البارجـة. وركـب الأمـير يـوم (1847/12/24م) البارجـة التي اتجهت به إلى ميناء طولون[3]، ولسان حال الشعب ينشد باكياً:

تبكـي السـماء بمُـزنٍ رائـح غـادي ... علـى الأبطـال مـن أبنـاء بـلادي
إنْ غلبـوا فبنـوا العبّـاس قـد غُلبـوا ... وقـد خلـت قبـل حمـصٍ أرضُ بغـداد
دنا الوقـت لم تُخلـف لـه عِـدةٌ ... وكـلُّ شـيءٍ بميقـات وميعـاد
سـارت سـفينتهم والنـوح يصحـبها ... كأنهـا إبـل يحـدو بهـا حـادي

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 178 .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص156 .
[3] الجزائر في التاريخ ص 557 .

وانتشر خبر رحيل الأمير في أرجاء الوطن كالنار في الهشيم، ووقع هذا الحدث المفاجئ كالصاعقة على رؤوس السكان، فأخذت النساء بالبكاء والعويل وعمد الرجال إلى التجمعات الصامتة الحزينة والنفوس كالنار تحت الرماد، ولاحظ المحتلون تلك الظواهر ودبّ الرعب في قلوبهم، فطلب أحد الضباط من الجنرال لامور سيير منع هذه التظاهرات بالقوة فأجابه: دعهم يبكون فلقد ذهب عزّهم وعزّنا أيضاً، فلولا الحروب التي خضناها ضد هذ البطل لما رأيت هذه الأوسمة على صدري، ولما وصلت إلى هذه الرتبة العالية، جئت إلى هذه البلاد وأنا ضابط صغير فانظر إليّ الان[1].

4 . نقض فرنسا للعهد واعتقالها للأمير:

وفي الرابع والعشرين من (كانون أول سنة 1848م) رست البارجة في مرفأ طولون، وكان الكولونيل دوماس يرافق الأمير، وأعلمه بأن البارجة في حالة انتظار لبعض الوقت حتى تصل توجيهات من الدولة العثمانية، ولكن قبل أن تصل هذه التعليمات دخل الكولونيل دوماس على الأمير وأدّى له التحية العسكرية بكل احترام وتقدير، ثم أخبره أن المفاوضات لم تنته بعد، وأن عليه الانتظار بعض الوقت، فشعر أن هناك نية غدر مبيتة ولم تخنه فراسته وتأكد من الخديعة والغدر عندما أبحرت بهم البارجة، ودخل عليه دوماس وذكر أنهم قاصدون فرنسا حسب أوامر الملك الذي يعتذر له عن عدم الوفاء بشرط «الهجرة» لأنه لاقى معارضة شديدة من مصادر عليا في فرنسا. وقال له أيضاً على لسان الملك: إن فرنسا مستعدة لأن تمنحكم أراض شاسعة وقصوراً تعيشون فيها مكرمين، ويستطيع أفراد حاشيتك امتلاك مزارع يعملون فيها طيلة حياتهم إلى جانبك. فرفض الأمير قائلاً: لو

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 157 .

ملّكتموني فرنسا كلها فلن أقبلها بديلاً عن وطن عربي إسلامي أعيش فيه، ولو وضعتم فرنسا كلها في برنسي هذا وفرشتموها بالديباج لنفضته إلى الأمواج التي تضرب جدران هذه البارجة الحربية[1].

وقبل وصول البارجة الحربية إلى ميناء طولون سأله دوماس إن كان يريد زيارة باريس فلقد سبق أن زارها إبراهيم باشا خديوي مصر وكان سعيداً برؤيتها، فأجابه الأمير: إن هذا المذكور زارها سائحاً للنزهة فقط ولكنني الان لا أرى فرنسا إلا سجناً لي ولمن معي وقد أردت أن أكون ضيفاً على بارجتكم، فأصبحت أسيراً لديكم. وبعد ذلك نقل مع كل من معه إلى حصن طولون الشهير تحيط بهم حراسة شديدة مشددة[2].

كان الهدف من سجن الأمير تحطيم رمزيته الكبيرة في نفوس الشعب الجزائري، فرئيس الحكومة فيزو الذي عيّن الجنرال الأشد عناداً في حرب الأمير، كتب في مذكراته: إنه لا يمكن تحطيم رجل عظيم على رأس أمته طالما أنه لم يقتل أو يؤسر[3]. وفي أواخر شهر (نيسان 1848م) تم عزل الأمير ذات ليلة عاصفة عن إخوته وعن عدد كبير من مرافقيه، ونقلوا إلى باخرة حملتهم إلى سجن باكريت، ونقلوا الأمير إلى قلعة أمبواز دون أن يكون في صحبته رجال يُخشى منهم لأن حصن أمبواز يقع في مدينة «بو» التابعة لمقاطعة أورليان القريبة من الحدود الإسبانية، فكانت هذه السلطات تخشى أن يخرج الأمير بالقوة بمساعدة مرافقيه الأشداء ويدخلوا الحدود الإسبانية، وبمرافقة حراسة مشددة نُقل الأمير إلى تلك المدينة وفي أثناء الطريق مروا بمدينة بوردو الساحلية، فاستقبله عند مدخلها الأسقف دوبيش

[1] المصدر نفسه ص 158 .
[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 188 .
[3] المصدر نفسه .

احتراماً وتقديراً. وكان هذا الأسقف معجباً بالأمير ومن المدافعين عنه، وكان من الذين زاروا الخليفة محمد بن علال في ولايته من أجل بعض الأسرى الفرنسيين فوجد لديه من الإكرام ما لا ينسى.

وأقام الأمير في فندق المدينة بعض الوقت للاستراحة، ثم تابعوا سيرهم إلى مدينة «تور» ومنها إلى «أمبوار». وعندما وصل القطار قال له الجنرال المرافق: احمد ربَّك على وصولك بالسلامة إلى هذا المكان، إذ كنت طوال الطريق في أشد الحذر من أن يهاجمك أحد ويغتالك لأنه لا يوجد في فرنسا كلها أحد ليس له عندك ثأر.

كان حصن أمبواز لأحد ملوك فرنسا، وهو عبارة عن قلعة كبيرة عالية الأسوار، تحيط به سهول واسعة ونهر تسير فيه المراكب أحياناً. وقد أقام الأمير في هذه القلعة هو وإخوته الأعزاء لديه الذين كان يعز عليه أن يبقوا بعيدين عنه، وكان بُعدهم يُحزن والدته العظيمة التي كانت تلح عليه باستمرار لكي يسعى إلى ضم إخوته إليه في هذا الحصن الذي كان في نظرهم سجناً كبيراً، وقد أرسل الأمير عدة رسائل إلى الجنرال لامور سيير والدوق أورليون اللذين وقعا أمامه على شروط تسليم نفسه، طالباً الوفاء بالشروط وضمّ إخوته وضباطه إليه[1].

استسلم الأمير عبد القادر لقدر الله وقضائه ولكنه ندم على الوثوق بالعهود التي أعطيت له من قبل القادة الفرنسيين وقال: لو كنت أعلم أن الحال يؤدي إلى ما إليه ال، لم أكن لأترك القتال حتى ينقضي منا الأجل[2].

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 160 .
[2] حوار مع الأمير عبد القادر ص 137 .

وقام الجنرال لامور سيير بمساعي كبيرة وكذلك الأسقف دوبيش والدوق دومال، للضغط على حكومتهم قائلين إن عبد القادر ليس بالرجل الذي يهرب من قضائه فهو مؤمن ذو همة وجلد وصبر، لا يبالي بالشدائد، وهو ذو قوة وعزة نفس وصلابة في دينه وصدق اشتهر به، وهو شديد التمسك بمبادئه الوطنية وهو شخصية نادرة إذا وعد وفى وإذا تكلم صدق.

واستطاعوا التأثير في السلطات العليا فسمحت لمن يريد بزيارته، كما أمرت بلمّ شمله مع أهله وقادة جيشه السابقين[1].

وعندما كتب بيجو بطلب من لويس فيليب إلى الأمير ليطلب منه أن يقبل أن يعيش في فرنسا في مدينة تليق بمقامه في انتظار الفترة المناسبة لنقله إلى المشرق كان رد الأمير هو التالي: إن فرنسا ملزمه إزائي وإزاء نفسها، إنّ وعدكم لن أسقطه عنكم، سأموت ووعدكم عندي حتى أفضحكم وحتى تعرف الشعوب والملوك قيمة الوعد الفرنسي.

وبعد سقوط ملكية جويلية ؛ فإن الحكومة المؤقتة كانت غير قادرة على الوفاء بوعد فرنسا مثلها مثل النظام السابق لها، وعندما سأل محافظ الحكومة المؤقتة الأمير عبد القادر عن الضمانات التي يمكن أن يقدمها إلى فرنسا ليؤكد لها أنه لن يظهر أبداً في الجزائر، كان رد الأمير هو التالي: ليس لي ضمانات أخرى أعطيها حول عزمي الثابت فيما يخص المستقبل سوى تلك التي سبق لي أن قدمتها[2].

أ . شخصيات فرنسية وإنجليزية تدافع عن الأمير:

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 161 .
[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 189 .

وللحقيقة التاريخية أنه تدخل لصالح الأمير عبد القادر ودافع عنه العديد من الشخصيات الفرنسية مثل الجنرال لامور سيير والأسقف الأول للجزائر أنطوان دوبيش ودوق دومال[1]، والشيء الأكثر إثارة للدهشة في هذه القضية أن كافنياك وهو أحد الجنرالات الذين قاتلوا الأمير قد أعلن بعد تشكيل حكومة الجمهورية الثانية: لا يمكن اعتبار عبد القادر سجيناً فقد كان طريق الجنوب مفتوحاً أمامه وقد فضل هو الرجوع إلى ما يسميه هو بصدق الوعد الفرنسي[2].

وقد تأثر الرأي العام الفرنسي والدولي وعُبّر عنه بصفة خاصة في بريطانيا من طرف اللورد «لندنديري» والشاعر «شاكري» وقد اهتز لهذا الموقف اللورد البريطاني لندنديري فكتب رسالة شديدة اللهجة إلى لويس نابليون رئيس الجمهورية الفرنسية المنتخب، وألح عليه بإطلاق سراح الأمير عبد القادر لينقذ شرف بلده وعدم نبذ عهودها. ووصل بالسيد لندنديري الحد إلى التهديد بكشف المراسلات التي تثبت شروط المعاهدة بين الأمير عبد القادر وبين فرنسا التي أبرمت في ديسمبر من عام (1847م)[3].

كما أن سيادة ديبيش الذي أصبح مطران باريس قد خاطب من على أعلى منبر نوتردام حاكم بلاده قائلا: إنكم ستقتلون هذا الرجل دون أي مراعاة لوعد فرنسا[4].

لم يقبل الأمير عبد القادر على الرغم من العديد من الطلبات الجد مغرية بأن يبقى في فرنسا حيث وعدته الحكومات المتتالية بمعاملة ومعاش يليقان بمقامه

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 139 .
[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 189 .
[3] حوار مع الأمير عبد القادر ص 139 .
[4] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 190 .

القديم، وظنت فرنسا أن بقاء الأمير كرهينة سيقبل بعد الإرهاق أن يقيم فيها، وهو ما يعني في نظر زعمائها الانضمام إلى فرنسا.

ومن الواضح أن الأمير عبد القادر قد كوّن مشكلة نفسية وتأنيب ضمير وتشويه سمعة بالنسبة لفرنسا، وكان الكل يشعر نحو الأمير بالإعجاب ولذلك حرصوا على أن يبقى في فرنسا لكي يحققوا من خلف بقائه أهدافاً منها:

. تحية وإكراماً لفرنسا.

. وتنكر الأمير لماضيه[1].

إلا أن الحياة الحرة العزيزة الأبية وتعلقه بشعبه ووطنه جعله يبقى في أعين الجزائريين والعالم أجمع كرجل وهب نفسه للقيم والمبادئ الإنسانية الرفيعة، ومن أهمها حريته وحرية شعبه التي لا مساومة عليها مع المحتلين، ولذلك أصبح من الرموز اللامعة للجزائر والعرب والمسلمين والأحرار من بني الإنسان.

ب . حياته في السجن:

استطاع لامور سيير والأسقف دوبيش التأثير على السلطات الفرنسية فسمحت لمن يريد زيارة الأمير عبد القادر، فأخذت شخصيات كبيرة من جميع أقطار العالم تتوافد لزيارته والتعرف على شخصيته الفذة، فاستلم رسائل من الشيخ شامل أحد زعماء الداغستانية في الولايات الإسلامية التي وقعت سيطرة روسيا القيصرية عليها، من الذين حملوا مسؤولية الجهاد مدة طويلة منذ احتلال المناطق الإسلامية في بلاد القوقاز من سنة (1834م

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 190 .

إلى 1859م)، وعمل على تثبيت الشريعة الإسلامية في قلوب أبناء تلك البلاد ونشر الوعي الإسلامي والتمسك بالقران والسنة.

كان الأمير يستقبل الجميع بالبشر والترحيب ويقضي الساعات الطوال مع العلماء والشخصيات العالمية، ويجيب عن أسئلتهم التي تتعلق بالدين الإسلامي وبالفقه والآيات القرآنية وتفسيرها، وكان صبوراً لا يظهر الضجر، وكان كل أسبوع يعقد ندوة علمية يجتمع فيها مع الرجال والنساء، فيقرأ ملخصاً عن كتاب «الصغرى» للإمام السنوسي في معنى الفقه وعلم الكلام، و«رسالة محمد ابن أبي زيد القيرواني» في الفقه أيضاً على مذهب الإمام مالك وغيرها من الكتب المفيدة، وأخذ هو وإخوته ومصطفى ابن التهامي وابن علال يدّرسون الصغار بعد أن نظّموا لهم صفوفاً وكذلك للشباب كل حسب مقدرته، وكان الأمير الذي زلزل بقوته أكبر دولة برية في العالم مدة ثمانية عشر عاماً متواصلة يقف أمام اللوح الخشبي مدرساً في سجنه لأطفال أهله ورعيته، وثابر على تمسكه بالصبر، غير مبال بنوائب الدهر، قائماً بواجباته الدينية بخشوع، قال شرشل: إن مطران «أمبواز» كان يحثُّ المصلين في أثناء قيامه بالوعظ يوم الأحد، فيقول لهم انظروا إلى الأمير عبد القادر الأسير في منفاه كيف يقوم هو وجماعته بكل واجبات دينهم من صلاة ليلاً نهاراً. ألا تسمعون الاذان بصوت قره محمد خمس مرات كل يوم من أعلى البرج في الحصن[1].

وهكذا ظل الأمير خمس سنوات، فقد خلالها عدداً من أبنائه وأهله ودفنهم في حديقة القلعة صابراً راضياً بقضاء الله وقدره، ولم يكن في سجنه أقل

---

[1] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة ص 162 .

عظمـة ممـا كـان في أيام سـلطانه ومقاومتـه الأعـداء، وقـد أجـاب ذات ليلـة أحـد أبنائه عن حاله مرتجلاً هذه الأبيات:

تعـوّدت مـسَّ الضُّـر حـتى وأسـلمني طـولُ الـبلاء إلى

5. إطلاق سراح الأمير عبد القادر:

بعـد أن تغـير الحكـم في فرنسـا إثـر الكثـير مـن الاضـطرابات الداخليـة، عـاد لـويس فيليـب إلى الحكـم وأصـبح إمبراطـوراً باسـم نابليـون، وكـان أول عمـل قـام بـه هـو أن أرسـل كتـاباً إلى الأمـير يقـول لـه فيـه مـا معنـاه: إن سـجنك يعـذبني ويقـض مضـجعي وأشـعر بالعـار لعـدم تنفيـذ الاتفـاق، وأخـبره بأنـه يريـد زيارتـه في أول فرصة ممكنة.

وفي السـادس والعشـرين مـن تشـرين الأول سـنة (1852م) توجـه إمبراطـور فرنسـا نابليـون الثالـث إلى مدينـة «تـور» يرافقـه المارشـال سـنتارنو وزيـر الـدفاع والجنـرال روغـو، وعـدد مـن كبـار الضـباط والحـرس الإمبراطـوري واسـتقل هـذا الموكب القطار إلى مدينة أمبواز.

وبـدأ جولتـه بـزيارة الأمـير عبـد القـادر، ومـا إن وصـل إلى مـدخل الحصـن حـتى وجـد الأمـير في اسـتقباله، فسـار وإياه يـداً بيـد إلى أن وصـلا إلى مكـان الاسـتراحة المعـدّة مسـبقاً، ثم أقبلـت والـدة الأمـير المسـنة منحنيـة علـى عصـا تسـاعدها علـى نقـل خطواتهـا نحـو الإمبراطـور الـذي قـال للأمـير: أكـرر أسـفي علـى السـنين الـتي قضـيتموها مـرغمين في سـجنكم هـذا، والان يشـرفني التعـرف إلى عـدو شـريف وضـيف كـريم أقـدّر دفاعـه عـن وطنـه ورفضـه قتـال أبنـاء دينـه،

---

[1] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة ص 162 .

ثم قدّم له سيفاً منقوشاً عليه اسم نابليون الثالث وتاريخ المقابلة مرفقاً بكتاب كتب عليه:

هذا إقرار بالوفاء بشروطكم ومساعدتكم من حكومتي على السفر ومن معك إلى تركيا حسب رغبة السلطان غازي خليفة المسلمين.

ودعاه لزيارة مدينة باريس بعد عشرة أيام حيث يكون قد نظم له احتفالاً كبيراً وعرضاً عسكرياً لجميع أسلحة الجيش التي حاربها بحد سيفه وسيوف المجاهدين مدة ثمانية عشر عاماً. وغادر نابليون الثالث الحصن الذي شهد انتهاء أسر الأمير ومرافقيه عام (1269هـ) وكان ذلك القصر التاريخي مقرّاً مفضلاً لكثير من ملوك فرنسا وأولهم لويس الحادي عشر، وبعد قيام الثورة الفرنسية للقضاء على الملكية تحول إلى حصن وقلعة ثم إلى سجن للأمير عبد القادر[1].

6 . مغادرة الأمير فرنسا إلى الدولة العثمانية:

سارت قافلة المهاجرين الأبطال في هدأة الليل من حصن أمبواز في طريقها إلى مرسيليا في الثامن والعشرين من شهر صفر سنة (1269هـ/1853م).

وعند وصول القافلة إلى مشارف مدينة ليون شوهد مئات من الجند بلباسهم الرسمي، يمثلون فرقاً من الجيش بتشكيل النظام المنضم وأطلقت إحدى وعشرين طلقة تحية للمغادرين، وحصل مثل ذلك الاحتفال الرسمي للقافلة في مرسيليا أيضاً، فأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة قبل صعودهم البارجة الحربية التي أبحرت بهم نحو جزيرة صقلية، وبعد فترة من الزمن لاحت

---

[1] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة ص 164 .

الجزيرة عن بعد كزمردة خضراء لامعة تحت أشعة الشمس الصباحية الحانية وزرقة السماء الصافية، وكان حاكم المدينة قد نظم استقبالاً حافلاً لائقاً وينطوي على كل احترام وتعظيم، وبعد استراحة قصيرة تقدم من الأمير عارضاً القيام برحلة لمن يريد في أرجاء الجزيرة، وكان عدد من العربات في انتظارهم، وتجولوا في صقلية وشاهدوا الاثار الإسلامية التي تشهد على تاريخ هذه الجزيرة العربية الإسلامية، وبين أمجاد هذا التاريخ الغابر، وهدير الأمواج، كانت تغلق نفوسهم الحزينة هذه الذكريات الموجعات، وما أشبه أيامهم الحاضرة بالأمس البعيد[1]. وصعد الأمير مع حاكم صقلية إلى جبل «أتنا» وعند مغادرته ترك رسالة شكر عبّر فيها عن مشاعره بالعبارات التالية:

شاهدنا في كل مكان اثار الشعوب التي سكنت هذه الجزيرة، وهذه المشاهد دفعتنا إلى التفكير بالله وأنه في الحقيقة سيد الكون وأنه يعطي الأرض لمن يشاء، إن جبل النار هو بلا شك أحد روائع العالم، وعند تأمل السهول المزروعة والمأهولة في هذا الجبل نفكر بقول الحكيم العربي حول جلاء العرب عن صقلية: إن تفكيري فيك يا سهول صقلية من ارتفاعات «أتانا» يؤدي إلى يأسي، لو لم تكن دموعي مالحة لشكلت أنهاراً لهذه الجزيرة جزيرة المجد[2].

وقبل ركوب الأمير ومن معه أمواج البحر في الباخرة قدّم سيدي الطيب بن المختار قصيدة إلى ابن عمه الأمير عبد القادر نقتطف منها هذه الأبيات:

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 190 .

[2] فارس الجزائر ، مصطفى طلاس ص 294 ، 295 .

هــذي صــقلية لاحــت معالمهــا	تجـر تيهـاً فضـول الـريط مـن أمـم
كانـت منـار هـدى كانـت محـط ردى	كانـت شمـوس الفضـل و الكـرم
هــذي منــازلهم تبكــي مــآثرهم	بكــاء طــرف قــريح بات لم يـنـم
هــذي المســاجد قـد دكـت قواعـدها	هــذي المـآذن بالنـاقوس في سـقم
هـذه المحاريـب قـد عـاد الصـليب بهـا	هــذي منابرهـا قفـرى مـن الحكـم
إذا رأت مســلماً قــد زارهــا فرحــت	واستبشـرت ثم باسـت موضـع القـدم
انظـر لأرجائهـا تلـقَ العجائـب بهـا	قـد أعلنـت بسـرور غـير مكتـتم
كيــف لا وحســام الــدين حــلّ بهـا	فخـر الأكـابر مـن عـرب ومـن عجـم
عبـد القــادر عـز الإمـارة ورونقهـا	بحـر السـماحة كـم أسـدى مـن النّعم

وتابعـت البـاخرة طريقهـا تمخـر عبـاب البحـر ورسـت في مينـاء الإسـتانة «إسـطنبول» يـوم الجمعـة في شـهر كـانون أول عـام (1853م) وكـان أول عمـل قـام بـه الأمـير هـو زيادة ضـريح أبي أيـوب الأنصـاري رضـي الله عنـه، وأبـو أيـوب الأنصـاري كانـت وفاتـه بـبلاد الـروم قريبـاً مـن سـور القسـطنطينية أثنـاء حصـارها في عهـد معاويـة بـن أبي سـفيان رضـي الله عنـه، ولمـا مـرض قـال لمـن معـه مـن المجاهـدين: إذا مـتُّ فـاحملوني، فـإذا صـادفتم العـدو فـارموني تحـت أقـدامكم. أمـا أني سـأحدثكم بحـديث سمعتـه مـن رسـول الله ﷺ يقـول: «مـن مـات لا يشـرك بالله شـيئاً دخـل الجنـة»[1]، ودفـن أبـو أيـوب عنـد سـور القسـطنطينية وقالـت الـروم لمـن دفنـه: يا معشـر العـرب قـد كـان لكـم الليلـة شـأن. قـالوا: مـات رجـل مـن أكـابر أصـحاب نبينـا، والله لـئن نُـبش لا ضُـرب بنـاقوس في بـلاد العـرب، وبعـد مجـيء الدولـة العثمانيـة وفـتح القسـطنطينية

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي (412/2) اسناده قوي .

أصبحت مكانة أبي أيوب الأنصاري عظيمة في الثقافة العثمانية، فقد درج السلاطين العثمانيون يوم يتربعون على الملك ؛ أن يقيموا حفلاً دينياً في مسجد أبي أيوب، حيث يتقلدون سيفاً للرمز إلى السلطة التي أفضت إليهم. وكان لأبي أيوب رضي الله عنه عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولي الله الذي تهوي إليه القلوب المؤمنة، وينظرون إليه كونه مضيف رسول الله فقد أكرمه وأعانه وقت العسرة كما أن له مكانة مرموقة بين المجاهدين،

واعتبروا ضيافته لرسول الله وجهاده في سبيل الله أعظم مناقبه وأظهر مآثره.

وقد ترك أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه في وصيته بأن يدفن في أقصى نقطة من أرض العدو صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو في نعشه على أعناقهم، كأنما أراد أن يتوغل في أرض العدو حياً وميتاً، ولم يكفه ما خفق في حياته فتمنى مزيداً عليه بعد مماته وهذا ما لا غاية بعده في مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق.

وقد مدحه شعراء الأتراك في أشعارهم، وهذا شيخ الإسلام أسعد أفندي يشير إشارة لامحة إلى موقعه بقوله:

شهد المشاهد جاهداً ومجاهداً ... ومكابداً بحروبه ما كابدا

حتى أتى بصلابة ومهابة ... في اخر الغزوات هذا المشهدا

قد مات مبطوناً غريباً غازياً ... فغدا شهيداً قبل أن يستشهدا[1]

وكان من الطبيعي أن يبدأ أول زياراته في إسطنبول من ضريح أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي كان ملهماً بسيرته لكثير من الأبطال والمجاهدين عبر العصور والدهور. وبعد زيارة الأمير عبد القادر ضريح أبي

[1] الدولة الأموية للصلابي (352/1) .

أيـوب الأنصـاري زار جـامع أيا صـوفيا، وبعـد اسـتراحة عـدة أيام في سـراي حكوميـة خصصـت لهـم قـام بـزيارة السـلطان عبـد المجيـد خـان الـذي رحـب بـه بحـرارة بالغـة وأثـنى علـى جهـاده العظـيم ضـد المسـتعمرين، وعـرض عليـه عـدداً مـن المـدن ليختـار إحـداها لإقامتـه الدائمـة، فاختـار مدينـة بورصـة لمـا سمعـه عـن جمالها وجمال الطبيعة فيها وعذوبة مياهها ومناخها اللطيف.

وكـان خليـل باشـا صـهر السـلطان ووالي بورصـة في اسـتقبال موكـب الأمـير ومـن معـه مـن المهـاجرين عنـد مـدخل المدينـة ومعـه أعيـان البلـد ورجالاتهـا المرمـوقين علـى مشـارفها، وسـار الموكـب علـى طريـق تـرابي بـين أشـجار السـنديان والبلـوط وأشـجار التـوت، في اتجـاه الأمكنـة الـتي أعـدت لهـم بالأمـر السـلطاني في بورصـة أجمـل تلـك المنـاطق وبعـد أن اسـتقر بهـم المقـام انضـم إلـيهم الحـاج عبـد القـادر بوكيخيــة والعلامــة الحــاج محمــد الخــروبي القليعــي، وكــان كاتبــاً لــدى الأمــير وخليفــة علــى إيالــة صــطيف، والعــالم قــدور بــن رويلــة وغــيرهم، وجميــع هــؤلاء كــانوا أســرى أطلــق ســراحهم المســتعمرون الفرنســيون بعــد وصــول الأمــير إلى بورصــة، فوجــدوا لديــه المــلاذ والحمــى والصــدر الرحــب، ومــن أجلهــم اشــترى الأمــير مزرعــة واســعة تســمى «جليــك» في ضــواحي المدينــة وأمــر ببنــاء دور لسكناهم وأشرف على بنائها الجميل مهندسون من دار الخلافة[1].

وكـان الجميـع يـداومون علـى حسـن مجالسـة الأمـير، وكـان يصـلي بهـم الصـلوات الخمـس في الجـامع المعـروف بجـامع العـرب. وقـد شـرح لهـم في هـذا الجـامع كتـب الكــودي والسنوســية وصــحيح البخــاري والمــذاهب الأربعــة، وكــان يكثــر مــن الصــدقات ويكــرم المحتــاجين، وأخــذ العلمــاء وأصــحاب الحاجــة يقصــدونه مــن كافـة بـلاد العـالم الإسـلامي، نـذكر مـنهم الشـيخ يوسـف بـدر الـدين المغـربي

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص192 .

العلامة الشهير الذي كان يشكو من محنة دهماء لم يجد لها حلاً، وبينما كان في غمرة اليأس البؤس طاف به خاطر ألهمه صبراً وأحيا في نفسه أملاً.

ومحنته كانت في غفلة من الزمن، وقتما استولى أحد الأجانب المقيمين في دمشق . وكان يدعى «يانكو» ـ على دار تابعة لمدرسة الحديث الأشرفية، وتطاول إلى الزاوية الغربية من المسجد وضمها إليه، ولم يكتف بذلك الاعتداء بل عمد إلى إنشاء معمل ومستودع للخمور فيها، فثار المسلمون وعلى رأسهم العلامة الشيخ يوسف الذي قدم شكوى إلى الوالي العثماني، فأُهملت الشكوى على الرغم من الملاحقة المضنية، فاضطر إلى السفر إلى دار الخلافة في إسطنبول مستغيثاً، لكنه لم يجد أذناً صاغية، وبعد أن بذل جهوداً مضنية والكثير من المال حصل على «فرمان» من الباب العالي.

ولكن في دمشق أهمل الوالي الأمر السلطاني، فشعر هذا العالم الجليل بالإحباط والظلم فقرر الهجرة إلى المدينة المنورة، وفجأة لاحت له بارقة أمل: لماذا لا يقوم بمقابلة الأمير عبد القادر أولاً؟

وشد الرحال إلى بورصة وكان سعيداً بالاجتماع بالأمير، فشكا له أمر تلك الدار التي كانت مقصد رجال الدين والعلماء وأئمة المسلمين ومنهم الإمام النووي الذي سميت باسمه، وحدثه عن تاريخ هذه البقعة المقدسة التي شرفتها قدم المرسلين صلى الله عليهم وسلم، فجاشت نفس الأمير بمشاعر النخوة والحمية، وأرسل فوراً يطلب هذا الرومي، ولما حضر فاوضه على بيع المكان المذكور بأكمله، ودفع له الثمن نقداً كما طلب، وانتهت المشكلة وجعل هذا العقار وقفاً شرعياً باسم العلامة يوسف بدر الدين ومن بعده لذريته بحجة شرعية بتاريخ الثاني من جمادى الأولى عام (1272هـ). ثم أمر بترميم الدار والمسجد على نفقته. وعندما فرغ من إصلاحهما كتب إلى

الشيخ يوسف رسالة يرجوه فيها أن يأتي ليسكن هذه الدار، فسكنها وتسلم المدرسة في أول يوم من شهر (رجب 1274هـ)[1].

ثامناً: الأمير عبد القادر في دمشق:

ولما كثرت الزلازل في مدينة بورصة وضواحيها وشكلت أذى للسكان والمهاجرين، اضطر السلطان إلى السماح للأمير بالإقامة في دمشق الشام، فصدرت الأوامر إلى محمود نديم باشا والي دمشق بالاستعداد لاستقبال الأمير وإعداد السكن اللائق به. وعند وصول الأمير إلى ميناء بيروت وجد الأمير ومن معه جموعاً من السكان اللبنانيين في استقبالهم والترحيب بهم وإكرامهم، وفي اليوم الثاني سار موكب العربات تجره الخيول المطهمة نحو دمشق الفيحاء، وكان استقبالاً رسمياً دمشقياً أُعدّ على مشارف المدينة، وسار الموكب تتقدمه فرق من الخيالة والمشاة بملابسهم الرسمية وأوسمتهم، ودخل موكب الأمير دمشق وأخذ الناس يهتفون بحياة الأمير وبحياة أصحابه الأبطال واختلطت هتافاتهم الحماسية بزغاريد النساء، وكان الأطفال بملابس العيد يصفقون فرحين وكأن كل واحد منهم يستقبل أباه الذي عاد للتوّ من الأسر ليجمل مستقبل أيامه البريئة، وأخذوا يهتفون لحامي العروبة والإسلام البطل الذي حارب أكبر إمبراطورية برية استعمارية، وكان لهذا الاستقبال الكبير الأثر العميق في نفس الأمير الذي شعر بما يعانيه هذا الشعب وما ينتظره من مؤامرة تُدبّر له في ليل من جانب المستعمرين.

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 193 .

دخـل الأمـير عبـد القـادر دمشـق عـام (1855م) وبلـغ احتفـال السـكان بقدومـه حـدّ الروعـة، فقـد خـرج لاسـتقباله جميـع السـكان حـتى النسـاء والأطفال إلى مشارف المدينة وقد لبسوا ملابس الأعياد[1].

1 . العبادة والحلقات العلمية وكتبه وفكره:

وكـان مـدة إقامتـه في دمشـق متفرغـاً للصـلاة والـذكر والتأمـل والعلـم والتـدريس في الجـامع الأمـوي أو في دار الحـديث النـووي، وكـان دؤوباً علـى عمـل الخـير والصلاح مواظباً على المطالعة والتأمل.

وكانـت أمـاكن نـدوات ومحاضـرات وحلقـات الأمـير عبـد القـادر تتغـير مـن حـين إلى اخــر حســب الظــروف المتاحــة، فكانــت أحيــاناً في مدرســة الأشــرفية الشــهيرة الان بــدار الحــديث النــووي، أو في المدرســة الجقمقيــة، وأحيــاناً في الجـامع الأمـوي، لكـن كـان في أكثـر الأحيـان يـدرس ويحاضـر في منزلـه الـذي غـدا في دمشـق مـأوى لعبّـاد الـرحمن الـذين تتجـافى جنـوبهم عـن المضـاجع ولا يشـغلهم شـاغل عـن نهـل العلـوم وذكـر رب العـالمين. وأصـبح هـو مركـز اهتمـام العلمـاء والمثقفـين وقبلـة الفقهـاء وكـل مـن يريـد معرفـة فتـوى أو رأي في قضـية فقهية[2].

وفي السـنين الأخـيرة مـن حياتـه كـان إذا حـل شـهر رمضـان المبـارك يـذهب إلى مزرعتـه في أشـرفية صـحنايا، بعيـداً عـن ضوضـاء المدينـة وزوارهـا، ويمضـي أواخـر الشــهر معتكفـاً في غرفـة صـغيرة منعـزلاً عــن النـاس، لا يـدخل عليـه سـوى

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 194 إلى 197 .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 167 .

الخادم الذي يقوم بخدمته، قائماً بالليل يرتل القران ويصلي. ولم يكن طعامه سوى الحليب والتمر والزبيب[1].

وانفتح الأمير على ثقافات بلاد الشام والمشرق المتنوعة التي كانت بإشراف مجموعة من المفكرين والمصلحين وجملة من المثقفين من خريجي مدارس الإرساليات المسيحية التعليمية من أمثال ناصيف اليازجي الذي توفي عام (1871م) صاحب كتاب مجمع البحرين الذي حاكى فيه مقامات الحريري، وبطرس البستاني الذي توفي عام (1883م) الذي ارتبط اسمه بدائرة المعارف التي عمل على إخراجها وأتمها بعده أولاده، كما تأثر بحركة الطباعة ونشر الكتب وتأسيس الصحف ودورها في نشر الثقافة الحديثة والوعي السياسي والاجتماعي، وكان في طليعة النشرات التي أثرت الحياة الثقافية جريدة الأحوال التي صدرت بدمشق عام (1855م) وجريدة الأخبار الصادرة ببيروت عام (1857م)، كما تأثر الأمير بإنتاج المؤرخين والكتاب خريجي بعثات محمد علي إلى أوروبا من الترجمات والمؤلفات العلمية والتاريخية مثل العلامة علي مبارك، والشيخ رفاعة الطهطاوي صاحب الكتاب المشهور تخليص الإبريز في تلخيص باريز، وإبراهيم الدسوقي وعبد الله أبو السعود وصالح مجدي وغيرهم[2].

أ . مؤلفاته وكتبه:

بدأ الأمير الكتابة والتأليف منذ ريعان شبابه فضلاً عن نظم الأشعار والقصائد في مواضيع شتى منذ سن مبكرة حتى اخر أيامه، فقد شرح قبل أن يستلم الإمارة حاشية في علم الكلام كتبها جده الذي عاش في نهاية

---
[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 145 .
[2] حوار مع الأمير عبد القادر ص 146 .

القرن السادس عشر عبد القادر بن أحمد المدعو ابن خده، وبعدها بحسب الظروف والمواقف كانت له تأليف وكتب:

ـ رسالة بعنوان «حسام الدين لقطع شبه المرتدين»، كتبها في بداية عهده بالإمارة أي عام (1833م) وذلك بالرد القاطع من القران والسنة النبوية على بعض أشباه الشيوخ الذين استمالهم واستأجرهم الاحتلال ليروجوا بين الناس جواز النزول تحت حكم الفرنسيين وعدم جواز الانضمام إلى دولة الأمير المجاهدة.

ـ كتاب «وشاح الكتائب وزي الجندي المحمدي الغالب». ألفه بعد معاهدة التافنة عام (1837م) وهو كتاب يشتمل على الأحكام والأزياء والقوانين الخاصة بالجيش المحمدي الفتي، خطه بيده المجاهد قدور بن رويلة تحت إشراف الأمير وأضاف إليه بعض الملاحظات.

ـ مجموعة من المراسلات الفقهية بينه وبين علماء عصره وأجوبة كثيرة عن أسئلة لحل مشكلها وإيضاح ما استغلق منها، وكذلك مجموعة من المراسلات بينه وبين بعض الشخصيات المدنية والعسكرية وأجوبة كثيرة عن أسئلتهم واهتماماتهم في ميادين شتى[1].

ب . كتاب «المقراض الحاد»:

كتاب «المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد»، ألفه عندما كان سجيناً في قلعة أمبواز بفرنسا في أواخر عام (1852م) والسبب في ذلك أنه بلغ الأميرَ أن بعض الحكام والضباط الأمراء الأوروبيين انتقص من دين الإسلام واعتبر أن الخديعة والغدر من سمات الإسلام

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص173 .

نفسـه، فوضـع الأمـير ذلـك الكتـاب مـن حفظـه دون مراجـع مكتوبـة للـرد عليهم بالـدليل الكـافي والـوافي مـن القـران والسـنة الصـحيحة وبـين لهـم خطـأ اعتقـادهم، ووضـح في الكتـاب مسـائل وأحكـام مهمـة وظهـرت فيـه روح الدعوة وحرصه على هداية الناس.

لقـد أكـد العقـلاء في هـذا العـالم أن الإسـلام حمـل إلى الإنسـانية حضـارة عادلـة ورحيمـة تكمـن في سـعادة هـذا المخلـوق في دار الـدنيا والاخـرة، وتقضـي علـى الشـرور في المجتمعـات، وفي أعمـاق الـنفس البشـرية، وقـد اشـتمل كتـاب الأمـير عبـد القـادر «المقـراض الحـاد» علـى المواضـيع الرئيسـة في الفقـه الإسـلامي والأخلاقيـات الإسـلامية والتربيـة مـن وفـاء وإخـاء ورحمـة وعـدل، وبـيّن مكانـة الفـرد في الإسـلام في هـذا الدسـتور الإلهـي الـذي جعلـه الله اللبنـة الأسـاس في كيـان الأمـة والمجتمـع، وهـذا الفـرد الـذي جعلـه الله في المـنهج الإسـلامي مكلفـاً ومميـزاً، قـال تعـالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾[الأنعام:165].

ـ وقـال تعـالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[الزخرف:32].

ففـي المجتمـع الإسـلامي لا يوجـد صـراع طبقـات وإنمـا إخـوة وتعـاون وتكافـل اجتمـاعي ومسـاواة وعـدل ورحمـة، فهـذه الرسـالة الـتي وجههـا الأمـير مـن سـجنه عـام (1852م) للقساوسـة في فرنسـا والمفكـرين أراد تضـمينها كـل هـذه الأسـس في الدسـتور الإلهـي القـرآني. وأعتقـد أنـه نجـح في جعلهـم يقرؤونهـا ويترجمونهـا، ولم يحتجـوا علـى عنوانهـا الجـريء «المقـراض الحـاد لقطـع لسـان منـتقص ديـن الإسـلام بالباطـل والإلحـاد» وقبـولهم لهـا وترجمتهـا ووضـع اسمـه بـين علمـاء العـالم دليـل علـى نجاحـه فيمـا قـدّم، ولابـد لكـل مـن قـرأ هـذه الرسـالة

«المقـراض الحـاد» مـن ملاحظـة أن هـدف الأمـير لم يكـن استعراضـاً لمعلوماتـه وإنمـا الهـدف كـان الـدعوة الإسـلامية الـتي هـي واجـب علـى كـل مسـلم، وأيضـاً تعريـف هـؤلاء المسـتعمرين لـبلاده بدولتـه الـتي أرسـاها علـى هـدي القـران في الجزائـر، أراد أن يقـول لهـم في هـذه الرسـالة أن الشـعب الجزائـري يملـك حضـارة ربانيـة عريقـة لا تقـارن بحضـارتهم الوضـعية الـتي يريـدون فرضـها بالقـوة علـى شـعبه بحجـة إنقـاذهم مـن التخلـف والتـوحش، وقـال لهـم في مقدمـة رسـالته: إنـني لا أصـلح أن أكـون تلميـذاً للعلمـاء في بـلادي، وهـذا الكتـاب موجـه إلى جماعـات لا تـؤمن بالإسـلام ولا بسـيدنا محمـد ﷺ، وكـان لابـد مـن مخـاطبتهم بأسـلوب العقـل والمنطـق الإنسـاني للوصـول إلى غايتـه وهـي نشـر الـدعوة الإسـلامية الـتي نزلـت إلى النـاس أجمعـين، ولقـد جسـد هـذه الـدعوة بأعمالـه الملحميـة قـبلاً وفي سـجنه أيضـاً، وكانـت عنـده سـلوكاً، لقـد كـان كتابـه في السـجن يـدل علـى مسـتودعاته الفكريـة والمعرفيـة وعـن كينونتـه ثم هدفـه كمـا قـال الله تعـالى: ﴿أَلَمْ تَـرَ كَيْـفَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَـثَلاً كَلِمَـةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ أَصْـلُهَا ثَابِـتٌ وَفَرْعُهَـا فِي السَّـمَاءِ *تُـؤْتِي أُكُلَهَـا كُـلَّ حِـينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَـا وَيَضْـرِبُ اللَّهُ الأَمْثَـالَ لِلنَّـاسِ لَعَلَّهُـمْ يَتَـذَكَّرُونَ *وَمَثَـلُ كَلِمَـةٍ خَبِيثَـةٍ كَشَـجَرَةٍ خَبِيثَـةٍ اجْتُثَّـتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾[إبراهيم:24 . 26]. صدق الله العظيم.

والكلمـة الطيبـة هـي التوحيـد والإيمـان بإلـه واحـد لا شـريك لـه، ولكـي يصـل إلى عقـولهم تنـاول الأمـير في المقـدمات علومـاً مختلفـة، فـتكلم في الفصـل الأول مـن رسـالته «المقـراض الحـاد لقطـع لسـان منـتقص ديـن الإسـلام بالباطـل والإلحـاد» عـن العلـم والجهـل، ثم عـن فضـل العلـم والعلمـاء، ثم تكلـم عـن العقـل ليخاطـب عقـولهم وقيمـة هـذا العقـل والحـدود الـتي وضـعها الله سـبحانه وتعـالى لهـذا العقـل، وتكلـم عـن الحـواس والإدراك، ثم تكلـم في الفصـل الثـاني عـن العلـوم الشـرعية وحاجـة الإنسـان إلى الرسـل والأنبيـاء الـذين اختـارهم الله مـن

بين عباده لإرشاد هؤلاء العباد إلى الطريق السوي وسبيل الخير، وتكلم عن إثبات الألوهية والنبوة بأسلوب علمي مبسط وبالأدلة الصادقة على الطريق السليم لمعرفة الله ومعرفة الرسول إن كان صادقاً أو مدعياً. وفي نهاية الرسالة كتب في تاريخ الأمم والوفاء عند العرب، وعن علم الاجتماع، وفضل التصنيف وتدوين المعارف، وعن آيات الله في الأرض وفي السماء، وأشار أيضاً إلى تحريم السحر في الإسلام[1].

وتحدث عن رسالة الأنبياء، وعن رسالة النبي ﷺ وعلاماتها وأدلتها، وتحدث عن القران الكريم فقال: إن الله أرسل محمداً ﷺ، وإن جملة معارف العرب وعلومها أربعة: البلاغة والشعر، والخبر والكهانة، فأنزل الله عليه القران الخارق لهذه الأربعة من الفصاحة والإيجاز والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم، ومن الإخبار عن الكوائن والحوادث والأسرار والمخبآت، فتوجد على ما ذكر ويعترف المخبَر عنها بصحة ذلك المخبِر وصدقه، وإن كان من الأعداء. ومن الأخبار عن القرون السالفة وأنباء الأنبياء والأمم البائدة والحوادث الماضية ما يعجز من تفرغ لهذا العلم عن بعضه إلى أن قال: .. ومعجزة القران باقية ثابتة إلى يوم القيامة، بينة الحجة لكل أمة، لا تخفى وجوه ذلك على من نظر فيها وتأمل، وسائر معجزات الأنبياء انقرضت بانقراضهم وعدمت. ومعجزة القران لا تبيد ولا تنقطع ولا يقدر أحد على تغييرها أو تبديلها ولو بلغ الغاية في العداوة والمعاندة والجهل[2]، وقال: وحاصل أن لنا على نبوة محمد عليه السلام دلالة ؛ أنه عليه الصلاة والسلام صادق وأمين وأظهر المعجزة وهو خاتم الأنبياء[3].

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 157 .
[2] المصدر نفسه ص 114 .
[3] المصدر نفسه ص 116 .

وقال: ونزلت الرسالات السماوية كما يشيّد بناء الدار بالتدريج، فأصول النبوة كانت بآدم وأصل الرسالة بنوح ولم يزل ينمو حتى وصل إلى سيدنا موسى عليه السلام ثم إلى عيسى إلى أن كمل بناء الدار بالجمع بين العلم والعمل بمحمد ﷺ، وهذا كان سر ختم النبيين، والزيادة على الكمال نقصان، وأكمل شكل الالة الباطشة كفٌّ عليه خمس أصابع، فكما كفٌّ بأصابع أربعة ناقص، كذلك كفٌّ ذو ستة أصابع ناقص، لأن السادسة زيادة عن الكفاية، فهي نقصان في الحقيقة وإن كانت زيادة في الصورة، ودعوة محمد ﷺ إلى التوحيد والتنزيه وصلت إلى أكثر بلاد المعمورة في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك ما لم يملكه أحد من الأمم السابقة[1].

كان الأمير عبد القادر ملتزماً في أفكاره واعتقاده بالكتاب والسنة وكان كثيراً ما يردد:

عليك بشرع الله فالزم حدوده فحيثما سار سر وإن وقف

ففكر الأمير ومعتقده واضح المعالم، صادق وصريح، نابع من جذور ثقافته وتربيته وتعليمه وإيمانه. والتصوف الذي وصفوه به كان أعمالاً وصلاحاً وتقى وتمسكاً بالقران والسنة وزهداً في الحطام الزائل، وكان متمسكاً بالعبادات وأوامر الشرع إلى أن حان أجله. وهذه حقيقة دراسة وافية وعميقة ومتجردة في حياة الأمير وتراثه.

ج ـ كتاب «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل»:

هذا الكتاب من كتب الأمير عبد القادر قسمه إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، وأدرج تحت كل عنوان مجموعة من العناوين التي تخدم الفكرة الرئيسة للموضوع، فقد أكد أن مقياس التفاضل بين الناس يكمن أساساً في العقل

---

[1] المصدر نفسه ص 117 .

والعلم، وهما الوسيلتان الوحيدتان لإدراك الحق، ولذلك وجب على العقل أن ينظر في القول إلى قائله، فإن كان القول حقاً قبله سواء كان قائله معروفاً بالحق أو الباطل ؛ لأن الحكمة ضالة العاقل، وإن معرفة الرجال تكون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال، ولابد من نبذ التقليد، وإطلاق حرية الفكر والعقل للتطور والتأمل والاعتبار لمعرفة الحق بالدليل.

وفي ذلك يتمايز الناس مراتب، فمنهم عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره، وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد، ودعا الناس إلى معرفة الحق بالدليل لا بأن يقلدون. ومنهم عالم مهلك لنفسه ومهلك لغيره، وهو الذي قلد اباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده، والأعمى لا يصلح أن يقود العميان، ورغم ذلك فإن هدى العقل لا يمكنه أبداً إدراك الأشياء على حقيقتها إذا حجب الله سبحانه وتعالى عنه أنوار الهداية والتوفيق، ويغدو كالعين الباصرة لا يمكنها إدراك الأشياء إلا عند طلوع النيران كالشمس ونحوها، فكذلك العقل لا يقدر على إدراك الحقائق دون خطأ إلا إذا طلعت عليه أنوار التوفيق والهداية من الله تعالى.

والعلم علمان علم محمود واخر مذموم، فأما المحمود فهو العلم الذي ترتبط به مصالح الدين والدنيا كالطب والحساب، وكل علم لا يستغنى عنه في قوام أمر الدين والدنيا كأصول الصنائع والفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة، أما العلم المذموم فيؤدي حتماً إلى ضرر إما بصاحبه أو بغيره كتعليم السحر والطلمسات، فالعلم هو في حقيقة الأمر الغاية من خلق الإنسان نفسه، والعبادة الصحيحة لا تتأتى عن جهل، لذلك فإن شرف الإنسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم وبه كماله، والعلماء هم ورثة الأنبياء، وقد حذرت من أشباه العلماء الذين يتعاطون العلم وهم ليسوا من أهله فيكون شرهم وبلاؤهم أكبر من نفعهم لأنهم يبتغون وراء ذلك عرضاً

دنيوياً زائلاً ولو على حساب الدين والأخلاق، كالوعاظ الذين يصعدون المنبر إذا لم يكن وراء كلامهم علم نافع وليس مرادهم إلا اكتساب الدينار والدراهم. لكن العقل وإن بلغ من الشرف والاطلاع على حقائق الأشياء ما بلغ فثمَ علوم لا يصل إليها ولا يهتدي إلى الاطلاع عليها إلا بتصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد إليهم، بمعنى أن علوم الأنبياء زائدة على علوم العقل، فوراء العقل طور اخر وأمور أخرى العقل معزول عنها لا يصل إليها بنفسه بل بغيره، لذلك وجب الإيمان والتصديق بما جاء به هؤلاء الرسل من أحكام وشرائع وعلوم قد لا تدركها العقول والحواس عن طريق العلم العقلي، فالعلوم التي تحل في العقل قسمان، عقلية وشرعية، أما العقلية فنعني بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد وسماع، وأما العلوم الشرعية فهي المأخوذة عن الأنبياء وذلك يحصل بالتعلم لكتب الله المنزلة مثل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وفهم معانيها بعد السماع، وبها يكمل العقل ويسلم من الأمراض[1].

وهذا لا يعني أن العلم العقلي يخالف أو يناقض العلم الشرعي، بل العكس صحيح لأن جميع أقوال الأنبياء لا تخالف العقول، ولكن فيها ما لا يهتدي العقل إليه أولاً، فإذا هُدي إليه عرفه وأذعن له فكان لزاماً التدين والإيمان والإقرار بنبوة هؤلاء الرسل قولاً وعملاً، وأما المكذب للأشياء بعقله مما جاء به الرسل والأنبياء من الأعمال والعبادات فيؤدي إلى الغرور المؤدي بصاحبه إلى الاستكبار والتعصب وهما سبيل الكفر والعناد، وجملة القول إن الدين عند الله الإسلام، فالدين واحد باتفاق الأنبياء، إنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية، وإذاً فلابد إلى التسامح والأخوة والتواضع ونبذ الكراهية بين جميع المنتسبين للأديان، ولابد للإنسان من الابتكار والاجتهاد وعدم

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 179 .

الاقتصار على ما خلفه السابقون من التصانيف والتآليف والنظر إليه على أنه الكمال والمثال والنموذج لأن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، كما أن تصرفات العقول لا حد لها، ولا يستبعد أن يدخر الله لبعض المتأخرين ما لم يعطه لكثير من المتقدمين، فالعلم بحر لُجّي مترامي الأطراف لا تدركه الأبصار ولا تحوطه العقول، يغرف منه المتقدم والمتأخر ولا ينفذ، لذلك فالخطأ أن يقف المرء عند حدود ما خلفه السلف والادعاء بأنه منتهى الغاية والكمال. فقول القائل ما ترك الأول للآخر شيئاً ؛ خطأ، والقول الصحيح كم ترك الأول للآخر شيئاً.

أما بالنسبة للتصنيف والتأليف والكتابة فنجاح الأمر يكمن في إتمام الغرض الذي وضع الكتاب من أجله من غير زيادة ولا نقص، وعدم استخدام اللفظ الغريب إلا في الرموز والألغاز، وينبغي أن يكون التصنيف مسوقاً على حساب إدراك أهل الزمن وعلى قدر ما تصل إليه عقولهم، فالعلم تراث إنساني حق للجميع الكلّ فيه شركاء، فالمآثر العلمية والعقلية ثمرة جهد إنساني عامّ، جيل يمضي واخر يأتي ليضع لبنة في بناء هذا الصرح المعرفي الواسع لتكتمل حلقته ودورته بهذه الأمة[1].

د . كتاب «المواقف» وبطلان نسبته للأمير:

ينسب للأمير عبد القادر بعد وفاته بثمانية وعشرين عاماً، حيث طبع في مصر على نفقة السيدة نبيهة خانم زوجة محمود باشا الأرناؤوطي من دون أي دليل على أن للأمير صلة به ؛ سوى الألف واللام التي وضعت على عنوانه «الأمير عبد القادر». فالكتابة كانت بقلم فراج بخيت السيد، والتاريخ كان (1328هـ) والأمير كانت وفاته (1300هـ) ولم يذكر السيد

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 180 .

فراج أنه نقل ما خطته يداه عن مخطوط للأمير، أو أنه كان يحضر ندواته الفقهية فنقل عنه هذا الموقف أو ذلك أو أنه استند إلى أوراق وصلته من ورثته مثلاً، والأدلة على نسبة بطلان الكتاب للأمير كثيرة، منها:

ـ الدليل التاريخي وهو الزمن الممتد بين وفاة الأمير عام (1300هـ) وطباعة الكتاب (1328هـ)، وكتاب خطير من هذا النوع لابد لمؤلفه من طباعته في حياته والتأكد من عدم تحريفه بزيادة أو نقصان أو تشويه.

ـ الدليل المنطقي العقلاني العلمي: وهنا لابد لنا من الرجوع إلى علم القياس، فأمامنا كتاب «المقراض الحاد» الذي كتبه الأمير في أمبواز وقدمه إلى القساوسة، فهذا الكتاب أو الرسالة معروف تاريخ كتابتها ومكانها ومناسبتها، وعلى ذلك شهود من أهله وخاصته وبدأها بقوله: حينما طلب مني شرح معتقداتي الإسلامية أجبت بأنني لا أصلح تلميذاً لعلماء المسلمين، ولكن سأبذل جهدي. وهذا يعني أن الأمير هو صاحب الرسالة ومؤلفها، أما في كتاب المواقف فأول صفحة تبدأ . قال سيدنا وملاذنا ..إلخ أي يقال عنه، وهذه ملاحظة تستحق وقفة وتفكير وسؤال أيضاً لمن قال؟ ومتى؟ وأين؟ وهل هذه الأفكار التي كونت كتاباً من ألف صفحة هل جمعت من أوراق تخص الأمير أم اختزلت أثناء ندواته الفقهية، وخضعت بعد سنوات من وفاته للتنقيح والتحرير بواسطة خطاطين مأجورين ومن فعل ذلك؟

التساؤلات كثيرة والشكوك كبيرة والجواب العقلاني والعلمي يقول: إن كل ما يناقض فكر الأمير في كتابه «المقراض الحاد» جاء في المواقف، فهو تشويش مدسوس، مثال على ذلك ما جاء في الأسطر الأولى من المواقف (180) لأنه يناقض ما كتبه الأمير في الباب الأول من «المقراض الحاد» بعنوان

الطريق إلى معرفة الله ثم خلق الإنسان تناقض صارخ. ومثال اخر ما جاء في صفحة (464) من كتاب المواقف في تفسير أين المفر في سورة القيامة، يذكر في المواقف أن العارف يقول أين المفر، وهذا خطأ يستحيل أن يرتكبه عالم كالأمير عبد القادر حتى ولا أيّ إنسان عادي. فالآية واضحة وضوح الشمس وتعني الكافر يوم القيامة وليس العارف قطعاً، فالإنسان العارف لا يقول يومها أين المفر، وإنما الكافر بها. والحديث جاء في السطر الأخير من الصفحة وهو المهم «زدني فيك حيرة» عن الرسول ﷺ، ربما هو من الأحاديث الموضوعة والله أعلم. ولكن الأمير العالم والمتخصص بصحيح البخاري وقد ختمه وهو يحاصر عين ماضي عام (1837م) كان يدرسه في سجن أمبواز وأعطى فيه إجازات لعدد من أعيانها.

ـ **الدليل الفكري**: المعروف عن البخاري شدة حرصه على سلامة الحديث وسنده وصحته، فكيف يخطئ الأمير الذي كان يدرس صحيح البخاري إلى أن أقعده المرض وانتقل إلى دار الاخرة، وكان يعلم بقول الرسول ﷺ : من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار. فهل يوجد فقيه عالم لا يعلم معنى هذا التحذير؟ وهذا البيت التالي معروف عن الأمير:

عليك بشرع الله فالزم حدوده ... فحيثما سار سر وإن وقف

وليس كل ما جاء في المواقف هو خارج عن فكر الأمير. وعلى الأرجح، والله أعلم، أن مجموعة من أوراق هذا المجاهد العالم كان قد كتبها للرد عليها في ندوته الفقهية أو للاستئناس بها أثناء ذلك، أو ربما كتبها غيره ووجد فيها مغالطات وأراد الرد عليها، فجُمعت بطريقة ما ووصلت إلى محمود باشا، وكان يحمل معتقدات خاصة يريد نشرها، ووجد بشخصية الأمير ضالته،

وكانـت تلـك الأوراق مرتعـاً خصبـاً لـذلك حـتى جـاء بهـذا الشـكل المشـوش المتناقض الذي اختلط فيه الأبيض بالأسود.

ـ الـدليل التـوثيقي العلمـي الـذي قدمـه خـبراء الخطـوط كالأسـتاذ هشـام الغـراوي الخبـير الـدولي المعتمـد في القصـر العـدلي بدمشـق، ثم اللـواء عبـد المـنعم ياسـين المعتمـد في دوائـر الأمـن العـام بدمشـق، وأحمـد الأنبـاري المعتمـد مـن الجامعـة السـورية، جمـيعهم أثبتـوا أن جميـع الرسـائل الـتي قـدمت في كتـب كثـيرة العـدد علـى أنهـا بخـط الأمـير، منهـا إلى الجمعيـة الماسـونية، ومنهـا إلى مسـؤولين فرنسيين مزورة، وليست بخط الأمير ولا بأسلوبه المعروف[1].

ـ **الـدليل العـائلي**، وهـو القـرب مـن النبـع. فـأول عمـل يقـوم بـه المحقـق النـاجح هـو الاتصـال بأقـرب النـاس مـن الهـدف والشخصـية الـتي هـي مجـال عملـه سـواء كانـت زوجـة أو أبنـاء أو أحفـاداً أو جـيراناً مـثلاً أو أصـدقاء، ويأخـذ بحـذر مـن الأعـداء، لكنــه يضــعهم في دائــرة الشــك والأحقــاد والأغــراض السياســية أو الذاتيـة، فرجـل مخـابرات معـادٍ للأمـير عبـد القـادر ولشـعب الجزائـر هـل يمكـن أن يأخــذ منــه المحقــق معلومــة صــحيحة؟ أمــا الإنســان المــؤمن الــذي يخــاف الله ويحـذر الوقـوع في آثام شـهادة الـزور الـتي هـي مـن الكبـائر في الشـرع الإسـلامي، حـتى ولـو كـان ذا قـربى، فمثلـه يمكـن الوثـوق بمعلوماتـه، لأنهـا صـادرة عنـه كأمانـة وشـهادة حـق وعلـم بقولـه تعـالى: ﴿وَمَـنْ أَظْلَـمُ مِمَّـنْ كَـتَمَ شَـهَادَةً عِنْـدَهُ مِـنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

---

[1] ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير بقلم الأميرة بديعة الحسني ص 220 .
[2] المصدر نفسه ص 221 .

هـ. هل كتب الأمير مذكرات في السجن عام (1851م)؟

وهذه قصة غريبة ملفقة لا أصل لها، ففي عام (1970م) قدم الكاردينال هنري تيسيه أسقف الجزائر، وجاك شوفالييه الرجل السياسي الذي عاش ودفن في الجزائر قدم مخطوطاً للمكتبة الوطنية في الجزائر، زاعماً أن مالك قصر أمبواز الجديد وجد هذا المخطوط بين أخشاب قديمة في قبو القصر. فالخلطة العجيبة من المعلومات الصحيحة منها والكاذبة في هذا المخطوط، والأسلوب العشوائي والركيك والكلمات العامية والسوقية في بعض النصوص تجعل ما كتب لا يستحق عناء التمحيص، وتؤكد براءة الأمير مما نسب إليه ظلماً وبهتاناً وزوراً[1].

إن بعض الأوروبيين لم ينسوا في يوم من الأيام عداءهم للإسلام والعرب، لذلك عمد كتّابهم إلى محاربة أعدائهم بشتى الطرق ومنها التشويه والتزييف عن طريق الفكر، ومنها تزوير وثائق وتقليد خطوط إلى نسج مذكرات، وبرعوا بهذا الفن وجعلوا لأنفسهم أعواناً، حتى من أبناء أمتنا[2].

و. كتاب «حياة عبد القادر»، ردود على أباطيله:

صدر كتاب «حياة عبد القادر» للكولونيل شارلز هنري تشرشل عام (1867م) في لندن، وكان تشرشل قد عمل على تشويه صورة الأمير بطريقة الغزو الثقافي، ولم ينقل بأمانة الكثير مما قاله الأمير له، كما حاول تشويه صورة الدولة العثمانية، وصورة الشعب الجزائري ونضاله وكفاحه، واضعاً السم في سيرة الأمير عبد القادر وتشويه تاريخه النضالي وكفاحه البطولي ورمزيته الفذة، فأقام مذبحة معنوية لتاريخ العرب والمسلمين الوطني

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 173 .
[2] ردود وتعليقات على كتاب الأمير ص 222 .

والـديني واللغـوي والأدبي، وتعمّـد إزالـة هيبـة الأبطـال الـوطنيين والتشـكيك في سـلوكهم وأقـوالهم، فالسـلاح الثقـافي أكثـر فتكـاً مـن المدفعيـة والصـواريخ، فحـاول أن يجعـل مـن الثـائر المجاهـد الأمـير عبـد القـادر مواطنـاً فرنسـياً معارضـاً ومتمـرداً علـى قـوانين دولتـه ونظامهـا ثم ألقـى سـلاحه واستسـلم بعـد الهزيمـة، ثم اسـتغفر ونـدم وتاب، ووقـف أمـام الـدوق دومـال وقفـة ذليلـة يعتـذر ويقـدم الـدليل علـى تمسـكه بعـزة وسمعـة الـوطن الكبـير فرنسـا، وكـان الهـدف مـن كـل هـذه الأفكـار المـاكرة أن تتقبلهـا وتـؤمن بهـا الأجيـال العربيـة والإسـلامية بشـلّ الـذهنيات وكسـر سـلاح الجهـاد والقضـاء علـى كـل محاولـة للمقاومـة فيهـا بعـد أن تمـوت روح الثقافـة الوطنيـة الأصـيلة والسـليمة. لقـد حـاول الكولونيـل تشرشـل أن يرسـخ هـذه المغالطـات ويـدسّ السـم في الدسـم، لتصـبح خيالاتـه الـتي ألفهـا مـن غـير دليـل هـي المرجـع والحقيقـة التاريخيـة لـدى كثـير مـن الـذين كتبوا عن الأمير بعد ذلك[1].

وقـد اسـتطاع أن يلتقـي بالأمـير عبـد القـادر وينـزل ضـيفاً عنـده في دمشـق، فكـان يجلـس معـه كـل يـوم سـاعة مـن الـزمن، يسـأله ويكتـب ويستفسـر، فيمـده الأمـير بالوثائـق والمسـتندات والاتفاقيـات الأصـلية، ولمـا نشـر كتـاب «حيـاة الأمـير» مجّـد بطولـة الأمـير وشخصـيته ومواقفـه الإنسـانية مـع الأسـرى خـلال الحـرب، وركّـز علـى إيمـان الأمـير بالتقـدم والحضـارة الغربيـة، وقـدّم أتبـاع الأمـير كقبليـين ومتخلفـين، وكتـب عـن ظـروف الاعتقـال والسـجن الـذي تعـرض لـه الأمـير، ولم يتـوانَ عـن وصـف الحكـام والـولاة العثمـانيين في أسـوأ صـورهم لتأليب حكومته والعرب عليهم[2].

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 167 .
[2] المصدر نفسه ص 162 .

ـ وحاول تشويه صورة الشعب الجزائري من خلال حديثه عن فئة صغيرة من الجهلاء لا تخلو منهم أمة من الأمم حتى بلاده نفسها، فالشعب إن قام بأي فعل جيد فهو يعود إلى روح الحضارة الأوروبية، وإن استيقظ من غفوته فيعود إلى نور الحضارة الغربية، كأنه يريد من الأمير عبد القادر سلخ جلدته بإرادته واستبدال جلده باخر أوروبي خالص، ويريد منه أيضاً السقوط مطأطئ الرأس في نهاية المطاف أمام عظمة حلفاء بلاده الفرنسيين وأداء الدور الذي رسمه له من خلال هذه الرسائل المزعومة، والحوار الذي وضع فيه بين كل جملة وجملة دسيسة رماها هنا وفرية دسها هناك ؛ أراد أن يقول بكل بساطة: استسلمت ورميت بنفسي بين أيديكم ولم يرضَ أصحابي بذلك، وإنهم يؤاخذوني، ولقد جعلتم مني رجلاً خداعاً ..إلخ.

ومن الصفحة (244) إلى الصفحة (246) حشد كلّ ما بوسعه من الخيالات في أحلام اليقظة، أن القوات الفرنسية كانت على بعد النظر في موقع الأمير، وأن هذا المجاهد الأمير كانت لديه ثلاثة خيارات اخرها الاستسلام، فجعل الحقائق التاريخية تتناثر مع الهواء بعد أن عبث فيها وحوّلها إلى ركام. وهذه الصفحات من كتابه نكبة ومأساة حقيقية لأنها تحولت إلى مصدر وثائقي مع الأيام، نراها تدرس في المناهج المدرسية في البلاد العربية والجزائر بصورة خاصة.

ـ ومما تقدم ندرك أن الضابط البريطاني لجأ إلى خياله لراحة أعصابه وهدوء نفسه أولاً، وثانياً لأهداف بعيدة المدى، فبدَّل اتفاقية الاستئمان الزمني والهجرة إلى الاستسلام أي الخضوع بذلّ، وجعل هذا المجاهد رجلاً بلا عقيدة أو بلا كرامة، وتغافل عن الكلمة التي قالها الأمير في تلك اللحظة «المنية ولا الدنية».

لقد أدار وجهه عنها كي لا يراها، وأراد من عبد القادر القول بنفسه من خلال رسائل متعددة تخيلها، أنه لام نفسه لأنه أخذ هذه التأشيرة، بل شتم نفسه بكلمات نابية ككلمة «خداع» و«استسلام». كما أراد أيضاً من خلال هذه الرسائل أن يجعل منه منافقاً مهزوز الشخصية لا يملك أي نوع من مشاعر الكرامة، وجعل موقفه استسلاماً ليريح أعصابه ويقدم نشوة النصر لحلفاء بلاده[1].

ـ وفي الصفحات (256) وما قبلها من الفصل الواحد والعشرين، جعل هذا البطل يجيب الضابط الفرنسي الذي أخذ يواسيه عن جواب حكومته كما يقول بالحرف الواحد: هذا الجواب جعل عبد القادر يسقط إلى الحضيض من اليأس: أراد عبد القادر جواب الضابط الفرنسي تلك الإجابات .كما أسلفت . ويجرد نفسه . وليس نفسه فقط . من الإيمان ويصف نفسه بالجهل، وإنما يصف حالة النساء وأصحابه بالنحيب واليأس.

أراد أن ينسى هو أيضاً أنه كتب في مقدمته أن عبد القادر يسمى بالحافظ لحفظه القران في سن مبكرة، وأنه كان عالماً يدرس في معهد القيطنة في شبابه، فذكر نصف الحقيقة ومع ذلك بهرته، وتجاهل ذكر الذين معه وإخوته الذين نشأوا في مزرعة القيطنة التي يملكها أجدادهم ونهلوا من العلوم في معهدها الذي كان من روافد مدارس وهران ومعاهدها، وأن أستاذهم الأول كان والدهم محيي الدين ثم الإمام محمد بن سعد، وعبد الله سقط والشيخ المجاوي وغيرهم من علماء مدارس وهران وأساتذتها، هذه المعاهد التي كان لها امتداد بجامعة القرويين بفاس وبمسجدها الذي كان منبع الحياة

---

[1] ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر ص 191 .

الثقافية والروحية في المغرب، والذي كان يفيض بالحيوية والنشاط في ذلك الزمان ومازال.

فالعلماء والمؤرخون يؤكدون أن جامعة القرويين هي من أقدم جامعات العالم فقد أسست عام (739م) وكذلك الأزهر في القاهرة والزيتونة في تونس عام (963م).

فالمساجد كانت تعتبر الصروح العلمية وليست فقط أماكن للصلاة، وأدخل فيها نظام الجامعات قبل جامعات أوروبا كالسوربون وكمبردج وأكسفورد، فإلى جانب إقامة الصلاة كانت تناقش في أروقتها جميع العلوم والسياسة والفقه والاقتصاد في الإسلام وأمور الحكم، وخرّجت هذه المساجد علماء شاركوا في صنع الأحداث وأساتذة كباراً، وكانت هذه الصروح العلمية والروحية على علاقات مع بعضها، فهؤلاء المجاهدون الذين وقفوا في وجه الاحتلال سبعة عشر عاماً وقفة الند للند كانوا خريجي هذه الصروح العلمية، وكان منهم أدباء وشعراء وعلماء في اللغة والفقه والقانون والاقتصاد، ويذكر المؤلف أن هؤلاء لم يوقعوا على وثيقة القسم «المزعومة» لأنهم لا يعرفون الكتابة، والأمير وحده من وقع على القسم . الذي تخيله . قسم بجميع الأنبياء وذكر أسماءهم جميعاً، ونسي أن هذا المجاهد عالم بالدين الإسلامي الذي لا يجوز فيه للمسلم القسم بغير الله عز وجل، ثم جعل عبد القادر يصف الفرنسيين بالكرماء وغير ذلك من كلمات النفاق والاستعطاف والخضوع وإذلال النفس، وهو القائل:

وأبذل يوم الروع نفساً كريمة	على أنها يوم السلم أغلى من الغالي
إذا اشتكى خيلي الجراح تحمماً	أقول لها صبراً كصبري واحتمالي
فما همتي إلا مقارعة العدا	وهزمي طغاة شداداً بأبطالي

فالـذي يصـف نفسـه بالـنفس الكريمـة، وأنهـا في السـلم أغلـى مـن كـل غـال وثمين ؛ هل يخفضها إلى هذه الدرجة من الهوان والنفاق؟

ولاشـك أنـه كـان يعلـم أن أي عـدو بالدرجـة الـتي يكـره فيهـا عـدوه ؛ بالدرجـة نفسها يحترم فيه الشجاعة والحفاظ على الكرامة والبعد عن النفاق.

ومـن المعـروف أن الأمـير لم يكـن يعـيش في أقبيـة التعـذيب الرطبـة، وإنمـا في قصـر مـن قصـور الملـوك، قصـر أمبـواز، والأمـير كـان قائـداً لشـعب عظـيم وقـاد ملاحـم بطوليـة في الـدفاع عـن الـدين والـوطن، فحـاول المؤلـف أن يجعـل مـن الأمـير صـورة المهـزوم المستسـلم الخاضـع لعـدوه الطالـب لعطفـه وإحسـانه، ونسـي تاريخـه قبـل الإمـارة وبعـد الإمـارة وحـين غـدر بـه، ولم ينقـل لقارئـه الحقيقـة من ثبات وصمود وجهاد فالأمير عبد القادر هو القائل:

لنـــا في كـــل مكرمـــة مجـــال ... ومـــن فـــوق الســـماك لنـــا رجـــال

ركبنـــا للمكـــارم كـــل هـــول ... وخضـــنا أبحـــراً ولهـــا زجـــال

فـــلا جـــزع ولا هلـــع مشـــين ... ومنـــا الغـــدر أو كـــذب مُحـــال

ورثنـــا ســـؤدداً للعـــرب يبقـــى ... ومـــا تبقـــى الســـماء ولا الجبـــال

ومنـــا لم يـــزل في كـــل عصـــر ... رجـــال للرجـــال هـــم الرجـــال

لهـــم هـــم سمـــت فـــوق الثـــريا ... حمـــاة الـــدين دأبهـــم النضـــال

ســـلوا تخـــبركم عنـــا فرنســـا ... ويصـــدق إن حكـــت منهـــا المقـــال

وهو القائل في وصف رجاله في إحدى قصائده:

[1] المصدر نفسه ص 192 – 196 .

الصادقون الصابرون لدى الوغى ... الحاملون لكل ما لم يُحمل
إن غيرهم نال اللذائذ مسرفاً ... هم يبتغون قراع كتب الجحفل
ما منهم إلا شجاع قارع ... أو بارع في كل فعل مجمل
كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا ... من سابق لفضائل وتفضل
كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا ... أقوى العداة بكثرة وتمول
كم صابروا كم كابروا كم حاربوا ... أعتى أعاديهم كعصف مؤكل
كم قاتلوا كم طاولوا كم طاردوا ... من جيش كفر بموج يعتلي

ـ هذا الرجل الذي يملك هذا التاريخ الحافل بالتمسك بالقيم الشرعية والأعمال البطولية، أيمكن أن يصل إلى الحضيض من اليأس لمجرد أنه تعرض للغدر به والخداع من قبل أعداء خبر غدرهم لسنوات طويلة؟

ـ هذا الرجل الذي سار على هدي القران طيلة حياته منذ أن تفتحت براعم طفولته، الذي يعلم ثواب الصبر، ويعلم أن الإنسان مبتلى، وأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بهذا النظام[1]، كيف يمكن أن ينحدر إلى الحضيض من اليأس من كان على علم بمعاني هذه الآية الكريمة ويؤمن بها وتربى عليها، وهو الذي يختم كتاب الله باستمرار، ويمر عليه تأملاً وتدبراً وفهماً وحفظاً وعملاً، وكم من المرات والمرات مر بقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[يوسف:87].

ـ وقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران: 139–140].

[1] المصدر نفسه ص 197 .

. وقول الله تعالى: ﴿لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر:53].

. وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:56].

فهل يمكن أن يكون هذا المجاهد الكبير والأمير النبيل والعالم المؤمن عبد القادر جاهلاً بمعاني هذه الآيات وهو الذي ألف كتاباً في سجنه وجعل عنوانه «المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالكفر والإلحاد» وأرسله إلى رجال الكنيسة؟ هل كان رجلاً يخشى أحداً سوى ربه؟ ومن يصفه تشرشل بالمتدين ألا يعلم أن صبر المؤمن انصياع لأمر الله وإيثار للآخرة على الدنيا الفانية، وأن كل ما في الدنيا من عذاب هو هين في سبيل مرضاة الله عز وجل؟

ألا يعلم أن الله سبحانه وتعالى شرع مبدأ الهجرة وجعل لها شروطاً وهي طريق من طرق العذاب والألم؟ وهل هناك عذاب أشد من الغربة؟ إن هذه الاتفاقية الأخيرة في الواقع ليست هروباً من الأذى وطلباً للراحة في عكا أو الإسكندرية ؛ لأن الهجرة فرضها الله لحفظ كرامة المؤمن: إنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام وجوب وجواز وحرمة، والوجوب يكون حينما يصبح المسلم يعيش في ظروف كالتي يعيشها هو وأصحابه من حصار شديد وتهديد ففي مثل هذه الظروف أوجبت الشريعة على المسلم الهجرة، وإن لم يفعل يُعدّ عمله إهمالاً لواجب من الواجبات الشرعية الإسلامية[1].

كما حاول تشرشل تشويه صورة الدولة العثمانية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فوصف استقبال الأتراك للأمير عبد القادر بالمظاهر المتصنعة من الاحترام، ووصفهم بأنهم على درجة كبيرة من العنجهية وغرباء عن العواطف النبيلة، وصب غضبه وحقده على العثمانيين بطريقة تدل على أنه جاسوس

[1] المصدر نفسه ص 197 – 200 .

يخدم لصالح المخابرات البريطانية التي كانت من ضمن دول أوروبية أخرى تسعى للقضاء على الدولة العثمانية، مستخدماً الكلمات النابية في هجومه[1].

وأطلق لخياله العنان وعبقريته الأدبية بكل ما يحمله قلبه من أحقاد على الدولة العثمانية بكراهية صارخة، ولم يترك المجال أمام القارئ ليفهم رأيه من بين السطور وإنما من الأسطر نفسها.

لقد قاده خياله نحو الدرك الأسفل من تزييف الحقائق وشاهدنا مدى جرأته على ذلك بقوله: على الرغم من وجود عبد القادر بين يدي الترك فإنه لم يكن مضطراً أن يكون تابعاً لهم.

وسيأتي الحديث مفصلاً عن علاقة الأمير بالدولة العثمانية وسلاطينها لاحقاً بإذن الله تعالى ويكفينا هنا قول الأمير عبد القادر في بورصة وأهلها:

ألا فاقر الخليل خليل باشا	سلاماً طيباً عبقاً نفيسا
له قل يا شقيق الروح مني	علام هجرت بلدتنا بروسا
بكم كانت تفاخر كل مصر	وتطلع على شمائلكم شموسا
وكنت لنا بها غيثاً هتوفا	كهفاً مانعاً ضراً وبؤسا
وكان لنا الزمان بكم ضحوكا	فصار لنا بفقدكم عبوسا

ولما وصل الأمير إلى بورصة ونظر إلى موقعها وأجوائها قال: لقد صدق من أخبرنا بأنها تشبه مدينة تلمسان، ولولا تكرار الزلازل فيها ما أسرع الأمير بالانتقال منها. ولقد نظم الأبيات السابقة فور مغادرتها وهو دليل على

[1] المصدر نفسه ص 205 .

سعادته في الإقامة فيها أي في الدار الضخمة التي أمر بها السلطان وهي رد على مزاعم تشرشل[1] مشوّهِ الحقائق ومزيف التاريخ وخائن الأمانة العلمية.

إن تشرشل في كتابه الذي فقد فيه المصداقية العلمية والمرجعية الحقيقية للباحثين لم ينظر إلى الأمير عبد القادر فيه أنه من روّاد محاربة الظلم والطغيان والاعتداء عل حقوق الاخرين، لأن ذلك يمس بسمعة المحتلين الأوروبيين الذين نشروا الفقر والبؤس في الجزائر[2].

وقد قام الدكتور أبو القاسم سعد الله بترجمة كتاب حياة عبد القادر من الإنجليزية إلى العربية وهي ترجمة أولى إلى العربية لم يسبقه إليها أحد صدرت في عام (1982م) وهي على درجة عالية من الدقة بحيث يستطيع القارئ ملاحظة الحالة النفسية عند المؤلف أثناء سرده للأحداث، والقارئ أو الباحث سيجد شخصية المؤلف دون قناع وما تحمله في أعماقها من أحقاد موروثة على العرب والمسلمين، وهي سموم تدفقت بين السطور.

وقد قامت الأميرة بديعة الحسني الجزائري بمناقشة هذا الكتاب في كتابها القيم ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر الجزائري.

فالحذر كل الحذر من هذا المرجع المسموم الذي كتبه أحد المستشرقين الذين انتموا إلى المدرسة الاستعمارية لخدمة بلادهم عن طريق الغزو الفكري كما يظهر للباحث المنصف.

---

[1] المصدر نفسه ص 209 .

[2] المصدر نفسه ص 216 .

ز ـ كتابه «تحفة الزائر»:

كتاب «تحفة الزائر في تاريخ الجزائر ومآثر الأمير عبد القادر» لمحمد باشا الابن الأكبر للأمير عبد القادر الجزائري. تناول المؤلف فيه تاريخ الجزائر الجغرافي والسياسي وتاريخ والده وجعله في جزأين، كتب في الأول تاريخ الجزائر وتاريخ والده العسكري وملاحمه البطولية بالتفصيل، وأكثر المعلومات في هذا المجال أخذها من والده أثناء حياته حيث بدأ بتأليف الكتاب، وأخذ أيضاً معلومات من المجاهدين الذين رافقوا والده أثناء المعارك، ومن قادة الجيش ومن وزرائه أي من خلفائه في المدن الذين لحقوا به إلى دار الهجرة في دمشق، ومن أعمامه الذين شاركوا شقيقهم في الجهاد وهم سعيد وأحمد ومصطفى وسُجنوا معه في أمبواز.

وفي الجزء الثاني تناول حياة والده في السجن وتفاصيل أخرى عن زيارة إمبراطور فرنسا له وإطلاق سراحه وذهابه إلى دار الخلافة واختيار مدينة بورصة ثم دمشق.

ولقد كتب الدكتور المؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله في موسوعته «تاريخ الجزائر الثقافي» أن الوالد هو من مكن ابنه من المعلومات والوثائق العسكرية والتاريخية والعائلية الهامة التي ساعدته على تأليف هذا المخطوط الذي انتهى منه بعد وفاة والده الأمير عبد القادر بسبع سنوات، لكنه بعد انتهائه سرقت منه النسخة[1]، وهذه النسخة بعد أن سُرقت حُرقت وأنقذ منها الجزء الأول، فجمع المؤلف ما تبقى من المواد حسب قوله في مقدمة الكتاب ثم سلمها إلى ناشر في أحد دور النشر بالإسكندرية عام (1898م) تقريباً ولقد ذكر الدكتور أبو القاسم أنه عثر على نسخة من هذا الكتاب مهداة

[1] المصدر نفسه .

إلى السلطان عبد الحميد الثاني عام (1307هـ)، وبمقارنتها بالنسخة المطبوعة عام (1903م) في القاهرة وجد فروقاً هامة في بعض التفاصيل بين النسختين.

على أي حال فكتاب «تحفة الزائر» قيم جداً، ذكر تفاصيل هامة للمعارك والانتصارات الباهرة التي أحرزها جيش الأمير على القوات الغازية. من هذه الملاحم معركة «المقطع» وسيدي إبراهيم وعشرات غيرها مما لم يذكرها أحد قبله بهذه الدقة، فكان هذا الكتاب المرجع الأول في اللغة العربية للباحثين[1].

وقالت الأميرة بديعة الحسني الجزائري: وأثناء دراستي لهذا الكتاب النادر «تحفة الزائر» طبعة الإسكندرية وجدت أن المؤلف أو الناشر والله أعلم قد استعان بنصوص أجنبية أكثرها من كتاب «حياة عبد القادر» لهنري تشرشل الضابط البريطاني بعد فقدانه لنسخته الأصلية، وبما أنه كان لا يتقن من اللغات سوى العربية والتركية، سلّم ما تبقى من النسخة المسروقة إلى دار نشر قامت بعمليات التنقيح والتحرير والنقل، واكتشفتُ الكثير من المتناقضات والانسلاخ عن المضمون الذي أراد المؤلف قوله، فدور النشر في مصر في ذلك العصر كانت تمتاز بالجودة، لكنها لم تكن بعيدة عن الهيمنة البريطانية التي لم يكن غزوها لمصر عسكرياً فقط، وإنما كان فكرياً أيضاً وهدفها السياسي كان إخراج مصر من عالمها العربي والإسلامي وجعل الشعب المصري سداً بين مشرق العالم العربي وغربه، محاولة تجنيد الشباب المصري في الجيش البريطاني لقتال إخوتهم في فلسطين، و لقد فشل مشروعها هذا بعد أن ثارت الصحافة المصرية فانبرت «البلاغ» بالإعراب عن الغضب وكذلك الجمعيات والشعب المصري بأكمله، وأصدر علماء

---

[1] فكر الأمير عبد القادر ص 11 .

الدين فتوى في ذلك الحين بتكفير كل من ينضم إلى الجيش البريطاني لمحاربة إخوانه في فلسطين[1].

كما أن دور النشر لم تسلم أيضاً من الغزو الفكري، ولو أن محمد باشا قرأ كتابه بتأن واطلع على المزاعم التي دُست في صفحتين من الجزء الأول لطالب بتقديم الناشر إلى القضاء، والله أعلم، ففي كل احتلال غاشم لابد من وقوع ضحايا، وكتاب «تحفة الزائر» من الضحايا، ففي دار الناشر ارتكبت الجرائم ضده دون أن يجد من يدافع عنه أو يحميه من الدّس، لأن المؤلف محمد باشا كان في دمشق والظروف السياسية لم تكن تسمح له بالسفر، فأخذ الناشر المأجور المغرض المسؤول عن الترجمة والتحرير والتنقيح أخذ حريته بانتقاء مدروس من الكتب الأجنبية ما شاء له هواه وبصورة خاصة من كتاب هنري تشرشل[2] الذي تحدثت عنه سابقاً.

إن المدقق والباحث والمطلع على شخصية هذا المجاهد الكبير لا يستطيع التسليم بصحة كل ما كتب عنه في الجزء الثاني من كتاب «تحفة الزائر».

وفي الصفحة الأخيرة من الجزء الأول، إن لم نقل الإنكار الشديد لبعض الألفاظ وليس الوقائع فالأحداث كلها صحيحة لا ريب، ولكن الاستنكار للألفاظ والتحريف والتأويل الخاطئ من حذف وإضافات مغرضة، منها مثلاً ما جاء في أسئلة الجنرال دوماس صفحة (178) من التحفة السؤال الثالث عشر وجواب الأمير عليها في موضوع تعليم النساء، فإذا حذف كلمة لكن وحذف لا من الجملة «لكن شرع الإسلام لا ينهى عن تعليم النساء الكتابة» وهو أمر بغاية السهولة، نجد أن المعنى كله قد تغير، فيصبح جواب الأمير بعد هذا الحذف «شرع الإسلام ينهى عن تعليم النساء الكتابة»،

---

[1] المصدر نفسه .

[2] فكر الأمير عبد القادر ص 11 .

فالسائل ضابط فرنسي خاض معارك دامية ضد الأمير سنين طويلة في الجزائر وتعلم اللغة العربية ودرس التاريخ الإسلامي عن طريق مؤلفات المستشرقين وعدد كبير من أمثاله درسوا التاريخ الإسلامي وسير العظماء وساروا وراء أحقادهم واندفعوا وراء أوهام أرادوها حقائق في ديننا وتاريخ أمتنا وسير أبطالنا[1].

2. تلاميذ الأمير عبد القادر:

تخرج على يدي الأمير عبد القادر كثير من الشباب تأثروا بسيرته الجهادية وبعلمه وأدبه ومنهجه وأصبحوا فيما بعد من العلماء واستمروا على ذلك النهج وطوروه واتسعوا به ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

أ. عبد الرزاق البيطار

المولود عام (1837م) والذي بات من علماء الشام المشهورين حتى وفاته عام (1916م) رحم الله الشيخ الداعية المجاهد عبد الرزاق السلفي العقيدة الذي لم تأخذه لومة لائم لحظة في إبانة الحق، ولم يصده عتب عاتب ولا قومة قائم، الصادح بالحق، المنكر على أصحاب الخرافات من المتصوفة وقد لقي في سبيل ذلك عنتاً كبيراً من الجامدين، ويكفيه فخراً أن تخرج على يديه علامة الشام وفقيهها السلفي الكبير جمال الدين القاسمي المولود عام (1866م) والمتوفى عام (1914م).

ب. الطاهر الجزائري ابن الشيخ صالح السمعوني

الذي ولد عام (1852م) وتوفي عام (1920م) وأصبح بجلّته من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره وأنشأ مع الأمير دار الكتب الظاهرية،

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 230 .

والمكتبة الخالدية في القدس. وله عشرون مصنفاً وأصبح من أعضاء المجمع العلمي العربي.

ج . الشيخ عبد الغني بن طالب بن حمادة بن إبراهيم الغنيمي الدمشقي

وهو من أقران العلماء ولازم الأمير منذ قدم دمشق من مواليد (1807م) وتوفي (1881م) كان عالماً فاضلاً من فقهاء الحنفية وله مؤلفات عديدة، وكان يكره البدع والأوهام والخرافات التي أدخلت على الدين ظلماً وعدواناً[1].

د . شهادة العلماء في الأمير وصلته بزعماء الإصلاح:

شهد المؤرخون والعلماء من أمثال مفتي المالكية العلامة محمد عليش وولده الشيخ الأزهري عبد الرحمن عليش، والعلامة عبد الرزاق البيطار وحفيده الشيخ محمد بهجة البيطار والعلامة جمال الدين القاسمي، ومفتي الحنابلة الشيخ محمد جميل الشطي، واخرون كثر، شهدوا للأمير بالفضل والديانة والغيرة على دين الإسلام وأشادوا بحرصه على إقامة أحكام الشريعة وحدودها وسعيه الحثيث لنشر علوم الدين، كما كان للأمير دور كبير في إحياء وتجديد فريضة الجهاد ورفع رايتها إلى جانب بعث علوم الحديث النبوي الشريف ونشرها والحث على العمل بها والسعي في القضاء على البدع ونبذ التقليد الأعمى الممقوت والدعوة إلى استعمال العقل والنظر في فهم ونشر مختلف العلوم[2].

فالعقل مناط التكليف، ومحور الثواب، وأساس النقل، ولا تعارض بين العقل والنقل، ولا يمكن للإنسان المخلوق في هذا الكون أن يدرك بعقله وبنظرياته

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 181 .
[2] حوار مع الأمير عبد القادر ص 182 .

وفلسفاته أسرار الحياة والكون ووجوده وخباياه وبداية خلقه والسبب من ذلك وفناءه ؛ بالعقل وحده، فكل ما يتصل بمسائل الغيب والعقيدة عن الله والملائكة والكتب السماوية والرسل واليوم الاخر والقضاء والقدر وغايات الحياة وأسرار الكون، ليس له مصدر إلا وحي الله المنزل[1]: القران الكريم وسنة سيد المرسلين.

وأما عن علاقة الأمير بزعماء الإصلاح والتجديد، فقد كان مواكباً للتطورات التي حدثت في عهده وتواصل مع شخصيات إسلامية لها مكانتها في الجهاد والإصلاح أمثال الشيخ كامل الداغستاني، وخير الدين التونسي، والشيخ محمد عبده الذي يبدو أنه جالس الأمير عدة مرات عندما كان الشيخ منفياً في بيروت، ولاشك أن الشيخ محمد عبده تحدث مع الأمير حول التجديد والإصلاح، وعن جمال الدين الأفغاني وجمعية العروة الوثقى.

وأما ميل الأمير للإصلاح الإسلامي فيظهر في الرسائل المتبادلة بينه وبين خير الدين باشا التونسي صاحب كتاب «أقوم المسالك» فقد أهدى خير الدين كتابه إلى الأمير عبد القادر، فقرأه وأعجب بمحتواه واراء صاحبه، ثم وجه خطاب شكر وإعجاب إلى خير الدين، والعبارات التي وردت في هذا الخطاب تصور رأي الأمير في مفهوم الإصلاح الذي دعا إليه خير الدين، فبعد أن عبر له عن شكره لدفاعه عن الشريعة الإسلامية وصلاحيتها للحكم لكل زمان ومكان قال: وقد اطلعنا على «أقوم المسالك» فرأينا فيه ما بهر العقول، وأدى الأفكار إلى الذهول من قضايا المعقول، فاتفقت القلوب على تفضيله واختلفت الألسنة في تمثيله، أما نحن فقد تركنا التشبيه

[1] المصدر نفسه ص 183 .

وقلنا: ما له في فنه مثيل ولا شبيه، كتاب تنفس الدهر به تنفس الروض في الأسحار.. يزري بتاج تراجم الأعيان وكأنه مرآة انعكست فيه رسوم أخبار الملوك وأفاضل الزمان، فاتخذته مرتع ناظري، ومنتعش خاطري، ولا يخفى أن لكل عصر رجال يقومون بأعبائه ويهيمون في أودية أنبيائه.. فلله درك ودر ما به ألمعت وما قربت من فنون المعارف وبعدت، ثم إنك حميت ضمار الشرع المحمدي وعضدته، وقطعت عنه ضرر الملحدين وخضدته. ورغم هذا السجع والعناية بالبديع فإن رأي الأمير يتلخص في الإعجاب بالكتاب للأسباب التالية:

. دفاع صاحبه عن صلاحية الشريعة الإسلامية للحكم في كل زمان ومكان.

ـ اهتمامه بقضايا المعقول والمنقول، وفنون المعارف العصرية والإشارة إلى أن لكل عصر رجالاً يقومون فيه بدور الدعاة إلى الله.

ـ كونه كتاباً نادراً في أخبار الملوك وأفاضل الزمان . مسلمين وأوروبيين . لذلك اتخذه الأمير منتعش خاطره وهو تعبير لماح وكاشف عما نحن بصدده[1].

3 . علاقة الأمير بكتب ابن عربي وأفكاره:

أراد بعض الناس من غلاة الصوفية الاستفادة من اسم الأمير عبد القادر ونسبوا إليه ما لم يعتقده، ومن أبرز هؤلاء الشيخ محمود الأرناؤوطي ومحمد الخاني ضموا إلى كلام الأمير ومراسلاته كتاب «المواقف» بعد وفاته بسنين عديدة في عام (1911م) دون وصية من الأمير أو تكليف.

وأثبتنا بالحجج والأدلة العلمية بطلان نسبته إلى الأمير، وهذا العمل ليس غريباً في تاريخ البشرية، فقد عظم المسيحيون سيدنا عيسى عليه السلام

[1] حياة الأمير عبد القادر ، تقديم أبو القاسم سعد الله ص 15 .

حتى ألّهوه، ونسب بعض المسلمين الذين لا يخافون الله إلى سيدنا محمد ﷺ الاف الأحاديث الموضوعة، إما افتراء عليه أو محتجين بالدعوة والانتصار لدينه. أفيعقل للباحث والمنصف والساعي للحقيقة المجردة أن يقول إن مثل الأمير عبد القادر، والذي يدّرس في مجالسه وفي داره وفي الجامع الأموي ودار الحديث النووي في المدرسة الجقمقية وفي ندواته العلمية، ويغترف من تفسير القران الكريم لابن كثير، ويعطي الإجازات في صحيح البخاري ومسلم وموطأ مالك ؛ يقول: إن البشر الذي خلق من ماء مهين قد يتألّه وبإمكانه أن يصبح الإمام والله واحد؟ أيجمع الإنسان ويحل لكونه خليفة الله في الأرض؟ أو يفسر القران الكريم والأحاديث الشريفة خلافاً لما ذكره السلف الصالح وأهل السنة والجماعة وضوابط قواعد التفسير التي حددها علماء وفقهاء الشريعة، وقد رأينا اهتمامه بالعلماء ومراجعة كبارهم في المسائل والنوازل التي يمر بها في حياته باحثاً عن حكم الشريعة، فراسل علماء القرويين بالمغرب والأزهر بمصر؟

إن الدراسات العلمية الدقيقة المتجردة في حياة الأمير، والتي عشت معها بتمعن وأخذت مني الوقت الكثير، وصاحبته خلال البحث في أسفاره وإقامته وفرحه وحزنه، في المعارك وفي حلقات العلم وفي أماكن العبادة ومع القران الكريم وفي ندواته العلمية الجزائرية والشامية والتركية ؛ تدل على أنه أبعد الناس عن المعتقدات الفاسدة والتصوف المنحرف. وعندما سئل عن عقيدته في الكرامات والوسطاء أجاب: إن ثقتي في الله وحده[1].

إن اتهام الأمير بتأثره بالعقائد المنسوبة والمتهم بها ابن عربي من وحدة الوجود والاتحاد والحلول اتهامات باطلة، فوحدة الوجود تعني . بأوجز عبارة: أن الله

---

[1] المصدر نفسه ص 16 .

تعالى والعالم شيء واحد فوجود المخلوق هو وجود الخالق[1]، ومعنى الحلول والاتحاد اصطلاحاً: الحلول والاتحاد عقيدتان نشأتا في بعض الأديان الوثنية والفلسفات القديمة، وظهرتا على وجه الخصوص بين النصارى الذين حرفوا دين الله المسيح عليه السلام حيث ادّعوا حلول الله أو اتحاده به، كما ظهرتا في العالم الإسلامي عند بعض غلاة الطوائف خاصة بعض الفرق المظهرة للتشيع الزاعمة حلول الله تعالى أو اتحاده بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أو عند بعض ذريته[2]، فالحلول . عند من يعتقده .: هو نزول الذات الإلهية في الذات البشرية ودخوله فيها، فيكون المخلوق ظرفاً للخالق بزعمهم[3].

والاتحاد . عند من يعتقده .: هو اختلاط وامتزاج الخالق بالمخلوق فيكونا بعد الاتحاد ذاتاً واحدة[4].

وحقيقة قول هؤلاء: إن وجود الكائنات هو عين وجود الله ليس وجودها غيره وليس شيء سواه البتة[5].

فالخالق هو المخلوق والمعبود هو العابد والناكح هو المنكوح، والله عندهم عين الخنازير والكلاب والكفار، تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً[6].

وخلاصة الفرق بين الحلول والاتحاد:

. أن الحلول إثبات لوجودين، بخلاف الاتحاد فهو إثبات لوجود واحد.

. أن الحلول يقبل الانفصال، أما الاتحاد فلا يقبل الانفصال[7].

---

[1] مجموع الفتاوى لابن تيميه (80/2 ، 112 ، 140 ، 141) .
[2] ابن عربي عقيدته ومواقف العلماء منه ، د. دغش العاجمي ص 31 .
[3] المصدر نفسه ص 32 .
[4] المصدر نفسه ص 32 .
[5] المصدر نفسه ص 32 .
[6] المصدر نفسه ص 32 .
[7] المصدر نفسه ص 35 .

ومن أعظم العقائد المنسوبة لابن عربي قوله بوحدة الوجود، وهي أن الله تعالى والعالم شيء واحد، وأن الله عين وجود الكائنات، فكل ما تراه هو الله[1].

وهذه العقيدة فاسدة وباطلة، ولا يمكن لشخص اعتنق عقائد القران الكريم وما ثبت عن سيد المرسلين محمد ﷺ أن يعتقد هذه الأباطيل:

ـ فقد دلت النصوص الشرعية الكثيرة على أن الله تعالى هو خالق الكائنات ومصوّرها وموجدها من العدم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:62].

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام:1].

وغيرها كثير تثبت أن الله هو الخالق وأن الوجود ليس واحداً، بل فيه خالق ومخلوق ورب ومربوب.

ـ ودلت النصوص الشرعية على أن الله عز وجل هو مالك الملك الذي له الملك التام، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الملك:1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[البقرة:107]. فالله مالك المخلوقات.

ـ كما دلت الأدلة على أن الله هو المحيي والمميت، يهب الحياة لمن يشاء ويسلبها عمن يشاء، قال تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾[الحج:66].

---

[1] المصدر نفسه ص 35 .

وثمة غير الله وهو المخلوق الذي يموت ويحيا.

ـ وأمر الله بعبادته وحده لا شريك له فقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[البقرة:21].

وأخبر سبحانه أنه ما خلقنا إلا لعبادته فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات:56].

وما أرسل من رسول إلا لهذا الأمر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:36].

فهذه النصوص وغيرها كثير. تدل على أن هناك عابداً ومعبوداً.

ـ نهى الله سبحانه وتعالى عن الشرك أشد النهي وحذر منه أشد التحذير، وأخبر أن صاحبه محرم على الجنة وأنه خالد مخلدّ في النار، وأنه لن يغفر لمن مات عليه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء:48].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[المائدة:72].

فهذه النصوص تدل على أن هناك غيراً يجعله بعض الناس شريكاً لله تعالى، ولو كان الوجود واحداً كما يقول أصحاب وحدة الوجود لكان الشرك الأكبر هو عين التوحيد الخالص، ولكان الذين عبدوا الأصنام والأشجار والأحجار والملائكة ما عبدوا إلا الله لكون هذه المعبودات مظاهر لذلك الوجود الواحد كما نص عليه أصحاب وحدة الوجود[1].

[1] المصدر السابق ص 53 – 56 .

وقد أخبر الله تعالى أن المشركين عبدوا غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ *وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الزمر:64 . 65].

وأخبر بوجود المشركين فقال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام:64].

وأمر نبيّه أن يتبرّأ من المشركين فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام:19].

وبذلك أمر أنبياءه فقال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ : فقَالَ لهم عليه السلام﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[هود:54].

ونزه الله . جل في علاه . نفسه عن الشرك وأهله فقال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الأعراف:190].

وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[التوبة:31].

وكان الرسل ينهون عن عبادة مظاهر الوجود ويجعلون ما عبده المشركون غيراً لله، ويجعلون عابده مشركاً بالله جاعلاً له نداً، وكان يُبيّنون بطلان عبادة تلك المعبودات والآيات في ذلك كثيرة جداً.

والرسل هم أعلم الخلق بالله، فلو كانت المعبودات هي الله لما نهوا عن عبادتها، فدل ذلك على أنها غير الله فثبت الغيرية وبطلت وحدة الوجود[1].

ـ ونزّه الله نفسه عن مماثلة المخلوقات وعن كل عيب ونقص، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:11].

[1] ابن عربي عقيدته ، د. دغش العجمي ص 53 – 57 .

وقال سبحانه: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾[البقرة:255].

وقال عز وجلَّ :﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى ﴾[طه:52].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَمَدُ *لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:1 . 4].

فدلت هذه النصوص ونحوها على أن الله لا يُماثل المخلوقات ولا يتصف بصفات النقائص، ونحن نشاهد الكائنات[1]متصفة بصفات النقائص كالنوم والنعاس والضلال والنسيان والموت والفقر ..إلخ وثبت أن النقائص صفات لغيره فانتفت الوحدة وبطلت.

ـ كما دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أن الله موصوف بعلو الذات، قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[النحل:50].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾[الملك:16].

وقال جلا وعلا: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[المعارج:4].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ﴾ ﴿يَسْتَحْسِرُونَ ﴾[الأنبياء: 19].

فهذه النصوص تدل على أن هناك خلقاً وخالقاً، وأن الخالق تعالى على عرشه بائن من خلقه عالٍ عليهم، فبطل بهذا كون الوجود واحداً، لأنه لو كان كذلك لما وصف الله نفسه بالعلو.

ـ والقول بوحدة الوجود انسلاخ من الشريعة ؛ لأن من البديهيات أن من يرى أن ذات الإله حلت فيه أو اتحد هو بها، وأن الخالق هو المخلوق ؛ أنه

[1] درء التعارض (77/6) .

لا يـرى نفســه موضــعاً للتكــاليف الشــريعة، لأن التكليــف مــلازم للعبوديــة ؛ وأما وقد صار العبد رباً فلا تكليف مع الربوبية[1].

قــال ابــن تيميــة: ولهــذا يظهــر فــيهم مــن إهمــال العبــادات والأوراد والأذكــار والــدعوات مــا لا يظهــر في اليهــود والنصــارى، ومــن ســلك مــنهم مســلك العبــادات ؛ فــإن لم يهــده الله إلى حقيقــة ديــن الإســلام وإلا صــار في اخــر أمــره ملحداً من الملاحدة من جنس ابن عربي وابن سبعين وأمثالهما[2].

وقــال . رحمــه الله . ولهــذا يصــلون إلى مقــام لا يعتقــدون فيــه إيجــاب الواجبــات وتحريم

خــرج إلى الإباحــة والفجــور، وكــان لا يُحــرم الفــواحش ولا المنكــرات ولا الكفــر المحرمــات، وإنمــا يــرون الإيجــاب والتحــريم للمحجــوبين عنــدهم الــذين لم يشــهدوا أنه حقيقة الكون، فمن العابد؟ ومن المعبود؟ ومن الامر؟ ومن المأمور[3].

ـ كمــا أنهــم يتجــرؤون علــى مقارفــة النــواهي الشــرعية بمــا في ذلــك الكفــر بالله والسجود لغيره والاستهزاء بالشرع والطعن في الدين وغير ذلك.

وقــال ابــن تيميــة في التلمســاني: وهــو كــان أعــرفهم بقــولهم وأكملهــم تحقيقــاً لــه، ولهذا والفسوق والعصيان[4].

إن الأمــير عبــد القــادر الجزائــري لــيس مــن عقيــدة وحــدة الوجــود في شــيء، بــدليل ســيرته وكتبــه ومقالاتــه، وقــد بينــا بطــلان مــا نســب إليــه مــن كتــب في التصــوف المنحــرف «المواقــف». وإنمــا أراد أصــحاب هــذه الاعتقــادات الاستفادة من شهرته ومحبة الناس له.

---

[1] المصدر السابق ص 63 ، 64 .
[2] المصدر نفسه .
[3] مجموع الفتاوى (82/2) .
[4] ابن عربي عقيدته ص 66 .

كما أن الشعر المذكور في هذا الكتاب المزعوم دليل إضافي على أن الكتاب ليس من تأليفه، فأبياته جلها مختلفة في وزنها، تميزت باضطرابات عروضية تجاوزت في بعض الأحيان ما أباحه العروضيون للشعراء وعدوه شاذاً، فضلاً عن توهمات وأذكار صوفية لا تدخل في الشعر، كما أن أغلب الأبيات والقصائد الواردة، هي قريبة من النظم أكثر منها إلى الشعر في تفعيلاته المعروفة عند الشعراء، لا تدخل في الشعر، وهي ليست إلا أذكاراً وتسبيحات ونجوى على مذهب القوم، أو إيماءات وتعابير متوسل بها في شطحة من شطحات الفرق الصوفية. اسمع معي بعض ما ورد في الكتاب المزعوم، واحكم وزن بعقلك وإيمانك على هذه العبارات بميزان العقيدة والشرع:

أمطنا الحجاب فانمحى غيهب السوى ... وزال أنا وأنت وهو فلا لبس

ولم يبق غيرنا وما كان غيرنا ... أنا الساقي والمسقي والخمر والكاس

تجمعت الأضداد فيّ وإنني ... أنا الواحد الكثير والنوع والجنس

فلا تحتجب بما ترى متكثراً ... فما هو إلا شخصنا المنزه القدس

ومن الأبيات الباطلة التي نسبت إلى الأمير في كتاب المواقف:

أنا العابد المعبود من كل صورة ... فكنت أنا رباً وكنت أنا عبدا

فطوراً تراني مسلماً أي مسلم ... زهوداً نسوكاً خاضعاً طالباً مدا

وطوراً تراني للكنائس مسرعاً ... وفي وسطي الزنار أحكمته شدا

أقول باسم الابن والاب قبله ... وبالروح روح القدس قصدا ولا كيدا

وطوراً بمدراس اليهود مدرساً ... أقرأ توراة وأبدي لهم رشدا[1]

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 189 .

ولا حــول ولا قــوة إلا بالله، وفي أيامنــا هــذه نــرى رأي العــين كيــف يعمــد المفسـدون إلى رجـل مـن المشـاهير الـذين نعاصـرهم ونشـهد لهـم بالخـير فيشـوهون صـورته أمـام النـاس وينسـبون إليـه الأباطيـل حـتى يسـقط مـن أعيـنهم، ويعمـدون إلى رجـل وضـيع خسـيس فيرسمـون لـه صـورة زائفـة ويزينونهـا للنـاس حـتى يظنـوا أنهم أمام رجل عظيم وصدق القائل:

نظــرت بحــال الحاضــرين فــرابني فكيــف بحــال الغــابرين أصــدّق[1]

لقـد تعـرض الأمـير عبـد القـادر لحمـلات تشـويه مركـزة ومنظمـة واختلقـوا لـه الأكاذيـب، وزعمـوا أنـه سـلم نفسـه لفرنسـا واستسـلم في نهايـة المطـاف، وزوّروا عليـه رسـائل ومعاهـدات سـخيفة ومخزيـة وزعمـوا أنهـا بخطـه، ثم اختلقـوا قصـة انتسـابه للجمعيـة الماسـونية وزوروا عليـه رسـالة بهـذا الخصـوص، وكـل ذلـك كـي يسـقط اعتبـاره عنـد النـاس كرجـل مخلـص لأمتـه، ولم يكتفـوا بـذلك بـل أسـرعوا فــور وفاتــه لتزويــر كتــاب عليــه وهــو كتــاب المواقــف في الــوعظ والإرشــاد، وضــمّنوه كلامــاً يجعـل الأمـير يسـقط عنـد النـاس باعتبـاره الإسـلامي والإيمـاني أيضـاً، فـلا يبقـى شـيء يصـلح لاتخـاذه قـدوة، لكـن الله أبى إلا أن يخـرج الحـق للناس.

إن الأمـير عبـد القـادر الجزائـري لم يعتقـد يومـاً مـن الأيام لا بوحـدة الوجـود ولا الحلـول ولا الاتحـاد بـل كانـت عقيدتـه سـنية صـافية بهيـة، ومـال إلى القـول بأن مـا كتـب في الكتـب المنسـوبة لابـن عـربي مـن عقائـد فاسـدة فهـو مـن الأباطيـل المنسـوبة إليـه، إن الأمـير عبـد القـادر اشـتهر بالتقـوى والخـوف مـن الله والإيمـان بـه وباليـوم الاخـر وحفـظ القـران وهـو في سـن مبكـرة مـن حياتـه، متـزن صـافي العقيـدة علـى مـنهج أهـل السـنة والجماعـة مـالكي المـذهب متقيـد بشـرع الله في

[1] الأمير عبد القادر فكره وحياته ص 259 .

حياته الخاصة وأسرته ومجتمعه ودولته. وما نسب إلى الأمير من الرموز والحلول والاتحاد وغيرها من الرموز الصوفية ما هي إلا أباطيل واتهامات، وكذلك اتهامه بالحيرة وزعمهم أنه كان يكررها في كثير من كتبه.

أيا حيرتي وما الذي أصنع لقد ضقت ذرعاً فما ينفع

أكاد تراني منفطراً جواهري مبثوثة أجمع

وما نسب إليه:

فحيرتي ما كنت كائنة وحتى القيامة لا تقلع

فأشكو إلى حيرتي حيرتي فليس إلى غيرها مفزع

وعندما نرجع إلى كتاب «المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد» نرى عقيدته الصافية وفكره الرشيد ومنهجه المستقيم. ففي الفصل الخاص بإثبات الألوهية ذكر الحيرة بالحرف التالي: إن الفلاسفة جرّهم الجدل العقلي إلى قصور وحيرة. وهذا يناقض ما نسب إليه من فوضى فكرية ظلماً وعدونا، فالأمير عبد القادر نبراسه:

عليك بشرع الله فالزم حدوده حيثما سار سر وإن وقف قف

وقال من شعره العذب الجميل:

الحمد لله الذي قد خصني بصفات كل الناس لا النسناس

الجود والعلم النفيس وإنني لأنا الصبور لدى اشتداد الباس

وتحدثي شكراً لنعمة خالقي إذ كان في ضمني جميع الناس[1]

وهناك أمر مهم ويحدث كثيراً فيما يتعلق في تشابه الأسماء، فهناك غير

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 192 .

الأمير عبد القادر من العلماء كتبوا كتباً وألفوا في مواضيع التصوف فاختلط الحابل بالنابل على بعض الناس والتبست الأسماء والمؤلفات على بعض الناس، ومن هؤلاء العلماء عبد القادر بن محيي الدين الجيلاني المتوفى عام (561هـ) وعبد القادر بن محيي الدين قضيب البان المتوفى عام (1040هـ)، وعبد القادر بن محيي الدين المتوفى عام (1150هـ)، وعبد القادر بن محيي الدين الصديقي الأربلي القادري الذي عاصر الأمير وعاش بعده خمسة عشر سنة.

إن الأمير عبد القادر نسبت إليه أفكار ضالة وهدّامة بعد مماته وليس في حياته. فأصحاب المناهج الضالة أرادوه حلولياً اتحادياً مثلهم، وأما الفرنسيون فأرادوه صديقاً لهم يعترف بفضلهم عليه، ونسوا أنه جزء من شعب يعاني ويلات الاحتلال ووطن افتداه بروحه كما أمره خالقه وأرشدته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وهوية هذا الوطن ودينه وتاريخه وحضارته تعني له كل شيء في هذه الحياة[1].

والأبيات الشعرية التي وضعت في كتاب «المواقف» لا تمت إلى الأمير بصلة ؛ ليس لبعدها عن الجمال، إنما لركاكتها وفساد معتقدها وبعدها عن أسلوب الأمير في الشعر الذي اشتهر بعذوبته وسعة أفقه الفني والتاريخي والديني والاجتماعي، فأسلوبه من نوع السهل الممتنع.

ولقد عالج الأمير في أشعاره وأبياته الحكيمة مختلف جوانب الحياة كما عاشها بحلوها ومرها، ويظهر من خلال أشعاره تأثره العميق بكتاب الله عز وجل، وظهرت في أشعاره فحولة الشعراء ورصانة الحكماء، وما أحوجنا إلى

[1] المصدر نفسه ص 194 .

أن نغرس في نفوس النشء الجديد من أبنائنا معاني العزة والشهامة والإباء والأصالة والشجاعة التي وردت في حكمه وأن نردد معاً قوله:

وما كل شهم يدّعي السبق صادق	إذا سيق للميدان بان له الخسر
وعند تجلّي النقع يظهر من علا	على ظهر جردبل ومن تحته حمر[1]
وما كل من يعلو الجواد بفارس	إذا ثار نقع الحرب والجوُّ مُغبرُّ
وما كل سيف ذو الفقار بحدّه	ولا كلُّ كرّار عليّا إذا كرّوا
وما كلُّ طير طار في الجو فاتكاً	وما كلُّ صيّاح إذا صرصر الصقر

ولا عجب في اعتزاز الأمير بتراثه العربي الإسلامي الأصيل، ولا عجب في اختياره التراكيب المنبثقة من بيئة أجداده العرب، مثل قوله «عند تجلي النقع» و «ظهر جردبل» واستشهاده بقادة المسلمين الذين ملأت أمجادهم الدنيا في قوله «ولا كلُّ كرّار عليّا»[2].

4 . علاقة الأمير بالدولة العثمانية:

كان الأمير عبد القادر يحترم الدولة العثمانية من منطق شرعي، فهي كانت تمثل دولة الخلافة الإسلامية، والأمير لم يجعل دولته تابعة إدارياً لدولة الخلافة ولكنه كان تابعاً لها روحياً. وكان أثناء حكمه يخاطب السلطان العثماني بكلمة «مولاي خادم حضرتكم ومقبل تراب أعتابكم».

وكان يكن الاحترام والتقدير للدولة العثمانية وسلاطينها. ونظم الأمير قصيدة في مدح السلطان عبد المجيد فقال:

---

[1] الجردبل : الفرس القوي .

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 169 .

يا رب يا رب الأنام ومــــــــــن إليــــه مفزعنـــــا ســــراً وإعـــــلانا

يا رب أيــد بــروح القــدس ملجــأنا عبـــد المجيـــد ولا تبقيـــه وَجْــــلانا

ابـن الخلائـف وابـن الأكـرمين ومـن توارثـــوا الملـــك ســـلطاناً فســـلطانا

أحيـا الجهـاد لنـا بعـد مـا درس وضـــاعف المـــال أنواعـــاً وألـــوانا

فانصـره نصـرا عزيـزاً لا نظـير لـه حـــتى يزيـــد العـــدا همـــاً وأحـــزانا

واحفـظ عـلاه وأرسـل يا كـريم لـه مـــن الملائكــــة حفاظـــاً وأعـــوانا

واهـدم وزلـزل وفـرق جمـع شـانئه واجعـــل فـــؤادهم بالرعـــب مـــلانا

وانصـــر وأيـــد جـــيش نصـــرته أنصـــار دينـــك حقـــاً آل عثمـــانا

البـــاذلون يـــوم الحـــرب أنفســـهم لله كـــم بـــــذلوا أنفســــاً وأبـــــدانا[1]

الضـــاربون ببـــيض الهنـــد مرهفـــة تخالهـــا في ظـــلام الحـــرب نـــيرانا

والطـــاعنون بســـحر البيـــد عاليـــة إذا العـــــدو راهـــــا شـــــرعت بانا

الراكبـــون عتـــاق الخيـــل ضـــامرة تخالهـــا في مجـــال الحـــرب عقبـــانا

المصــــطلون بنــــار الحــــرب شــــاعلة مطلــوبهم منــك يا ذا الفضــل رضــوان[2]

ونظـم قصـيدة عـام (1853م) والـتي قـال فيهـا فـور وصـوله إلى مدينـة بورصـة أقتطف منها:

الحمــــد لله تعظيمــــاً وإجــــلالاً مــا أقبــل اليســر بعــد العســر إقبــالا

أشــــكر الله إذ لم ينصــــرم أجلــــي حــتى وصــلت بأهــل الــدين إيصــالا

وامتـد عمـري إلى أن نلـت مـن سـندي خليفــــة الله أفيــــاء وأظـــــلالا

الله أكــــرمني حقــــاً وأســــعدني وحـــط عـــني أوزاراً وأثقـــالا

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ، بديعة الحسني ص 88 .

[2] المصدر نفسه ص 88 .

هذه الأبيات دليل على ما كان يعانيه من ألم وسنيّ عمر في الأجواء الأجنبية وأثقال من الحزن أجبر على حملها أثقلت كاهله، فيشكر الله سبحانه وتعالى بعدما غمرته شمس الحرية، لتتوج صبره في وصوله إلى دار الخليفة الإسلامية.

أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن	قد أكمل الله فيه الدين إكمالا
عبد المجيد حوى مجداً وعزّ عُلاً	وجل قدراً كما قد عم أنوالا
هذا مقام التهاني قد حللت به	فارتع ولا تخش بعد اليوم أنكالا
يا رب فاشدد على الأعداء وطأته	واحم حماه وزده منك إجلالا
فرع الخلائف وابن الأكرمين ومن	شدوا عرى الدين أركاناً وأطلالا
كم أزمة فرجوا كم غمة كشفوا	كم فككوا عن رقاب الخلق أغلالا[1]

إن كتاب «حياة عبد القادر» الذي كتبه شارلز هنري تشرشل شوّه فيه صورة الدولة العثمانية من خلال خياله وأكاذيبه، فالدولة العثمانية نظر إليها الأوروبيون المستعمرون في تلك الفترة كامتداد للفتوحات الإسلامية التي تناقض حضارتهم ؛ بما تمثله من قيم الفكر ومفاهيم اجتماعية واقتصادية ونظم إدارية وأساطيل بحرية كانت تنافس أكبر أساطيلهم في البحار، والتي كانت تشيد في كل بقعة من عالمهم مسجداً وتنقل إليهم الحضارة الإنسانية الإسلامية بجوانبها المتعددة، كان الأمير عبد القادر يكنّ لها الاحترام والتقدير لتمسكها بالمبادئ الإسلامية، ويعتبرها حصن الأمة المنيع الذي يحمي كيانها من أعدائها الطامعين بخيراتها ومقدساتها.

---

[1] ردود وتعليقات على كتاب الأمير ص 154 .

كـان الأمـير عبـد القـادر يحـترم الخلافـة مـن منطلـق إسـلامي ديـني بحـت، وكـذلك كـان أبنـاؤه الـذين كـانوا يُعـدون مـن الإمبراطوريـة العثمانيـة، لـذلك استمروا علـى علاقـتهم الوديـة بالسـلطان، ووصـل أربعـة مـن أبنـاء الأمـير عبـد القـادر إلى لقـب «باشـا» وشـغلوا مراكـز مرموقـة في عهـده. وكـان الـولاة يحترمـون الأمـير ويعترفـون لـه بصـلاحيات واسـعة في إدارة بعـض شـؤون الـبلاد الشـامية ؛ وخاصـة مـا يتعلـق بالمهـاجرين. وكـان يـرى أن تصـحيح الواقـع والأخطـاء في الحكـم يـتم بفضـل رأي مـن هـم أكثـر حكمـة بـين العلمـاء والمفكـرين المسـلمين والأكثـر قـدرة علـى اقـتراح الحلـول المسـتنبطة مـن تجـارب الماضي من جهة والمعتمدة على نظرة مستقبلية ثاقبة من جهة أخرى.

وكـان يقـول: الرجـل العـالم العـارف يسـتطيع استشـعار المسـتقبل مـن النظـر والرجـوع بـه إلى أحـداث الماضـي في ضـوء التـواتر، وحقيقـة علـم التـواتر هـي التفكـير بمحسـوس يمكـن وقوعـه مـن خـلال هـذا العلـم، والإنسـان الـذي أوتي العلـم والمعرفـة يسـتطيع أن يستشـعر المسـتقبل بمـا يملكـه مـن سـعة الرؤيـة أمامـه الـتي تمكنـه مـن الإحسـاس والشـعور والتنبـؤ، وهـو لـدى بعـض العلمـاء الفقهـاء على جانب كبير من الدقة[1].

ولاحـظ الأمـير أن الضـغوط تتزايـد علـى الامبراطوريـة العثمانيـة، وأن التغلغـل الأجنـبي عـبر القناصـل والعمـلاء التجـاريين في الـبلاد الشـامية خاصـة أصـبح مزعجـاً لأصـحاب الحـرف والصـناعات المحليـة، وأن احتكـارات المحـلات التجاريـة مـن جانـب الطوائـف غـير الإسـلامية يـزداد باسـتمرار بمسـاعدة الـوكلاء التجـاريين الغـربيين وبنفـوذهم، كمـا لاحـظ أن البعثـات الدبلوماسـية تتـدخل بشـكل غـير معلـن في هـذه المجـالات، وأن نفوذهـا يتصـاعد، وأن السـلع

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 200 .

الأوروبية تغزو الأسواق وتنافس البضائع المحلية بتشجيع من بعض الولاة وبغض النظر من جانب بعضهم الاخر.

وكانت تلك الأمور تؤرق بال الأمير وهو يرى أن شبح الاستعمار وماربه تقترب ليس فقط على المستوى الشعبي في هذه البلاد، بل إلى دار الخلافة في إسطنبول، وإلى مساجدها وإلى رسالة تلك المساجد وإلى مآذنها ونداءات «الله أكبر حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح» وأن الخطر الداهم يتهدد هذه الأماكن ومكانتها في بنية المجتمع الإسلامي، فكان الأمير في ندواته العلمية في الجامع الأموي وفي دار الحديث النورية وفي داره ؛ كان في كل هذه الأماكن يحث الجميع على الحذر من المؤامرات التي تحاك في الظلام، وكان يشير إلى النبع وهو الشريعة الإسلامية ويذكر قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ **[البقرة:190]**.

وكان يبصّر الوجهاء والأعيان بعواقب التفرقة بين أبناء الشعب الواحد، وبأخطار الصدام المسلح بين الطوائف، وكان يدعوهم إلى عدم الوثوق بوعود الدول الأجنبية لأنه لا عهد لهذه الدول ولا ذمة ولا وفاء.

ونصح الجميع بالتمسك بالبعد الحضاري لهذه الأمة وبعدم التمادي في زرع الدمار والخراب والأحقاد وكل ما يدوي ويفحل ويحترق ويصبح رماداً مما يجعل البلاد لقمة سائغة في فم الاستعمار، وكان يتكلم وكأنه يقرأ هذا المخطط في كتاب أسود بين يديه، وينضوي هذا المخطط على ضرب الامبراطورية الإسلامية العثمانية من الداخل وتفتيتها إلى دول تسهل الهيمنة عليها، ثم تحجيم الامبراطورية العثمانية وبتر جذورها الإسلامية[1].

---

[1] المصدر نفسه ص 203 .

كان الأمير عبد القادر مهتماً بدعم الدولة العثمانية والتواصل مع خلفائها وسلاطينها، ففي شهر جوان من عام (1865م) عزم على السفر إلى الإستانة لزيارة الخليفة السلطان عبد العزيز خان، فاستقبله وأكرمه وكبر به، فطلب منه أن يصفح ويسرح المنفيين إلى جزيرتي قبرص ورودس اليونانية من الذين تورطوا في أحداث (1860م) بالشام، فلبى رجاءه وصدر الأمر العالي بتسريحهم[1].

لقد كانت حياة الأمير عبد القادر مجموعة من المآثر الخالدة، وأصبح بعد أن قضى على الفتنة الطائفية في سوريا محط أنظار العالم، وأمل دعاة استقلال العرب عن الدولة العثمانية التي تتالت هزائمها أمام روسيا، فاجتمعت الطليعة في بلاد الشام وبحثوا مصير سوريا وعقدوا المؤتمرات السرية في دمشق سنة (1877م) واقترحوا فصل البلاد عن الدولة العثمانية وتنصيب الأمير عبد القادر ملكاً عليها، لأنهم وجدوا فيه أملهم الوحيد لما يتمتع به من هيبة واحترام عند العثمانيين والعرب على حد سواء، وبعد قضائه على الفتنة الطائفية نال تقدير جميع الدول الأجنبية واحترامها، وهو الذي سبق له أن أنشأ دولة وقاد أمة وهو بالإضافة إلى ذلك العالم ذو المقام العالي والمجاهد ذو النسب الشريف.

وعندما عُرض على الأمير هذا الموضوع لم يتحمس له، ولم يرفضه ولكنه نصح أن يظل الارتباط الروحي بين البلاد الشامية والخلافة العثمانية قائماً، وبدأت رسائل الزعماء اللبنانيين تتوارد على الأمير مبايعة ومنها رسالة من الزعيم اللبناني يوسف كرم الذي كان منفياً في إيطاليا، وأما المشروع الفرنسي الذي كان يرمي إلى إنشاء إمبراطورية عربية تمتد من شمالي بلاد الشام حتى

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 158 .

قطاع عكا يرأسها الأمير عبد القادر، فقد رفضه الأمير بشدة في سنة (1860م) [1]؛ لأنه مطلب فرنسي استعماري وبعد سبع سنوات عندما ظهر المشروع العربي القومي تردد أيضاً في قبوله، لأنه كان يحترم الخلافة الإسلامية من منطلق ديني وكان عدم تحمس الأمير لهذا الأمر ناشئاً عن احترامه لمبدأ الخلافة الإسلامية، ثم جاء مؤتمر برلين وتولى عبد الحميد الخلافة وأصبح سلطاناً فتأخر الحل العربي[2].

5 . موقف الأمير من الفتنة الطائفية بدمشق:

أ . وضع الطوائف في بلاد الشام:

بلاد الشام تتميز بتنوع الطوائف واختلاف المذاهب وتباين العقائد، ففيها الأغلبية المسلمة السنية وفيها الشيعة والمسيحية التابعة لكنيسة روما من اليونان الأرثوذكس، والأرمن والجورجيين واليعقوبيين والبروتستانت ثم الأقلية اليهودية، وقد كان للموارنة الكاثوليك وضع خاص لارتباطهم بكنيسة روما مباشرة ولصلاتهم المتميزة مع دولة فرنسا، والعدد الأكبر من هذه الطوائف يتركز في جبل لبنان.

وفي فترة حكم محمد علي للشام في الأربعينات من القرن التاسع عشر، قام ابنه إبراهيم باشا باعتماد أسلوب إداري يقوم على مبدأ المساواة بين الطوائف في المعاملات الأمر الذي أخل بالتوازن المتوارث، وأضر بالامتيازات والمكتسبات الاقتصادية والاجتماعية التي حققتها بعض الفئات على حساب الأخرى، فكان ذلك تمهيداً لتعاون بعض الطوائف مع الدول الأوروبية مباشرة والتزود منها بالسلاح وبالمال دون اعتبار لمصالح الدولة

[1] فكر الأمير عبد القادر الجزائري ص 228 .
[2] فكر الأمير عبد القادر الجزائري ص 229 .

العثمانية وسيادتها، فسمح للإنجليز بالاتصال بطائفة الدروز، بينما ساندت فرنسا الطائفة المارونية وشجعتها على الوقوف ضد من يمس بمصالحها، مما هيأ الظروف لبداية حدوث الاضطرابات بعد ذلك بين طائفتي الدروز والموارنة منذ عام (1845م).

وبعد أن أصدر السلطان عبد المجيد عام (1856م) مراسيم عرفت بالخط الهمايوني الذي أقر نهائياً المساواة بين أفراد مختلف الملل والطوائف والأديان مع المحافظة على أحوالهم الشخصية، أصبحت الأوضاع في مجمل بلاد الشام

وخاصة مع حلول عام (1857م) تنذر بانفجار خطير، وقد بدأت شرارته بعدما استولى فلاحون موارنة في شمال جبل لبنان على أراض الإقطاعيين، وامتنع موارنة الجنوب عن دفع الإيجارات إلى الملاك من الدروز.

واشتعلت الفتنة الطائفية في بلاد الشام في شهر جوان عام (1860م) واعتدى بعض الموارنة على الدروز، فقام الدروز والغوغاء من الناس بإيعاز من بعض أشباه المشايخ وكبار القوم الذين يظنون أن أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبلادة والجفوة، وحجتهم في ذلك تجبر النصارى وتكبرهم وتجاوزهم حدهم وخروجهم عن العهود الذمية وتعلقهم بالدول الأجنبية، فراحوا يأخذون في كل حدب صوب الثأر بالحرق والقتل والسلب ونهب الأهالي المسيحيين والراهبات والمبعوثين الفرنساويين في جبل لبنان وطرابلس وصيدا وزحلة ودير القمر واللاذقية وغيرها، وعاثوا في الأرض فساداً وفسقوا واعتدوا على البنين والبنات، وخربوا القرى والمدن وسفكوا الدماء ونهبوا الأموال ومالوا عليهم كل الميل، وبادرت لمساعدتهم والغنيمة معهم فرسان دروز الجبل الشرقي، تذبح النصارى ذبح الأغنام وتعتدي على الأموال والأولاد، ودام هذا الأمر إلى غاية عيد الأضحى في شهر جويلية من عام

(1860م). ولما هرب كثير من النصارى إلى دمشق، ظانين أن الحكومة سوف تحميهم من بطش الدروز، تغاضت الحكومة في بداية الأمر عن ذلك فزاد الدروز من طغيانهم وبطشهم والتخويف والتهديد والتنكيل بمن فر أو سكن في دمشق[1].

ب . ولم يبق الأمير مكتوف الأيدي:

لاحظ الأمير أن الأمر قد خرج من أيدي الأعيان الوجهاء، وكان الأمير قد أعد للأمر عدته وتأهب لكل احتمال معاد، فجمع كل قادر على حمل السلاح من المهاجرين الجزائريين واشترى لهم السلاح، وكان قام بتدريبهم على إخماد الحرائق، وعلى عمليات الإنقاذ الأولى، وعندما تناهى إلى مسامعه ذات صباح أن الجموع تتجه نحو حي القصاع استدعى فرسانه الأشداء وخرج هو وأبناؤه كلهم، وقام بنفسه بحملة إخماد الفتنة الطائفية، ووزع المهمات على رجاله من شرفاء الناس وعلماء المسلمين وكبرائهم وغيرهم من أبناء دمشق المخلصين لحماية المعتدى عليهم ما استطاع وإخماد الفتنة، وفتح داره وبذل كامل همته بأمواله ورجاله وسلاحه في خلاص من قُدرتْ عليه المهالك، ومرافقة من كان خارج الميدان إلى حصن الأمان في القلعة التي خصصها الوالي لحمايتهم، فكان الأمير وأتباعه من سكان الشام يطوفون على من كان في الميدان في سلامة وأمان ويذودون عليهم ليل نهار، يحرسون النصارى من الأشقياء والأشرار، وكان يواسيهم ويهنئهم بالسلامة ويطيب قلوبهم بالأمن والأمان[2].

وكان الأمير قد أصدر أوامره لحراسة أبنية السفارات الأجنبية في دمشق، ونقل البعثات والدبلوماسيين إلى دور الأمير في حي العمارة «زقاق

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 149 .
[2] المصدر نفسه ص 150 .

النقيب»، وأشرف بنفسه على عمليات الإنقاذ وإخماد الحرائق التي بدأت تشتعل في بعض المنازل في حي القصّاع، وكان جنود الأمير يقتحمون النيران لإنقاذ السكان ونقل الأمهات والأطفال إلى الأديرة، وكان الأمير يتجول بين الأحياء غير مبال برصاص القناصة والطلقات الطائشة وهو على ظهر حصانه يصدر الأوامر ؛ حتى بلغ عدد من نقلوا إلى دوره في حي العمارة خمسة عشر ألفاً بين رجل وامرأة، وعندما غصّت الدار بهذا العدد الكبير من السكان نقل بعضهم إلى القلعة.

وفي اليوم الثالث من تلك الأحداث الفظيعة قامت الجموع بمهاجمة حي العمارة، فخرج إليهم الأمير وما أن وقعت عليه الأنظار حتى ألقى الله الرعب في قلوب الجموع المهاجمة فعادوا من حيث أتوا، وقبض فرسان الأمير على بعض منهم وكم كانت دهشة الأمير كبيرة عندما اكتشف أن بينهم عدداً من المسيحيين اللبنانيين، فسأل شاباً كان يتقد حماسة هستيرية ما الذي جاء به إلى هذه المعركة المشينة؟ فأجاب بعد نقاش معه: وما السبيل إلى القضاء على هذه الدولة العثمانية سوى جعل الحكم غير مستقر في البلاد وزعزعة أركانه، إن فرنسا تريد الأخذ بيدنا نحو حضارتها وما جنودها في ميناء بيروت سوى رسل لهذه الحضارة.

فأمر الأمير عبد القادر بإخلاء سبيل هؤلاء، وراعه أن يجد البلاد قد أصبحت في محنة حقيقية، وكان عليه معالجة الأمر بما أوتي من شجاعة وحكمة وموهبة في القيادة والحوار مع أقطاب الحكومات الأوروبية[1].

ج ـ وقوف الأمير ضد مخططات فرنسا في الشام:

احتجت الدول الأوروبية وهددت بالتدخل في (2 أوت 1860م)،

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره ص 205 .

واتفقت على الوقوف بجانب النصارى وحمايتهم عن قرب وكانت ذريعة مباشرة لاحتلال الشام، فتطوعت فرنسا لذلك لداعي قربها المذهبي من المسيحيين في لبنان، ولكونها المشرفة على الكنائس في بيت المقدس، وراحت بعد أسبوع ترسو بأسطولها الحربي في ميناء بيروت وتنزل قواتها، وتهدد الدروز بتأديبهم وقصف دمشق، وبذل الأمير كل ما في وسعه لتفادي الاحتلال[1].

وبعد أن تأكد الأمير أن القوات الفرنسية وصلت إلى رياق في طريقها إلى دمشق، امتطى صهوة جواده خفية وأخذ يقطع الجبال والوديان لا يهاب وحشة الليل أو وعورة الطريق، وعندما وصل إلى قرية «قب الياس» أرسل من يخبر الجنرال بوفر قائد الحملة الفرنسية بوجوب الاجتماع به، وعين المكان، وكان مشهداً للقاء جزائري . فرنسي على مستوى سياسي وعسكري، وطلب الأمير من الجنرال أن يخبر حكومته بأن دخول قواتها دمشق أو قيامها بأي تحركات عدائية يلغي كل تعهد من قبل الأمير للإمبراطور لويس فيليب بعدم العودة إلى الجزائر، وأن الأمير سيكون أول المقاومين لأي حملة عسكرية تهاجم البلاد، وكان على الجنرال أن يخبر حكومته التي أعادت حساباتها بعد هذا الإنذار، لأن إلغاء التعهد يعني احتمال عودة الأمير عبد القادر إلى الجزائر وعودة الحرب الضروس إليها[2].

وهذه الفتنة التي كان المحتمل أن يذهب ضحيتها عشرات الالاف من أبناء حيّ القصاع في دمشق في سبيل مخطط استعماري كان هدفه احتلال سوريا ولبنان بحجة الدفاع عن المسيحيين ؛ كان الأمير لها بالمرصاد، فعمل على

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 150 .
[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 205 .

إخفاق ذلك المخطط وقضى على المؤامرة التي دُبرت بليل[1].

وقد أسرعت الدولة العثمانية فأرسلت فؤاد باشا وزير الخارجية إلى دمشق وفوضت إليه الأمر المطلق للقضاء على الفتنة، فأجرى الأحكام العرفية، وقبض على الألوف من أهلها غوغائها ومشايخها وكبرائها ورؤساء مجالسها وبعض باشاوات العسكر، وأمر برد المسلوبات وأخذ القصاص من المعتدين، وأعدم وسجن ونفى من ثبت عليه الجرم وقامت عليه البينة، وبعدها جرى الاتفاق مع فؤاد باشا على أن يعوض المسيحيون كل ما خسروه. ومنح أهل الجبل حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة العثمانية، يرأسها رجل نصراني لمدة ثلاث سنوات اقترحته الدولة العثمانية ووافقت عليه أوروبا، واستتبت الأوضاع وانسحبت فرنسا بقواتها في بداية صيف (1861م) وكفى الله المؤمنين شر القتال[2].

وقد طلب فؤاد باشا وزير الخارجية من الأمير عبد القادر السماح له بتعيين كتيبة مسلحة من المهاجرين الجزائريين مهمتها الحفاظ على الأمن في دمشق وضواحيها، وعيّن قائداً لها محمد بن فريحة أحد أبناء عمّ الأمير عبد القادر، وأجرى استعراضاً عسكرياً تقديراً للأمير على جهوده في وأد الفتنة، وتقدمت تلك الكتيبة الجزائرية بأسلحتها ذلك العرض[3].

د. الملوك والحكام يشكرون الأمير على فعله الجميل:

أرسل الخليفة العثماني الوسام المجيدي العالي الهمايوني من الرتبة الأولى إلى الأمير عبد القادر مع رسالة تقدير حملها إليه الصدر الأعظم علي باشا في

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 207 .
[2] حوار مع الأمير عبد القادر ص 151 .
[3] الأمير عبد القادر حياته وفكره ص 208 .

السابع من (صفر 1277هـ الموافق لعام 1860م) [1]، وكان مع فرمان الشكر والعرفان مكافأة مادية، ثم توالت رسائل الشكر وقصائد التهنئة من الأدباء والشعراء والعلماء والأعيان من المسلمين وغيرهم، منها رسالة من المجاهد الكبير قائد الجهاد في داغستان والشيشان الشيخ محمد شامل رحمه الله، وأما النياشين والتشريفات والهدايا الأجنبية فكانت كالتالي:

ـ هدية من الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا الكبرى، وكانت بندقية مكتوباً على ظهر صندوقها عبارة: من حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة بريطانيا العظمى إلى صاحب السمو الأمير عبد القادر، تذكاراً للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق سنة (1860م)، مرفقة برسالة حررها قنصل دولة إنجلترا في دمشق المكلف من الحكومة الإنجليزية مؤرخة في أوت (1860م).

ـ نيشان وسام الشرف من الرتبة الأولى من إمبراطور فرنسا نابليون الثالث، مرفق برسالة من وزير خارجية فرنسا عن الإمبراطور مؤرخة في (31 أوت 1860م).

ـ النيشان الكبير رتبة أولى المدعو بنيشان المخلص من ملك اليونان أوتو الأول استلمه في شهر (سبتمبر 1860م).

ـ نيشان موريس والعاذر من غاريبالدي ملك إيطاليا الجديدة وهو أقدم نياشين الخيل والفروسية استلمه في شهر سبتمبر عام (1860م).

ـ نيشان صليب النسر الأحمر من الطبقة الأولى من غليوم الأول ملك بروسيا، استلمه في (12 نوفمبر 1860م).

[1] المصدر نفسه ص 208 .

ـ نيشان النسر الأبيض أعظم الفرسان رتبة من طرف الملك ألكسندر الثاني قيصر روسيا استلمه في جانفي (1861م).

وقد وضع كل هذه الأوسمة على صدره وأخذ صوراً فوتوغرافية بها هي والأوسمة التي قلدها له الخليفة العثماني، وضعها في أعلى الصدر وإلى أسفل منها بقية النياشين، ولم تكن هذه الصور بالنياشين للتزين أو التفاخر والتكبر، بل كان الغرض منها أن تنشر في الصحف الأوروبية والعالم فيرى الناس صورة المسلم الحقيقي الداعية للسلم والأمان ؛ الذي يتعامل مع أصحابها المعاهدين من أهل الذمة وفقاً لأحكام شريعة الإسلام السمحة التي لا تسمح بالاعتداء عليهم وتقتيل العزل منهم، وتذكير وتحذير لكل من سولت له نفسه بالعودة إلى مثل تلك المغامرات الخطيرة التي حدثت في بلاد الشام. وهذه الأعمال من الأمير عبد القادر تدل على أن الإسلام بعيد كل البعد عن الحقد والتعصب وسفك دماء المسيحيين الذين عاشوا في أوساط المسلمين مئات السنين بعقد الذمة، وأما حرب الأمير مع فرنسا فهي لكونهم غزاة معتدين لا لأنهم مسيحيون[1].

6 . علاقة المجاهد شامل الداغستاني بالأمير عبد القادر:

شاء المولى عز وجل أن يكون جهاد الإمام شامل ضد الروس في نفس الفترة التاريخية التي حمل فيها الأمير عبد القادر راية الجهاد، فتشابهت أحوالهم، فالإمام شامل الداغستاني الملقب بأسد القوقاز وصقر الجبال، جاهد ضد جحافل الروس لمدة خمسة وعشرين سنة بعد أن نجح في توحيد القبائل، رغم تعدد مكوناتها الثقافية واللغوية، وعمل على تأسيس جيش حديث، ووضع أسس إدارة منظمة حسب مبادئ الشريعة الإسلامية، كما عرف بحنكته

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 152 – 153 .

السياسية وفروسيته التي أبداها في الحرب، واكتسب شرعية في ممارسة السلطة وقيادة المسلمين بوطنه وبين أهله عن طريق المبايعة، فجمع بين رضا الخاصة والعامة، مما سمح له بأن يلقب بأمير المؤمنين.

وكان الأمير عبد القادر يسمع عن الإمام المجاهد شامل وعن جهاده وهو في الجزائر، وتعرف عليه وحظي لديه بالتقدير والاحترام، لكن لم تشأ الأقدار أن يلتقيا جسدياً لكنهما كانا متقاربين روحياً وفكرياً وثقافياً كما قال رسول الله ﷺ : «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**». فكان الأمير عبد القادر يتبادل معه الرسائل طول مدة اعتقاله من عام (1860م إلى 1869م) ويسعى بكل الوسائل وبكل ما لديه من معارف من أجل الحرص على مكانته وشرفه وإطلاق سراحه من الأسر، وقد كانت للإمام شامل تربية دينية وورع وثقافة إسلامية متينة، درس العربية والفلسفة والفقه والأدب العربي، وتعمق في التصوف السني، وتشرب الثقافة الإسلامية وكان على معرفة واسعة بها، وعاش حياة تميزت بالبساطة والتمسك بالعقيدة والتشبث بالوطن والوقوف بحزم وشجاعة أمام غزو أجنبي متفوق في المستوى الحضاري وفي العدد والعدة. وولد الإمام شامل علي بن دينغو عام (1796م) في غيمري بداغستان وتعلم في المساجد مبادئ العلوم الدينية واللغوية، وتفوق بشجاعته على أقرانه، وتمتع بقوة بدنية عظيمة، وكان متعطشاً للمعرفة منذ صباه، وتأثر برفيقه ومعلمه الشيخ محمد الغمراوي المشهور بكنيته غازي مولا، داعية الإصلاح الديني، وصار من أتباعه ومريديه.

واستطاع توحيد المسلمين في داغستان والشيشان في الكفاح ضد الاحتلال الروسي الذي رسخ أقدامه في داغستان والشيشان مستغلاً الخصومات

القبلية والتنابذ بين حكامها.

ففي عام (1829م) بدأ الإمام غازي ملا في تحريض شعوب الجبال للجهاد لوقف الزحف الروسي على أراضي المسلمين في القوقاز، وأمام تماسك قوة المجاهدين، شن الروس هجوماً واسعاً وأحرقوا البيوت على ساكنيها كي يجبروا المجاهدين على الخروج والاستسلام، وبعد مقتل غازي ملا عام (1832م) في معركة غيمري المشهورة لم ينج إلا القليل، وكان منهم الإمام شامل الذي تمكن من الفرار رغم إصابته البالغة واعتقد المجاهدون بمقتله في المعركة، فاختير حمزة بك قائداً بعد تزكيته من الشيوخ، وبعد عامين وأثناء ترتيب الصفوف وتدعيم قوة الجيش لقي حمزة بك الهزيمة، ثم اغتيل وهو يؤم المصلين في المسجد الجامع بمعقل الجهاد في خرتنك بداغستان.

فبويع شامل إماماً عام (1834م) وأعاد تنظيم جيشه، واستفاد من الأسرى الضباط والهاربين من الجيش الروسي في تطوير قدرته العسكرية على النمط الأوروبي الحديث، كما نظم العمل البريدي في دولته، وأنفق على الجيش من ريع الأراضي الزراعية التي ضمت إلى المساجد، كما نظم جمع الزكاة لتجهيز الجيش، وبدأ في تدعيم ركائز نفوذه في القوقاز المعتمد على الشيشان وداغستان وحلفائهم، حتى امتدت منطقة نفوذه من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأسود غرباً، وكان يسعى للمساواة بين القوميات المختلفة بغض النظر عن اللغة والعرق والطبقة، واستمد التشريعات الشخصية والمدنية من الشريعة الإسلامية، وحاول أن يستفيد من القوى الدولية لمساعدته، واستمر بالجهاد بأسلوب الكر والفر إلى أن نفذ انسحاباً تكتيكياً إلى داخل جبال أفاريا وتوغل خلفها عبر الغابات الكثيفة، فكان ينقض على العدو من جهات مختلفة.

واجه الإمام شامل جحافل الروس بالقوقاز وحقق انتصارات مدوية، ولقنهم دروساً في فن الحرب، واستمات في الدفاع عن دينه ووطنه، وخلال حرب القرم التي استمرت من عام (1853م إلى 1856م) سعى إلى فتح خط اتصال بين كل من تركيا وإنجلترا وفرنسا لدعمه العسكري بعد أن تحالف معها في عدائها لروسيا، فمنحه السلطان العثماني رتبة خان قفقاسيا وأمده بالمساعدات العسكرية، ولما وضعت الحرب التركية الروسية أوزارها، بدأت القوات الروسية بتركيز ضرباتها العسكرية على الجبهة القوقازية فحرقت الغابات التي يحتمي بها المجاهدون، وألبت الأهالي عليهم، واستمالت عشرات القبائل التي أنهكتها الحرب والفقر والتشرد، وتخلى عنه حكام المسلمين المجاورون له، واشتد عليه الحصار واضمحلت قواته، وقتلت إحدى أخواته وزوجته وابن صغير له، وبعد احتلال الروس للشيشان في عام (1858م) التجأ إلى قلعة فيدينو، ثم أوى إلى غونيت على وادي سالاك في (أفريل 1859م). وفي معركة فاصلة انقض الروس على الثوار الأربعمئة الباقية معه، فحاصروهم من كل جانب فسقط جريحاً في ساحة المعركة، وبعد مقاومة مستميتة لأصحابه عرض عليه القائد العام للقوات الروسية وحاكم بلاد القوقاز الجنرال بريانتسكي الانسحاب إلى الأراضي العثمانية، وبعد أن توسط في المحادثات ضابط أرمني في جيش القيصر يسمى لازاريف طلب له الأمان من الروس في (6 سبتمبر 1859م). فنال عهد أمان له ولأصحابه يضمن حريته وإخلاء سبيله مع أتباعه والذهاب إلى الأراضي المقدسة بالحجاز، غير أن من أعطى له العهد وكلمة الشرف بإطلاق سراحه غدر به، فسلم أمره لمشيئة الله واستسلم للقدر بعد جهاد دام حوالي خمس وعشرين سنة.

وفي العاصمة سان بطرسبرغ استقبله القيصر ألكسندر الثاني، ثم نقل بعدها إلى كالوغا جنوب غرب موسكو سنة (1869م) ثم إلى مدينة كييف بأوكرانيا في سنوات الاعتقال الأخيرة، وبعد أن تدخلت في شأنه شخصيات لإطلاق سراحه أرغم العدو على الاعتراف بشهامة مواقفه البطولية، واستقبل من طرف قيصر روسيا ألكسندر الثاني مرة أخرى ورحب به في سان بطرسبرغ واتجه إلى إستانبول، ومنها ذهب إلى المدينة المنورة وتوفي بها في (4 من فيفري 1871م). وبذلك طويت صفحة ناصعة من صفحات التاريخ الإسلامي[1]. وخلال العهد الشيوعي في الاتحاد السوفياتي منذ (أكتوبر 1971م حتى 1991م) شنت حملة شرسة ضد جهاد الإمام شامل وخاصة منذ عام (1950م) وصور لدى عامة الناس والجهال بأنه رجعي عميل للإمبريالية الأجنبية، وجرت حملة ضخمة لتطهير كتب التاريخ السوفياتية من مسيرته وجهاده ونضاله وكفاحه، غير أن الله يدافع عن الذين امنوا حتى في مرقدهم فأنصفه العقلاء والعلماء والمؤرخون.

وأحسب أن مسار حياة الإمام شامل وحتى بعدما التحق بالرفيق الأعلى، في طبيعة جهاده وتخلي حكام المسلمين عنه، واستسلام القبائل المساندة له للعدو وطلبه للأمان، وغدر العدو وإخلافه للعهد والوعد واعتقاله بدون وجه حق، وهجرته ووفاته في الغربة ومحاولة طمس ذكراه الطيبة ؛ كل ذلك كان يشبه ويتطابق مع جهاد الأمير عبد القادر واعتقاله وغربته وتاريخه المجيد[2].

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 170 – 171 .
[2] المصدر نفسه ص 170 – 171 .

أ. رسالة من الإمام شامل إلى الأمير عبد القادر:

كان دفاع الأمير عبد القادر عن المسيحيين العزل بالشام محل تقدير واحترام عند عقلاء البشر من المسلمين وغيرهم، ومن بين هؤلاء الإمام شامل الذي أرسل له رسالة من منفاه في روسيا جاء فيها:

إلى الذي اشتهر بين الجميع الكبار والصغار، الذي يتميز بصفاته المتعددة والرائعة عن باقي الرجال، الذي أطفأ نار الخلاف قبل أن يستفحل أمره، الذي اقتلع شجرة الشر التي ليست ثمارها سوى وجه الشيطان. المجد لله الذي منح خادمه القوة والإيمان، إننا نتحدث عن الصديق الوفي الحقيقي عبد القادر العادل: السلام عليك، ليحمل نخيل الاستحقاق والشرف على الدوام ثماره بشخصك، لتعلم أن أذني قد صدقت بما هو مكروه على السمع وفظيع على الطبيعة الإنسانية، وإني ألمح هنا إلى الأحداث التي جرت مؤخراً في دمشق بين المسلمين والمسيحيين، حيث تصرف الأولون بأسلوب غير لائق بأتباع الإسلام، الذي يؤدي إلى كل أنواع التجاوزات. إن غشاوة قد غطت روحي، ووجهي ـ الهادئ عادة ـ امتلأ بظلال من الحزن، وقد كنت أقول لنفسي: الشر على الأرض وفي البحر بسبب شرور وحقد الإنسان.

لقد دهشت من عموم المواطنين الذين انغمسوا في مثل هذه التجاوزات فنسوا كلمات الرسول ﷺ في حق المعاهدين وحمايتهم، لكنني عندما اطلعت على أنك اويت المسيحيين تحت جناح الطيبة والمحبة، وأنك تصديت للذين يتصرفون خلافاً لشريعة الإسلام، وأنك ربحت سعف النصر في مسرح المجد «نجاحاً تستحقه عن جدارة» فإنني قدرتك كما الله تعالى العلي القدير سيباركك يوم لا ينفع مال ولا بنون، والواقع أنك نفذت كلام الرسول الأكبر الذي أوفده الله تعالى كدليل على محبته لمخلوقاته المتواضعة،

وأقمت حاجزاً ضد أولئك الذين تخلوا عن مثاله الكبير، ليحمِكَ الله من الذين يخالفون شريعته، وفي رغبتي التعبير لك عن الإعجاب الذي أكنّه لتصرفك أسارع بإرسال هذه الرسالة كنقطة فائضة من ينبوع مشاعري الودودة[1].

ب . رد الأمير عبد القادر على رسالة الإمام شامل:

جاء فيها: هذه الكلمات من يد من هو بحاجة كبرى إلى رحماته الوافرة، عبد القادر بن محيي الدين الحسني موجهة إلى أخيه وصديقه في الله شامل الأمجد. ليبارك الله أنت ونحن في بلادنا وفي خارجها، ليعم سلام الله وبركته علينا على الدوام.

لقد استلمنا رسالتك المحترمة وكلماتك الطيبة التي أسعدت قلبنا. إن ما سمعته بخصوصنا والذي منحك هذا القدر من الرضا حول دفاعنا عن المحتاجين، والحماية التي قدمناها لهم سواء لأشخاصهم أو لأملاكهم بقدر ما سمحت لنا به قدرتنا وإمكانياتنا، كل هذا كما تعلم محمود ولكنه ليس سوى طاعة لمبادئ إيماننا المقدس والمشاعر الإنسانية، إن الرذيلة مكروهة من قبل كافة الأديان، والسماح لأنفسنا بالانقياد لها ليس سوى ابتلاع السم والاحتفاظ به في المعدة. في حين أنه كما قال الشاعر: الرجل عند التجارب معصوب العينين بشكل يجعله يعتقد أن ما يراه هو الأنسب. والواقع هو أن العكس هو الصحيح، وعلينا أن نكرر: إنا لله وإنا إليه راجعون. فعندما نفكر بمدى قلة الرجال المؤمنين فعلاً، وإلى أي مدى المدافعون وأبطال الحقيقة نادرون، وعندما نرى أشخاصاً جهلة يعتقدون أن مبادئ الإسلام هي الشدة والصرامة والتجاوزات الوحشية، فقد ان الأوان لنكرر هذه

---

[1] فارس الجزائر الأمير عبد القادر ، مصطفى طلاس ص 321 .

الكلمات، صبر جميل والله المستعان .. وقد قيل لنا أيضاً إنك طلبت زيارة الأماكن المقدسة، مكة والمدينة، ونأمل أن يوفقك الله لتحقيق رغباتك.

وفي الواقع فإن إمبراطور روسيا هو أحد الملوك الأكثر احتراماً، إنه أحد الذين يرغبون برؤية سيرة الأعمال المذكورة في الكتب، ونأمل بالتالي بأن عظمته سيوافق على رغباتك دون عقبات. فهكذا تصرف السلطان نابليون الثالث تجاهنا واتخذ تدابير في صالحنا لا يمكن لعقل الإنسان تصورها، ثم علينا أن نضع أملنا في الله وحده وهو وحده الذي يستحق تعظيمنا[1].

7 . الأمير عبد القادر والماسونية:

اتُّهم الأمير عبد القادر بأنه تعاطف مع الماسونيين ثم انتسب إلى محافلهم، وروّج لهذه الدعاية الكولونيل وليام تشرشل صاحب كتاب «حياة عبد القادر» ولم ينقل بأمانة الكثير مما ذكره له الأمير عبد القادر من صفاء ووضوح تاريخه، ثم نقل عنه هذه الفرية، وأذاعها من العرب جرجي زيدان ومن سار على نهجه الملتوي والمخادع، وبجرة قلم أعلنت الحركة الماسونية بعد وفاة الأمير عبد القادر في (26 ماي سنة 1883م) أنه انتسب إليهم واحتفوا به ونعَوه، لكنهم لم يجدوا دليلاً واحداً يقدمونه لإثبات ما روّجوا له، ولقد زعموا أن هناك نصوصاً ماسونية موثقة تثبت انتماء الأمير للحركة، وأنه كُلّف من طرف الحكومة الفرنسية بمهمات انقاذية للمسيحيين في الأحداث الدامية التي وقعت في دمشق في شهر جويلية من العام (1860م)، فقدر نابليون الثالث هذه المبادرة وقلد الأمير وسام الشرف الفرنسي وأرسل له ما يسمى بالجوهرة أو الرمز المعدني عرفاناً للأمير بجهوده.

---

[1] المصدر نفسه ص 324 .

والحقيقة التاريخية أن الأمير عبد القادر لم يكن يوماً ماسونياً ولا خادماً لفرنسا وقنصلها في دمشق، والمبادرة التي قام بها كانت خالصة لوجه الله تعالى، ولم تكن لدنيا يصيبها أو وسام يبتغيه.

وأما بالنسبة للمحافل الماسونية مثل محفل هنري الرابع الذي أرسل إلى الأمير في (16 سبتمبر 1860م) كتابات شكر وتقدير واعتراف له في عدة رسائل أخرى بالحب للإنسانية جمعاء، مقترحاً عليه أن يكون عضواً في الماسونية دون أن يكون عضواً مكرساً لأنه من الرجال العظماء، فهذا ثابت تاريخياً ولا جدال فيه.

لكن من يستطيع أن يمنع أحداً من الكتابة للغير وأن يشكره ويقترح عليه أموراً قد يراها بصدق أو بنية مبيتة تناسب قدر من اقترحت عليه ويقدم له هدية؟ والأمير ليس له ذنب إذا حاولت المحافل الماسونية في كتاباتها ومحافلها أن تستفيد من اسمه وتكذب عليه محاولة من خلال هذا الإفك والكذب والزور البهتان أن تنشر أفكارها الهدامة في المجتمعات العربية والإسلامية بالمشرق[1].

لقد نسبوا إلى الأمير مقولة بأنه لم يلمس في المبادئ الماسونية ما يتعارض وشريعة القران الكريم والسنة والفقه الإسلامي؛ وهذا من الافتراء والكذب المبين.

وحاولت الحركة الماسونية فعل كل ما في وسعها لتجعل الأمير عبد القادر أحد المنتسبين إليها، ولكنها لم تفلح، وكل ما ذكر في تاريخهم عن الأمير مثل الأسئلة عن واجبات الإنسان تجاه الله وتجاه الإنسانية أو الأسئلة حول خلود النفس والمساواة والإخاء والحرية أو حضوره في محفل الأهرام في

[1] المصدر السابق .

الإسكندرية أثناء عودته من الحجاز في (18 جوان 1864م)، أو في محفل هنري الرابع للشرق الكبير الفرنسي في (30 أوت 1865م) وقصة التكريس والامتياز والدرجات الماسونية الثلاثة وغيرها من أكاذيب ؛ فلا أصل لها وهي من نسج خيالهم[1].

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[الحجرات:6].

لقد حاول تشرشل ومن سار على طريقته من أمثال جرجي زيدان وغيره ربط الأمير عبد القادر بالمحافل الماسونية، لكنهم عجزوا عن تقديم الدليل مما يبطل هذا الخبر المزعوم من أساسه.

وهدف هذه الكذبة هو أوسع مما يدركه الإنسان للوهلة الأولى، أعني الدعاية لهذه الجمعية في الجزائر بصورة خاصة وفي العالم الإسلامي، فهذا المجاهد هو رمز كفاح أمة وقدوة لعدد كبير من أبناء الشعب الجزائري والشعوب الحرة.

فالكذبة من فنون الدعاية البراقة التي تحتاجها الجمعية، رأس الهرم فيها مجهول دوماً، وهي متعددة الشعارات والألوان، وفي نظامها الداخلي الغموض والطاعة العمياء لرأس الهرم، وربما لرؤوس لا تشجع الالتزام بالدين، بل تعتبره عدوها الأزلي. وهذا المبدأ غير سري فيها، ففي عام (1858م) افتتح في تونس محفل لأطفال قرطاجة برئاسة أنطونيو فينا، وعدد من المحافل جاءت من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا ومحفل «المثابرة» برئاسة بامبيو. ولكن بعد استقلال تونس أمرت الدولة بإحراق وثائق المحافل وإغلاقها.

[1] حوار مع الأمير عبد القادر ص 156 .

وفي الجزائر كانت المحافل الماسونية سرية جداً ولم يعلن عنها، وعرفت من وثائقها أثناء الحرب العالمية الثانية حينما أمرت حكومة فيشي بحل الجمعيات السرية ومصادرة وثائقها فعرف أن محفل أطفال مارس سكيكدة فتح عام (1814م) سراً ومقره عام (1926م) في شارع يوغرطة برئاسة ألبيرت أوبارتين، وبولاية قسنطينة محفل «نجمة الساحل» عرف عام (1901م) في بجاية، ومحفل «أخوة كلاماً» في قالمة، الذي كان يحث في جميع محاضراته العلنية على الطاعة والعمل على تحقيق مجتمع إنساني متضامن حر بعيد عن الله وعن الدين، ثم محفل «سرتا» في قسنطينة ولا يعرف تاريخ لتأسيسه، وشعاره عين الإنسان تحتها مثلث وسطه نجمة خماسية ومطرقة، وفي هذه المدينة يوجد محفل «هبوبة» عرف عام (1900م)، ويذكر الباحث الأستاذ يوسف مناصريه أن في الجزائر محافل أخرى منتشرة في الشرق الجزائري ومناطق القبائل في بجاية وغيرها ومنها محفل »الوفاق الطائفي» بسطيف، ومحفل «جون جوريس»، ومحفل «نوميديا» بسوق الأهراس، ويذكر الباحث أن غاية هذه المحافل هي الوحدة والهدف منها منع تعليم أبناء المسلمين اللغة العربية والقران في المدارس والكتاتيب بطرق سرية للغاية ولكن المعلن كان محاربة الأديان بشكل عام وسحقها وإزالة رجالها من طريقها.

وكان القصد من إشاعة أن الأمير عبد القادر كان من أعضائها انتشار هذه الفرية أو هذا الخبر الكاذب في الجزائر بعد ترجمة كتاب تشرشل إلى الفرنسية. والدليل أنه في عام (1901م) افتتح عدد من المحافل في الجزائر بشكل علني ولم يبق سرياً منها مثلاً «محفل أطفال مارس بسكيكدة» تحت رئاسة «ألبير أوبارتين» كما يذكر الباحث الجزائري يوسف مناصريه في مجلة الدراسات التاريخية في العدد السادس (1992م) في بحث له ودراسة عن

المحافل الماسونية في كل من بجاية وكالمة وقسنطينة وعنابة وغيرها من المدن الجزائرية كما أسلفت.

ـ من المعروف عن هذه المحافل أنها لا تشجع على الالتزام بالأديان ولا تناصرها، وهذا الأمر لم تنتبه إليه حكومة فيشي في البداية، لكنها أدركته لاحقاً الحكومات التي جاءت بعدها لأنه يخدم الأهداف الاستعمارية في الجزائر بالقضاء على الدين الإسلامي بالدرجة الأولى والبعد عن لغة القران في نفس الدرجة، وبالدرجة الثانية ساعد على انتشار أفكار ومبادئ كحركة فكرية بديلاً عن الإسلام، وحاولت أن تزرع في أذهان أبناء الوطن من أطفال وشباب ومثقفين «الإلحاد»، وهي حركة فكرية لا تعترف بوجود الله الذي يعبده المسلمون.

ـ ألا يرى معي القارئ الكريم أن هذا الأسلوب في الدعاية وجد نجاحاً إلى حد ما في الجزائر؟ فالمواطن العادي أو المثقف حينما سمع أن رمز كفاح بلاده انتسب إلى هذه الجمعية، من المسلّم به أنه لن يجد غضاضة في انتسابه إليها، فلو أن هذه المحافل في الجزائر لم تجد من ينتسب إليها، لأغلقت محافلها وعادت أدراجها، لكنها وجدت على ما يبدو إقبالاً عليها وكيف لا تقتدي برمز كفاحها؟ ولكنها لو علمت هذه الجموع من أبناء الشعب أن هذا الخبر كاذب، وأنه من مزاعم مستشرق بريطاني، مزاعم تصب في مجرى تناقضاته بكتابه «حياة عبد القادر» لانفضت عن هذه المحافل، كما حدث مع حفيد هذا المجاهد الأمير سعيد الذي أغرته شعارات هذه الجمعية في البداية وظن أن جده انتسب إليها فانتسب إليها ولكنه اكتشف بعد فترة أن جده لم يكن يوماً من أعضائها ولم ينتسب إليها، فنفى تلك التهمة في الصحف والمجلات وقام بنفي معلومة كاذبة ذكرت عن جده، فنشر في صحف ذلك العصر نقداً لأعضاء هذه الجمعية في لجوئهم

إلى الأكاذيب وذكرهم لأسماء شخصيات لم تنتسب إليها قط ومن هذه الصحف «الحقائق» عام (1933م) .

ـ إن كل الرسائل التي جاءت من المحافل الماسونية من رسائل التقدير والاحترام بمناسبة إنقاذه خمسة عشر ألف مسيحي في دمشق والقضاء على الفتنة الطائفية، تبين حقيقة واضحة هي عدم وجود أي نص أو إشارة في الرسائل المذكورة يُفهم منها أن المرسَل إليه كان عضواً من أعضائها، أو أن له أية علاقة بها، أو أنه انتخب عضو شرف فيها كما جاء في رُقم الجمعيات الأخرى فوافق على ذلك.

ففي عام (1860م) أرسلت الجمعية الفرنسية المعروفة باسم «جمعية عمل الخير وإعانة المصابين في البر والبحر» كتاباً بمناسبة دفاعه عن المسيحيين بالشام جاء فيه:

إن جمعية المصابين المؤلفة من أعيان الأمصار ووجوه المدن الشهيرة في فرنسا اتفقت كلمتها على أن يكون الأمير عبد القادر رئيس شرف لها اعترافاً بما أبداه من أعمال الخير الجسيمة في سوريا سنة (1860م). وبناء على ذلك بعثت إليه بهذا الرقيم في (يونيو/حزيران 1862م).

وفعلت مثل ذلك الجمعية الأمريكية الشرقية فقرر مجلس إدارتها اعتبار الأمير عبد القادر عضو شرف فيها، وأرسلت إليه رقيماً في (1860م). وكذلك جمعية حماية المدن في فرنسا، وفي تلك المناسبة ذاتها وصلت الأمير مئات من رسائل التقدير والأوسمة من حكام العالم وزعمائه ومفكريه ..إلخ.

ـ ومن المؤكد أن هذه الرسائل والرُقم والهدايا قد اطلع عليها أبناء الأمير العشرة وبناته الستة وأزواجهن وأولاد أخوته، وكان من بين هذه الأشياء

كتاب التقدير من هذه المحافل التي انتهزت فيما بعد فرصة وجود الأمير في مصر في (تشرين ثان من عام 1869م) عندما دعا إسماعيل باشا خديوي مصر الأمير عبد القادر لحضور حفل افتتاح قناة السويس، فتوجه الأمير إلى بيروت ومنها إلى الإسكندرية فاجتمع بأباطرة فرنسا والنمسا وألمانيا وملك إيطاليا، وعلى متن بارجة حربية وصلوا إلى ميناء بورسعيد لحضور ذلك الاحتفال التاريخي الكبير، وفي تلك المناسبة زاره في مقرّ إقامته عدد كبير من الشخصيات العالمية وكبار رجال الفكر ومندوبو بعض الجمعيات الخيرية، كالجمعية الفرنسية التي أوفدت إليه هيئة من أعضائها شرحت له مبادئ الماسونية وخدمتها للإنسانية[1]، لكن الأمير لم يدخل فيها أبداً ولم يدعُ إليها وهو رجل العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدي الخلفاء الراشدين والحافظ للقران وصحيح البخاري والمتعمق في كتب السلف وإنما كانت دعوته للإسلام كما بينا ذلك في كتابه المقراض الحاد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت:33].

إن بعض المنتمين إلى هذه الجمعية اتخذوا بعد وفاته من تلك الزيارة ذريعة نسبوا للأمير دخوله في جمعيتهم من دون أن يتوفر لهم أي دليل.

ولقد عمدت هذه الجمعية الغامضة إلى ذكر انتساب شخصيات تاريخية كبيرة إليها كدعاية ووسيلة لانتشارها، وكان ذلك يتم بعد وفاتهم، كما فعل المؤرخ البريطاني هنري شرشل فذكر في الفصل الأخير من كتابه خبراً وهمياً عن انخراط الأمير في هذه الجمعية، ومن المعروف أن شرشل كتب هذا الفصل «أي الرابع والعشرين» من كتابه المذكور بعد مغادرته دمشق التي

---

[1] فكر الأمير عبد القادر ص 217 .

كانت قبل حوادث (1860م) أي قبل الفتنة بعدة أشهر، وكتب الفصول الأخيرة من كتابه في إنجلترا ومنها الفصل الأخير (أي الفصل الرابع والعشرين) كما ذكرت، وقد اعترف شرشل بهذا في مقدمة كتابه المذكور حين قال إنه غادر دمشق في شهر (شوال 1276هـ/1860م) وإن المعلومات عن الفترة الزمنية الممتدة بين (1860م إلى 1864م)، أي الفترة التي كتب في أثنائها هذا الخبر قد أخذها عن شهود عيان من جماعة منتمية إلى هذه الجمعية، وهذا يقلل من أهمية وصحة الفصل المذكور، فلم يذكر المؤلف أسماء شهود العيان أو أي دليل بهذا الخصوص، وهذا أكبر برهان على كذب هذا الادعاء ؛ إذ لا يوجد أي مستند ولم يعثر على أي دليل مادي بين أوراق الأمير عبد القادر تؤكد صحة هذا الخبر، ولو كان لدى الجمعية أي دليل لأظهرته للصحفي التابع للمخابرات البريطانية أو لمن يريد الكتابة في هذا الموضوع[1].

ـ إن الأمير عبد القادر رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً، وعاش حياته منفذاً لأحكام الإسلام. ولا يمكن للأمير أن ينخرط في جمعية غامضة من هذا النوع لكي يعمل الخير بواسطتها، كما يقول جرجي زيدان أن الأمير كان منتسباً إلى الجمعية الماسونية عام (1864م).

إن هذه الأقوال كذب وافتراء واختلاق ما لها من دليل ولا برهان، لم يستطع هو ومن سار في هذا النفق المظلم أن يأتي بدليل واحد على صحة أقوالهم[2].

إن هذا المسلك الخبيث ضد الأمير عبد القادر محاولة فاشلة لتشويه جهاده وسيرته المجيدة فالمستهدف هو ما يمثله من قيم دينية ومُثل وطنية وأخلاق ربانية ومبادئ إيمانية ومواقف إسلامية، فالأمير عبد القادر رمز للشعب

---

[1] المصدر نفسه ص 271 ، 272 .
[2] المصدر نفسه ص 273 .

الجزائري وللأمة الإسلامية والشعوب الحرة التي تسعى لنيل حقوقها وحريتها وكرامتها.

إن حياته صفحة بيضاء ناصعة ونقية طاهرة، واتهاماتهم الباطلة تتساقط أمام الحقائق الراسخة وتتلاشى أمام الحجج الدامغة وتذهب جفاء لأنها زبد. وسيرته العطرة تبقى نبراساً وقدوة وأسوة لأنها تنفع الناس، إن أعداء الأمة الإسلامية حرصوا على تشويه حتى سير الأنبياء والافتراء على تاريخهم وقد عانى من ذلك أيضاً صحابة رسول الله ﷺ مثل أبي هريرة رضي الله عنه ولم يسلم أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي رضي الله عنهم من الطعن والافتراء والتشويه.

ولقد فضح الدكتور صالح الخرفي عام (1971م) في مجلة الثقافة الجزائرية في عددها الرابع هذه المؤامرة القديمة على فكر الأمير عبد القادر، وذكر الدكتور مِن أسماء مَن برعوا في هذا الفن، فن تقليد خط الأمير منهم هنري بيريس و شيربونو، الذي كان في الجزائر الوصي على اللغة العربية وتقليد أنواع خطوطها قبل استقلال الجزائر[1].

8. من شعر الأمير عبد القادر في زوجته:

. هذه الأبيات يخاطب فيها الأمير الشاعر زوجته ابنة عمه:

ألا قل للتي سلبت فؤادي — وأبقتني أهيم بكل واد

تركت الصبَّ مني ملتهباً حشاه — حليف شجي يجوب بكل ناد

وما لي في اللذائذ من نصيب — تودّع منه مسلوب الرقاد

أقاسي الحب من قاسي الفؤاد — وأرعاه ولا يرعى ودادي

[1] المصدر نفسه ص 280 .

أريـــد حياتهـــا وتريـــد قتلـــي ... بهجــــــر أو بصــــــدّ أو بعـــــاد

وأبكيهـــا فتضـــحك مـــلء فيهـــا ... وأســـهر وهـــي في طيـــب الرقـــاد

وتعمـــى مقلـــتي إمـــا تنـــاءت ... وعيناهـــا تعمـــى عـــن مـــرادي

وتهجـــرني بـــلا ذنـــب تـــراه ... فظلمـــي قـــد رأت دون العبـــاد

وأشـكوها البعـاد ولـيس تصـغي ... إلى الشـــكوى وتمكـــث في ازدياد

وأبـــذل مهجـــتي في لـــثم فيهـــا ... فتمنعـــني وأرجـــع منـــه صـــاد

وأغتفـــر العظـــيم لهـــا وتحصـــي ... علـــيّ الـــذنب في وقـــت العنـــاد

وأخضـــع ذِلّـــة فتزيـــد تيهـــاً ... وفي هجـــري أراهـــا في اشـــتداد

فمـــا تنفـــك عـــني ذات عـــزّ ... ومـــــا أنفـــــكّ في ذُلّي أنادي

فمـــا في الـــذل للمحبـــوب عـــار ... ســـبيل الحـــب ذُلّ للمـــراد

رضـــا المحبـــوب لـــيس لـــه عـــديل ... بغـــير الـــذل لـــيس بمســـتفاد

ألا مـــن منصـــفي مـــن ظـــبي قفـــر[1] ... لقـــد أضـــحت مراتعـــه فـــؤادي

ومـن عجـب تهـاب الأسـد بطشـي ... ويمنعـــني غـــزال عـــن مـــرادي

ومـــاذا غـــير أن لـــه جمـــالاً ... تملّـــك مهجـــتي ملـــك الســـواد

وســـلطان الجمـــال لـــه اعتـــزاز ... علـــى ذي الخيـــل والرجـــل الجـــواد

وهـــذا الفعـــل مغتفـــر وزيـــن ... إذا يومـــاً أبيـــت علـــى معـــاد

فـــإن رضـــيت علـــيّ أرت محيّـــاً ... بشوشـــاً بالملاحـــة ظـــل باد

خليلـــي إن أتيـــت إلي يومـــاً ... بشـــيراً بالوصـــال وبالـــوداد

فنفســـي بالبشـــارة إن ترمهـــا ... فخـــذها بالطريـــف وبالـــتلاد[2]

---

[1] ظبي قفر : غزال البرية .

[2] فكر الأمير عبد القادر الجزائري ص 304 .

وقال أيضاً في ابنة عمه زوجته هذه القصيدة:

إلام فـؤادي بالحبيـب هتـور[1]؟ ... ونار الجـوى بـين الضـلوع تثـور

وحـزني مـع الساعات يربـو مجـدّداً ... وليلـي طويـل والمنـام نفـور

وحـتى مـتى أرعـى النجـوم مسـامراً ... ودمـوع العـين ثمّ تفـور؟

أبيـت كـأني بالسـماك موكـل ... وعيـني حيـث الجـدي دار تـدور[3]

أود أن أرى ظـبي الصـحارى[2] ... وأرقـب طيفـه والليـل سـار

وأطلـب قربـه فيزيـد بعـداً ... قـديماً مـن وصـال في نفـار

وهـذا الظـبي لا يرعـى ذمامـاً ... ولا يرضـى مؤانسـة لجـار

يتيـه بدلّـه ويصـول عمـداً ... غـني بالجمـال فـلا يـداري

أمازحـه فـلا يرضـى مزاحـاً ... وأسـأله المـراء فـلا يمـاري

ويعتبـني[4] فيكسـو القلـب بسـطاً ... لأن العتـب يطفـي حـرّ ناري

فـإن هـو لم يجـد بالوصـل أصـلاً ... ويـدني الطيـف مـن سـكني وداري

أقـل للـنفس ويـك ألا فـذوبي ... ومـوتي فالقضـاء عليـك جـاري

9 . أيامه الأخيرة ووفاته:

كانـت أيامـه الأخـيرة يغلـب عليهـا الهـدوء والبسـاطة والنظـام الـدقيق، وكـان يسـتعد للقـاء الله عـز وجـل وينتظـر الأجـل، ومنـذ حجـه عـام (1862م) أصبحت حياته تميل إلى الزهد والعبادة والعلم والتعليم ومساعدة الناس.

كـان يسـتيقظ قبـل الشـروق بسـاعتين وينصـرف إلى الصـلاة وتـلاوة القـران والأذكـار والتفكـر في فقـه القـدوم علـى الله عـز وجـل، ويبقـى حـتى شـروق

---

[1] هتور : مولع دنف .
[2] السماك : نجم معروف ، والجدي : برج من أبراج السماء .
[3] ظبي الصحارى : غزال الفلوات .
[4] ويعتبني : يقبل عتابي .
[5] فكر الأمير عبد القادر الجزائري ص 305 .

الشمس وبعد صلاة الشروق يعود إلى منزله ويتناول وجبة خفيفة، ثم يعمل في مكتبه حتى الظهر فيدفعه أذان الظهر إلى المسجد من جديد، حيث يكون تلاميذه قد تجمعوا بانتظار وصوله، فيأخذ مقعداً ويفتح الكتاب الذي اختاره للمناقشة ويقرأ فيه بصوت عال تقاطعه باستمرار طلبات الإيضاح التي يقدم الأجوبة عليها، فاتحاً الكنوز العديدة في الدراسات والأبحاث التي تجمعت لديه طيلة حياته المديدة.

وبعد صلاة العصر يعود عبد القادر إلى منزله حيث يمضي ساعة مع أولاده، مستوضحاً عن النتائج التي حصلوا عليها في دراستهم، ثم يأكل، وعند غروب الشمس يعود من جديد إلى المسجد حيث يدرس لمدة ساعة ونصف وتنتهي مهمته كمدرس لذلك اليوم ومازالت لديه بعض الساعات يقضيها في المكتبة ثم يذهب ليرتاح.

وكان دقيقاً أيضاً في إحسانه كل يوم جمعة، وكان بالإمكان رؤية الشارع المؤدي إلى منزله مليئاً بالفقراء المجتمعين كالعادة لتوزيع الخبز، وكان الفقراء الذين يموتون مفلسين يدفنون على نفقته، فيكفي أن يسمع بمعاناة إنسان ليسعفه فوراً، وكان يكرس بصورة مستمرة جزءاً من ماله للأعمال الخيرية.

وقد استفاد من ذهابه الأخير إلى الأراضي المقدسة، وحج مرتين، وبقي في مكة والمدينة تلك الفترة المتواصلة، فاستقبله شريف مكة وأمر بتخصيص غرفتين له في الحرم واستفاد من العلماء والعباد واجتهد في طلب العلم وفي العبادة، وبقي في مكة اثني عشر شهراً متتالية وصرف كامل وقته للدراسة والصلاة والتأمل والصيام وملاقاة العلماء والزهاد وطلاب الاخرة، ثم بعد ذلك ذهب إلى المدينة فبقي فيها أربعة أشهر على مقربة من المسجد

النبـوي، ثم عـاد إلى مكـة للحـج مـن جديـد وكانـت تلـك الرحلـة زاداً روحيـاً لبقية حياته. حافظ على ذلك حتى أيامه الأخيرة[1].

أ. مرض الأمير عبد القادر ووفاته:

مع تقدم سن الأمير واعتلال صحته خفّ نشاطه وجهده وعمّت الشائعات عن حالته الصحية وذهبت بعض الصحف إلى حد إعلان وفاته عام (1880م) فرثاه الشاعر محمد إسحاق الأدهمي الطرابلسي، واطلع الأمير على ذلك وكتب يشكره، كذلك شكر الجرائد على اهتمامها به وتقديرها له، وكان ذلك مبعث سرور الأمير، فقد علم بأنه بعد مماته سوف يكون له ذكر حسن ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾.

وأثناء تلك الأيام زاره الأديب التونسي محمد السنوسي، فأكرمه وأحسن ضيافته، وقد ذكر الأديب التونسي جزءاً من سيرته ومرضه بعد ذلك في كتابه الرحلة الحجازية.

وفي بداية شهر (ماي 1883م) وكان معتكفاً بمصيف دمر في داره يتهجد ويتبتل لربه، اشتد عليه مرض المثانة وحصر البول، فزاده ذلك ضعفاً، وفي (منتصف ليلة السبت 26 ماي 1883م) دعاه مولاه وقبضت روحه وحان أجله. وغسله نزيله وضيفه الشيخ عبد الرحمن عليش الأزهري، وفي الصباح نقل في عربة من قصره في دمر إلى داره بالشام وصلي عليه في المسجد الأموي في مشهد قلّ نظيره، وخرج لتشييعه جمع كثير وغفير مع الخضوع والتذلل، وشيعته دمشق عاصمة الأمويين في موكب مهيب وبدموع وقصائد رثاء سطرت بمداد مضيء، وكُتبت مقالات جاءت لتكون اعترافاً

[1] فارس الجزائر الأمير عبد القادر ص 327 – 328 .

بمكانته النضالية والفقهية والإنسانية، تكريماً لهذا البطل من الله عز وجل على لسان سكان هذا الكوكب[1].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[النحل:41].

ودفن في الصالحية من دمشق أسفل جبل قاسيون بحي المهاجرين[2]

ب . رثاء الأمير عبد القادر:

. ومن الشعراء الذين رثوه الشيخ العلامة الكبير طاهر الجزائري فقال:

خطب تبدلت الدموع به دماً ... تجري كغيث هاطل مدرار
وغدت به الأكباد وهي كليمة ... حرّاء حامية كجذوة نار

إلى أن قال:

وا حسرتاه لليل من ذا بعده ... يحييه بالطاعات والأذكار
ذهب الذي قد كان برّاً عابداً ... مستغفراً لله في الأسحار
لهفي على الفقراء من ذا بعده ... ينجيهم من مخلب الإكسار
ويرد ناب البؤس عنهم تائباً ... ويفتك ما راموا من الأوطار
لهفي على الأيتام ماذا بعده ... يلقون من ضيق ومن إقتار
ذهب الذي كان خير أب لهم ... يوليهم فيض الندى المدرار
لهفي على الأدباء من ذا بعده ... يلقونه ببدائع الأشعار[3]

1 الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 180 .
2 حوار مع الأمير عبد القادر ص 245 .
3 فكر الأمير عبد القادر ص 232 .

ـ ورثاه من أدباء عصره الأديب حسن بيهم من وجهاء مدينة بيروت، فقال في قصيدة من ستين بيتاً منها:

مصاب به العلياء تبكي أميرها	وكل امرئ من ذا المصاب به شطر
به جاء ناعي البرق يرعد قلبنا	فأمطرت الآماق ما ضمه الصدر
أجل مات عبد القادر الحسني من	به سادات وافتخر الفخر
قضى العشر شغلاً لم يذق طعم راحة	وما شغله إلا الجهاد والذكر
يراقب وجه الله في كل حالة	وما للهوى نهي عليه ولا أمر
غدا في جوار الله أكرم نازل	وبين ملوك الأرض كان له الصدر
به ملتقى البحرين للعلم والندى	ففي صدره بحر وفي كفه بحر
وإن أعمل الصمصام أنشد وقعه	لنا الصدر دون العالمين أو القبر
وإن شق قلب الحرب يوم كريهة	يرى الموت طوعاً أو يرافقه النصر
فقدناه والآمال ترجو بقاءه	وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر
وساعة ساروا يحملون سريره	قد عرفوا من هولها ما هو الحشر
ترى الناس غرقى في بحر دموعهم	على أنه هول به أقفر البر
لئن مت يا مولاي والموت سنة	ففضلك باق في الأنام له الذكر[1]

ج . نقل رفات الأمير إلى الجزائر عام (1966م):

لم تنته ملاحم الكفاح وبطولات الجهاد ونضال الأبطال في الجزائر ؛ يستلهمون الصبر والعزيمة جيلاً بعد جيل من عقيدتهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم، وتاريخ ابائهم وأجدادهم، وسيأتي تفصيل نضال الشعب الجزائري ضد الاحتلال من بعد الأمير عبد القادر في الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

[1] المصدر نفسه ص 233 .

لقد استمر الشعب في الكفاح، وقدم قوافل الشهداء، فأصبحت ثورة تعرف بثورة مليون ونصف مليون شهيد، واحتضن الشعب بجميع فئاته وأحزابه هذه الثورة وغذاها بالقوة والرجال إلى أن يئست فرنسا من النصر، وكان الجنرال ديغول قد وصل إلى الحكم وأصبح رئيساً للجمهورية الفرنسية وقدّم عدة مشاريع لإنهاء الثورة لصالح فرنسا، فباءت جميعها بالإخفاق الذريع، وأخيراً اضطر إلى تقديم مشروع الاستفتاء فنالت الجزائر على إثره استقلالها التام وانتصر الحق وزهق الباطل ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾.

وأخذت جحافل المستعمرين المنهزمين تغادر البلاد بعد مئة وثلاثين عاماً من الاحتلال، وخرج اخر جندي ومستوطن فرنسي، وعادت الجزائر حرة مستقلة بفضل الله سبحانه وتعالى، وبفضل تضامن أبنائها ووحدتهم الوطنية والدينية، ووقوفهم ضد المستعمرين كالبنيان المرصوص.

ولم ينس أبطال الجزائر وثوارها وحكومتها وزعماؤها رفات الأمير عبد القادر، فقد كانت سيرته الجهادية وأخلاقه الربانية ملهمة لهم، وأصروا على نقل رفاته من دمشق إلى الجزائر وتواصلوا مع الدولة السورية وتم الاتفاق.

وفي احتفال شعبي ورسمي نُقل رفات الأمير وهو في الواقع ليس رفاتاً، بل تراثاً وتاريخاً ونضالاً وكفاحاً وجهاداً، من دمشق إلى مدينة الجزائر البيضاء بعد أن أصبحت دار سلام، ليُوارى في التراب الذي روته دماء جروحه وتضحيات إخوانه وجنوده وأبناء جيله في ملحمة نادرة في تاريخنا المعاصر.

سار الموكب المهيب في شوارع دمشق وراء النعش الملفوف بالعلم الجزائري على عربة مدفع تتقدمها فرقة موسيقى الجيش وفرق رمزية من الجيش السوري تمثل جميع أسلحته إلى المطار، وعندما هبطت الطائرة التي تُقله في مطار مدينة الجزائر كانت الملايين من الشعب بانتظارها، وعند سُلّم الطائرة

وقف رئيس الجمهورية وكافة الوزراء وأعضاء جبهة التحرير، وما إن أطل جثمان الأمير الملفوف بالعلم الجزائري حتى امتدت أيادي رئيس الجمهورية والوزراء لتحمله، وفي تلك اللحظات علت أصوات عشرات الالاف من الجزائريين «الله أكبر» تشق عنان السماء، وكانت ترافق الهتافات زغاريد النساء كما كانت دموع الفرح تملأ ماقي الجميع وتسيل مدراراً[1].

لقد قال الأمير عبد القادر لحظة الغدر به واعتقاله: إن الجزائر عربية وستبقى عربية حتى لو احتللتموها مئة سنة. ويقال: إن التاريخ لقاء بين إرادة وحدث، أما الإرادة فكانت عبد القادر ومقاومته الشعبية، وأما الحدث فكان بعد قرن من ذلك وهو كفاح الشعب الجزائري الذي نجح في التحرر من الغزاة المستعمرين.

وقد نظم الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي قصيدة عصماء حيّا بها دمشق الفيحاء بقوله:

يا دمشقُ الفيحاء ألف تحية ... قد عرفناك في الندى أُموية

أي بُشرى حملتها لبلادي ... برُفات الأمير أي هدية

وهو من قد سعى إليك اشتياقاً ... يستحث الخطى ليلقى الحمية

إنما قد رعيت حق إخاء ... عربي يا أختنا العربية

فاته أن يعود للدار حيّا ... ويرى الدار في الكرامة حيّة

ثم قال مخاطباً الجيش الجزائري:

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 176 .

انزلــوا في العيــون أو في الحنــايا — يا جنــود الأمــير هــذي البقــايا

أيُّ قــبرٍ يضــمها وهــي أُفــقٌ — مــن معــالي وقمــة مــن ســجايا

مـن عُلاهـا اسـتمد جيشُ بـلادي — ذلــك العــزم يــوم خــاض المنــايا

فــدعوها منــارة مــن ســناها — يتلقــى الهُــدى جميــع الــبرايا

هــي ليســت كمــا سمعــتم رُفــاتاً — بــل تُــراثاً مقدســاً وعطــايا

وقال مخاطباً روح الأمير:

أرجـع الطـرف عـبر هـذي البطـاح — لــن تــرى يا أمــير غــير النجــاح

ذهــب الغاصــبون لا دو ميشــيل — لا دورليــان ولا صــليل الســلاح

مــات بيجــو وألــف بيجــو وأوْدى — كــل جــيش رمتــه هُــوجُ الــرياح

غبـت لكـن بقيـت في كـل شـخص — مــــاثلاً في القلـــــوب والأرواح

لم تغــب عــن عيــونهم في مكــان — كـلُّ شـبر ظنـوه «خنـق النطـاح» [1]

أنــت في كــل ثائــر كنــت تحيــا — عبقــريا محنّكــاً في الكفــاح[2]

د- كلمـة الـرئيس عبـد العزيـز بـو تفليقـة الـتي ألقاهـا عـام (1999م) بمناسـبة إحياء الذكرى (167) لمبايعة الأمير عبد القادر:

بسـم الله الـرحمن الـرحيم، والصـلاة والسـلام علـى أشـرف المرسـلين، وعلـى الـه وصحبه إلى يوم الدين.

السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته:

لقـد جئنـاك في الموعـد وفي المكـان وفي البقعـة المباركـة بالـذات الـتي تمـت فيهـا مبايعتـك في (27 مـن نـوفمبر 1832م). جئنـاك بمثـل ذلـك الحمـاس الصـادق الجيـاش الـذي كانـت تطفـح بـه قلـوب أولئـك الجزائـريين والجزائـريات الـذين

[1] خنق النطاح : معركة انتصر فيها الأمير على فرنسا .
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة ص 177 .

وضعوا ثقتهم وأموالهم في إمام الجهاد والمجاهدين عبد القادر بن محيي الدين ابن مصطفى المختار الحسني، فبايعوه بالإمارة ليقود جهادهم ضد العدو الغازي ومسيرتهم المظفرة نحو الغد الأفضل.

وكيف لا يغمرني الفخر والاعتزاز وأنا أقف وقفتي هذه بهذا المكان، أمام الشجرة المباركة الثابتة في عهدنا هذا، الذي استعاد فيه بلد الأمير عبد القادر كامل سيادته وحريته وكرامته، بفضل وفاء الأجيال المتعاقبة المتواصلة التي تمسكت بالعهد المقدس، الذي قطعه شعب برمته على نفسه وأودع مضمونه في أعماق ذاكرته الجماعية، متواصياً جيلاً بعد جيل بالوفاء له والالتزام به ليتوارثه أبناؤه البررة أباً عن جد.

وكيف لا ألبي وأنا مدعو إلى حضرة القائد الهمام الذي كان نبراس الأجيال المتوالية وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كيف لا ألبي الدعوة إلى حضرة من علمنا الرفض، رفض الظلم والجور، من علمنا رفع ثوبنا عن كل لوم، من علمنا الذود عن الدين بذلك النضال المستميت، من علمنا ركوب كل هول من أجل المكارم والثبات عليها، من علمنا كيف نجعل الغدر منا محالاً وكيف ترقى بنا المكارم وتتنوع فينا الخصال، من علمنا كيف نكون نحن الرجال رجالاً للرجال، كيف لا اتي إلى هذه الحضرة وأقف وقفة من سبقنا من الأجداد وقفة تجلٍّ وإكبار وخشوع وأبايع رمز الأنفة والإباء، رمز المجد والشموخ، وأبايع هنا كل عظيم حبلت به الجزائر لنجدتها وتحريرها وإعلاء شأنها، أبايع السيد المهاب الذي يبقى أبد الدهر مهاباً وإن رحل إلى جوار ربه منذ عقود عديدة مضت وأسكنه فسيح جناته.

فيالها من وقفة لم تبق من حزن في قلب مضنى.

أيتها السيدات، أيها السادة:

إن أول ما يترتب علينا في مثل هذه المناسبة الطيبة من واجبات هو أن نشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعم علينا به من استعادة الاستقلال سيادة كاملة على أرضنا، محققاً لنا بذلك الغاية التي كرّس عبد القادر جهاده في سبيلها بعد أن غرس في قلوب أبناء وطنه الغيرة عليها، يتوارثونها أباً عن جد، ويحمل شعلتها عبر السنين أبطال وبطلات من أمثال لالا فاطمة نسومر والشيخ الحداد والمقراني والشيخ بو عمامة والشيخ بو زيان والأمير خالد علي بلحاج وغيرهم من رعيل أول نوفمبر المجيد.

ومن أخلص مظاهر شكرنا لله أيها الأخوة والأخوات أن نلتئم في مثل هذا الحفل المهيب، ونجددها مبايعة صادقة صريحة لروح قائدنا الذي لم يطلب الإمارة بل فُرضت عليه فرضاً، من أجل تثبيت هويتنا وتنظيم مواجهة الاجتياح العدواني الكاسح للبلاد المبيد للعباد ؛ وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، فقبلها مكرهاً وحمل أمانتها محتسباً لخالقه، ناكراً للذات متفانياً مخلصاً، وراح يستميت في الذود عن حق ربه ويواصل الجهاد بالسيف وبلسان الرشاد والسداد، وبالعمل الدؤوب والمثابرة والإصرار ؛ رغم شح الوسائل وتفوق العدو عدة وعدداً وخذلان المناصر وفقدان المعين وتقاعس ملوك المسلمين وأمرائهم عن معونته ونصرته حتى باللسان، إنه جاهد وصمد في وجه الغزاة الدخلاء والخونة المارقين والقعدة من ضعفاء النفوس.

وكما بايع المسلمون جدك رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ تحت الشجرة، كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

صدق الله العظيم ؛ كذلك بايعك الجزائريون، إذ كنت أحسننا وأفضلنا. فرحم الله أولئك الذين بايعوك تحت هذه الشجرة على سنة أجدادنا الذين اقتدوا بالأسلاف الأوائل في مبايعتهم رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يوم بيعة الرضوان، فما أحوجنا إلى صدق المبايعة التي خصّ بها أجدادنا الأمير ثم انصرفوا إلى ساحة الوغى، يخوضون المعركة تلو الأخرى في خضم وهج السنابك وطعن القنا وخفق البنود ورعد المدافع وقصف البارود، لا تثنيهم لا مخاطر ولا صعاب ولا تغريهم محاسن عيش، ولا يحسبون للموت حساباً، فكانوا قدوة حسنة لمن خلفهم من أبناء وأحفاد، تسلموا منهم مشعل الجهاد فرفعوه عالياً، وصانوا الأمانة من خلال معارك متواصلة على مدار القرن والنصف، حتى أفضت إلى طرد العدو وإزالة دنسه عن أرضهم، وكان سر نصرهم المبين وحدة الصف ورباط الدين الواحد والانتماء المشترك إلى الوطن والقيم الفاضلة وصدق العزائم، وبقيت هذه أعمالهم وأخلاقهم إلى أن أدوا للجزائر حريتها وللشعب عزته وكرامته ومكانته المرموقة بين الشعوب والأمم، وكأن الله أبى إلا أن يمحو عار (الخامس من يوليو 1830م) المتمثل في الاجتياح الجائر الظالم للجزائر بنصر مبين باهر صريح تمّ في نفس اليوم ونفس الشهر من سنة (1962م).

ثم تابع رئيس الجمهورية كلامه فقال:

أيتها السيدات، أيها السادة:

تمر شعوب العالم الحية الواعية في مسيرتها التاريخية بمحطات، فتتوقف عندها للتأمل في خضم أعمالها السالفة لمراجعة مضامينها على ضوء الأسباب والأجواء الخاصة التي ساهمت في أخذ كل قرار وإرساء كل اختيار، فتكون مناسبة طيبة لمراجعة الذات وتغيير ما بالنفس والرجوع عن غواية أهوائها

وتقييم أعمالها، وذلك قصد مواصلة الطريق على أسس مجددة سليمة نحو غايات بينة الملامح مثمرة النتائج محمودة العواقب، فتعبّأ لها الوسائل الكافية المناسبة وتُشحذ لكسب رهانها الهمم المخلصة الوفية.

إن المبايعة التي نحيي اليوم ذكراها المئة والسابعة والستين لتعد بحق من تلك المحطات المصيرية في تاريخ الجزائر المجيد وخصال شعبها الأصيل الأبيّ، إذ أقدم الجزائريون والجزائريات على تلك المبايعة فدخلوا عهداً جديداً، عهداً متساوياً مع قيمهم السمحاء وتقاليدهم الخيّرة، عهداً يتميز بالغيرة على سلامة تراب الوطن واستقلاليته، والتطلع إلى التطور السريع المبني على العلوم وضروب التقنيات الحديثة، عهداً يفتح المجال أمام المساهمة الكاملة الفعالة للمواطنين في اختيار قادتهم وأخذ القرار عند البت في قضاياهم المصيرية.

وإنه ليس من باب المصادفة بعد بدء الغزو وتواصله، وسقوط العاصمة واستسلام النظام العثماني القائم، واكتساح جيوش العدو مختلف المناطق تسفك الدماء تفتك وتهتك الأعراض والممتلكات، أن تتجه الأنظار إلى الشيخ محيي الدين لِتُولّيه زمام الأمور وإدارتها على الأسس التي يرتضيها الجميع.

أما الشيخ محيي الدين فقد رفض تولي السلطة لثقل مسؤولياتها وكبر سنه، ولم يتولها ابنه غير مخير إلا لخطورة الوضع وجسامة المشاريع الإصلاحية التي تقتضيها في جميع المجالات أية محاولة جادة لمواجهتها وإيجاد الحلول لها.

إن حضورنا في الموعد والمكان قد تكون له أكثر من دلالة، فنحن جئنا نجدد العهد ونستقي من معين الجهاد أزكى ما فيه من معاني حب الوطن المقرون بعبادة الله عز وجل. فهنيئاً لمن قاسموك على مر الأجيال جهادك

بجهادهم، وكان سخاؤهم كبيراً وهم يجودون في سبيل الوطن بالنفس والنفيس والدماء الزكية الطاهرة، هنيئاً لمن ـ ولو بالأسوة الحسنة ـ حاول الاقتداء بك وبصحابك في الرجولة والاستقامة والتعبير عن المواطنة حقوقاً وواجبات، هنيئاً لمن سخروا أقلامهم وبيانهم وبلاغتهم فأضفوا المزيد من الأضواء على من خطوا بسيوفهم صفحات تاريخ البلاد المشرق، وهنيئاً كذلك لمن لم يتناسوا زعماءنا من شرق البلاد إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها فأعطوا كل ذي حق حقه بنعمة القصد ونظرة الشاعر ودقة المؤرخ وبأمانة الشاهد النزيه، هنيئاً لكل رجل قام هنا أو هناك على مر الزمان مع زرافة من الأحرار ليقولوا رفضهم الذي لا رجعة فيه للمحتل والمغتصب وكل من أراد أن يغير فينا ما هو منا بما هو ليس منا. ولتكن نصيحتي رنانة مسموعة اليوم عند المجتهدين من الطلبة خاصة أولئك الذين تخصصوا في علم التاريخ وهم لا يزالون يكدحون في الجامعات، فلتصل فرحتي إليهم حتى يزيلوا كل ما كدسه الغزاة من غبار على تاريخنا وأمجادنا ورجالاتنا وماضينا المجيد. كي يعلم أهل الذكر قيمة ما تزرعه معرفة تاريخ البلاد من مفعول في همم الرجال ونفوس الشباب الطامحين من غيرة، للذود عن حاضرهم وتصور مشرق بالأمل لمستقبلهم مفعم بثقتهم بالماضي. الثقة التي ترسخ هويتهم وأصالتهم وتضرب في الأعماق بأطناب جذورهم، وكل من يساهم في دراسة هذه الصفحة المشرقة من تاريخ الجزائر وإضفاء المزيد من الأضواء على من خطوا بسيوفهم ونهجهم وأقلامهم وعلمهم حروف بيانها من أمثال الأمير وخلفائه المتوزعين على مختلف مناطق البلاد.

أيتها السيدات، أيها السادة:

إن سر صمود الدولة الجزائرية الحديثة التي وضع أسسها الأمير لمواجهة الغزو الاستعماري العاتي طيلة المجابهة المسلحة التي دامت خمس عشرة سنة كاملة، وبقاء مبادئها حية متقدة في وجدان أبنائها عبر مختلف انتفاضاتهم المتواصلة الحلقات، إلى غاية اندلاع ثورة نوفمبر المظفرة، يعود إلى مميزات المبادئ التي قامت عليها هذه الدولة وطريقة توزيع السلطات ضمنها والشروط الواجب توفرها في المسؤولين على المستوى المركزي والمستوى المحلي، ومن أهم مميزات هذه الدولة دولة الأمير عبد القادر:

أولاً: طابعها الأخلاقي الذي تتميز به قوانينها ويتحلى به الرجال الساهرون على تطبيقها وخلفاؤه.

ثانياً: التوزيع المحكم للسلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية داخل هذه الدولة بما فيها الجيش وعلاقته الخاصة بالأمير الذي يرعاه بعنايته السامية ليكون الدرع الواقي للأمة.

ثالثاً: التسامح الديني وتطبيق تعاليم الإسلام السمحاء على المواطنين من أهل ومن يهود ونصارى وحتى الأسرى من أفراد الجيش الغازي، فكان يرعاهم بعناية خاصة مطبقاً حقوق الإنسان التي شهد له بها العالم من ملوك وأمراء عهده في حادثة المسيحيين بسوريا الحبيبة.

رابعاً: ومن عظمة هذه الدولة الحديثة التي أنشأها الأمير، أنها قامت على المبادئ التي بدأ ظهورها عبر القارة الأوروبية وهي المبنية على القوميات والحدود الفاصلة والرامية إلى إقامة «الدولة الأمة»، جامعاً بين الأصالة والعصرنة.

هذا، وكان الأمير في سعيه من أجل تحقيق المشاريع الضخمة ؛ يعتمد على التعبئة الشعبية وتضافر الجهود المخلصة، عملاً بوصايا الرسول ﷺ الذي جعل من مجاهدة النفس والعمل الصالح الدؤوب الجهاد الأكبر الذي لا أمل في تحقيق النصر إلا به ؛ بوقوف أبناء الأمة الواحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

وإن لعلاقاته الخارجية وسمعته على الساحة الدولية إنجازات ومناقب يشهد له بها العدو قبل الصديق.

أيتها الأخوات، أيها الأخوة:

كان تحرير الجزائر وبناء دولتها الحديثة صفحة من البطولات والتضحيات صوّر فيها شعبنا بروحه الأبية . خاصة الشباب مثل الأمير عبد القادر ورفاقه ـ إصرارهم على عدم التنازل عن أدنى ذرة من عزة الوطن وكرامته والحرص على رفع مكانته بين الأمم.

وكان شباب الأمس يرمي بنفسه ونفيسه في سبيل تحرير الوطن ناكراً ذاته، فعلى شباب اليوم والغد أن يرمي نفسه بالتفاني والإبداع في سبيل بقاء الجزائر عزيزة كريمة.

فعزة الجزائر وهيبتها من عزة الجزائريّ بنفسه، وشيمه لا بماله وإنما بأخلاقه وروحه الأبية الوطنية، ولا بحسب ثروته وعصبيته وإنما بالتعاون على النهوض بالمواطنة، ولا بجمع المال فثروة العقل والإرادة لا بالذهب والفضة وجمعها.

هذه هي أيتها الأخوات أيها الأخوة رسالة ذكرى المبايعة وعلينا أن نرتفع إلى مستواها، نقبل وننهض بهذه المسؤولية التي سبقنا إلى حملها أجيال وأجيال قبلنا، وننذر أنفسنا للقيام بها خير قيام، ثم يأتي مَن بعدنا فيواصل

الدرب، وحسبنا أن يقال عنا حينئذ أننا أدينا الأمانة وخدمنا جزائرنا وأضفنا لبنة إلى صرحها الركين.

إن الله تعالى عظم شأن المبايعة وحذر من نكثها بقوله خطاباً للنبي ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ صدق الله العظيم .

فالشعب الجزائري لما هب لاستئناف النضال في (أول نوفمبر 1954م) بايع الله وشهداءه وأسلافه الميامين على مواصلة التضحية من أجل كسب التحدي الكبير ؛ الذي يجب على كل أبنائها أن يهبوا لمواجهته ويبذلوا كل طاقاتهم لتحقيقه بتحرير البلاد وبعث دولتنا الحديثة واسترجاع سيادتنا السليبة. ومن ثمة علينا أن نسير على هدي من سبقنا ونستكمل المشوار، معتمدين على الكفاءة العالية والأمانة التامة والولاء المطلق للشعب، والأخذ بأسباب التقنيات المتقدمة والوسائط والأساليب الحديثة في مختلف مجالات التسيير والتخطيط والتقييم والمتابعة، ذلكم هو ما عقدنا العزم على التعهد به يرضي الله والشعب الجزائري ومعه في المرحلة الجديدة التي دخلنا بعد (15 أفريل) الفارط إنه بناء جزائر المستقبل والمجتمع الأفضل، البناء الذي نأمل أن يكون ثلاثون مليوناً من البناة والمدربين والمقتدرين المؤهلين إخلاصاً وأمانة وكفاءة، تترسخ فيه المنهجية الوطنية القائمة على توظيف نشر الحق والعدل والإخاء والمساواة، أي كل شروط المواطنة الصالحة التي لا تُستوفى إلا بوجود الأسوة الحسنة وجوباً في قيادة البلاد من قاعدتها إلى قمتها، وإلا تعذر تعميم العيش الكريم بين الجميع وبناء مجتمع الأمل والمحبة والخير. وقبل أن أودعك أيها الأمير أريد أن ألتمس منك عذراً إن كنا تطاولنا عليك أنا ورفاقي من ساروا إلى رحمة الله فاجتهدنا اجتهاداً مخلصاً وأرجعنا رفاتك إلى

وطنـك وأنـت صـاحب المواقـف العظيمـة وإننـا هنـا نعتقـد أن الجزائـر هـي دمشـق، ودمشـق هـي الجزائـر ولربما كنـت هنـاك في راحـة أكثـر مما لـو كنـت في أحضان شعبك وذويك.

إن إخوانـك في الشـام احتضـنوك وبجّلـوك وكرّمـوك وأنـت الكـريم، ومـا كـانوا يفعلـون ذلـك حبـاً فيـك فقـط ولكـن كـانوا ينطلقـون مـن أنـك مـن أبنـائهم وأن شـعب الجزائـر شـعبهم، وكمـا كـانوا آنـذاك فـإنهم لا يزالـون اليـوم يفرحـون لأفراحـه ويترحـون لأتراحـه ويقاسمونـه السـراء والضـراء، فـأنعم بـه شـعباً سـورياً قـوي الشـكيمة في الوطنيـة يعـرف قيمـة الرجـال الـذين تسـاموا بأرواحهـم وارتقـوا إلى مـا لا زلنـا نتغنـى بـه مـن مكـارم الأخـلاق علـى أبنـاء البشـرية جمعـاء، إننـا قـوم لا نتنكـر للجميـل، ونعتـذر اليـوم لمـن اختطفنـاك مـنهم تحفظـاً، لا بـوحي نيـة أنانيـة، لقـد أتينـا بـك إلى وطنـك، وطنـك الأول، برضـاهم، وأرجعنـاك إلى ديارك حـتى نقـول لمـن أبعـدوك عـن مسـقط الـرأس وبيتـك مـن الشـعر لمـن قـالوا بالأمـس عـدنا إليـك يا صـلاح الـدين بـنفس النخـوة والاعتـزاز والقـوة. لقـد عـدنا بـك يا عبـد القـادر والـوطن العزيـز يهتـز خفاقـاً للحـدث العظـيم مـن الشـام إلى الجزائـر وسـيعود صـلاح الـدين إلى الجـولان فيسـترجع الجـولان كـل الجـولان، وجنـوب لبنـان، كـل جنـوب لبنـان، ويعطـي للفلسـطينيين حقهـم المشروع في دولتهم المستقلة بعاصمتها القدس.

إنـك اليـوم يا عبـد القـادر كبـاقي الشـهداء لا امتيـاز يحـيط بـك أو يفضـلك علـيهم إلا مـا تركتـه مـن حسـن الـذكر ومـا تركـت مـن جميـل الخصـال وكـريم الأعمال ومن تراث ثقافي تغبط عليه في الجزائر وخارجها.

هـل جئنـا اليـوم لنتـذكر فقـط أو جئنـا لنتأمـل فيمـا صـنعت أنـت والصـديقين والشـهداء الـذين توافـدوا مـن بعـدك في كـل شـبر مـن الـوطن، لنتأمـل في المعـنى

العميــق للرســالة الــتي أورثتموهــا للأجيــال، أو لا تســمحون أن أخــبركم بأن الــوطن كــاد يضــيع ولا زال البغــاة مــن أعدائــه في الــداخل والخــارج يريدونــه في مهــب الــريح، ينتهكــون الأعــراض ولا يســتحون، يقتلــون الأطفــال ويتبجحــون، يعيثــون في الأرض فســاداً، يخربــون بيــوتهم بأيــديهم ويــدخلون الســرور والبهجــة في كل مشؤوم يتربص ببلادنا الشر ويبتغي لها الانهيار.

لكــن هــا هــو الشــعب قــال قولتــه الفصــل وقولــة الشــعب فصــل ومــا هــي بالهــزل، إنه شعب جنح إلى السلم والسلام إلى المصالحة والوئام.

وكمــا جئنــا نعاهــدك اليــوم علــى أن نبقــى علــى الــدرب ســائرين، لقــد عاهــد شــعبنا نفســه وربــه أن يبقــى هــو أيضــاً علــى العهــد، يــدفع أغلــى ثمــن مــن أجــل الســلام ووحــدة الجزائــر تــراباً وشــعباً والــدفاع عــن النظــام الجمهــوري والالتــزام بهيبة الدولة واحترام صرامة القانون في عدالته.

قــد يســمعني شــباب لا يفهــم لهجــتي ولا يفقــه كلامــي لأنــه اســتقى مــن وطنيــة تمخضــت عــن الاســتعمار الاســتيطاني والاحــتلال وهــو لا يعــرف شــيئاً عــن تلــك العهــود، ينظــر إلى واقــع الــدنيا وكأنــه في شاشــة التلفزيــون ويريــد أن يصــل اليــوم قبــل الغــد إلى مستوى الــدول المتقدمــة ولا يعــرف إطلاقــاً مــا دفــع في ســبيل ذلــك مــن ثمــن وجهــود وتضــحيات، شــباب طمــوح منكــوب بمآســيه مــن تزعــزع الأمــن والبطالــة والحاجــة إلى الســكن والتطلــع إلى المدرســة وانتظــار المستشــفى إلى غــير ذلــك مــن حاجيــات لا تخفــى علينــا كمــا هــي لا تخفــى عــن أبنــاء شــعبنا الصــالح مــنهم والطــالح، شــباب يــرى مــن يتبجــح تبجحــاً مثــيراً مســتفزاً لحرمانــه ممــا دفــع بــه إلى فقــدان الأمــل والــرؤى القاتمــة للمســتقبل، لقــد فســدت الأخــلاق وعــمّ فســادها أمــن رجــال ونســاء لازالــوا للعهــود حــافظين يغــارون علــى هــذا

الوطن الذي حباه الله بأهمية الموقع واعتدال المناخ وشساعة الأرض وتعدد الإمكانيات حتى أشارت إليه الأصابع بخير وكذلك بسوء.

رجال أمن غيورون على بلادي ليتعاونوا اليوم على البر والتقوى ويتأكدوا نهائياً أن ليس لهم عن الجزائر وطناً بديلاً، وأنه لابد أن يتقاسموا العيش في أرجاء هذا الوطن الحبيب، وأن لكل شيء بداية وبداية الأمور اليوم عندنا هو استتباب الأمن والاستقرار ومن ثم نقسم بالله، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، ما من شيء تعسر اليوم على البعض إلا تيسر غداً للجميع، وإن بلادي من عند الله مرموقة، من أحبها أحبها بعشق المتيّمين، ومن كرهها لا يجد راحة في التآمر عليها وعلى مصيرها.

ومن هذا الباب أتوجه إلى أخواتي وإخواني أبناء شعب جزائرنا الغالية، وأغتنم فرصة إحياء ذكرى مبايعة الأمير عبد القادر، وأستعين بالله وبكم، وأدعوكم مرة أخرى إلى طريق الرشاد إلى سبيل العزة إلى نهج الكرامة، ولن يكون ذلك إلا منا جميعاً نساءً ورجالاً شباباً وكهولاً مشمرين عن السواعد في بناء الوطن والتوكل على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه ونعم الوكيل.

وبارك الله في كل غيور لا زال يغار على عزة الجزائر وعلى كرامة شعبها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

هـ إطلاق اسم الأمير عبد القادر على مدينة في الولايات المتحدة الأمريكية وإشعاع الأمير في العالم:

إن شعبية الأمير في الغرب لم تكن نتيجة العمل الإنساني الذي قام به إزاء المسيحيين فقط، بل إن أحداث دمشق التي كان الأمير بطلها لم تكن إلا

[1] فكر الأمير عبد القادر الجزائري ص 255 – 266 .

لتزيد من تلك الشهرة التي كانت واسعة من قبل.

لقد أثار كفاحه البطولي ضد أكبر قوة في أوروبا إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء العالم الغربي كما كان له صدى كبير حتى في أمريكا.

وهكذا ففي سنة (1846م) أسست مدينة صغيرة بولاية أيوا «iowa» من طرف ثلاثة رواد أمريكيين يسمون جون تومسون، وتيموثي ديفيس، وسيج تشيستر، أطلق عليها اسم القادر تيمنا باسم الأمير، وهكذا فإن سمعة الأمير ق تعدت بكثير مجال نشاطاته، ولم يكن من وراء هذا العمل إلا الإعجاب بهذا الرجل العظيم[1].

فتومسون كان يعلم بأنه هو وأصحابه قد أحسنوا الاختيار ولم يخطئوا فيما يخص خلود شهرة هذا الرجل الذي شرفوه، وتروي الصحيفة المحلية «سيدار رابيد غازيت» أن (يوم 5 نوفمبر 1985م) قد خصص «يوم عبد القادر» أي بعد مرور (139) سنة من وضع أولئك الرواد الأشاوش لمخطط مدينتهم.

إن الذين كانوا يتجاهلون الوزن الكبير لشخصية الأمير هم الوحيدون الذين اندهشوا لشيوع الإعجاب به في العالم في زمن كادت به الاتصالات أن تنعدم، وفي الوقت نفسه كانت كل أوروبا تتابع بإعجاب ملحمة الأمير وقتاله البطولي وعبقريته التنظيمية، وهذا قبل معاهدة التافنة التي أقرته كرئيس دولة كتتويج لنضاله الطويل.

وهكذا كتب المؤرخ الإنجليزي لورانس كايف: إن سمعة الأمير قد أصبحت أوروبية منذ (1835م)، وهذا الإعجاب بعبقرية الأمير الحربية و وطنيته

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية ص 279 .

الفياضة سرعان ما تحول إلى تعاطف عميق عندما بدأ نجمه يأفل ثم انقلب بعد ذلك إلى سخط على تنكر الدولة العظيمة لوعدها، وقد كتبت مجلة «التايمز» مقالاً في هذا الموضوع (1851/10/10م): إن لعبد القادر في سجنه بفرنسا نفس الصدى العالمي الذي حققه في السابق عندما كان يقود فرسانه العرب.

كما أن كارل ماركس قد أجرى دراسة حول الأمير تكاد تكون مجهولة يصفه فيها بـ «قائد مغوار»، والرأي العام الفرنسي بدوره قد حيَّا بعبارات طنانة شجاعة الأمير في القتال وعزة النفس حين البلوى، ومنحته الجوقة الشرفية الوسام الرفيع كتبت عليه: أمير من شمال إفريقيا مدافع عن القومية العربية وحامي المسيحيين المضطهدين[1].

إلا أن عمله البطولي خلال أحداث دمشق بالذات هو الذي زاد كثيراً من إشعاعه في الغرب، أما فيما يخص الحكومات فإنها جميعاً قد منحته أسمى أوسمة بلادها.

وعلى كل حال فإنه من المؤكد أن عمله البطولي والإنساني لصالح المسيحيين لم يرفع مكانته عند الغرب فحسب، لكن العالم العربي في مجمله قد قدّر عمله سواءً من الناحية الإنسانية أو السياسية، وفهم أن تقتيل الأبرياء، لولا التدخل الشجاع للأمير ؛ كان سيؤدي بفرنسا إلى وضع يدها على سوريا.

وقد رأينا أن أول من منح الأمير وساماً ووضع صورته بجانب صورة أجداده كان السلطان عبد المجيد نفسه، وقد وصلت شهرة الأمير إلى حد أن الخديوي كان يغار منه ويخشى منه على عرشه.

---

[1] المصدر نفسه ص 280 .

ولنذكر هذه الملاحظة التي أبداها الملك فيصل ملك العراق سنة (1920م) لكاتب فرنسي يدعى بـ ((دي سنيور سانتران»: «يعد الحاج عبد القادر واحداً من أكبر رجالات الإسلام وأكثرهم مدعاة للاحترام وأجدرهم بتقدير الإسلام وإجلاله»[1].

تاسعاً: ثورات الشعب الجزائري بعد الأمير عبد القادر:

1 . ثورة الزعاطشة:

بعد سنتين من توقف ثورة الأمير عبد القادر اندلعت ثورة الزعاطشة، وهي واحة بمنطقة الزاب الظهراوي (35 كيلو) جنوب غربي بسكرة، قادها بوزيان شيخ الطريقة الدرقاوية بالزيبان، الذي عمل في دولة الأمير كشيخ على سكان الزاب الظهراوي، بدأت الثورة بتذمر القرويين من الضرائب الباهظة التي فرضها الفرنسيون على كل نخلة، وأيدهم الشيخ بوزيان، وتوجه الجيش الفرنسي فاعتقله فهبّ الناس وافتكوه من معتقله بالقوة، وانفجرت عند ذاك الثورة واستمرت المعارك بين فرنسا والثوار، وحشدت فرنسا قوات هائلة في (1849/11/12م) وبدأت معركة سيدي مرازي، وراحت القوات تقذف جدران القرية بالمدفعية لفتح ثغرات في سورها تمكنهم من الدخول ومهاجمة منزل الشيخ بوزيان ومساعديه مثل بو عزوز والحاج موسى والشريف بو عمار، واستمر هذا القصف حتى منتصف نهار (11/26) حين اقتحمت الجيوش الفرنسية القرية داراً داراً وزقاقاً زقاقاً في حرب شوارع شبيهة بحرب شوارع قسنطينة لدى سقوطها سنة (1837م). ودافع الشيخ بوزيان وابنه ورفيقه الحاج موسى بشجاعة وسقطوا شهداء برصاص العدو

[1] المصدر نفسه ص 282 .

وقـذائف مدافعـه، وجـزّ الفرنسـيون رؤوسـهم وعلّقوهـا علـى أبـواب مدينـة بسكرة عدة أيام، وتكبد الفرنسيون (1500) بين قتيل وجريح.

وقـد قامـت قـوات الجنـرال هيربيـون بارتكـاب فظـائع مرعبـة فـدمرت المدينـة، وقطعـت عشـرة الاف نخلـة هـي كـل مـا يملـك سـكانها، ودمـرت كـل منازلهـا، وشـنقت (1500) مواطنـاً أمـام المـلأ ووسـط خرائـب البيـوت، وأرغمـوا مـن بقـي مـن السـكان علـى الهجـرة إلى جهـات أخـرى حـددوها ليعملـوا بالسـخرة في حظائر العمل التابعة للكولون.

وقـد روى المـؤرخ بوديكـور: هنـا جنـدي قطـع ثـدي امـرأة راحـت تتوسـل إليـه بأن ينهـي حياتهـا، وهنـاك جنـدي اخـر حمـل طفـلاً صـغيراً مـن رجليـه وحطـم رأسـه علـى جـدار فخـرج رأسـه مـن جمجمتـه، وهنـا وهنـاك كانـت منـاظر مخزيـة يخجـل أي شـريف مـن سـردها، لقـد تركـت هـذه الثـورة دوياً كبـيراً في الـداخل، فالأعمـال البربريـة هـذه لم تكـن ضـرورية وهـي مـن شـأنها أن تثـير الـذعر بـين الناس وتغرس الكراهية في نفوسهم ضد المستعمرين وتلد ثورات أخرى.

وقـال بيليبسـييه دو ريينـو: إنـني لا أخشـى أن أقـول إن مجـد المهـزومين يُشـحب لون وجه المنتصرين[1].

2. ثورة بو بغلة ولالا فاطمة نسومر:

قـرر الفرنسـيون إخضـاع منطقـة القبائـل والشـمال القسـنطيني، فقـد بقيـت منطقـة الجبـال غـير خاضـعة للاحـتلال وهـي الممتـدة مـن متيجـة غـرباً وحـتى وادي الصفصـاف، ومـن البحـر شمـالاً وحـتى السـهول المرتفعـة لمجانـة وسـطيف جنوباً.

[1] الجزائر في التاريخ ص 565 – 566 .

وفي يوم (1851/5/9م) توجه الجنرال سانتارنو من ميلة على رأس جيش قوامه (8700) جندي فوصل جيجل يوم (16) وتقدم حتى الوادي الكبير، واصطدم بمقاومة كبيرة لكنه تمكن من التقدم نحو القل، وأخضعت القبائل بين القل وجيجل «مايو - يوليو»، ثم سلك طريق بجاية سطيف ودمر وأحرق قرى أربعين قبيلة وكتب لزوجته يفتخر بأنه أحرق بنفسه (100) منزل مغطى بالقرميد، وقطع أكثر من ألف شجرة زيتون، وتصور أنه أخضع المنطقة نهائياً، لكنه ما أن عادت قبائل نواحي القل وجيجل للثورة قرر الجنرال هوتبول إخضاع القبائل الكبرى والقبائل الصغرى وبدأ بالكبرى حيث دشرات زواوة ووادي سباو.

وظهر الثائر الشريف محمد بن عبد الله المشهور ببو بغلة سنة (1851م) ودعا الناس إلى الجهاد، واستجاب المواطنون له في تلك المناطق وكانت لالا فاطمة نسومر إلى جانب بو بغلة، وواجه الثوار جيشاً بقيادة الجنرالين راندون وماكماهون وخاضوا معه معركة ضخمة في هضبة تيميزغيدة.

وفشل العقيد دوريل في محاصرته، وفي أفريل نيسان سار جيش كبير على رأس جنرالين هما كامو وبوسكيه غربي واد ساحل وعاقبا القرى التي استقبلت الشريف، وكتبت صحيفة «مونيتور»: كل قرى أورلزقان نهبت وأحرقت وتركت شوارعها مزروعة بجثث الناس والمواشي.

كان بو بغلة مدعوماً في زواوة بقبائل المعاكطة والقتشولة وبني عيسى والفيليسة، وطارده الجنرال جوني نحو الشرق في اتجاه وادي سباو، فأحرق ثلاثين قرية، وتوجه العقيد بورياكي نحو قرى بني كوفي فدمرها وهاجم قبائل فليسة (نوفمبر 1851م). واستمر الشريف بو بغلة في كر وفر مع جيوش

العدو. ويبرر الجنرال روندون التدمير فيقول: لابد أن نترك على الأرض اثاراً لانتصارنا بواسطة تدمير جزء من ثروة الذين هزمناهم[1].

3. ثورة الشريف محمد بن عبد الله في ورقلة:

ظهرت ثورة الشريف محمد بن عبد الله بالأغواط وامتدت حتى ورقلة وتقرت ووادي سوف في أوائل (1851م)، وقد سبق للشريف محمد أن اختلف مع الأمير عبد القادر وهاجر للمشرق حيث قضى هناك ثلاث سنوات، ثم عاد للجزائر مؤمنا بضرورة استئناف مهمة الأمير عبد القادر وقيادة الجهاد لتحرير الجزائر من الغزاة، دخل طرابلس ومنها إلى غدامس ثم تقرت وقصد زاوية الرويسان قرب ورقلة، ونادى بالثورة، واستجابت له الجماهير، واتخذ الأغواط قاعدة له، ثم راح يشن هجماته على مراكز الفرنسيين بالتل.

قاد الجنرال روندون جيشاً وتوجه إلى الأغواط، وانسحب الشريف، وانتقم الفرنسيون من النساء والأطفال وفعلوا ما فعلوه في واحة الزعاطشة، فأحرقوا المنازل ودمروا كل شيء.

وقد روى العقيد ترومليي: كانت مذبحة مرعبة اختلطت فيها جثث النساء والأطفال بجثث الحيوانات وأحرقت الجثث ورميت في الابار، ويعتبر الذي قمنا به عاراً ما بعده عار، لقد اشتكى بعض المطعونين بالسيوف بأن هذه لم تكن حادة فتقتل على الفور بل تركتهم يتعذبون.

ويروي الكاتب والرسام فرومنتان أوجين: لقد روى لي ملازم شارك في مجزرة الأغواط ما حدث لامرأتين شابتين شاهدهما بعد أن اغتصبهما الجنود وقتلوهما بالحربة، كانتا جثتين لا تحملان حلياً: لا أقراط بالآذان، ولا

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 567 .

خلاخيـل بالأرجـل، ولا مشـابك، كانتـا عـاديتين تقريبـاً، واسـتمرت الطيـور الجارحة تحلق فوق المدينة مدة شهر كامل، أما الحمام فقد هاجر منها[1].

واسـتمرت المعـارك سـجالاً بـين الشـريف وبـين العـدو، فكـان يجمـع الأنصـار فيهـاجم مراكـزه، وكلمـا اشـتد عليـه ضـغط العـدو انسـحب إلى الصـحراء، واسـتمر يقاتـل إلى أن اشـتد الضـغط عليـه فـاختفى، وسـجنه سـنة (1861م) الباشـاغا بـو بكـر بـن حمـزة ولـد سـيدي الشـيخ وسـلمه للفرنسـيين، لكنـه تمكـن مـن الفـرار مـن السـجن ليظهـر مـرة أخـرى كثـائر بعـد انـدلاع ثـورة أولاد سـيدي الشـيخ سـنة (1864م) فانضـم لهـا وجاهـد مـع قادتهـا إلى أن اختلـف معهـم فانسحب إلى تونس[2].

4. ثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة:

ظهـر الثـائر الشـريف محمـد بـن عبـد الله مـرة أخـرى في ثـورة الصـبايحية في ناحيـة سوق أهراس.

والصـبايحية وحـدات مـن الجزائـريين في الجـيش الفرنسـي الـتي انضـمت مـع الثـوار. وشـارك الشـريف محمـد مع رفاقـه القـدامى فاتصـل بابـن ناصـر بـن شـهرة في تقـرت ومحمـد بـن التـومي المعـروف بابـن شوشـة في ورقلـة، ووثـق صـلاته بأولاد خليفـة الثـائرين بناحيـة تبسـة وبمحيـي الـدين ابـن الأمـير عبـد القـادر الـذي قـدم خفيـة إلى طـرابلس عـبر نقطـة نفـزاوة ليتـزعم الثـورة في الحـدود الشرقية.

كانـت ثـورة الصـبايحية سـببها قيـام الجنـود الجزائـريين بالتمـرد في شـرق الـبلاد في أواخـر سـبتمبر عـام (1870م)، عنـدما حاولـت فرنسـا أن تـنقلهم إلى أوروبا

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 569 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 569 .

لمحاربة الألمان في بروسيا، وقد قامت السلطات الفرنسية بإصدار أحكام الإعدام ضد البعض من الجنود ونفذتها بالساحة العامة بمدينة سوق أهراس، وصادرت أملاك وأراضي سبعة دواوير، وأخذت عشرات المواطنين كرهائن[1].

واشترك الشريف محمد مع ثوار قبيلة النمامشة يوم (1871/9/10م) في مهاجمة واحة ليانة بالزاب الشرقي، وقاد معارك ضد فرنسا وقويت حركته، وعندما اندلعت ثورة محمد المقراني سنة (1871م) كان يمثل جناحها الشرقي، واستمر داعماً لها إلى أن فشلت، فغادر معسكره يوم (1871/10/12م) إلى مدينة الكاف التونسية، فاعتقله باي تونس وسجنه، وتوفي هذا الثائر الكبير الشريف محمد عبد الله بالجنوب التونسي سنة (1895م) ودفن بقرية دوز التونسية[2].

وفي (1875م) احتل الجنرال راندون قمم تيروردة وبنت ايت يحيى والأربعاء ناث إيراثن، وأمر ببناء قلاع بها بهدف عزل القبائل بينها وبين بعضها، وهي قبائل: ايت يحيى فاث إيراثن، وبني مقلات وبني يني، بعد أن اكتشفوا أن قوة الثورة تكمن في ارتباط القبائل بعضها ببعض، فاحتل الفرنسيون المناطق الوعرة بحرب شرسة سقط فيها المئات من الجنود الفرنسيين، واستمر السكان يقاومون الغزو بالقنص من وراء الصخور.

وبعد معاناة كبيرة من هذه الحرب غير المتكافئة وغير الشريفة، المؤسسة على الإفقار والتدمير، اضطرت كثير من القبائل إلى طلب الأمان.

5. أسر لالا فاطمة نسومر وكفاح النساء:

استطاع المحتلون أسر المجاهدة الكبيرة لالا فاطمة نسومر يوم

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 146 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 570 .

(1857/7/11م)، وبأسرها انتهت المقاومة، وهي ابنة محمد بن عيسى مقدم زاوية الشيخ أحمد أمزيان على الطريقة الرحمانية في ايت تسورغ دوار يللتن في بلدية عين الحمام. ولدت في هذه القرية سنة (1830م) وأخذت عن أخيها الطاهر الساكن في قرية نسومر التي نسبت إليها، ولما قامت ثورة بو بغلة سنة (1851م) تطوعت لخوض الحرب مع المجاهدين، وسرعان ما انتشر اسمها كبطلة شجاعة، فقرر الجيش الفرنسي توجيه حملة للقضاء عليها وعلى بو بغلة لتأثيرها هي على الخصوص في المجاهدين، لكن لالا فاطمة تمكنت من اعتراض طريق الجيش الفرنسي في الأربعاء بمهاجمتها لمراكزه وإلحاق خسائر كبيرة به.

فقرر الحاكم العام توجيه حملة كبرى للقضاء عليها وعلى بو بغلة بقيادة الجنرال روندون والمارشال ماكماهون والجنرال جوزيف في جيش ضخم، ودارت معركة بين الطرفين يوم (1857/7/10م) في أعراش ايت تسورغ ويللتن ولما اشتدت المعركة خشيت لالا فاطمة على النساء والأطفال والأموال، فأخذتهم إلى قرية الخميس قرب ربوة تمزغيدة مما أوقعها في الأسر هي ومن معها من الأطفال والنساء اللاتي كان عددهن (200) امرأة. لقد أدت لالا فاطمة دوراً عظيماً في الثورة الكبيرة التي استمرت من سنة (1851م) وحتى (1857) وتوفيت في سبتمبر سنة (1863م) ببني سليمان ودفنت بها.

لقد لعبت المرأة الريفية دوراً مباشراً في الصمود، ويروي الضباط الفرنسيون أنه: كنا نسأل القبائل لماذا أنتم مصرون على الدفاع عن القرى ضد جيش يقوده جو؟ فيجيبوننا: كنا مستعدين للاستسلام أمام هذه القوات

الضخمة، لكن نساءنا كنّ يرفضن ذلك ويهددن بأنهن سيهجرننا إلى الأبد إذا لم نستمر في الدفاع[1].

6 . ثورة الصادق بلحاج:

أخضع الفرنسيون بلاد القبائل، لكن الثورات استمرت في سائر أنحاء عمالة قسنطينة وذلك في السنتين التاليتين (1858م . 1860م) خاصة منطقة الجنوب، فبعد إخضاع منطقة القبائل قرر الفرنسيون إخضاع بقية العمالة، وتوجهوا بجيوشهم إلى الجنوب، وتصدى لهم عدد كبير من رؤساء القبائل أهمهم الصادق بلحاج الذي ينتمي إلى أولاد سيدي منصور شيخ أولاد أيوب في جبل أحمر خدو بسفوح الأوراس، الذي سبق له أن شارك في ثورة سكان الزعاطشة سنة (1849م) إلى جانب الشيخ عبد الحفيظ مقدم الطريقة الرحمانية بخنقة سيدي ناجي مساندة للشيخ بوزيان وسكان الواحة.

استمرت ثورة الصادق بلحاج تعدّ الناس في السر حتى (نوفمبر 1858م)، حيث أدركت القيادة الفرنسية خطورتها فقررت ضربها قبل استفحالها، واستطاعت فرنسا إخماد الثورة بواسطة قوات من المرتزقة الجزائريين العارفين بوديان ومسالك المنطقة بقيادة القائد موهوب بن شنوف، وتمكنت من اعتراض الثوار في وادي العرب يوم (1859/1/20م) فاعتقلت قائد الثوار وأكثر من ثمانين من رفاقه، وعلى إثر اخماد الثورة قام الفرنسيون كعادتهم بحرق القرى وقتل النساء والأطفال.

كانت لثورة الصادق بلحاج في بسكرة والخنقة والأوراس تأثيرها الكبير على قبائل المنطقة، فبعد أشهر في مارس اذار سنة (1860م) ظهرت بالحفنة

---

[1] المصدر نفسه ص 572 .

ثورة بوخنتاش[1].

7. ثورة محمد بوخنتاش الباركتي:

هو من أولاد رحاب دعا الناس للثورة فتجمع الناس حوله وساعد الثائرَ في تجميع الناس أحمد باي المنصوري والعربي قايد أولاد سحنون وانضم إليهم أولاد زميرة وأولاد منصور، وامتدت الثورة لتشمل المنطقة الجبلية الممتدة من سطيف والحفنة. تمكن القادة من جمع (800) مقاتل وتمركزوا بهم في واد ذراع البيضاء وقام الخائن بيبي من أولاد عمر بإبلاغ الفرنسيين في باتنة بمواقع قوات بوخنتاش ورفاقه. فتحركت عدة جيوش فرنسية، فتوجه الكولونيل بان إلى بريكة وتوجه الجنرال نيس دوماريست من سطيف على رأس قوات أخرى، عسكر بها في شجرة أوادا، والتحم الفريقان في معركة كبيرة صباح يوم (1860/3/25م) في خنق أم الحمام، وسقط من الطرفين العديد من القتلى والجرحى، لكن الفرنسيين تمكنوا من تخريب معسكر بوخنتاش وتقتيل أهالي سكان أولاد عمر وأنصارهم وأرغموهم على تسليم بوخنتاش في نفس اليوم ومساعده أحمد باي المنصوري إلى الجنرال نيس دوماريست، أما العربي فاستشهد في المعركة.

وتصدى الشعب الجزائري لاستغلال الفرنسيين لغابات الفلين فثارت في سنة (1858م) قبائل ميلة وأضرمت النار في عشرات الالاف من هكتارات الفلين حتى تحرم شركة فرنسية قررت استغلالها، ثارت قبائل زواغة بالوادي الكبير وامتدت ثورتها إلى شرقي جيجل، وأرسل جيش فرنسي كبير دخل في معارك مع الثوار الذين لم يصمدوا أمام قوته وذلك سنة (1860م)[2].

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 573 .
[2] المصدر نفسه ص 574 .

8. ثورة أولاد سيدي الشيخ:

انتشرت ثورة أولاد سيدي الشيخ وامتدت لتشمل سائر الصحراء وتتوغل أحياناً إلى مناطق في الشمال والشرق والغرب، لقد كانت فعلاً ملحمة ثورية امتدت من (1864م) وحتى (1884م)، ولدى اندلاعها صرح المارشال ماكماهون: ليكن في علمكم أنه بمجرد إشارة من الإمبراطور ستجند فرنسا (800،000) جندي. وقد قاد هذه الثورة سلسلة من القادة: سي لاله، وابن أخيه سليمان بن حمزة بن سيدي الشيخ، وأخوة أحمد ومحمد، وابن أخيهم الأعلى، وبوعمامة. ويتصل نسب أولاد سيدي الشيخ بالخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكان لهم شأن دائماً.

وتعتبر قرية الأبيض سيدي الشيخ مركزهم الرئيسي ومقر زاوية زعيمهم الأول عبد القادر بن محمد الملقب بسيدي الشيخ والمتوفى في بداية القرن السابع عشر الميلادي.

وفي الوقت الذي عمت فيه الثورة منطقة جنوب وهران على يد أولاد سيدي الشيخ ؛ قامت ثورة في فليتة بجبال الونشريس وحوض الشلف بقيادة الشيخ الأزرق بن الحاج المنتسب إلى الطريقة القادرية، وانضم للثورة (64) دوارا، وفي يوم (1864/4/24م) خاض هذا الثائر معركة في خنقة العازر ضد جيش بقيادة الجنرال مارتينو، كما خاض معارك في زمورة بالشلف، ورجع لفليتة فوثق الصلة مع ثوار أولاد سيدي الشيخ، وصارت مدينة غيلزان تحت رحمة الثوار، واضطر الفرنسيون إلى إخلاء سائر قرى الأوروبيين بين غيلزان وواد رهيو، وفر الأوروبيون ولجؤوا إلى مستغانم. وتمكن الشيخ الأزرق من تدمير معسكر الرحوية يوم (1864/5/20م)، وواصل هذا البطل جهاده إلى أن استشهد في معركة ظهرة عبد الله يوم

(1864/6/8م) قادها من الطرف الفرنسي الجنرال روز الذي كلف بملاحقته في فليتة[1].

9. ثورة بوشوشة: محمد بن تومي بوشوشة:

كان هذا القائد العملاق من الرجال الجزائريين الذين تعاونوا مع ثوار أولاد سيدي الشيخ، ومن المؤسسين لحركة الطوارق بالصحراء الذين قرروا حمل السلاح ضد الاستعمار الفرنسي، وفي شهر أفريل من عام (1870م) هاجم مدينة القليعة واستولى في (5 ماي 1870م) على مدينة متليلي بعد حصار دام عدة أيام، ابتداءً من هذا التاريخ أصبح بوشوشة هو قائد المقاومة الجزائرية في الجبهة الجنوبية بصحراء الجزائر. وفي أواخر سنة (1870م) انتقل من مركزه بعين صالح إلى واحة الرويسان قرب ورقلة ثم اتجه إلى وادي سوف، وفي (5 مارس 1871م) هاجم حامية ورقلة فهزمها واستولى عليها بمساعدة أنصاره الكثيرين الموجودين داخلها، وعين ابن ناصر بن شهرة خليفة عليها لكي تكون قاعدة للثورة، وفي (13 ماي) من نفس السنة قام بمهاجمة توقرت وانتصر على القوات الفرنسية المرابطة بها، إلا أن القوات الفرنسية تمكنت يوم (27 ديسمبر 1187م) من شن هجوم كبير على مدينة توقرت، ثم احتلت من جديد مدينة ورقلة يوم (2 جانفي 1872م) وذلك بعد معركة عسكرية بقيادة الجنرال «وولاكروا» ضد حاكمها بوشوشة.

واستأنف هذا الأخير حرب العصابات ضد القوات الفرنسية في المنيعة وحاربها، إلى أن وقع في الأسر في معارك (1874م) فاقتيد إلى ورقلة عاصمته الأولى في بداية ثورته، ثم نقل إلى سجن قسنطينة حيث قدم إلى

[1] المصدر نفسه ص 577 .

المحاكمة، فصدر الحكم عليه بالإعدام الذي نفذ فيه بتاريخ (29 جوان 1875م) بمعسكر الزيتون بقسنطينة[1].

10. ثورات المقراني والشيخ الحداد وبومزراق:

عندما تدهورت الأوضاع بشرق الجزائر طلب الشيخ محمد المقراني من السلطات الفرنسية أن تقبل استقالته من منصبه بصفته باشاغا لأنه لا يرغب في أن يعمل مع السلطات الفرنسية، لكن السلطات الفرنسية رفضت طلب استقالته يوم (9 مارس 1871م)، فقام بمحاصرة مدينة بوعريج إلا أن القوات الفرنسية تمكنت من فك الحصار عن المدينة يوم (1871/3/26م). وفي يوم (8 أفريل 1871م) انضم إلى المقراني الشيخ الحداد، ودارت معركة كبيرة بين القوات الفرنسية وقوات الثوار يوم (12 أفريل 1871م) قرب جبل تفارست. وفي معركة أخرى يوم (5 ماي 1871م) واجهت قوات الشيخ المقراني قوات الكولونيل «تروملي» الذي كان يحكم سور الغزلان، وعندما خف الاقتتال اغتنم المقراني الفرصة لأداء صلاة الظهر مع رفاقه، وبينما كان يؤدي فريضة الصلاة فاجأه جنود الزواف الذين كانوا يراقبون الثوار من بعيد فأصابوه في جبهته وسقط شهيداً مع ثلاثة من رفقائه، وقد تم نقل جثمانه إلى قلعة بني عباس ودفن في مسقط رأسه، أما الشيخ الحداد الذي انضم إلى الشيخ المقراني يوم (8 أفريل 1871م) والذي استقر أجداده في قرية صدوق منذ القرن الخامس عشر الميلادي، فقد استطاع أن يشكل جيشاً جزائرياً يتكون من (120،000) مجاهد، بينما جيش المقراني لم يكن يتجاوز (25،000) مجاهد، وخاض معارك طاحنة ضد الجيش الفرنسي أحدث هلعاً كبيراً في الأوساط

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 146 .



العسكرية.

لكن الشيخ الحداد الذي تمكن أنصاره من التطوع للجهاد في مناطق كبيرة من البلاد لم يتمكن من جمع السلاح الضروري لخوض معارك حاسمة ضد قوات الاحتلال، وبذلك فشلت خطة الحداد لإيقاف الزحف الفرنسي في جبال القبائل، وتمكن الجنرال لالمان الفرنسي يوم (24 جوان 1871م) من تشتيت العائلات وحرق المنازل وإجهاض حركة المقاومة الجزائرية، كما تمكن من اعتقال أبناء الشيخ محمد أمزيان الحداد، وتم اعتقال الشيخ الحداد نفسه بعد عشرة أيام، وأرسلته القوات الفرنسية إلى بجاية حيث وضع في قلعة «بارال» وكان لاستسلام الحداد أثره الكبير على معنويات القائد أحمد بومزراق شقيق الباشاغا محمد المقراني، الذي ثار على الفرنسيين بناحية سور الغزلان، وقد حاول بومزراق أن يخلق الانسجام بينه وبين قادة الأخوة الدحمانيين لكنه لم يوفق. وفي يوم (8 أكتوبر 1871م) خاض بومزراق معركة فاصلة ضد قوات الجنرال الفرنسي «سوسي» بجوار قلعة بني حماد بناحية بجاية، انتهت بتغلب الفرنسيين على قواته، وبعد ذلك اتجه إلى ورقلة والتقى بالقائد بوشوشة وابن شهرة والزبير ولد سيدي الشيخ.

وعندما أدرك أنه غير قادر على مواجهة القوات الفرنسية بقواته المتواضعة ؛ حاول أن يجد مكاناً امناً يلتجأئ إليه في الصحراء فتاه هناك، واكتشفته دورية فرنسية يوم (20 جانفي 1871م) أمام بركة ماء قرب واحة الرويسات في حالة إغماء، فحملته القوات الفرنسية إلى معسكر الجنرال «دولاكروا» بالرويسات، فتم التعرف عليه وإسعافه، ثم أرسل إلى السجن في كاليدونيا الجديدة حيث بقي هناك قرابة (30) سنة إلى أن وافته المنية

هناك[1].

وانتشـر الكولـون المسـلحون يقتلـون الأهـالي العـزّل بـلا تمييـز أمـام أعـين جنـرالات الجيش الفرنسـي، وكتـب المؤرخ الفرنسـي ألفريـد رامبـو «عشـرين سـنة فيمـا بعـد» فقـال: لقـد ارتكبـت فظـائع مـن الجـيش النظـامي ومـن غـير النظـاميين، ففـي يـوم (22 أفريـل) أعـدم تسـعة مـن الأهـالي في العلمـة علـى أسـاس شـهادة كولـون واحـد، وفي الغـد أوقفـت قـوة عسـكرية القايـد لكحـل وأهلـه وهـم يقـدمون للطـابور العسـكري البغـال المسـخرة فقـام الجنـود بقـتلهم بالضـرب بأعقـاب البنـادق. وفي 23 مـايو قـرب مسـلوك هـاجم خيالـة الجـيش الفرنسـي أسـراً مـن أولاد قاسـم كانـت تحصـد الشـعير فقطعـوا رؤوسـهم رجـالا وأطفالا ونساء وعددهم ستون.

ويصـرح الأمـيرال جيـدون: عنـدما يثـور الأهـالي معنى هـذا أنهـم أغنيـاء وإفقـارهم هو الوسيلة الوحيدة لنشر الأمن[2].

وطبـق قـول الأمـيرال صـودرت أراضـي سـائر القبائـل الثـائرة والمقـدرة (574000 هكتـار) ويقـدرها أوغسـتين بـرنار بمليـونين وسـتمئة ألـف هكتـار مُلّكت للكولون.

وصـرح النقيـب فيلـو أمـام لجنـة التحقيـق: إن قـانون العنـف سـينزل ثقـيلاً علـى رؤوسـنا، فلابـد أن نطبـق أحـد الأمـرين: إمـا أن نبيـد العـرب، أو نكـون عـادلين معهـم. وإذا قـررنا تـركهم يعيشـون فـلا ينبغـي علينـا أن نجـردهم ممـا يملكـون، وإذا قـررنا تجريـدهم مـن سـائر أراضـيهم فـأنا أرى مـن العبـث تـركهم أحيـاء يعيشـون إلى جوار أراضيهم التي انتزعناها منهم.

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 148 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 595 .

وقد فرضت غرامات كبيرة على المواطنين الذين شاركوا في الثورة، وصودرت منهم الأراضي ما يعادل نصف مليون هكتار، ومئات الالاف من المواشي بحيث صُدِّر منها إلى فرنسا مليون ونصف مليون رأس من البقر، قام بمهمة الشراء والتقدير المرابون اليهود، وقام الكولون بقتل المئات من المواطنين. ويعجب الدكتور فيتال: من أن الكثير من أسرى القبائل الذين حكم عليهم بالإعدام استقبلوا الحكم بفرح وبهجة، وانطلق المداحون في شوارع وقرى ومدن الجزائر خاصة في بلاد القبائل ؛ يغنون الأحزان والالام التي تجمعت عن سياسة القهر والقمع التي مارستها القوة الاستعمارية بعد فشل ثورة المقراني والشيخ الحداد[1].

وبالرغم من ضعف التخطيط والإعداد لثورة المقراني إلا أنها كانت الحدث الكبير الثاني بعد ثورة الأمير عبد القادر، فبسبب المشاركة الوطنية الواسعة فيها والخسائر الضخمة التي لحقت بالشعب في الأرواح والممتلكات، فقد تركت اثاراً عميقة في النفس الجزائرية، توارثتها الأجيال لتظهر مستقبلاً في الأحداث.

وانتهت ثورة المقراني واستمر الشعب في ثوراته[2].

11 . ثورة واحة العمري:

جاءت هذه الثورة ضد العائلات الموالية لفرنسا في جنوب البلاد، وقد قاد الثورة ضد فرنسا والموالين لها السيد يحيى بن محمد «من أولاد بوزيد» ضد بولخراص بن قانة الذي كان متسلطاً على السكان ويعاملهم بخشونة كبيرة وفرنسا تدعمه، وفي صباح يوم (11 أفريل 1871م) نشبت معركة حامية

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 596 – 597 .
[2] المصدر نفسه ص 600 .

الـوطيس بـين قـوات يحـيى بـن محمـد وجيشـه المتكـون مـن (2،000) مقاتـل وبـين فرقـة كبـيرة مـن القـوات الفرنسـية بقيـادة الجنـرال «كـارتيري». وبالـرغم مـن وفـاة الـزعيم يحـيى بـن محمـد وإصـابة داعيتـه أحمـد بـن عـايش بجـروح في اليـوم الأول مــن المعركــة، فــإن الثــوار واصــلوا الكفــاح حــتى النهايــة، وفي يــوم (22 أفريـل 1871م) وصـلت نجـدات فرنسـية مـن قسـنطينة ونجـدات أخـرى مـن بوســعادة، وفي يــوم (24 أفريــل 1871م) التحــق الجنــرال روكــبرون بزميلــه كـارتيري المتواجـد في منطقـة القتـال بواحـة العمـري، فقامـت القـوات الفرنسـية بشــن هجــوم علــى الثــوار يــوم (27، 28 أفريــل 1871م)، واضــطر الثــوار الـذين بقـوا علـى قيـد الحيـاة أن يستسـلموا للقـوات الفرنسـية، وبعـد الانتصـار علـيهم، قـام الجنـرال كـارتيري بإعطـاء أوامـر بتخريـب الواحـة كلهـا علـى غـرار مـا فعله هيربيون بواحة الزعاطشة عام (1849م)[1].

12 . انتفاضة الأوراس:

وهــي في الحقيقــة مشــابهة لانتفاضــة واحــة العمــري حيــث كــان ســبب الانتفاضــة محاربــة المــوالين لفرنســا، وقــد ابتــدأت الانتفاضــة يــوم (30 مــاي 1879م) حــين قــام أنصــار محمــد أمــزيان عبــد الــرحمن «المســمى محمــد بــن عبــد الله» باغتيـال قايـد بـني سـليمان ثم قائـد أولاد داود لأنهمـا كـانا يقـودان مجموعـة مـن عمــلاء فرنســا للقضــاء علــى الثــوار المناهضــين للاحــتلال الفرنســي في الأوراس، وتـدخلت القـوات الفرنسـية لضـرب الثـائرين وإلقـاء القـبض علـى عـدد كبـير مـنهم، ونظـراً لعـدم تكـافؤ القـوة، انسـحب الثـوار وتوجهـوا إلى الصـحراء ومـن هنــاك دخلــوا جنــوب تــونس، لكــن البــاي التونســي ألقــى القــبض علــيهم وسـلمهم إلى السـلطات الفرنسـية الـتي أنشـأت مجلسـاً عسـكرياً وحكمـت علـى

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 149 .

(14) مـــنهم بالإعـــدام و(26) بالأشـــغال الشـــاقة و(16) بالـــبراءة. إلا أن رئـيس الجمهوريـة الفرنسـية تـدخل يـوم (9 نـوفمبر 1880م) وخفـف الأحكـام الخاصـة بالإعـدام إلى الأشـغال الشـاقة، وكعادتهـا قامـت فرنسـا بمصـادرة أراضـي هـذه القبائـل المتمـردة عليهـا بالأوراس والـتي تقـدر بـ (2،777 هكتـاراً) وتعـد من أخصب الأراضي[1].

13 . ثورة بوعمامة:

تعتـبر هـذه الثـورة أطـول ثـورة في تاريـخ مقاومـة الاحـتلال، فقـد دامـت (23) سـنة علـى فـترات متقطعـة، وتعتـبر امتـداداً لثـورات أولاد سـيدي الشـيخ الـتي بـدأت سـنة (1864م) واسـتمرت متقطعـة تلتهـب وتخبـو. وينتمـي الشـيخ بوعمامـة بـن العـربي بـن التـاج الـذي ولـد في الفقيـق علـى الحـدود المغربيـة إلى عائلـة عريقـة ذات سمعـة شـعبية وهـي أولاد سـيدي الشـيخ الـتي حاربـت فرنسـا لمـدة مـن الـزمن، اشـتهر الشـيخ بـو عمامـة بقدراتـه علـى مواجهـة الفرنسـيين وفشلت فرنسا في إلقاء القبض عليه، كما هو معروف[2].

وكـان بوعمامـة يمتـاز بسـرعة تنقـل قواتـه الـتي كانـت مصـدر قصـص شـعبية نسـبت هـذه السـرعة إلى كرامـات الشـيخ الـتي كانـت تجعـل قـوات العـدو لا تـراه، وهـذه القصـص زادت مـن رصـيده في الـوعي الشـعبي، وراح النـاس ينضـمون لثورتـه ويعتـبرون ذلـك تقـرباً إلى الله، والسـبب الحقيقـي راجـع إلى معرفتـه الجيـدة بالصـحراء وبالمنافـذ الـتي توصـله إلى التـل بعيـداً عـن أعـين العـدو، وقـد اعتمـد علـى أدلاء مهـرة عـارفين بالمنـاطق جغرافيـاً وسـكانياً، يقومـون بـدور مـزدوج: كشـف الطـرق، وكشـف مواقـع طـوابير العـدو مـن أجـل تجنبهـا. كمـا

---

[1] المصدر نفسه ص 150 .
[2] المصدر نفسه ص 150 .

قسم جيشه إلى كتائب وجعل كل واحدة منها تسلك طريقاً مخفياً، لأن العدو كان يبحث عنه هو.

وقد حيرت المسيرة الكبرى نحو التل الضباط الفرنسيين، وتمكن في ثلاثة وعشرين يوماً من قطع سبعمئة وثلاثين كيلو متر، وفي الطريق كان الثوار يستولون على حبوب ومواشي العشائر المتعاونة مع العدو، كما قاموا بقطع أعمدة التلغراف بين فرندة والبيض، وهاجموا مستودعات ومراكز للشركة الفرنسية للحلفاء وقتلوا الكثير من موظفيها وعمالها الذين كانوا إسباناً[1].

وامتدت ثورة بوعمامة إلى ناحية وهران في شمال البلاد، لكن نجاحه الكبير كان في الصحراء، حيث أسر الجزائريون في عهده بعثة عسكرية فرنسية كانت متواجدة في الهقار بقصد اكتشاف مجاهل الصحراء، وقتلوا قائد البعثة الكولونيل «فلاتين». وفي معركة أخرى استطاع بوعمامة أن يأسر ثلاثمئة فرنسي[2].

وفي الأخير استطاع الفرنسيون أن يحاصروا بوعمامة في الصحراء بحيث لا تتسرب أخبار مقاومته إلى شمال البلاد. كما تغلبوا عليه بسبب تفوقهم في السلاح «خاصة المدفعية»، وازدياد النفوذ الفرنسي في المغرب وصعوبة تنقله بين البلدين، وقد توفي بوعمامة بصفة طبيعية يوم (7 أكتوبر 1908م) في دائرة وجدة بالمغرب الأقصى الشقيق.

ويبدو أن الشيخ بوعمامة اصطدم بمعارضة كثير من الزوايا المنافسة لزاويته بسبب سياسة المستعمر في إدراك خطورة الزوايا التي كانت الركيزة الأساسية لثورات الأمير عبد القادر، وسيدى السعدي، والمقراني وغيرها، فركز

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 605 .

[2] التاريخ السياسي للجزائر ص 151 .

الفرنسيون بعد ثورة المقراني على التغلغل في الزوايا وشراء ذمم بعض قادتها، يؤكد ذلك تلك الرسالة التي وقعها محمد بن القاسم الحملاوي رئيس إخوان الطريقة الرحمانية بوسط البلاد يدعو فيها الشعب والقبائل إلى عدم اتباع بوعمامة، قامت السلطات الاستعمارية بنشرها وتعميمها في سائر أنحاء البلاد في نهاية (1881م).

لقد استمرت سياسة المستعمر وسط الطرق الصوفية نشطة طوال القرن التاسع عشر، والثلث الأول من القرن العشرين، وهذا الذي يفسر اهتمام حركة عبد الحميد بن باديس الإصلاحية على مناهضة المنحرفين في الطرق والزوايا، التي كانت تقود مشعل الثورات الشعبية بين (1830 و 1880م) والتي تمكن المستعمر من التسرب إليها بعد هذا التاريخ والتأثير على هذا المنبع وإضعافه الذي كان وقوداً وداعماً للثورات الشعبية ضد الغزاة[1]، ولم تنقطع الثورات بعد ثورة الشيخ بوعمامة واستمرت.

ومن هذه الثورات:

. ثورة سكان عين التركي ومليانة بزعامة الشيخ يعقوب (1901م).

. مجازر عين بسام (1906م).

. ثورة سكان بني شقران في جبال معسكر (1914م).

. ثورة سكان الأوراس والهضاب العليا الشرقية (1916، 1917م).

. ثورة سكان الطوارق بأزجر والأهقار (1916 . 1921م).

. مجازر مدينة قسنطينة في (أوت 1934م).

[1] الجزائر في التاريخ ص 607 .

ـ مجـازر (8 مـاي 1945م) بسـطيف وقالمـة وخراطـة وعموشـة وغيرهـا (1945م).

. مجازر دوار السطح بتبسة (1947م).

. مجازر برج منابل وسيدي علي بوناب بجرجرة (1948م).

. تمرد جنود فرقة الرماة الجزائريين بالحراش (1941م).

. مجازر قرى جبال الأوراس (1951م . 1953م).

. ثورة نوفمبر الكبرى (1954م . 1962م).

وكانـت هـذه كخاتمة لها ونهايـة، وقـدم الشـعب خلالها حـوالي مليـون ونصـف مليون شهيد[1].

عاشراً: الحكم العسكري الفرنسي في الجزائر:

في (22 ديسـمبر 1833م) تشـكلت لجنـة ثانيـة موسـعة تتـألف مـن (19) شخصـية وعسـكرية ومدنيـة برئاسـة الـدوق ديكـازيس عضـو مجلـس الشـيوخ الفرنسـي. وبعـد عقـد (56) جلسـة أكـد أعضـاء اللجنـة الثانيـة اقتراحـات اللجنـة الأولى، ونصـحوا الحكومـة الفرنسـية ببسـط السـيادة الفرنسـية علـى القطـر الجزائـري بأكملـه، والعمـل علـى اسـتغلال الأرض والسـيطرة علـى جميـع ثـروات الـبلاد، وباختصـار، فـإن اللجنـة لم تكـن محايـدة، لكنهـا كانـت وسـيلة لتنفيـذ بـرنامج الحكومـة في الجزائـر، وكمـا قـال حمـدان خوجـة: فقـد أجمـع أعضـاء اللجنـة علـى مواصـلة الاحـتلال وعـدم التخلـي عـن الفرنسـة، لأن الجزائـر تقـدم لفرنسـا منـافع كثـيرة في الميـادين الاقتصـادية والسياسـية والحربيـة،

[1] المصادر ، مجلة فصلية تعني بشؤون المقاومة الشعبية ص 37 .

فهي سوق لترويج بضائعها ومنفى للمشوشين من أبنائها، ومركز استراتيجي تستعمله في حروبها، وفي نشر سلطانها على البحر الأبيض المتوسط.

واشتمل التقرير الذي قدمته اللجنة الثانية للحكومة الفرنسية بتاريخ (10 مارس 1834م) على اقتراحات ذات أبعاد خطيرة تتمثل في:

1 . خلق منصب الحاكم العام بإدخال عناصر جزائرية إلى المجلس البلدي.

2 . إنشاء مجالس بلدية في كل من الجزائر، ووهران، وعنابة.

3 . إنشاء ميزانية خاصة بالجزائر.

4 . تخفيض عدد أفراد الجيش إلى (21،000) جندي.

ونستخلص مما تقدم أن الجزائر أصبحت تحكم بطريقه عسكرية خاضعة لوزارة الحربية الفرنسية، أي أنها لا تنطبق عليها القوانين الفرنسية بصفة طبيعية لأن عندها نظام عسكري خاص بها.

كما أن السياسة الرسمية لفرنسا أصبحت على أساس وجود حاكم عام ينفذ السياسة العسكرية لوزارة الحرب الفرنسية، وحسب النصوص القانونية التي وردت في الأمر الرئاسي الصادر بتاريخ (22 جويلية 1834م)، فإن الحاكم العام يعين من طرف مجلس الوزارة بناء على اقتراح من وزير الحربية الفرنسي، وفي البداية أعطيت له كل الصلاحيات بحيث يقوم بإعداد الميزانية التي تدخل في إطار ميزانية وزارة الحرب بعد تقديمها إلى البرلمان الفرنسي، كما أنه يشرف على قضايا جمع الضرائب وفرضها ومعاقبة من لا يدفعها، كما يختص بقضايا العدالة وإشرافه على أعمال رجال القضاء، وبصفته الحاكم العام فإنه المسؤول الأول عن قضايا الأمن والشرطة وكل المسائل العسكرية، وانطلاقاً من هذا التنظيم الجديد المتمثل في خضوع الجزائر لوزارة

الحرب الفرنسية حتى سنة (1870م) ووجود حاكم عام يشرف على تنفيذ أوامر وزارة الحرب في باريس، فإن الحكومة الفرنسية قد تركت الجزائر لوزارة الحرب لكي توجهها حسبما تقتضي مصلحة القادة العسكريين ومصلحة المغامرين الأجانب الذين جاؤوا من جميع أنحاء أوروبا للاستيلاء على خيرات الجزائر وتسخير أبناء هذا البلد لخدمة الغزاة بأبخس الأثمان.

وتحقيقاً لهذه الأهداف، تقرر أن يستعين الحاكم العام بستة شخصيات عسكرية ومدنية لإقامة إدارة قوية قادرة على التحكم في مجرى الأمور بالجزائر وإخضاع الجزائريين بالقوة إلى رغبات الأوروبيين. وفي هذا الإطار العام قام الحاكم العام بتعيين:

1 . قائد للجيش لكي يساعده في الميدان العسكري.

2 . قائد للبحرية مسؤول عن القوات الفرنسية في قطاعه.

3 . مسؤول عن القضايا المالية والإدارية في الميدان العسكري.

وفي الحقيقة أن الحاكم العام لم يكن هو المسؤول المباشر عن هؤلاء المسؤولين من الناحية العملية، لأن وزارة الحرب الفرنسية هي التي كانت تأمرهم بما ينبغي عمله في كل خطة، لكن الحاكم العام كان يشرف بطريقة مباشرة بتنسيق مع وزارة الحرب على المساعدين الثلاثة المدنيين وهم:

1 . المسؤول الإداري المدني: وهو الشخص القوي في الجزائر بعد الحاكم العام. وسلطاته تعادل سلطة عامل العمالة في فرنسا، وتسميته في هذا المنصب تأتي من طرف الملك بناء على اقتراح من وزير الحرب في فرنسا، ويعتبر هو المحرك الرئيسي للإدارة الاستعمارية لأنه يشرف على توجيه كبار الموظفين الذين يخضعون لتعليماته وأحكامه.

2 . النائب العام: ويمكن وصفه أنه الشخصية القوية التي تسيطر على القضاء والقضاة.

3 . المدير المالي: ويعتبر بمثابة وزير المالية في الإدارة الاستعمارية ؛ إذ إنه يشرف على إعداد الميزانية وجمع الضرائب ويتمتع بحق الأمر بالصرف في الجزائر.

وأما الهيئة الثالثة التي تقوم عليها الإدارة الاستعمارية بالإضافة إلى الحاكم العام وكبار الموظفين المساعدين له، فكانت تتمثل في مجلس الإدارة الذين يمكن اعتباره هو السلطة العليا لاتخاذ القرارات الجماعية، وفي إمكان الحاكم العام توسيعه وتعيين أعضاء اخرين فيه، ويختص هذا المجلس بدراسة قضايا الميزانية في الجزائر، والجباية المالية في الميدان الجمركي، والأمن، والعبادات. ومجلس الإدارة هو الذي كان يحدد سياسة فرنسا في الجزائر، وطبعاً فإن وزارة الحربية الفرنسية هي التي ترجع إليها الكلمة الأخيرة في كل مسألة يناقشها مجلس الإدارة ويعرضها عليها للموافقة وإبداء الرأي قبل التنفيذ.

ولقد تقرر في الأمر الرئاسي الصادر في (15 أفريل 1845م) تقسيم الجزائر إلى ثلاث مقاطعات هي: الجزائر، ووهران، وقسنطينة، وبهذا الأسلوب تقلصت سلطات الحاكم العام، وأصبحت حكومة باريس تسيطر على مجرى الأمور بحيث أن رئيس الدولة الفرنسي هو الذي يصدر المراسيم المتعلقة بالجزائر، ووزير الحرب الفرنسي هو الذي يصدر التعليمات والقرارات الخاصة بالجزائر، وتمشياً مع هذا التنظيم الجديد، تم تعيين مدير إداري، ومدير للشؤون الداخلية والأشغال العمومية، ومدير للمالية والتجارة، ووكيل للجمهورية، ومدير للشؤون العربية، والجميع يعملون تحت إشراف مدير الشؤون المدنية.

لكن التغيير الجذري في وضعية الجزائر حدث في عام (1848م) حيث قامت الثورة الفرنسية، وشارك المعمرون الفرنسيون فيها بوفد طالبوا بإدماج الجزائر في فرنسا بصفة رسمية وإعطائهم (4) مقاعد في البرلمان الجديد، وبالفعل فقد تمكنوا من القيام بضغوط على الحكومة الجديدة وتعيين (4) نواب لكي يمثلوهم في البرلمان الفرنسي، وقد تحصلوا على هذا المكسب السياسي بمقتضى الدستور الجديد الصادر بتاريخ (4 نوفمبر 1848م) والذي نصت المادة (109) منه على اعتبار الجزائر أرضاً فرنسية[1].

وفي الحقيقة إن استراتيجية الجيش الفرنسي في الجزائر كانت تقوم منذ البداية على تحطيم النظام وقوانين العمل الجزائرية في كل منطقة يتم احتلالها، بقصد تكسير العلاقات العائلية وإقامة نظام جديد يحل محل النظام المألوف عند الجزائريين.

وتحت غطاء المحافظة على الأمن، وتوسيع نفوذ الدولة الفرنسية، وتوسيع الأراضي الفائضة عن احتياجات المواطنين الجزائريين، قامت السلطات العسكرية بالاستيلاء على أراضي الأعراش ؛ لأن وجود الأراضي في حوزة جماعات جزائرية يمنع أو يحول دون توسع الاستيطان الأوروبي بالجزائر، كما أن فلسفة فرنسا في الجزائر، كانت تقوم على أساس أن التحكم في الجزائريين وإخضاعهم لنفوذها يتوقف على تحويلهم من مالكين إلى أجراء يعملون لتنمية ثروات المعمرين الأوروبيين[2].

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 126 .
[2] التاريخ السياسي للجزائر ص 136 .

الحادي عشر: لويس نابليون الثالث:

إن انتخاب لويس نابليون بونابرت الثالث كرئيس للدولة من طرف الجمعية الوطنية الفرنسية في شهر ديسمبر من عام (1848م) غير مجرى الأمور بعض الشيء ؛ لأن الجمهوريين اليساريين كانوا يظنون أنه سيخدمهم ويعمل على تحقيق مطالبهم فأيدوه، واعتقد رجال الكنيسة والمحافظون أنه ليس مثل عمه نابليون بونابرت الأول الذي كان يتميز بالثورية واستعمال القوة العسكرية فوضعوا ثقتهم فيه، غير أن لويس نابليون فاجأ الجميع بانتهاجه سياسة خاصة به حسب مزاجه، حيث استعان بالفلاحين ورجال الأعمال وجندهم للعمل من أجل المحافظة على الاستقرار والأمن، وتخلص من خصومه، وعمل على كسب ولاء الجيش والشرطة وكبار المسؤولين في الدولة. وفي شهر ديسمبر من عام (1852م) ألغى النظام الجمهوري وأنشأ الإمبراطورية الثانية التي تربع على عرشها لغاية انهزام جيشه في معركة سيدان واعتقاله من طرف بروسيا سنة (1870م)[1].

وقد حاول أن يتقرب من الشعب الجزائري، فأخرج الأمير عبد القادر من السجن وقال للجنرال روندون الذي عينه وزيراً للدفاع: لابد أن تطبق عدالة تامة بين الفرنسيين والأهالي إن هذا فقط هو العدل والشرف والحقيقة.. إنه لا نفع من أخذ جزء من أراضي الأهالي لزيادة حصة الاستيطان، ينبغي إقناع العرب بأننا لم نأت إلى الجزائر لاضطهادهم وتجريدهم من ممتلكاتهم، لكن لكي ننقل لهم محاسن المدنية، لنترك للأهالي تربية الخيول والمواشي والفلاحة الطبيعية للأرض، ولنترك لنشاط وذكاء الأوروبيين استغلال

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 126 .

الغابات والمناجم وتجفيف المستنقعات والري، وإدخال زراعات راقية، وكل ما يتعلق بتطوير الاستعمار[1].

وأصدر الإمبراطور نابليون الثالث سنة (1865م) مرسومه الشهير «سيناتوس كونسيلت» الذي أعلن فيه مساواة الجزائريين للفرنسيين في الحقوق والواجبات مع السماح لهم بالرجوع في أحوالهم الشخصية إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وقد زار الإمبراطور بلاد الجزائر من (5/3 إلى 1865/6/7م) وخطب قائلاً: هذا البلد مملكة عربية ومستعمرة أوروبية ومعسكر فرنسي، ولابد من التعامل مع الجزائريين على هذه الأسس الثلاثة.

وسخط الكولون على عبارة «مملكة عربية» ورفضوها علناً، وانتقلت المعارضة إلى فرنسا حيث أصدر البرلمان قراراً يتراجع به عن هذه العبارة ويقر: بأن الأصل فرنسي مع استمراره في أن يسير بالقانون الإسلامي، ويمكن إذا رغب أن يكتسب صفة المواطنة الفرنسية كاملة[2].

وقد استهل خطابه بقوله: إنني أعدّ نفسي إمبراطور العرب كما أني إمبراطور الفرنسيين وكلهم في نظري متساوون[3].

ورفض الجزائريون التجنس الفرنسي ولم يطلبه سوى (194) بين قانون (1865م) وقانون (1870م)[4].

كانت سياسة نابليون ترمي إلى المدى البعيد، فإن المستعمرين الفرنسيين الذين كانوا قد رحلوا إلى الجزائر ثاروا على هذه التسوية المزعومة وقاوموا

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 579 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 580 .
[3] الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ص 867 .
[4] الجزائر في التاريخ ص 580 .

بكل ما لهم من جهد سياسة نابليون، مبرهنين بذلك على ما استمروا عليه من تقديم مصلحتهم الخاصة والمستعجلة على مصلحة فرنسا نفسها.

ومن الذين وقفوا ضد الإمبراطور في سياسته الجزائرية الكاردينال لافيجري الذي صرح قائلاً: لابد من إنقاذ هذا الشعب، ينبغي علينا الكف عن تركه وسط قرانه بواسطة خلق مملكة عربية مزعومة، لابد أن تعطيه فرنسا الإنجيل وذلك بدمجه في حياتنا، أو طرده في الصحراء بعيداً عن العالم المتمدن[1].

وعندما تكلم الكاردينال عن البربر قال: لابد من العمل على مناهضة البربر للعرب.

وراحت الإدارة تحقق ذلك فعلاً، وشعر رؤساء العشائر القبائلية بذلك فسخطوا على المستعمر، لدرجة أن العقيد والمؤرخ هانوتو كتب يقول: وهذا التوجه: أي العمل على مناهضة البربر والعرب هو الذي ولد ثورة القبائل.

واستغل الكاردينال المجاعة التي عصفت بالشعب سنتي (1867 و1868م) وجمع في هذه السنة (1753) يتيماً بين ثماني وعشر سنوات، ولم يحتج الكاردينال باسم المسيحية التي تسببت في موت مئات الالاف من الفلاحين بالمجاعة بسبب إفراغها لمطاميرهم من الحبوب بنهبها أو تخريبها بحيث عندما جاء الجفاف بالمجاعة لم يجد الفلاحون في مخزونهم ما يواجهونه، والفلاحون عادة يحتفظون في مطاميرهم بما يكفيهم لسنة إضافية على الأقل. ولقد راح الكاردينال يعمل على «تمسيح» هؤلاء اليتامى ويغرس في نفوسهم الكراهية ضد العرب والمسلمين، ويطلق أمامهم شتائمه ضد العرب والمسلمين فيقول: لقد جمع الإسلام كل المساوئ: الطلاق، الكسل، تعدد

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 580 .

الزوجات، السرقة، الشيوعية الزراعية، التعصب، أكل لحم البشر.

ولما طلبت منه السلطات بضغط من الإمبراطور إعادة هؤلاء الأطفال إلى ذويهم رفض، بل تابع على «تمسيح» قرى بالشلف مستغلاً المجاعة قائلا للفلاحين: إذا أردتم أن تبقى أرضكم فتمسّحوا تصيروا فرنسيين.

وحسم الإمبراطور الموقف فقال للكاردينال: اكتف بالحفاظ على المسيحية بين مئتي ألف كاثوليكي يعيشون بالجزائر، ودع المسلمين يعيشون وشأنهم[1].

وفي الأيام الأخيرة من حكم لويس نابليون، بدأ المعمرون الأوروبيون يفرضون أنفسهم على الساحة الجزائرية ويؤثرون في مجرى الأمور، خاصة أن سياسة نابليون الداخلية كانت مهزوزة والباريسيون يعارضون مشاريعه الارتجالية، وقد شعر الإمبراطور بضعفه أمام المستوطنين الأوروبيين بالجزائر وحاول إرضاءهم عن طريق إصدار مرسوم يوم (31 ماي 1870م)، بحيث يتحرر رؤساء العمالات الثلاثة في الجزائر من القيود المفروضة عليهم من طرف السلطات العسكرية.

وحسب هذا المرسوم فإن رؤساء العمالات صاروا يتمتعون بالاستقلال التام في العمل، والعسكريون لا يسيطرون على المناطق المدنية، وينحصر نفوذهم في المناطق العسكرية، وفي يوم (11 جوان 1870م) أصدر الإمبراطور مرسوماً اخر يسمح للمستوطنين الفرنسيين بإجراء الانتخابات في المناطق المدنية واختيار الأعضاء الذين يمثلونهم في المجالس العامة، وقد أثارت هذه التنازلات للمعمرين غضب الجيش والحاكم العام مكماهون الذي استقال من منصبه احتجاجاً على سياسة الخضوع للضغوط المتوالية على الإمبراطور لنقل السلطة في الجزائر إلى يد المستوطنين، لكن انهيار الإمبراطورية ووقوع

[1] الجزائر في التاريخ ص 581 .

الإمبراطور نفسه أسيراً في يد الألمان كان بمثابة النهاية للصراع بين المعمرين والحكومة الفرنسية حول كيفية تسيير الجزائر[1].

إن سياسة نابليون الثالث في الجزائر كانت مائعة، لم تحقق أية نتيجة بالنسبة للجزائريين سواء بالنسبة لحصولهم على حقوقهم السياسية المتمثلة في حرية التعبير، أو بالنسبة للمساواة مع الفرنسيين المقيمين بالجزائر، وعليه فإن سياسة إدماج الجزائر في فرنسا والمساواة بين الفرنسيين والجزائريين في الحقوق والواجبات لم تتجسم في أرض الواقع، وكل ما عمله في حقيقة الأمر هو تمكين قادة الجيش من التصدي لمقاومة الجزائريين في بلاد القبائل وفي الجنوب وتدعيمهم من أجل الانتصار على رجال المقاومة الجزائرية. وبذلك حقق رغبة الفئة العسكرية. وبالنسبة للمعمرين، فقد ساعدهم على تحطيم مؤسسات الدولة الجزائرية واستبدال تلك المؤسسات بهياكل إدارية جديدة فرنسية سواء في ميدان التسيير الإداري أو القضائي أو المالي[2].

1 . معركة سيدان وأسر الامبراطور:

انهارت الإمبراطورية الفرنسية بوقوع الإمبراطور نابليون الثالث أسيراً في يد الألمان، وكان ذلك بمثابة النهاية للصراع بين المعمرين والحكومة الفرنسية حول كيفية تسيير الجزائر، فالعسكريون الذين انهزموا في معركة «سيدان» فقدوا مصداقيتهم الاجتماعية في الجزائر وفي فرنسا ذاتها، والمجموعة العسكرية المتواجدة بالجزائر لم تعد تتلقى التعليمات من القيادة المركزية، وبذلك تركوا المبادرة للمدنيين لكي يفعلوا ما يشاؤون بالجزائر، وبمجرد تعيين أدولف كريميو كمسؤول عن الداخلية في حكومة الدفاع الوطني قام هذا الأخير بإصدار جملة من القرارات في شكل مراسيم لإنهاء الحكم العسكري

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 137 ، 138 .
[2] المصدر نفسه ص 129 .

في الجزائـر وإعطـاء السـلطات المطلقـة للمعمـرين، وبنـاء علـى هـذه المراسـيم الصادرة بتاريخ (24 أكتوبر 1870م) تقرر:

أ . أن يـتم إلغـاء منصـب الحـاكم العـام في الجزائـر «التـابع لـوزارة الحـرب» ويعـوض بحـاكم عـام مـدني يوضـع تحـت تصـرفه (3) رؤسـاء عمـالات أو رؤسـاء مقاطعات إدارية.

ب . أن تنحصـر سـلطات القائـد العسـكري في المنـاطق الـتي تخضـع للجـيش فقط ولا يحق له أن يتدخل في الشؤون المدنية.

ج . أن يقـوم الحـاكم العـام الـذي يـتم تعيينـه مـن طـرف مجلـس الـوزراء «ولـيس وزارة الحرب» بتطبيق سياسة الحكومة في الجزائر.

د . أن يقــوم رؤســاء العمــالات بإنشــاء مجــالس عامــة منتخبــة مــن طــرف الفرنسـيين فقـط، وفي كـل مجلـس عـام يحـق لـوزارة الداخليـة أن تقـوم بتعيـين (6) مسلمين.

ثم جــاء المرســوم الثــاني والــذي سمــح لليهــود أن يأخــذوا الجنســية الفرنســية ويشـاركوا في الحكـم مـع الأوربيـين الغـزاة: وبـذلك تبقـى الفئـة الوحيـدة المحرومـة مــن المشــاركة السياســية هــي أبنــاء البلــد الأصــليين الــذين حرمــوا مــن حــق التصويت في الانتخابات وحق التعبير عن أفكارهم وآرائهم السياسية[1].

وفي يـوم (24 ديسـمبر 1870م) جـاء مرسـوم اخـر لإلغـاء المنـاطق العسـكرية وتحويـل تلـك المنـاطق تـدريجياً إلى يـد السـلطة المدنيـة وهـذا معنـاه بسـط نفـوذ المعمرين على جميع المناطق التي كانت تخضع سابقاً إلى سلطة العسكريين[2].

---

[1] المصدر نفسه ص 138 .

[2] المصدر نفسه ص 139 .

2. إلغاء المكاتب العربية:

وفي إطار هذه القرارات والمراسيم المؤيدة للمعمرين الفرنسيين ؛ قررت حكومة الجمهوريين إلغاء المكاتب العربية، وحولت تلك المكاتب إلى مكاتب لشؤون الأهالي أو أبناء البلد، والمكاتب العربية تمّ تأسيسها من قبل الجيش الفرنسي للتواصل مع الأعيان والقبائل. وكانت في بدايتها مسؤولة عن تسهيل عملية الاتصال برؤساء العشائر والتفاوض معهم، وإقناعهم بقبول مبدأ التعاون مع فرنسا مقابل التزام هذه الأخيرة باحترام أساليب عملهم والعادات والتقاليد الموجودة عندهم، وتوفير الأمن والطمأنينة في مناطق نفوذهم وحماية مصالحهم. ونظراً لازدياد دور هؤلاء العملاء في مساعدة الجيش الفرنسي على احتلال بقية المناطق في البلاد، فقد قرّر الجنرال بيجو في (1844م) أن يؤسس بصفة رسمية المكاتب العربية، ويضع لها الهياكل الإدارية بحيث تصير هذه المكاتب العربية هي الوسيلة الأساسية التي سيستعملها الجيش الفرنسي لإخضاع الجزائريين والقضاء على ما بقي من مؤسسات الدولة الجزائرية، وحسب التنظيم الجديد للمكاتب العربية التابعة للجيش الفرنسي، فإن إدارة الشؤون العربية على مستوى القيادة العسكرية قد قامت بتأسيس إدارات فرعية لها على مستوى المقاطعات الثلاثة الموجودة في الجزائر، ففي كل مقاطعة توجد وحدات للمكاتب العربية من الدرجة الأولى، ووحدات ثانوية من الدرجة الثانية، وباختصار فإن المكاتب العربية تحولت إلى إدارات محلية للتحكم في السكان الجزائريين. وفي عام (1865م) بلغ عدد المكاتب العربية في عمالة قسنطينة (15) مكتباً، وفي عمالة الجزائر (14) مكتباً، و(12) مكتباً في عمالة وهران.

وتتشكل المكاتب العربية في كل مقاطعة أو عمالة جزائرية من:

. مدير.

. ضابط مسؤول عن الصحة.

. ضابط مسؤول عن دفع المكافآت المالية.

. ترجمان.

. ضابط صف.

. خوجة «كاتب عربي».

. وكيل الضيافة.

. حاجبين «الشاويش».

وبمضي الوقت ازداد نفوذ المكاتب العربية، وأصبح دور المسؤولين في هذه المكاتب هو تعيين وخلع المسؤولين المحليين، وجمع الضرائب، واستصدار قرارات في المسائل الشرعية أو القضائية.

لكن في واقع الأمر تعتبر المهمة الرئيسية لرؤساء المكاتب العربية، بصفتهم ينتمون إلى السلطة العسكرية، هي جمع المعلومات التي تخدم الجيش وتساعده على تقوية نفوذه، وتشتمل هذه المعلومات على إحصاء الأراضي، والتعرف على مجاري المياه، وأخذ فكرة عن التنظيم السياسي الموجود في أوساط العشائر، وتحديد نوعية المداخيل المالية حتى يتمكن الضباط من الحصول على أموال كبيرة عند جمع الضرائب[1].

وبما أن المكاتب العربية كانت تابعة للجيش وتعمل لتدعيم نفوذه، فقد شن المعمرون الأوروبيون حملة شعواء ضد هذه المكاتب، واتهموها بأنها مكلفة

[1] المصدر نفسه ص 131 .

لهـم ماليـاً إذ إنهـم يتحملـون التكـاليف الباهظـة والأمـوال الكثـيرة الـتي يقـوم بتنفيـذها رؤسـاء المكاتـب العربيـة، وبمجـرد سـقوط الإمبراطوريـة وانهـزام نابليـون الثالـث واعتقالـه مـن طـرف الألمـان، تمّ حـل المكاتـب العربيـة بقـرارين صـادرين بتـاريخ (24 أكتـوبر 10 نـوفمبر 1870م) وتحويـل المنـاطق التابعـة للمكاتـب العربيـة إلى منـاطق مدنيـة تابعـة للنظـام المـدني الـذي يوجـد بـين يـدي المعمـرين في المقاطعات أو العمالات الثلاثة[1].

3. الحكم المدني في العصر الجمهوري:

تقـرر مـنح التمثيـل النيـابي لكـل ولايـة جزائريـة في البرلمـان الفرنسـي، ثم السـماح للمعمـرين الأوروبيـين سـنة (1875م) أن يكـون لكـل ولايـة ممثـل لهـم في مجلـس الشـيوخ الفرنسـي، وفي مجـال القضـاء أصـبحت المحـاكم تتشـكل مـن الفرنسيين فقط وتصدر الأحكام التي تراها تخدم قضايا المعمرين فقط.

وبعـد تحقيـق هـذه الانتصـارات السياسـية، حـوّل قـادة الجاليـة الأوروبيـة أنظـارهم إلى مسـألة تعمـير الجزائـر بعناصـر أوروبيـة قـادرة علـى اسـتغلال الأراضـي والاسـتفادة مـن الطاقـة البشـرية المتـوفرة بأبخـس الأثمـان، وقـد وضـع الأوروبيـون خطـة لجلـب (1،600،000) مهـاجر جديـد وهـذا بقصـد الاسـتيلاء علـى نصـف أراضـي العـرب سـواء بإبعـادهم أو عـزلهم أو مصـادرتها، ثم الاعتمـاد علـى الدولـة لتمويـل مشـاريع الإسـكان والإقامـة. والشـيء الـذي جعـل المعمـرين مقتنعـين بنجـاح خطـة مشـاركة الدولـة في مسـاعدتهم للتغلـب علـى الصـعاب الـتي تعـترض سـبيلهم هـو تفـاقم عـدد اللاجئـين الفرنسـيين القـادمين مـن مقاطعـة «الـزاس ـ لـورين» الـتي أصـبحت تابعـة لألمانيـا بعـد هزيمـة فرنسـا سـنه (1870م). فالحكومـة كانـت مجبـورة علـى إيجـاد العمـل لأولئـك الفرنسـيين

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 132 .

الفارين من المنطقة المحتلة، والمكان الوحيد الذي يسعهم هو الجزائر التي في إمكانها أن تستوعبهم وتجنب الحكومة الفرنسية قضية مزاحمة سكان فرنسا من طرف اللاجئين الجدد.

ونستخلص مما تقدم، أن النظام العسكري بعيوبه ومساوئه التي لا تعد ولا تحصى، يعتبر أهون من الحكم المدني في العصر الجمهوري، فبالرغم من تعنت القادة العسكريين واستيلائهم على الأراضي الخصبة لكي يصبحوا هم أسياد البلاد في القطر الجزائري، ويقيموا المخططات الواسعة التي مكنت الدخلاء على البلاد من توطيد قدمهم وقهر أبناء شمال إفريقيا، فإن القادة الجمهوريين هم الذين ساعدوا الأوروبيين على فرض إرادتهم على الملاك الجزائريين، وتحويلهم إلى مجرد عاملين بالأجرة أو أجبروهم على الهجرة إلى أماكن أخرى للبحث عن العيش. كما أن القادة الجمهوريين هم الذين جاؤوا بالبرامج المسطرة لتوسيع نطاق «التعمير الرسمي» وتقديم المساعدات الحكومية الضخمة لإنشاء المشاريع التجارية والعمرانية الخاصة بتسهيل إقامة الجاليات الأجنبية في الجزائر.

وأكثر من هذا، عمد قادة الجمهورية الثالثة إلى اتباع سياسة إخضاع تونس والمغرب ووضعها تحت الحماية الفرنسية، وبفضلهم أيضاً منحت الجالية اليهودية بالجزائر حق الحصول على الجنسية الفرنسية دون أن يتخلى هؤلاء اليهود عن عقيدتهم أو حقوقهم المدنية، وبهذه القرارات استطاع المهاجرون الفرنسيون والأجانب أن يستولوا على مساحات كبيرة من أراضي الجزائر ويضمنون لأنفسهم مستقبلاً في شمال إفريقيا.

وبعبارة أخرى، فإن سياسة الجمهوريين في مطلع السبعينات من القرن التاسع عشر، كانت ترمي إلى رفع معنويات المستوطنين الأجانب في الجزائر،

عـن طريـق تقـديم معـونات ماليـة وعقاريـة لهـم حـتى يتمكنـوا مـن توطيـد إقـدامهم بالجزائـر، وتحقيقـاً لهـذا الهـدف، تعهـدت الدولـة الفرنسـية بتخصـيص إعـانات ماليـة لبنـاء المـدن والمـدارس والعمـارات في الأمـاكن الـتي يقطنهـا الفرنسـيون، وتـوفير القـروض لرجـال الأعمـال الـذين يرغبـون في القيـام بمشـاريع تجاريـة، كمـا قـدمت الحكومـة تسـهيلات بشـأن الهجـرة إلى الجزائـر، ووضـعت تحـت تصـرف المهـاجرين الجـدد الأراضـي الشاسـعة لاسـتغلالها دون مقابـل، وتجسـدت هـذه السياسـة في القـانون يـوم (21 جـوان 1871م) الـذي وافـق فيـه مجلـس النـواب الفرنسـي علـى مـنح (100،000 هكتـار) للاجئـين الفرنسـيين مـن ألـزاس ـ لـورين. كمـا اقترحـت لجنـة برلمانيـة مصـادرة (340،000 هكتـار) مـن أراضـي الجزائـريين، وذلـك لتسـكين الوافـدين الجـدد علـى الجزائـر، ولم يكتـف البرلمـان بهـذا، بـل اسـتغل ثـورة الجزائـريين علـى فرنسـا سـنة (1871م)، وأعطـى موافقتـه علـى فـرض «ضـريبة الحـرب الإجباريـة» كعقـاب علـى حمـل الأسـلحة ضـد فرنسا.

وبعـد عـامين مـن تـدفق المهـاجرين الفرنسـيين والأجانـب علـى الجزائـر ؛ اتجهـت نيـة قـادة الجمهوريـة إلى توسـيع رقعـة المعمـرين علـى حسـاب مـلاك الأراضـي الجماعيـة، حيـث تقـرر أن لا يسـمح لأهـل البلـد الأصـليين بأي شـبر مـن الأراضـي يفـوق مـا يسـتطيعون خدمتـه مـن الأرض، كمـا نـص قـانون (26 جويليـة1873م) الـذي أقـره مجلـس النـواب الفرنسـي علـى اعتبـار كـل الأمـلاك العقاريـة خاضـعة للقـانون الفرنسـي. وهـذا يعـني أن أراضـي الوراثـة ينبغـي أن تقسـم وأنـه لم يعـد مـن حـق المسـلمين المحافظـة علـى الأمـلاك الجماعيـة الـتي هـي عـادة مرعيـة في الشـريعة الإسـلامية، وزيادة علـى ذلـك فإنـه نـتج عـن هـذا القـانون نـوع مـن المضـاربة والتسـابق إلى الـتخلص مـن الأراضـي، الشـيء الـذي أدى إلى قيـام نزاعـات وحـزازات محليـة بـين المـواطنين الجزائـريين، ثم إن

الفرنسيين أنفسهم استغلوا هذه النقطة بالذات، وحرضوا الملاك الصغار والورثة على المطالبة بحقوقهم، للتغلب على خصومهم في حالة ما إذا الت قضاياهم إلى المحاكم لتبت في الأمر، ومما لا شك فيه أن عدداً لا يستهان به من سكان البلد الأصليين خسروا أراضيهم لقلة إلمامهم بالإجراءات القانونية الدقيقة التي ينبغي اتباعها لإثبات حقوق الملكية وربح المعركة ضد المهاجرين الأجانب[1].

4 . سياسة المستوطنين بعد سنة (1870م):

بمجرد الإطاحة بحكومة نابليون الثالث يوم (2 سبتمبر 1870م)، وإلقاء القبض عليه وسجنه في ألمانيا لغاية (1871م)، ثم نفيه إلى بريطانيا حيث مات (1873م)، جاءت حكومة الدفاع الوطني لتتخذ إجراءات خطيرة لصالح المستوطنين الأوروبيين في الجزائر وتحقق جميع مطالبهم، فمالت الكفة لصالح المستوطنين الأوروبيين الذين استولوا على السلطة في الجزائر وأصبحوا هم يسيرون البلاد ويحكمونها بأسلوبهم الخاص لغاية (أول نوفمبر 1854م).

وباختصار فإن المستوطنين الأوروبيين بالجزائر قد قاموا بإعداد برنامج سياسي مكثف لتدعيم نفوذهم في الجزائر وإقامة نظام سياسي يخدمهم للأبد[2].

وتتمثل السياسة الجديدة في دمج الجزائر بفرنسا، وذلك عن طريق إصدار (36) مرسوماً تتعلق بالجزائر، وبانتقال السلطة من يد العسكريين إلى يد المستوطنين الأوروبيين.

---

[1] المصدر نفسه ص 142 .
[2] المصدر نفسه ص 152 .

وبعد أن فشلت فرنسا في حربها أمام الألمان، حولت هزيمتها بدافع مركّب النقص إزاء الألمان إلى مركّب العظمة أمام الشعب الجزائري المجاهد في سبيل حريته وكرامته وحقه في الحياة الكريمة.

فراحت تفرض عليه الغرامات العسكرية، والمساهمة بطريقة غير مباشرة في دفع التعويضات العسكرية التي فرضتها ألمانيا على فرنسا، فكلما ازداد شعور فرنسا بالضعف في أوروبا ازداد بطشها بالجزائريين.

وتتلخص سياسة المستوطنين الفرنسيين في عهد الجمهورية الثالثة فيما يلي:

ـ حصول المستوطنين الأوروبيين على حقوقهم السياسية، أي إقامة مؤسسات مدنية تخدم مصالح هذه الفئة الأوروبية المقيمة في أرض الجزائر.

. التمثيل التام في البرلمان الفرنسي، وفي المجتمعات والبلديات المحلية.

. ربط الإدارة في الجزائر بالوزارات المركزية في فرنسا.

ـ نقل السلطة من يد العسكريين إلى يد المدنيين الأوروبيين في إطار الحكم المدني.

ـ بيع أراضي الأعراش للمعمرين أو المستوطنين الأوروبيين، والتخلص من الدوائر الجزائرية التي تعاونت مع السلطات العسكرية وكانت تحد من نفوذ سلطات الحكم المدني.

ـ جعل أراضي الجزائريين ملكية فردية وجاهزة للبيع، وبذلك يتمكن المستوطنون الأوروبيون من التوسع في كل مكان في الجزائر.

ـ إقامة تجمعات سكنية في مناطق محددة للعرب، وباختصار الإدماج والحقوق السياسية لجميع الأوروبيون، أما الجزائريون فهم لا يريدون أي شيء ولا يحتاجون أي شيء.

فالمستوطنون بعبارة أخرى يريدون الإدماج وضم الجزائر إلى فرنسا لكن بشروط تتمثل فيما يلي:

. الامتناع عن دفع الضرائب.

. عدم أداء الخدمة العسكرية في الجيش.

. عدم دفع أية تكاليف مالية.

ـ اعتبار (35،000) مواطن أوروبي عدداً كافياً للحصول على نائب يمثلهم في البرلمان الفرنسي.

ولكي تكتمل سياسة الإدماج في فرنسا، فقد دعا لافيجري إلى انتهاج سياسة قوية للتبشير بحيث تجعل من الجزائريين مجموعة الكاثوليكيين المتحضرين، مثلما كان أجدادهم من قبل على حد قوله.

وبناء على ما تقدم فقد قرر تقديم مساعدات مالية سخية لكل مشروع يهدف إلى دمج السكان المسلمين في فرنسا[1].

لقد عمل المستوطنون الأوروبيون منذ سنة (1871م) على الانفراد بالسلطة في الجزائر، وحرمان المسلمين من أي تمثيل سياسي، أو الحصول على الجنسية الفرنسية. وتركزت خطتهم على:

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 169 .

ـ التخلص من رؤساء القبائل أو الشخصيات الجزائرية التي تعاونت مع المكاتب العربية.

. إنهاء العمل بالشريعة الإسلامية وتطبيق القوانين الفرنسية.

. إلغاء المكاتب العربية في جميع أنحاء الجزائر.

. تحويل المناطق العسكرية إلى الحكم المدني[1].

5 . قانون الإنديجينا:

وابتداء من عام (1881م) جاء الأوروبيون بقانون جديد يسمى «قانون الإنديجينا» وهو عبارة عن مجموعة من النصوص وضعت بقصد مسح الهوية الجزائرية، واستعباد الشعب من خلال الطاعة العمياء للأوروبيين، وقد بقي ساري المفعول حتى سنة (1944م)، ومن خلال هذا القانون حدد المستوطنون إجراءات معاقبة المسلمين، وإجبارهم على دفع الضرائب دون نقاش، ومنعهم من حمل السلاح، وعدم الذهاب إلى الحج بدون رخصة مسبقة، وإظهار الطاعة التامة لسلطة الأوروبيين.

وقد بدأ يستفحل خطر القضاء على الشخصية الوطنية للمسلم الجزائري يوم قرر المستوطنون الأوروبيون تعيين مسؤولين إداريين لتنفيذ العقوبات الواردة في قانون الإنديجينا وذلك بأساليبهم الخاصة.

وقد نجح هذا القانون في قمع الجزائريين، وكان القائمون على تنفيذ هذا القانون من المستوطنين. وحسب النصوص القانونية فإنهم لا يخضعون لسلطة الوالي أو رئيس أية بلدية أو القضاة. وهم في الحقيقة عبارة عن ضباط دون مراقبة ينفذون الأحكام ويفرضون الغرامات على المسلمين، وفي

[1] المصدر نفسه ص 169 .

بعض الأحيان يتحولون إلى قضاة ورجال أمن ينفذون أحكامهم وقراراتهم بأنفسهم على السكان المسلمين، وبصريح العبارة فإنهم أداة لقمع المسلمين لأنه لا توجد سلطة أخرى تلغي قرارات هؤلاء الإداريين الذين تحولوا إلى وكلاء للمحاكم القمعية ابتداء من سنة (1902م)، وعندهم سلطات مطلقة لتأديب وفرض العقوبات، فالمسلم الذي ينتقل بدون رخصة يدفع غرامة، وإذا لم يستطع دفعها يذهب إلى السجن. وهؤلاء الإداريون مثل رؤساء البلديات يعملون ليلاً ونهاراً لاستغلال المسلمين، والحصول على أموالهم ونهب ثرواتهم بأية صفة كانت[1].

6 . استغلال الفرنسيين لإمكانات الجزائر:

في عهد الجمهورية الثالثة أدخل الكولون زراعة الكروم التي بنيت عليها صناعة النبيذ في بلد مسلم لا يتعاطى الكحول، لتحل محل زراعة الحبوب والبقول، وكان الكولون يصرون على أن يكون لمستعمرة الجزائر وضع خاص له نوع من التميز عن فرنسا، حتى تطلق أيديهم فيعيشون فيها مثل ما يريدون، وفي سنة (1955م) تحقق لهم ذلك وقتما عين جونار في منصب الحاكم العام الذي كان يطالب بتحقيق هذه الفكرة منذ (1892م)، واستطاع أن يصدر ميزانية خاصة للمستعمرة، وأن يبرز كياناً خاصاً لها جعله يمتص الأزمة التي اندلعت بين الكولون الزراعيين واليهود التجار وصدر قانون (1955/12/19م) الذي يعترف بنوع من التميز لشخصية الجزائر، كمستعمرة طبعاً وليست ككيان مستقل، وتركت النفقات العسكرية خارج إطار ميزانية الجزائر.

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 173 .

وفي أوائل القرن العشرين زاد استغلال الفرنسيين لإمكانيات الجزائر الاقتصادية والبشرية، فزادت مساحة المزارع الكولونيالية، وزاد استغلال المعادن والغابات والصيد البحري، ووصل في سنة (1911م) عدد المستوطنين إلى (751،000)، وفي سنة (1908م) كانت فرنسا قد بدأت تعد مشروعاً للتجنيد الإجباري يطبق على الجزائريين، واضطرت العديد من الأسر الجزائرية إلى الهجرة لأقطار المشرق العربي خاصة سوريا وفلسطين هروباً بأبنائهم حتى لا يجندوا بالجيش الفرنسي الذي رأوا فيه خطراً على دينهم، وصدرت مراسيم الخدمة الإجبارية العسكرية على الجزائريين في (1/31 و 1912/2/3م)، ثم اندلعت الحرب العالمية الأولى وجند الجزائريون في الجيش الفرنسي، وكانت مرحلة جديدة ظهرت بعدها مباشرة تنظيمات الحركة الوطنية الجزائرية[1]، ويأتي الحديث عنها في الجزء الثاني من حديثنا عن كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

7. الأقلية الأوروبية في الجزائر:

إن الأقلية الأوروبية في الجزائر مارست ضغوطاً على جميع الحكومات الفرنسية منذ (1830م) إلى (1955م) بحيث نجحت الخطة المرسومة التي اشتملت على ثلاث مراحل متتالية:

المرحلة الأولى: تتمثل في إدماج الجزائر في فرنسا من الناحية القانونية، أي اتخاذ الإجراءات القانونية التي تسمح بابتلاع الجزائر وجعلها جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، وفي هذا المجال، نشير إلى بعض القوانين التي تم سنّها بقصد ضم الجزائر إلى فرنسا هي:

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 620.

ـ مرسوم (22 جوان 1834م) الذي نص على اعتبار الجزائر جزءاً من الممتلكات الفرنسية.

ـ مرسوم (4 مارس 1848م) الذي نص على أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا.

ـ قانون (4 جويلية 1865م) الذي نص على اعتبار المسلمين الجزائريين رعايا فرنسيين.

ـ مرسوم (24 أكتوبر 1870م) الذي أصبحت الجزائر بموجبه تشكل ثلاث مقاطعات فرنسية، والقوانين الفرنسية تطبق على الجزائريين المسلمين.

ـ مرسوم (29 مارس 1871م) الذي نص على تعيين حاكم عام مدني في الجزائر خاضع لسلطة وزير الداخلية الفرنسي.

ـ قانون (23 مارس 1882م) الخاص بإنشاء دفاتر الحالة المدنية للمسلمين الجزائريين.

ـ قانون (19 ديسمبر 1955م) الذي يسمح للجالية الأوروبية في الجزائر أن تنشئ المجلس المالي، ثم المجلس الجزائري فيما بعد، وذلك لكي تحكم قبضتها على الجزائر وتمنع السكان المسلمين من الحصول على حقوقهم السياسية والاقتصادية وحقهم في الحصول على تمثيل نيابي عادل سواء في المجالس البلدية أو المجلس الجزائري.

وأما المرحلة الثانية: أو الخطوة المكملة للاندماج من الناحية القانونية ؛ فتتمثل في الاستيلاء على الأراضي الخصبة، وإعطاء الجنسية لجميع المهاجرين والمقيمين الأجانب في الجزائر، والحصول على دعم مالي من الدولة لبناء المدن الصغيرة في جميع أنحاء الجزائر.

ولم يكـن للمسـتوطنين الأوروبيـين في الجزائـر أمـوال عنـدما قـدموا إليهـا ؛ لأنهـم جـاؤوا أساسـاً إلى الجزائـر بحثـاً عـن العمـل والعـيش فيهـا، ونظـراً لفقـرهم وعـدم تــوفر أمــوال لــديهم، قامــت الدولــة الفرنســية بتخصــيص أمــوال طائلــة لاسـتثمارها في بنـاء المـدارس والطرقـات وشـراء الأجهـزة والمعـدات الزراعيـة، وإعطـائهم أراض دون مقابـل لاسـتغلالها والتمتـع بخيراتهـا علـى حسـاب المـواطن الجزائـري الـذي لا يجـد مـن يمـد لـه يـد المسـاعدة. وبهـذا الأسـلوب الخبيـث، سـاهمت الدولـة الفرنسـية في تحطـيم عنصـر بشـري «جزائـري» وإثـراء عنصـر أوروبي دخيـل علـى الـبلاد، وذلـك عنـدما قامـت بتسـخير مواردهـا ومـوارد السـكان المحليـين لـدعم الأوروبيـين وتمكيـنهم مـن إخضـاع أبنـاء البلـد لنفـوذهم السياسي وقوتهم المالية[1].

وعنـدما اكتملـت المرحلـة الأولى «مرحلـة الإدمـاج» والمرحلـة الثانيـة «مرحلـة جلـب المهـاجرين» وذلـك في بدايـة القـرن العشـرين، جـاءت المرحلـة الثالثـة كتتـويج للمـرحلتين السـابقتين، وهـي إعطـاء الجاليـة الأوروبيـة حكمـاً ذاتيـاً يسـمح لهـا باسـتعمال الغـش والمنـاورات والدسـائس لفـرض نفوذهـا علـى الجزائـريين والـتحكم فـيهم إلى الأبـد. لقـد كـانوا يظنـون أن قـوانين الإدمـاج، وتحـالف الأوروبيـين واليهـود، ووجـود هيئـات تشـريعية ومجـالس بلديـة شـكلية يتحكمـون فيهـا عـن طريـق الغـش في الانتخـابات أو انتقـاء العمـلاء لمـلء المقاعـد المخصصـة للجزائـريين المسـلمين، سـوف تمكـنهم مـن سـد جميـع الأبـواب الحديديـة في وجـوه الجزائـريين المقهـورين في أرض ابائهـم وأجـدادهم[2]، لكـن الله أراد شـيئاً اخـر متمـثلا في إعـداد جيـل جديـد ليقـوم فيمـا بعـد بتوفيـق الله ومنه بإحراز نصر عظيم على الغزاة الغاصبين.

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 200 .

[2] التاريخ السياسي للجزائر ص 200 .

الثاني عشر: التبشير بالنصرانية في الجزائر:

عملت أجهزة الاستعمار على تنصير الجزائريين، وتأسيس كنيسة جزائرية. وكان أنطوان دوبوش أول أسقف فرنسي تولى الأسقفية بالجزائر سنة (1838م). وعمل من أجل استعادة الكنيسة الإفريقية والمسيحية كما كانت قبل الإسلام مثلما يزعم، وهو الذي حوّل جامع كتشاوة إلى كتدرائية الجزائر، وأعطاها اسم كنيسة سان فيليب، وعندما مات سنة (1864م) دفن بها، وهو الذي أعاد بقايا القديس أوغستين إلى عنابة سنة (1842م) في احتفالات كبيرة حضرها أساقفة فرنسا، وهو الذي حوّل عدة مساجد إلى كنائس مثل جامع علي بتشين في العاصمة، وجامع سوق الغزل في قسنطينة وجامع بني عامر في وهران، وهو الذي بنى كنائس في كل المدن التي دخلها الجيش الفرنسي، وهو الذي عمل على منح مساجد وزوايا لجمعيات مسيحية كالجزويت، وأقام هو في قصر الأميرة عزيزة بقسنطينة وهو من قصور باي قسنطينة. واستدان دوبوش أموالاً كثيرة أنفقها على مشاريعه التنصيرية، وعجز عن سداد الديوان فتابعه الدائنون فهرب إلى إيطاليا.

وتولى أسقفية الجزائر بعده لوي بافيه سنة (1848م) واستمر حتى (1866م)، وهو الذي اعترف بعدم نجاح عملية تنصير الجزائريين بالمدن، كما اعترف بفشل الجزيويت في تنصير القبائل، وهو الذي بنى كنيسة السيدة الإفريقية بمكان عال يشرف على البحر بالعاصمة والتي بدأ في بنائها سنة (1858م)، ودفن عند وفاته سنة (1866م) في كنيسة السيدة الإفريقية، وروي أنه مات حزيناً لأنه لم يحقق طموحه في تنصير الجزائريين[1].

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 637 .

1. لافيجري ذروة التبشير في الجزائر:

خلف لوي بافيه على رأس الأسقفية لافيجري الذي سيطر على عملية التبشير من (1867م) وحتى سنة (1892م) ضمن خطة شاملة استهدفت إدماج الجزائريين في الشخصية الفرنسية عن طريق التنصير والفرنسة، وقد سبق للافيجري أن عمل في سوريا وتعلم العربية وحضر أحداث (1860م) في دمشق، التي تدخل الأمير عبد القادر بها وأنقذ مسيحيي دمشق من الإبادة، وصل لافيجري الجزائر سنة المجاعة بعد مرسوم (1863م) الذي جرد الجزائريين من أراضيهم وأفقر الناس بمن فيهم الوجهاء[1].

أ. الظروف العامة لمجاعة عامي «1867م. 1868م»:

اشتد البلاء على الجزائريين وزادت النكبات من سنة (1866م . 1868م) بنكبات عديدة اختباراً وامتحاناً من الله عز وجل للشعب، وكانت أقسى ما تكون على السكان الجزائريين لاسيما الفلاحين وعامة الناس منهم، وتمثلت هذه الابتلاءات والاختبارات الربانية بالزلازل التي ضربت مدينة البليدة وضواحيها فتسببت في ضحايا كثيرين، مع هجوم الجراد والجفاف ووباء الكوليرا والتيفوس، وقد أدّت هذه النكبات كلها إلى ظهور أزمة اقتصادية وسياسية، نتج عنها مجاعة عامة بالجزائر سنة (1867م) واستمرت إلى أواخر (1868م).

هجم الجراد على الجزائر في أفريل (1866م)، فعمّ السهل المتيجي وكل المناطق المجاورة له وامتد إلى مدينة المدية وأتلف كل المحاصيل الزراعية، بحيث أصبحت حقول القمح والشعير . وهي أمل السكان ومصدر رزقهم

[1] المصدر نفسه ص 637 .

وغذاؤهم الأساسي . خالية تماماً من الغلة، ولم تكد تنتهي كارثة الجراد حتى شمل الجزائر جفاف عام، وقد كان الأوروبيون أقل الذين تعرضوا لنتائج هذا القحط، لأنهم كانوا يملكون أحسن الأراضي وأكثرها ماء بخلاف الفلاحين الجزائريين، الذين كانت السلطة الاستعمارية قد استولت على أراضيهم ووزعتها على المعمرين، حينما اتبعت في العهد الإمبراطوري سياسة التهجير والاستيطان للعنصر الأوربي.

وتبعت هذا الجفاف أمطار غزيرة جداً وثلوج قوية أتلفت المحاصيل الزراعية الضعيفة وقتلت المواشي والأغنام، فأضاعت بذلك بعض القبائل أغنامها، وثلث ثيرانها، فتشرد المنكوبون، وانتهجوا طرق التسول وخاصة بمنطقة الجنوب والهضاب العليا، وتوزعوا في البلاد لطلب العمل أو العشب لما تبقى لهم من الأغنام[1].

وقد اضطرتهم هذه الظروف القاسية إلى بيع خيولهم بأبخس الأثمان وحلي النساء للحصول على الحبوب والبذور، بعد أن استهلكوا كل مخزون مطاميرهم، واستنفذوا ما عندهم من المواد الغذائية، فالأرض لم تعد قادرة على الإنبات وارتفعت أسعار الحبوب.

لقد تضافرت هذه العوامل الطبيعية، فكانت أحد الأسباب الهامة في ظهور بلية كبرى كمنت في المجاعة العامة التي هلك بسببها الكثيرون، ثم حدث وباء الكوليرا والتيفوس الذي زاد الطين بلة، فانتشر الجياع في البلاد وكثروا، وأصبحوا يقتاتون بالجذور والأعشاب والكلاب، بل إن البعض منهم نبشوا القبور وأكلوا جثث الموتى، وذكر البعض بأنهم أكلوا حتى الأحياء من البشر، وبلغ الأمر ببعضهم أن أصبحوا يتنازعون على المزابل والفضلات

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية ، خديجة بقطاش ص 102 .

بالمدن. ويذكر الأب برزي الذي كان قسيساً على مدينة الشبلي بمتيجة: «إن الجياع كانوا يفدون إلى المراكز الأوروبية بالمدن منهوكي القوى عراة، وقد غابت عنهم الصورة البشرية، إذ أصبحوا هياكل عظمية».

وامتلأت الشوارع بالمتسولين، وتضاعفت الاعتداءات لا من أجل الحصول على القوت، وإنما من أجل أن يقبض على المعتدي ويزج به في السجن ليضمن قوته بصفة مستمرة ومنظمة. وبطبيعة الحال كان المعمرون يحرسون ضيعاتهم، يدّعون أنهم كانوا مهدَّدين مستعمِلين في ذلك بنادقهم الخاصة، ومما زاد الأمر خطورة انتشار وباء الكوليرا بشكل واسع وسط الجزائريين، أما الأوروبيون فقد نجوا منه لتوفر الوقاية الصحية لديهم[1].

ب . عدد الضحايا:

ويضيف الأب برزي قائلاً: إنه ليصعب علينا التعرف على العدد الحقيقي للضحايا وهو يقدره بحوالي (250 ألف) ضحية، وحسب تقدير الجنرال الار في التقرير الذي قدمه إلى أعضاء المجلس التشريعي في (مارس 1868م) فإن عدد الضحايا بلغ سنة (1867م) (89،577) ضحية، (86،791) من الجزائريين، ويبدو من هذا محاولة إخفاء الحقيقة المرة بالجزائر، أما جريدة المرشد الجزائري فتذكر بأن العدد بلغ (128،812) ضحية في الأشهر الأربعة الأولى من عام (1868م).

ج . موقف فرنسا من المجاعة:

أمام هذه المصيبة أشعر إسماعيل عربان نابليون الثالث بخطورة الوضع، فرأى الإمبراطور أن يكاتب الجنرال ماكمهون الحاكم العام آنذاك بالجزائر ويبدو

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية ص 103 .

أن هـذا المسـؤول العسـكري لم يطلـع الإمبراطـور علـى حقيقـة المجاعـة، وممـا قالـه نابليـون الثالـث: لا ترغـب فرنسـا في أن يقـال عنهـا يومـاً مـا أنهـا تركـت الخاضعين لحكمها يموتون جوعاً.

كمـا يبـدو أن مكمـاهون عمـل علـى فـتح ورشـات عمـل في الجهـات الخاضـعة للنظـام المـدني وملاجـئ كانـت عبـارة عـن محتشـدات عسـكرية جمـع فيهـا هـؤلاء المنكـوبين لا مـن أجـل إسـعافهم وإنمـا لتـوفير الأمـن للأوربيـين، كمـا أنـه وزع صـدقات علـى الجـائعين، غـير أن التقـارير الشـهرية لعـام (1868م) تـذكر حقائق مفجعة بسبب المجاعة وتصفها بالمصيبة الكبرى.

خصصـت الحكومـة مبلغـاً قـدره (400 ألـف) فرنكـاً في جـانفي (1868م) ومبلغـاً قيمتـه مليـونان مـن الفرنكـات في مـارس مـن نفـس السـنة، لكـن هـذه المبـالغ لم تكـن لتكفـي لإيصـال الحبـوب في وقتهـا المناسـب كمـا كانـت هـذه المساعدة ارتجالية وغير منظمة[1].

وشـكلت هـذه المأسـاة أزمـة سياسـية حـادة في الجزائـر، عاشـها المسـتوطنون بمختلـف فئـاتهم، حيـث فتحـت بابـاً لأعـداء النظـام العسـكري، وكانـت هـذه الأزمـة ونتائجهـا محـور مقـالاتهم بمختلـف الجرائـد، فـاتَّهم المعارضـون النظـامَ العسـكري وردّوا سـبب هـذه المصـيبة إليـه، وإذا كـان دعـاة النظـام المـدني قـد أرجعـوا سـبب الكارثـة إلى النظـام العسـكري، والـبعض الاخـر إلى الكـوارث الطبيعيـة كهجـوم الجـراد والجفـاف، فـإن الأعيـان الجزائـريين ردوهـا إلى سـوء تصرف السلطة الفرنسية مع أبناء الوطن الذين أُخذت أراضيهم غصباً.

وأمـا الكردينـال لافيجـري فقـد ردّ السـبب إلى الإقطـاع «الأهلـي»، ويبـدو أن هـذا غـير صـحيح، لأن الـديون الـتي ترتبـت علـى المـلاك الكبـار مـن الجزائـريين

[1] المصدر نفسه ص 104 .

إثـر إنقـاذهم للجيـاع كانـت كبـيرة، بحيـث أفرغـوا مطـاميرهم وخسـروا ثـرواتهم، ومـن بـين هـؤلاء الباشـاغا المقـراني الـذي لعـب دوراً عمليـاً في إغاثـة المنكـوبين، فبـدعوة مـن الجنـرال مكمـاهون الحـاكم العـام، تسـلف المقـراني مـن السـيد مسـرين اليهـودي ـ وكـان يملـك سـهماً في بنـك الجزائـر ـ مبلـغ ثلاثمئـة وخمسـين ألـف فرنـك في شـكل وصـولات إلى حسـاب البنـك الجزائـري، ولم يلبـث المبلـغ أن ارتفـع مـع الأرباح إلى نصـف مليـون فرنـك، واقـترض مـن السـيد عبّـادي اليهـودي أبـو قايـة بسـطيف، فارتفعـت ديونـه إلى مليـون فرنـك خصـها لإنقـاذ الجيـاع مـن المـوت وإعانـة الفلاحـين علـى حـرث أراضـيهم، واضـطر في الأخـير إلى أن يبيع بعض أملاكه لتسديد بعض الديون فيما بعد[1].

2 ـ فلسفة التبشير لدى لافيجري:

يعتـبر الكاردينـال لافيجـري أحـد الوجـوه التاريخيـة المسـيحية الـتي أثـرت بعمـق علـى فلسـفة التبشـير، وطبعتهـا بتفكـيره وسـلوكه وجرأتـه في شـتى الميـادين وهـو يمثـل خـلال سـنوات (1868م ـ 1892م) قمـة التبشـير في الجزائـر والمغـرب العربي وفي قارة إفريقية. ويعود ذلك إلى ما يلي:

ـ النشاط الفعّال الذي أبداه في نشر المسيحية.

ـ روح التعصب الديني عنده وإرادة التعريض بالإسلام ورجاله.

ـ مواقفـه التبشـيرية التنصـيرية الـتي اسـتهدفت خدمـة المصـالح الفرنسـية بالجزائـر وإفريقية بوجه عام ومكانته المرموقة لدى سلطات الفاتيكان.

ـ التأييـد الـذي حصـل عليـه مـن بعـض المسـؤولين الكبـار في الجزائـر ومـن حكومة باريس.

---

[1] المصدر نفسه ص 105 .

ولم يُخفِ لافيجري نواياه التبشيرية من الوهلة الأولى من التعيين، ويظهر ذلك في مكاتبته لوزير الشؤون الدينية بعد قرار التعيين إذ يقول: إني الوحيد الذي أبديت اهتماماً بنشر المسيحية وسط العرب، وقد كانت ولازالت لي علاقة طيبة مع مسيحيي المشرق العربي، وهؤلاء يجب استدعاؤهم إلى الجزائر.

وقبول لافيجري لمنصب أسقفية الجزائر كان أولاً وقبل كل شيء يرمي إلى أبعاد دينية وسياسية في الوقت نفسه:

. من أجل خدمة الكنيسة المسيحية الناشئة في الجزائر.

ـ من أجل تعزيز المكاسب الفرنسية الاستعمارية بالجزائر، واعتبر بلاد الجزائر بوابة تنطلق منها عملية الاستعمار في إفريقية والتبشير فيها، وقد عبرت عن ذلك رسالته الموجهة إلى الرهبان الجزائريين (5 ماي 1867م) فقال: سآتيكم إخواني في ساعة مشهودة في تاريخ إفريقية المسيحية، إن الكنيسة وفرنسا متحدتان على إحياء الماضي[1].

والتبشير الذي يريده لافيجري هو ذلك الذي يعمل على تحقيق الادماج عن طريق التنصير، وليس الادماج الذي يتم عن طريق القوانين أو القوة، لأن هذه القوة في نظره، لن تؤدّي إلى نجاح فرنسا في الجزائر حتى ولو بقيت فيها عشر قرون.

وأحسّ بالخجل أمام الأمة الفرنسية التي عاشت مدة أربعين سنة أمام شعب مسلم خاضع لها، دون أن تعمل على تنصيره.

وتعجب من موقف السلطة من التبشير فهي عوض أن تعمل على إدماج الأهالي . أي الجزائريين . في المجتمع الأوربي والحضارة المسيحية تركتهم

---

[1] المصدر نفسه ص 107 .

يتخبطون في بربريتهم وقرانهم.

وقد كان القران والإسلام في نظره أشد عدوّ للمسيحية، وإن واجبه يفرض عليه محاربتهما، فالقران بالنسبة له شريعة الكذب واللا أخلاق، كبرت كلمة تخرج من فيه. وعمل على محاربة الإسلام بنشر التنصير بين المسلمين وذلك بوسيلتين:

. الأعمال الخيرية التبشيرية.

ـ إنشاء المدارس الفرنسية في كل مكان وهذه هي الأداة الضرورية لتحقيق الإدماج.

لقد كانت كارثة (1867م . 1868م) فرصة مناسبة اغتنمها الكاردينال لافيجري ليفتح باب التبشير على مصراعيه، وقاعدة المبشرين أنهم ينتهزون مثل هذه الفرصة، فاستغل وضع الكثير من المرضى والجياع، وأنقذهم من الهلاك باسم الصليب وفرنسا، فجمع حوله ما يقرب من ألف وثمانمئة طفل بين مشرد ومريض تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة ووزعهم على مختلف المراكز والملاجئ التي أنشأها في بوزريعة وبولوغين «سان أوجين سابقاً» وبين عكنون والأبيار والقبة، وسلم بعضهم أيضا إلى يسيوعيي بوفاريك والأخوات والراهبات بمصطفى، قصد معالجتهم وتنصيرهم[1].

ولما كانت هذه العملية التنصيرية تحتاج إلى أموال وتأييد؛ سافر الكاردينال لافيجري إلى باريس ليطلب الصدقات لهؤلاء الأطفال، وليلفت نظر أصدقائه بجامعة السوربون ونظر وزارة الشؤون الدينية إلى نكبة الجزائر. وقبل العودة إلى الجزائر . في أول جانفي (1868م) . وجه نداء إلى كل الصحف

[1] المصدر نفسه ص 108 .

الكاثوليكية يصف فيه المجاعة ويطلب مساعدة المسيحيين الطيبين لصالح الملاجئ، فلبى هؤلاء النداء وتكونت لجان بالمدن الفرنسية الكبرى لجمع التبرعات، واستمرت مساعي لافيجري الخيرية يدفعه حماسه الديني، وفي (20 فيفري) من نفس السنة بعث رسالة إلى كل رجال الدين في فرنسا يطلب منهم قراءة ما جاء في النداء المذكور في مختلف المراكز الدينية والكنائس، لتعريف الفرنسيين بالمأساة رغبة في الحصول على المساعدات، وقد تم ذلك بحصوله على تبرعات مالية مبلغها ثمانمئة ألف فرنك لصالح الملاجئ.

وفي (15 مارس) من السنة نفسها طلب المعونة أيضاً من أساقفة بلجيكا وإسبانيا وإنجلتره، وكان البابا بيوس التاسع من الذين لبّوا النداء بإرسال مساعدة مالية قدرها (5) الاف فرنك. وتلقى لافيجري مبلغ ستين ألف فرنك من كاردينال مدينة رووان في فرنسا لصالح المستعمرة، وتلقى من الإمبراطور نابليون وزوجته إعانة شخصية مبلغها ثلاثة عشر ألف فرنك. ودعمت هذه التبرعات الكاثوليكية إعانات بروتستانتية بالرغم من اختلافهما في المذهب إلا أنهما يتفقان في الهدف وهو التنصير، وقال رئيس المذهب البروتستانتي في الجزائر: يمكن للكنيسة المسيحية أن تترك أثراً طيباً في نفوس الأهالي بفضل خدماتها الخيرية[1].

ووجد نداء لافيجري في الجزائر صدى عند بعض العسكريين الذين ناصروا التبشير، فقد بعث له الجنرال ومبفن بثلاثين خيمة وجنوداً لتنصبها في الملاجئ وشكره على الأعمال التي يقوم بها لصالح الأيتام والمعمرين، واعتبرها أجمل وأجل مشاريع هذا القرن، ورأى بأن هذا العمل الخيري يجب

[1] المصدر نفسه ص 109 .

أن يجد تأييداً ليس من الشعب . الفرنسي طبعاً . فحسب وإنما من الدولة أيضاً.

وكسب لافيجري ودّ المعمرين الذين ساندهم في مصالحهم الاستعمارية وحصل على تبرعات مالية منهم، وقد استدعت هذه التبرعات التي تأتي من كل حدب وصوب التنظيم، ولهذا الغرض تكونت لجنة خاصة تشرف على إدارة التبرعات. وكانت التبرعات تنشر أسبوعياً في مجلة «صدى سيدتنا الإفريقية» وهي مجلة أسسها لافيجري وأشرف على تحريرها وهي ذات أغراض دينية تبشيرية هدفها إطلاع الرأي العام في الجزائر، وكانت هذه المجلة من الوسائل الإعلامية التي استطاع لافيجري بواسطتها أن يفرض وجوده، وأن يجلب إليه أنصاراً عديدين[1].

لقد جند لافيجري فرقاً دينية من الرهبان والراهبات لمعالجة الأطفال المصابين بوباء الكوليرا والتيفوس والجدري، وقد بلغ التفاني من أجل هذه المهمة أن هلك الكثير من رجال الدين بسبب انتشار العدوى، وبالرغم من الجهود التي بذلوها لإنقاذ حياة الأطفال من الموت ؛ فإن الكثير منهم قد هلك وعددهم حوالي (600) طفلاً، واغتنم لافيجري هذه الحالة فعمَّد الكثير منهم ساعة الاحتضار.

وقد أثار هذا العمل خوف الكثير من أسر الأطفال، فطالبت باسترجاع أبنائها إليها وفرَّ من تمكن من المراهقين عندما أدركوا هذه الحقيقة، ولم يبق بالملاجئ سوى (378) طفلاً و(342) بنتاً أراد لافيجري أن يحتفظ بهم بدعوى أنه المنقذ لحياتهم من الهلاك ليجعل منهم رجالاً مسيحيين إن أمكن ذلك، وليكونوا نواة التبشير الجماعي والعائلة العربية المسيحية في الجزائر.

[1] المصدر نفسه ص 110 .

والكتابات العديدة التي ظهرت أثناء هذه المجاعة وما بعدها ؛ وتصميم هذا الرجل على إبقاء هؤلاء الأطفال لديه ؛ يعكس الروح الصليبية والهدف الديني والاستعماري الذي كان يسعى إليه. وفي يوم (6 أفريل 1868م) أعلن عن تبنيّه للأطفال الأيتام، وتمّ الإعلان عن طريق نشر رسالة مطولة بمختلف جرائد الجزائر، لخص فيها ظروف المأساة وأفصح عن رغبته في تطوير هذه العملية الكبرى . عملية التبشير . للوصول إلى إدماج الجزائريين السريع في المجتمع الفرنسي، وقرر إبقاء الشبان الذكور في عكنون لتكوينهم في ميدان الفلاحة، وتسليم البنات للراهبات لتكوينهم في الأعمال المنزلية والحقل. وكانت نية لافيجري في هذا القرار إيجاد نواة خصبة من العرب المسيحيين الذين سيعملون من أجل الاستعمار الفرنسي، وجسّد هذه النية حينما قال: سيكون في ظرف سنوات قليلة مشاتل خصبة من العمال النافعين الذين يساندون علمنا، ولنقلها صراحة من العرب المسيحيين[1].

واصطدم لافيجري بصمود الجزائريين وتمسكهم بالإسلام وعقيدتهم المعبرة عن وجودهم وكيانهم، ورأي لافيجري في تمسك الجزائريين بالإسلام تعصباً أعمى، فأخذ يسيء إليهم بقوله: إن الانعدام الكلي لمعنى الأخلاق هو السبب في شقاء هذا العرق.

وقال: يجب إنقاذ هذا الشعب وينبغي الإعراض عن هفوات الماضي ولا يمكن أن يبقى محصوراً في قرانه، ويتعين على فرنسا إما أن تقدم له . بل إني أخطأت التعبير . يتعين عليها أن تفسح لنا المجال لنقدم له الإنجيل، وإما عليها أن تطرد هذا الشعب إلى الصحارى بعيداً عن العالم المتمدن.

[1] المصدر نفسه ص 111 .

ويبدو من هذا القول أنه أراد تطبيق سياسة أمريكا في القضاء على الهنود الحمر، وإبعادهم عن مراكز التمدن، لأنهم رفضوا الاستجابة لدعوة التنصير وأظهروا التمسك بالقران المجيد والإسلام العظيم.

وكان هذا المنشور محل نقد المعارضين للتبشير. ومردّ ذلك:

ـ ليس احتراماً للإسلام والمسلمين، بل تخوفهم من عودة رجال الدين إلى المجال السياسي، وهو الذي عانوا منه مدة طويلة في فرنسا.

ـ خشيتهم من نتائج التبشير وعواقبه على المستعمرة، وكان لافيجري محل انتقاد وتوليد ردة فعل من الشعب الجزائري، وحاول ماكمهون التخفيف من ردة الفعل وأثار في رسالة موجهة إلى وزير الحربية بتاريخ (2 جوان 1868م) إلى اخر حديث جرى بين السيد ابن علي الشريف مع نائبه الحاكم العام «ديريو» قال فيه: لقد قرأت رسالة لافيجري المؤرخة يوم (6 أفريل) والتي أعلن فيها عن عزمه على استبدال القران بالإنجيل لإعادة الحياة إلى هذا الشعب، ولقد أثرت هذه الرسالة في المسلمين، وإني كرجل دين، وكل مسلمي جيلي الذين يفكرون مثلي، إننا نفضل موت جميع أولادنا من أن نراهم منصّرين، فليس هناك مساومة في هذا الأمر، لقد وعدتمونا بعدم المساس بديننا، فإذا أخلفتم هذا الوعد وخالفتم قسمكم فإننا بالمقابل غير ملزمين بوعدنا تجاهكم[1].

3 . الخلاف بين لافيجري وبين الجنرال ماكمهون:

أدرك ماكمهون العواقب التي يترتب عليها قرار لافيجري بتبنيه الأطفال الأيتام، وطالب الجنرال بإرجاع هؤلاء اليتامى إلى ذويهم، وهدّد بغلق

[1] المصدر نفسه ص 113 .

الملاجئ في حالة رفضه تطبيق أوامره، لكن لافيجري صمّم على إبقاء الأطفال بالملاجئ، مدعياً بأنه أصبح أباً لهم، وأنه يملكهم لأنه أحياهم بعد أن أوشكوا على الموت. وقد أدى هذا الموقف إلى ظهور مشادة كلامية بينه وبين الجنرال ماكمهون، وقد تدخلت الحكومة بباريس لحل هذا النزاع، وظل الصراع بين الرجلين محور مقالات متعددة بمختلف الجرائد في الجزائر وباريس. وتجاوز الخلاف الإطار الجزائري ليتحول إلى مشكل إسلامي، إذ أن صحيفة «الجوائب» التي يشترك فيها عدد من الأعيان، ومن أهل قسنطينة بوجه خاص، نشرت العديد من المقالات حول الموضوع، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على روح التضامن بين المسلمين في المشرق والمغرب رغم الضعف السياسي الذي كان يعيشه الحكام.

واشتد الخلاف بين الجنرال ماكمهون والكاردينال لافيجري، واحتج الجنرال على الكاردينال باسم الحكومة أمام حملته الشديدة ضد النظام العسكري، فكتب إليه يذكر له إنه إذا كانت أعماله الخيرية قد تركت في نفوس الفرنسيين المتعاطفين معه انطباعات حسنة، فإنها من ناحية أخرى قد وجدت نفوراً بين الأهالي الذين لم يريدوها على حساب ديانتهم لأنها استغلال لظروفهم القاسية خدمة للتبشير، وذكّره أيضاً بالعواقب التي تنجم عن طرد المسلمين إلى الصحارى، في وقت تريد فرنسا أن تجلبهم إليها وتعمل على تطبيق ما جاءت به أفكار نابليون الثالث عام (1865م)، غير أن الكاردينال لافيجري وضع خطته الجديدة في الإدماج وبين للجنرال بأن للتبشير فائدتين هما:

أ . إن تنصيره للأطفال ولكل المسلمين سيعمل على تثبيت الوجود الفرنسي في الجزائر، لأن التبشير يخلق قوة سياسية جديدة تتمثل في الأهالي الأوربيين الذين سيعملون على إخماد الثورات.

ب ـ إن المسلمين الذين أخذوا عن الأوربيين عيوباً كثيرة سيتعلمون المبادئ الحسنة من المسيحية عن طريق التنصير، ففي نظره أن لا أخلاق ولا مبادئ للمسلمين.

وطالما أن لافيجري رأى في الجزائريين صورة همجية ؛ فإنه وعلى خلفية النظرية الاستعمارية التي تذرّع بها سابقوه ؛ فالاحتلال جاء لتمدين الجزائريين وإخراجهم من التخلف.

ووقف المستوطنون في جبهة لافيجري في موقفه من الأطفال ومن التبشير مكونين وإياه قوة متحدة، ووقفوا معارضين لتدريس القران في الزوايا، واتهم الصحفي كليمان ديفرنوا الذي دافع عن حق المسلمين في تعلم القران بالتعصب والتحريض على الثورة.

ولم يكتف المعمرون بهذا فلاموا الإمبراطور نابليون الثالث حينما أراد نشر اللغة العربية وأبدى اهتماماً بالأعياد الدينية، وشجعوا الكاردينال لافيجري على الاحتفاظ بالأطفال اليتامى، مؤكدين على أن الاندماج الذي لا يصلح مع كبار السن المتعصبين سوف ينجح مع الأطفال الصغار.

فأحس لافيجري بالقوة بفضل التفاف المعمرين حوله فزاد موقفه تصلباً، وأمام هذا قرر الجنرال ماكمهون مكاتبة وزير الحربية الماريشال نييل يوم (23 أفريل 1868م) ليضع حداً للصراع ووصف له تخوف السكان المسلمين في الجزائر والعالم الإسلامي.

ولكن وزير الحربية كان مسانداً ومؤيداً للتبشير ولذلك لم يستجب لمقترحات ماكمهون.

ويبدو أن الكاردينال استخف بما ذكره ماكمهون من تخوف السكان وثورتهم ضد التبشير، فكتب إلى الإمبراطور يقول: لم يعد للعرب قوة ولا إمكانيات للقيام بالثورة.

وادعى بأن الإدارة العسكرية تتهرب من مسؤولية المجاعة والأمراض، ولذلك استندتْ إلى تخوف السكان منه[1].

وإذا رجعنا إلى موقف الإمبراطور نابليون الثالث من التبشير وجدنا بأنه أبدى تمسكه بمبدأ حرية العقيدة الدينية، وتحت تأثير ماكمهون بعث نابليون خطاباً شديد اللهجة إلى الكاردينال لافيجري يذكّره فيه بأن المسؤولية الملقاة على عاتقه، هي تهذيب أخلاق المئتي ألف معمر الموجودين في الجزائر، ويأمره بترك شأن العرب للحاكم العام الذي يتولى تأديبهم وتنظيمهم.

وإذا كان موقف الإمبراطور موقفاً غير مشجع للتبشير فإن هناك من شجعه من كبار مسؤولي الدولة، ففي الجزائر أعلن الجنرال ومفين عن تأييده للكاردينال للمرة الثانية حينما قال له: يجب عليكم أن تبذلوا كل مجهوداتكم للحفاظ على الملاجئ وتحسينها، وتركها مفتوحة لكل اليتامى، وهذه وسيلة عملية تمكن العرب من اعتناق ديننا.

وفي باريس تلقى لافيجري مساندة وزير الشؤون الدينية باروش الذي وقف إلى جانبه، وكذلك وزير الدولة السيد رووي الذي ناصر التنصير في الجزائر، وهذا يدل على أن الكاردينال لم يكن وحده في هذه المهمة، بل كان إلى جانبه جمهور من المعمرين بالجزائر ومن مسؤولين كبار في باريس[2].

---

[1] المصدر نفسه ص 116 .
[2] المصدر نفسه ص 117 – 118 .

4. لقاء لافيجري مع الإمبراطور:

لكي يدافع الكاردينال لافيجري عن أعماله التبشيرية أمام الإمبراطور سافر يوم (9 ماي 1868م) إلى باريس، وأثناء وجوده بهذه المدينة قامت معظم صحف الجزائر الموالية للاستعمار والمعمرين بنشر مقالات تأييداً له، واستطاعت هذه الحملة الصحفية أن تعجز الجنرال ماكمهون وتسكت الصحافة الرسمية بباريس، وشجعته كذلك رسائل المعمرين من الجزائر وجاء في إحداها: لقد قمتم بالدفاع عن الاستعمار في الجزائر ضد المكاتب العربية.. إن القضية التي تدافعون عنها هي الحق والعدل والتقدم. وفي رسالة أخرى:

إننا نعتمد عليكم في الدفاع عن أمانينا أمام الإمبراطور.

ويبدو أن هذا الدعم الإعلامي جعله يشعر بالفخر والعجب والإصرار على مشروعه الظلامي، وتمكن من مقابلة الإمبراطور الذي استقبله ببرود، ورد على كل الاتهامات التي وجهت إليه من ماكمهون، وقال: إنه لا يعمل إلا بتوجيه الخطاب الإمبراطوري بالجزائر عام (1860م) وتطبيق ما جاء فيه: نشر التعليم وسط العرب، مع احترام ديانتهم وتحسين مستوى معيشتهم.

ولكي يضع الإمبراطور حداً للصراع القائم بين ماكمهون ولافيجري اقترح على هذا الأخير تعيينه على أسقفية مدينة ليون بفرنسا، لكن الكاردينال رفض ذلك قائلا: إن قبولي بهذا المنصب الجديد يعني الهروب من معركة بدأت بها وهذا يعتبر مساساً لشرفي. ثم صمّم على العودة إلى منصبه في الجزائر مهما كانت الظروف. ووعد الإمبراطور الكاردينال بالسماح له بممارسة الأعمال الخيرية وسط مسلمي الجزائر.

وحتى يطمئن بال الكاردينال، نشر الماريشال نييل وزير الحربية تصريحاً مطولاً بالجريدة الرسمية يوم (28 ماي 1868م) وجاء فيه هذه العبارات المؤيدة للتبشير في الجزائر: تيقنوا سيدي الكاردينال، بأن الحكومة لم تفكر أبداً في حصر حقوقكم كأسقف، بل هي تترك لكم الحرية لتوسيع وتحسين ملاجئكم حيث تريدون تقديم الإعانات المسيحية للأرامل والعجزة والأطفال المشردين[1].

وتدعيماً للتبشير وصفت جريدة لوجور «الفجر» هذا الفوز بأنه فجر جديد على الجزائر. أما جريدة «الديب» المعروفة بمقالاتها التبشيرية فقالت: استطاعت أن تكفكف دموعها الغزيرة بعد أن أسالتها مدة طويلة من أجل لافيجري.

عاد الكاردينال لافيجري إلى الجزائر يوم (7 سبتمبر 1868م) بعد أن حصل على حرية التبشير من الإمبراطور نابليون الثالث وضمان الحفاظ على الملاجئ، وبمقتضى ذلك يتصرف في اليتامى كما يشاء[2].

إن الحرية التي حصل عليها لافيجري بعد قرار وزير الحربية والتسامح الذي أظهره الإمبراطور نابليون تجاه أعماله الخيرية ؛ جعلته يتحرر من القيود التي فرضت عليه وعلى من سبقوه في هذا الميدان، وسمحت له بتنفيذ مخططاته التبشيرية، غير عابئ بالسلطة العسكرية في الجزائر، وبدأها بتعميد ستة شبان . نجوا من كارثة . في كنيسة السيدة الإفريقية على مرأى ومسمع الجميع، وبعد مدة وبإيعاز من الفاتيكان تم تعميد طفلين يتيمين جزائريين اخرين في مدينة روما، ويظهر من وراء هذه العملية أمران هما:

---

[1] المصدر نفسه ص 119 ، 120 .

[2] المصدر نفسه ص 121 .

أ ـ التعاون الوثيق بين الفاتيكان والكاردينال لافيجري، والمعروف أن البابوية في روما وعلى رأسها البابا بيوس التاسع بارك العمل الخيري التبشيري في الجزائر وساند لافيجري مساندة قوية، ورأى فيها إحياء للحروب الصليبية التي كانت هجمة قوية على الإسلام والمسلمين.

ب ـ تنوير الرأي العام العالمي المسيحي في أوربا وغيرها بأن التبشير في الجزائر يخدم الكاثوليكية والمصالح الأوروبية عموماً، وعليه يجب تدعيمه مادياً ومعنوياً، وهكذا يكون النشاط التبشيري قد توسع واتخذ أبعاداً أخرى، ولكي يستمر لافيجري، ويتمكن من كسب نجاح أوسع وأكبر كان لابد له من مبشرين كثيرين يحققون هذا الهدف، لذلك أنشأ في فيفري من عام (1869م) فرقة دينية جديدة هي فرقة الاباء البيض[1]. دون أن يجد معارضة رسمية لذلك، وهذه الفرقة الجديدة هي التي ستأخذ على عاتقها مهمة التبشير في الجزائر أولاً ثم تونس والمغرب ثانياً وفي إفريقيا أخيراً.

ويبدو أن فكرة تنصير إفريقيا تعود إلى الأيام الأولى من مجيء لافيجري إلى الجزائر، ألم يعلن عنها حينما خاطب رجال الدين قائلاً: يجب أن نجعل من الأرض الجزائرية مهداً للأمة الفرنسية المسيحية، وينبغي أن ننشر حولنا الأضواء الحقيقية للحضارة المستوحاة من الإنجيل، وأن نحملها إلى الصحراء وإلى العالم الإفريقي الذي يعيش حياة بربرية، ونعمل على ربط وسط إفريقية بشمالها.

ويريد لافيجري بهذا التصريح بسط النفوذ الكاثوليكي الفرنسي في إفريقية قبل أن تشرع في ذلك عسكرياً وسياسياً ـ مثلما فعلت كذلك بالهند الصينية سابقاً ـ ولن يتم لها ذلك إلا بواسطة التحبيب بفرنسا باسم السيد المسيح،

---

[1] المصدر نفسه ص 123 .

فالمبشر كان يسبق الجيش في كل مكان ليمهد الأرض اللازمة للنفوذ السياسي والعسكري، ولم يقتصر هذا على فرنسا بل استعملتها الدول الأوروبية فتبارت في استخدام المبشرين لتأييد نفوذها، وكانت النتيجة أن التبشير الممزوج بالسياسة، بل السياسة المغلفة بالتبشير هو الاستعمار، وما نجحت فرنسا في الدخول إلى أجزاء من إفريقية إلا بفضل الاباء البيض الذين مهدوا لها طرق الاحتلال[1].

5 . تأسيس فرقة الاباء البيض والأخوات البيض:

تأسست هذه الفرقة الدينية في الجزائر بعد نكبة المجاعة، وكان ذلك على يد الكاردينال لافيجري سنة (1869م)، وأطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى اللباس الأبيض الذي يلبسه مبشروها ومبشراتها ليشابه اللباس العربي الجزائري.

ولم ينس لافيجري مقام المرأة في الأسرة فوجه اهتمامه إلى التأثير عليها، فالمرأة في نظره مدار الحياة الاجتماعية، والوصول إليها وصول إلى الأسرة كلها، واستخدام المرأة هو لتحقيق الأهداف النبيلة، ولهذا أنشأ في نفس السنة أي في (سبتمبر 1869م) فرقة الأخوات البيض وحملها مسؤولية التبشير في الوسط النسائي.

فالمرأة المسلمة الجزائرية التي كانت تمثل حصناً منيعاً ضد كل ما هو دخيل بحكم الدين والتربية والعادات والتقاليد، سمح للأخوات البيض بالتغلغل في صفوفها في المستوصف، والمستشفى، والزيارات المنزلية التوجيهية والتعليم وهو ما لا يمكن للمبشر الرجل القيام به.

---
[1] المصدر نفسه ص 124 .

إن فرقة الاباء والأخوات البيض تأسست بالجزائر تحت ظروف المجاعة خصيصاً لتنصير مسلمي الجزائر، وقد اختلفت عن الفرق الدينية في أشياء كثيرة لاسيما في وسائل التبشير وطرقه، إلا أن القاسم المشترك بينها هو نشر رسالة الإنجيل خارج العالم المسيحي.

وقد أدرك لافيجري أن اللباس الديني المسيحي سيخلق هوة بين المبشرين والجزائريين، لذلك أشار على أعضاء الفرقة الجديدة أن يتقربوا من «الأهالي» باتخاذ عاداتهم وطرق معيشتهم ولباسهم ولغتهم، فاختار لهم اللون الأبيض ويتكون من عباءة طويلة مصنوعة من الصوف أو القطن يوضع فوقها برنس أبيض اللون، ومن شاشية حمراء توضع فوق الرأس انسجاماً مع الزي التقليدي الجزائري، وتحاط الرقبة بسبحة وردية اللون يتدلى من طرفها صليب أبيض أو أسود، وكثيراً ما كان الأب يترك لحيته طويلة، وهذه الطريقة في اللباس جعلت هذه الفرقة تحتك بالسكان احتكاكاً شديداً وتتعرف على طرق حياتهم، وقد وضع لافيجري برنامجاً صارماً لتكوين مبشرية يخضع أثناءها المبشر إلى تنظيم محكم يسمح له بأداء مهمته التنفيذية. ويدوم تكوينه خمس سنوات تمر بمراحل هي:

ـ المرحلة الأولى ويقضيها المبشر في المدرسة الابتدائية الدينية بالحراش.

ـ المرحلة الثانية في كلية اللاهوت في تيبار بتونس وقرطاج.

وأثناءها يأخذ علم اللاهوت واللغات ـ العربية والأمازيغية ودروساً في الطب التطبيقي يستفيد منه في الأعمال الخيرية، فإذا كانت الجزائر حقلاً للتجارب التبشيرية التنصيرية ؛ فقد جعل لافيجري من تونس معهداً للتكوين الثقافي والديني للاباء.

وقد صور لافيجري عظم المسؤولية التبشيرية الملقاة على عاتق هؤلاء قائلاً: إن رجال الدين هم الذين قاموا بإصلاح الأراضي في فرنسا وتعميرها، وتحضير وتمدين سكانها بعد أن اكتسحت هجمات البربر الأراضي الأوروبية، وهذا ما يجب عمله في إفريقية بعد زحف الإسلام عليها[1].

وتنم هذه التوصية عن روح التعصب الديني لهذا الرجل، فما أبعد حضارة المسلمين المزدهرة في هذا الجزء من إفريقية عن جهل وتأخر أوروبا المعروف عنها في العصور الوسطى.

وقد وضع لافيجري قواعد ومنهجية عمل لهذه الفرقة، أصبحت تعتمد عليها فيما بعد:

. الإيمان بالعمل التبشيري والتفاني والتضحية من أجله.

. التحلي بالصبر لأن العمل شاق وطويل.

. العمل بحذر لأنه ضروري لبلوغ الهدف.

. استخدام الخدمات الخيرية لأنها الوسيلة الأساسية لنجاح التبشير.

ـ أن يكون شعار الفرقة هو المحبة والتكتل لأن في ذلك قوة تعمل على الوصول إلى الأهداف التبشيرية.

وبهذه القواعد انطلقت فرقة الاباء والأخوات البيض في العمل التبشيري، ويمكن أن نعتبر تأسيسها انطلاقة كبيرة في الميدان التبشيري وذروة كبرى بلغها في الجزائر، بل وفي إفريقية، وبفضل هذه الفرقة تمكن لافيجري رغم الظروف والصعوبات أن يركز نفوذه بتأسيس عدة مراكز تبشيرية في كل

[1] المصدر نفسه ص 126 .

أنحاء البلاد وخارجها، كان أهمها تلك المراكز التي أسسها في منطقة القبائل الكبرى والصحراء[1].

6. التنصير في منطقة القبائل:

عملت فرنسا على تزوير تاريخ الجزائر وقامت بدعم الدراسات التي تخدم مخططات المستعمرين، ومنها ما تناول تاريخ إفريقيا، وعملوا على قلب الحقائق وصوروا الفتوحات الإسلامية على أنها فرضت على البربر الأمازيغ الإسلام بالإكراه والسيف وقطعت صلة البلاد مع الحضارة الغربية والكنيسة، وقد حاولت هذه الدراسات ربط ماضي شمال إفريقية المسيحي بالحضارة الغربية التي عادت بالوجود الفرنسي في الجزائر، وكان القصد منها إظهار امتداد المدنية اللاتينية بالمغرب العربي الإسلامي، مؤكدة بأن هذه البلاد طبعت منذ العهد الروماني بالطابع المسيحي، ومن هذا المنطلق اهتم الفرنسيون بالكتابة التاريخية بتوجه يخدم نفوذهم ويؤكد شرعية احتلال البلاد، وادعوا حتمية إرجاع الجزائريين إلى حظيرة الدين المسيحي باعتباره دين الأغلبية منهم في الجزائر.

ولهذا الغرض تعددت هذه الكتابات بعد الاحتلال، وساهم فيها العسكريون ورجال الدين والرحالة وبعض الكتاب، وكلهم أشادوا بالغزو، خصوصاً أنصار الكنيسة الذين كان شعارهم: إفريقية اللاتينية والجزائر الفرنسية المسيحية، كما كثرت الحفريات للبحث عن الاثار المسيحية انطلاقاً من الخرافة أو كتب الرحالة إحياء للكنيسة الرومانية القديمة، وتناولوا سكان الجزائر إنتوغرافيا، وما أن استقر المحتل في البلاد حتى بدأت الإدارة الفرنسية وما حولها من كتّاب تحاول بجميع الوسائل أن تتعرف على فئات الأهالي

[1] المصدر نفسه ص 127 .

وأن تعلم ما هي المقاييس والحاجيات والخصوصيات لدى كل واحدة منها أولاً، وتطبيق سياسة (فرِّق تسد) ثانياً، وهكذا شهدت الجزائر قدوم عشرات من ضباط الشؤون الأهلية والرحالة والمبشرين، الذين اختصوا بدراسة عادات وتقاليد وأنماط المعيشة عند السكان ونظمهم الاجتماعية والاقتصادية ولغاتهم ولهجاتهم بمختلف مناطقهم، كأنهم فسيفساء من الشعوب والقبائل.

وسعى هؤلاء أيضاً إلى تقسيم عام للسكان إلى بربر ـ أو السكان القدامى ـ وعرب ؛ وهم الذين وصفتهم كتابات أولئك الباحثين بأنهم دخلاء غزاة هدموا معالم الرومان وعطلوا الحضارة أربعة عشر قرناً، وعلى ضوء ذلك ظهرت دراسات جغرافية اجتماعية وسياسية، الهدف منها بث الروح الإقليمية وزرع الشقاق بين السكان واستثمار كل هذه المجهودات من أجل تزوير التاريخ ومحو الكيان الجزائري للوصول إلى السيطرة الكاملة على البلاد، وكان العسكريون أبرز من كتب عن بلاد القبائل، وهم على التوالي: الجنرال دوماس، أوكبتان، كاريت، فابار، دونوفو، الطبيب العسكري لاكروا، فكتب هؤلاء بالتفصيل عن هذه المنطقة من حيث العادات والتقاليد والتاريخ، وغيرها، وأغلب هؤلاء كانوا أعضاء في لجنة الاكتشاف العلمي للجزائر التي تأسست عام (1837م)، وكتاباتهم تخلو من الروح العلمية والموضوعية، نذكر على سبيل المثال بعض ما كتب هؤلاء حول بلاد القبائل:

فالأب دوقا، وهو من رجال الدين اليسوعيين الذين عكفوا على دراسة منطقة القبائل في الجزائر، روّج في دراسته أن الديانة المسيحية ستعمل على فرنسة القبائل، وذلك عن طريق الوعظ والإرشاد الديني المسيحي، إلا أنه حذر المبشرين قائلاً: بأن العمل المباشر مع هؤلاء السكان هو بمثابة نداء في

الصحاري، ولذا فإن لغة العمل الخيري هي الأحسن. ويوصي كذلك بأنه يجب إخفاء الحقيقة وراء هذا العمل، وعند الوصول إلى الهدف يمكن التبشير بالعقيدة المسيحية[1].

إلا أن تمسك مناطق القبائل والشعب الجزائري بالإسلام وتعاليم القران أربك مخططاتهم وجعلها غثاء لا أثر لها في حياة الناس، وإن الإنسان يرى العجب العجاب من محبة الأمازيغ وأهالي القبائل للإسلام والحضارة الإسلامية، وصدق الزعيم عبد الحميد بن باديس الصنهاجي الأمازيغي:

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قد مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له	رام المحال من الطلب
يا نشء أنت رجاؤنا	وبك الصباح قد اقترب
خذ الحياة سلاحها	وخض الخطوب ولا تهب
فإذا هلكت فصيحتي	تحيا الجزائر والعرب[2]

من أشهر هؤلاء الأب اليسوعي جان بتيست كروزا الذي دخل بلاد القبائل كمرشد ديني ومبشر بتاريخ (20 أكتوبر 1863م)، وأبدى من الحماس الديني ما جعله يطوف بالقرى الواحدة بعد الأخرى، فزار حوالي سبعين قرية للتعرف على المجتمع القبائلي وسكانه عله يكسب رضاهم، وأخذ يجلبهم إليه بتوزيع الملابس والسكر والقهوة ويقدم لهم الإرشادات الدينية. وأضاف إلى هذه الأعمال الخيرية فتح مدرسة كانت بمثابة ملجأ للأيتام جمع فيه حوالي عشرين طفلاً.

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية ص 139 ، 145 .

[2] ابن باديس فارس الإصلاح ، د. محمد بهي الدين ص 34 .

وبعد أن مهد كروزا لمخططه التبشيري بالأعمال الخيرية أخذ يحدث السكان عن الديانة المسيحية ومزاياها ويبدو أن هؤلاء أرادوا استغلال اندفاعه، فراحوا يستمعون إليه بكل اهتمام، ولذا ركز جهوده على قرية بني فراح لاعتقاده أنه نجح في جلب سكانها، فجاء إليها ذات يوم ليلقي دروسه الدينية وأراد سكانها أن يجعلوا حداً لذلك ؛ فوضعوا أوساخاً على المقعد الحجري الذي كان يجلس عليه دائماً وغطوا ذلك بأوراق الأشجار، فجلس الأب ولما نهض وجد ثيابه ملطخة بالأوساخ. الأمر الذي أثار ضحك وسخرية الحاضرين. ويفهم من غضب الكولونيل مارتان لهذه الحادثة العطف الذي كان يكنه للأب كروزا بحيث قرر معاقبة (المجرمين). لكن الأب عارضه ظاناً بأن هذا العمل كان من بعض المغامرين. ويظهر أن هذه الحادثة لم تحبط الأب كروزا، لذا الى على نفسه مواصلة مهامه الخيرية التبشيرية، لكن أمين قرية بني فراح تحداه ورد على ادعاءاته، فجمع سكان القرية بمحضر الكولونيل مارتان وكل الأعيان وخاطب هذا العسكريَّ وكلَّ الحاضرين قائلاً :هل ترغبون في اعتناق الديانة المسيحية؟ وهل تسمحون لهذا الأب بالبقاء بينكم؟ فسكت الحاضرون وبكت عيونهم كثيراً حتى أن أحداً منهم لم يستطع الإجابة، وبعدئذ أجابوا الكولونيل بكلمة واحدة قاطعة: إننا لن نترك أو نتخلى عن ديننا، وإن أجبرتنا السلطة على ذلك فإننا نطلب منها أن ترشدنا إلى طريق يسمح لنا بمغادرة البلاد، وإذا لم نجد لذلك سبيلاً فإننا نفضل الموت بدلاً من اعتناق المسيحية، أما بشأن أن يقيم بيننا راهب فالله يحفظنا من قبول ذلك. اللهم إلا إذا أجبرتنا الحكومة عليه، وفي هذه الحالة لن نقيم معه أبداً[1].

---

[1] المصدر نفسه ص 145 .

وأمام هذا الموقف اضطر الأب كروزا إلى الانسحاب إلى قرية بني يني البعيدة ليستأنف العمل بها، إلا أن سكان هذه القرية أعلنوا رفضهم لأعمال كروزا، وقد حذر شيخُ هذه القرية الضابطَ العسكريَّ من العواقب وقال: إن البلاد لن تعرف الهدوء إذا جاءها رجال الدين[1].

كان أهالي الجزائر يرفضون دعوة المنصِّرين لهم، وتصدَّوا بكل حزم وعزم للانتهاكات المتعددة التي وقعت على الإسلام من قبل الكاردينال وأعوانه.

ومهما يكن من أمر فإن التبشير في بلاد القبائل لم يجد الأرض التي كان المبشرون يحلمون بها، وإذا كان هناك من أقدم على اعتناق المسيحية من بعض العناصر والأفراد، فإن ذلك يعود إلى سبب عامل الفقر والحرمان والجهل والمغامرة والطمع في المادة. وهي الأوضاع التي استغلها المبشرون في تحقيق مسعاهم، ويعود هذا الفشل إلى الأسباب الاتية:

. موقف السكان المعارض لكل محاولة تنصيرية لتمسكهم بالدين الإسلامي.

ـ الصراع الذي حدث بين لافيجري وماكمهون، وكان له انعكاسه على النشاط التبشيري ببلاد القبائل لانشغال لافيجري به.

ـ تركيز جهود المبشرين على إنقاذ أطفال المجاعة واهتمامهم بإنشاء القرى العربية . المسيحية . بسهل العطاف[2].

. تعلق الجزائريين بالشيوخ والعلماء وزعماء الطرق.

ـ انتشار الثقافة الإسلامية وبُعدها الحضاري في كل المدن والقرى وبين القبائل رجالاً ونساءً شيوخاً وأطفالاً، بحيث شكل سياجاً متيناً مع صفاء

[1] المصدر نفسه ص 152 .
[2] المصدر السابق .

الفطرة، ورجاحة العقول وطهارة النفس، وقبل كل شيء توفيق رباني من الله عز وجل لهذا الشعب العزيز الحبيب. قال تعالى:

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[ابراهيم:27].

7 . التنصير من أسباب ثورة المقراني:

لقد رأى الجزائريون تساهل وسكوت بعض العسكريين والسلطة بباريس على تصرفات المبشرين في التنصير استفزازاً لمشاعرهم، فكانت هذه الاستفزازات من الأسباب الرئيسية لثورة المقراني في بلاد القبائل والجزائر عامة.

إن ثورة المقراني انطلقت سنة (1871م) من منطقة هي أبعد ما تكون عن الكوارث الطبيعية لعام (1868م)، ورد فعل سكانها لم يكن بسبب اقتصادي إنما بسبب الغزو والظلم والجور والاعتداء على المقدسات، ففي رسالة الباشاغا إلى الشيخ ابن كابة وكبراء قرية بوجليل ببني عباس قال بعد التحية: وبعد أن تتوكلوا على الله ورسوله، تقدموا إلى الجهاد لنصرة دينه عزماً.

فلا غرابة أن تكون سياسة التنصير عاملاً في دفع الجزائريين إلى الثورة.

ورأى الكاردينال لافيجري أن أسباب الثورة تعود إلى السياسة الفرنسية بالجزائر، التي وضعت القران الكريم في مرتبة أعلى من الإنجيل، وإلى مواقف الذين أسسوا مدارس إسلامية بأموال فرنسية ومنعوا رجال الدين من نشر الإنجيل، فزادوا بذلك من تعصب السكان إلى أن انفجر فأحرق القرى وقتل السكان.

وتشير تصريحات لافيجري أثناء هذه الثورة وما بعدها إلى مساندته المطلقة للعسكريين الذين أخمدوا هذه الثورة، وإلى دور المبشرين الذين لعبوا دوراً في هزيمة المقاومين. ومن أبرز هؤلاء قسيس مدينة باليسترو «الأخضرية حالياً» الذي مات شهيداً من أجل فرنسا، وقد أقام لافيجري قداساً عظيماً في كاتدرائية مدينة الجزائر «كتشاوة حالياً»[1] .

وما يفند ادعاء – ما يعرف بالقبائل المسيحية – ودهشة هذا الرجل هو تعجبه قائلا: إن الذين ثاروا ضدنا ليسوا عرباً وإنما هم سكان قبائل جرجرة وغيرها ذوي الجذور المسيحية، ثم يناشد السلطة بوضع حد لتعصبهم الديني والقضاء على الإخوان والمرابطين الذين استقروا بهذه المنطقة.

لقد عملت ثورة المقراني وغيرها على التأثير على أعمال لافيجري الهشة وإفلاسها، الأمر الذي دعاه إلى طلب الصدقات من المسيحيين المحسنين في كل من أمريكا وبلجيكا وفرنسا، وبتبرعات هؤلاء استطاع لافيجري أن يستعيد قوته لاستئناف الأعمال التبشيرية.

8 . الأميرال دوفيدون داعم للتبشير:

وقف الأميرال دوفيدون منذ تعيينه على رأس الإدارة المدنية بالجزائر يدافع عن المسيحية ؛ لذا تطورت الحركة التبشيرية في عهده، لأنه ساندها مساندة مطلقة، وحينما حل في الجزائر (مارس 1871م) كانت المجالس البلدية التي تزعمت الحركة اللادينية العدو المشترك له ولمناصره لافيجري، فشن الأميرال حملة ضدها وأدان قرارها، ورأى في إغلاق المدارس الدينية عملاً خطيراً

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية ص 154 .

إجرامياً ضد الدين، فكاتبها باسم وزير التربية يحثها على إعادة فتح الأبواب باعتبارها قوة يستند إليها المعمرون لضرب الديانة المحمدية.

لقد عمل دوفيدون منذ توليه على الربط بين دور الكنيسة ودور الاستعمار، بل جعل الكنيسة رائدة في هذا المجال، ولهذا أطلق عليه لقب: الأميرال كاردينال، ويكفي أنه قال: قضيت حياتي وأنا أساند الحركات التبشيرية في كل جهات العالم، فكيف تسمح لي نفسي في أن أقف ضدها في أرض فرنسية هي الجزائر.

وقد امن واقتنع كما اقتنع لافيجري أن استمالة المسلمين والتأثير فيهم يجب أن يتم بالأعمال الخيرية وليس عن طريق الخطب، ورأى أيضا أن الوقت قد حان لجلب شتات هذا الشعب المغلوب إلى الحضارة المسيحية[1].

وأعلن أيضاً وقوفه إلى جانب المبشرين حين خاطبهم قائلاً: هناك من يعرقلكم، أما أنا فأساندكم لتقريب الأهالي نحوكم عن طريق التعليم والأعمال الخيرية، إنكم تقومون بما تقوم به فرنسا، إنه ليس لدى فرنسا من الرجال ما يكفي لتعمير الجزائر، لذلك يجب الاستعاضة عنهم بفرنسة المليونين من البربر، تقدموا بحذر وستجدون العون عندي.

وقد استمر اهتمام لافيجري بشكل واسع بسكان بلاد القبائل في عهد النظام المدني بالرغم من فشل المساعي التنصيرية بها، واستطاع أن يؤثر في الأميرال دوفيدون ويقنعه بأن أصل هؤلاء السكان مسيحي، وأن الدم الذي يجري في عروقهم هو نفس دم الفرنسيين، ولا يرى أفضل من الرجوع إلى ديانتهم القديمة.

---

[1] المصدر نفسه ص 156 .

ولكي يمكن لفرنسا أن تستعمر الجزائر استعماراً حقيقياً وناجحاً ناشده بفرنسة المليونين من البربر.

ويظهر أن الأميرال الذي كان مقتنعاً بسياسة الاندماج امن بأفكار ونظرية لافيجري، وراها ملائمة للظروف التي كانت تمر بها الحركة الاستعمارية آنذاك في الجزائر، يتضح ذلك من قوله: إن الهدف الذي يرمي إليه المبشرون هو نفس الهدف الذي أريد أن أصل إليه، إنه إدماج سكان بلاد القبائل في المجتمع الفرنسي[1].

9 . دوافع اهتمام لافيجري بمنطقة القبائل:

ومما زاد في اهتمام لافيجري بمنطقه القبائل الدوافع الاتية:

ـ تشجيع الجنرال دوفيدون المطلق للتبشير في كل أنحاء الجزائر وتعاطف الجنرال شاتري الذي أتى من بعده مع المبشرين.

. تأسيس فرقة الاباء البيض للتبشير في الجزائر وإفريقية.

. وقوف بابا روما إلى جانبه، ولاسيما عند إعلان ولاء الكنيسة الفرنسية

للجمهورية بعد سقوط الملكية في فرنسا.

ـ تردي الأوضاع الاقتصادية في هذه المنطقة بعد ثورة عام (1871م) الذي أودى إلى تفقير السكان، وهو ما استغله لافيجري باسم الأعمال الخيرية.

ويعتقد لافيجري أن الوصول إلى هذا الهدف التنصيري يجب أن يتم في إطار (لبنان إفريقي) وهو لبنان الذي تخلت عنه أوربا فاندثرت معالم المسيحية بسوريا ولبنان، وما بقي منهم سوى الذين اعتكفوا بالجبال فارين من الفتح

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية ص 156 .

الإسـلامي، ورأى أنـه بواسـطة الاباء البـيض سـيعيد «مـارونيي» بـلاد القبائـل إلى ديانتهم الأصلية.

إن الحركـة التبشـيرية الـتي عرفـت عراقيـل في عهـد النظـام السـابق، سـتعرف في النظـام المـدني انطلاقـة كـبرى في بـلاد القبائـل والمـدن الصـحراوية كميـزاب، والأغـواط، ورقلـة، وبسـكرة، والبـيض وغيرهـا، وقـد اختارهـا المبشـرون مسـتندين في ذلـك إلى عامـل الأصـل واللغـة «أي الأصـل البربـري الأمـازيغي واللهجـات»، وسـتكون هـذه المـدن بمثابـة بوابـة للتبشـير في إفريقيـة الاسـتوائية، وحـتى لا تجـد هـذه الجهـود التبشـيرية نفـوراً مـن السـكان خصـص لافيجـري إمكانيـات ووسـائل، بوضـع بـرنامج يسـير عليـه المبشـرون في عملهـم، ويمكـن حصره فيما يلي:

أ . ينصبّ اهتمـام الـبرنامج الخـاص لـيس إلى تنصـير الفـرد لأن ذلـك لا يـنجح، وإنمـا التنصـير الجمـاعي، ولـذلك ركـزوا علـى بـلاد القبائـل ذات الكثافـة السـكانية المرتفعـة ممـا يسـمح لهـم بتنصـير القريـة بأكملهـا، وللوصـول إلى ذلـك لابد من القضاء على روح التعصب الديني[1].

ب . إن المسـيحي في نظـر السـكان إنسـان كـافر، ولـذا أوصـى لافيجـري مبشريه بأن يتظاهروا بمظهر التدين حتى يكتسبوا الاحترام.

ج . التمسك بالصبر والتسامح، وتقبل الشتم والسب.

د . استمالة السـكان بواسـطة الأعمـال الخيريـة: التطبيـب، التعلـيم، والتنقـل إلى القـرى البعيـدة لمعالجـة المرضـى، وتوزيـع بعـض الحاجيـات علـى الفقـراء والمحتاجين.

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية ص 158 .

هـ التواضع والتغلغل وسط السكان، واستعمال لغتهم ولباسهم وأنماط معيشتهم.

و . عدم التعرض إلى الدين المسيحي، لأن ذلك ينفر السكان فيفشل المساعي التبشيرية.

وقد لخص أحدهم طريقة التعامل مع السكان بقوله: إذا أردنا أن يخضع الناس للإنجيل، فيجب أن نخضع لهم ونظهر إزاءهم بصفة المغلوب وفي نهاية المطاف نتمكن من أن نخضعهم إلينا[1].

انطلق لافيجري في حملته التبشيرية وهو يعتمد أساساً على التشكيك في إسلام هذه المنطقة وضربها في العمق، وفي نظري أن هذا أخطر سلاح استعمله المبشرون للوصول إلى الهدف، ولا يمكن النجاح . برأيهم . إلا بمحو الإسلام في هذه المنطقة بل وفي كل المناطق الأخرى.

وبعد سنة من هذه الزيارة أي في (1873م) أسس لافيجري مراكز تعليمية تبشيرية في هذه المنطقة مدعومة بسخاء وروح صليبية.

ويبدو أن الخطر الذي هدد الديانة الإسلامية في التجربة الأولى جعل السكان يشكون في أمر المبشرين، ولا أدل على ذلك مما أظهرته جماعة أو تجمعات قرية توريرت عبد الله من خوف على مصير أبنائها وما أبدته قرية ايت برحال من استمرار الأعمال الخيرية، ولم يرض سكان مدينة ميشلي بوجود المبشرين بينهم إلا بعد تدخل قائد القطاع العسكري الذي وعدهم بعدم مس الشؤون الدينية، ويمكن القول بأن أعمال المبشرين في البداية، اقتصرت على الأعمال الخيرية، كالتطبيب والتعليم باسم الديانة المسيحية،

---

[1] المصدر نفسه ص 158 .

ونظـراً للـدور الـذي تلعبـه المدرسـة في مجـال التبشـير، فـإن لافيجـري أوصـى مبشـرية (الاباء البـيض) بتركيـز الجهـود عليهـا باعتبارهـا تملـك الطفـل وتـتحكم في مســتقبله، وانطلاقــاً مــن هــذه الوصــية أســس المبشــرون مــدارس بكــل مراكـزهم، ولمـا كانـت الأعمـال الطبيـة أهـم مـا يفتقـده السـكان، حـاول هـؤلاء استغلال هذه الوسيلة لتحقيق المطامع التبشيرية.

ويظهــر أيضــاً أن العمليــات التنصــيرية الأولى بالمنطقــة نفــذها المبشــرون مــع اليتـامى والمعـوقين والمرضـى والأطفـال غـير الشـرعيين وبعـض المغـامرين بحثـاً عـن المـادة، ولعـل أسـوأ مـن اسـتغله هـؤلاء هـم العجـزة مـن الشـيوخ الـذين لا سـند لهـم، أو الـذين تخلـت عـنهم أسـرهم، وهـم يعـانون الفقـر، والحرمـان والوحـدة القاتلة.

وإلا كيـف نفسـر تعميـد شـيخ أعمـى في اخـر حياتـه بلـغ (90) سـنة، وعجـوز ذات (80) سنة، وأخرى ذات (75) سنة؟.

أولـيس هــذا اسـتغلال مباشـر للوضـع المأسـاوي وعمـل خـيري مقنـع باسـم الدين[1]؟

لم يســتطع الكاردينــال لافيجــري أن يكســب منطقــه القبائــل دينيــاً بشــكل جمـاعي بالصـورة الـتي كـان يتوقعهـا مـن قبـل، وبالـرغم مـن الصـبر والتفـاني في العمـل، فـإن المحـاولات التبشـرية لم تكـن لهـا نتـائج أكثـر مـن الـتي تحصـلوا عليهـا في المنـاطق الأخـرى، ومـا تمكـن منـه هـؤلاء هـو جلـب عـدد مـن المغـامرين الـذين أقبلـوا علـى التنصـير ففقـدوا مكـانتهم بـين عـائلاتهم والمجتمـع وهـددوا بالمـوت، أو بعـض الـذين أرادوا تحقيـق بعـض الأغـراض المعيشـية، فتعرضـوا فيمـا بعـد إلى النبـذ والاحتقـار، واضـطر عـدد مـنهم إلى الهجـرة خـارج القريـة بـل وإلى خـارج

[1] المصدر نفسه ص 161 .

الجزائر.

ويذكر شارفوريان الذي زار بلاد القبائل بعد ستة عشر عاماً من وجود الاباء البيض فيها ما يلي: يستحيل التنصير الفردي، وما يمكن الاعتماد عليه هو التنصير الجماعي، والسبب في ذلك هو الروابط التي تشد الفرد بمجتمعه وقريته التي تجعله مبعداً عنها إن هو ارتد عن دينه.

ويعترف الأب شاتلان بصعوبة التنصير في هذه المنطقة حيث قال: إذا كان سكان بلاد القبائل قد أبدوا إقبالاً على كل الحضارات، فإنهم ومن ناحية أخرى لم يكونوا ليغيروا عقيدتهم إلا بمشقة كبيرة.

وكتب الأب شارميتان مسؤول الاباء البيض في هذه المنطقة عام (1892م) يقول: إن القبائل بعيدون كل البعد عن مملكة السماء، أي المسيحية، وهم ليسوا مستعدين للتنصير ولا يمكن التأثير فيهم ... إن القبائليّ المسلم مثل العربي لا يتقبل الإنجيل بسهولة مثلما يتقبله الوثني، ويفهم من ذلك تمسك هذا الأمازيغي القبائلي بالإسلام.

وكتب بعضهم قائلاً: إنه وبعد خمسين سنة من استقرار الاباء البيض بهذه المنطقة أي حوالي (1920م) تقريباً ؛ فإن النتيجة جاءت مخيبة للآمال وليس كما كان متوقعاً.

ثم يكشف وضعاً اخر قائلاً: إن الذين أقبلوا على التنصير كانوا يبحثون في ذلك عن الامتيازات والمصالح المادية التي أصبحت عبئاً ثقيلاً على الإرسالية التبشيرية[1].

---

[1] المصدر نفسه ص 162 .

ونستنتج من كل ذلك، أن تمسك السكان الكبير بالإسلام وحضارته، والمعارضة التي أظهروها ضد كل محاولة تبشيرية بالمنطقة أفشل مساعيها، ورغم الجهود التي بذلت بشتى الوسائل، والاهتمام الخاص الذي أفرد لسكان هذه المنطقة، فإن كل ذلك باء بالفشل بما في ذلك الجهود التبشيرية التي كان لها نفس المصير في مناطق أخرى من الجزائر.

وهو الأمر الذي جعل المبشرين يركزون جهودهم على تعلم اللغة الفرنسية وحضارتها، متخذين من ذلك وسيلة أخرى من الوسائل التي تحقق الإدماج في هذه الناحية والنواحي الأخرى[1].

لقد قاوم الجزائريون نشاط هذه البعثات المسيحية بالصحراء واغتالوا الكثير من رؤسائها الذين أرسلهم لافيجري مثل: (بولمبيه، ومينوري، وبوشار) الذين قتلوا في حاسي عين إيفل كما قتل القسيسان: ريشارد وكيرمابون في الصحراء الشرقية.

وعمل القس شارل دي فوكو بالصحراء وأدى دوراً كبيراً من أجل تثبيت الاستعمار الفرنسي، ونسق مع المرشال ليوتي الذي احتل المغرب وقام بدراسة القبائل الصحراوية، وركز على الطوارق، فدرس لهجتهم البربرية، وكتب قاموساً لها، وذهب إلى المغرب في مهمة كيهودي سنة (1883م)، وتنقل بين الأغواط وغرداية وميزاب وورقله والمنيعة وتقرت، وقام برحلة في المشرق في مهمة، وعاد للجزائر وساعد الجيش الفرنسي على اختراق الصحراء والتوجه نحو إفريقيا السوداء، واستقر في منطقة الطوارق بعد أن أتقن لهجتهم، وفي سنة (1916م) تمّ اغتياله من طرف رجال الطرق

---

[1] المصدر نفسه ص 162 .

الصوفية الغيورين على دينهم ووطنهم واتهمت فرنسا السنوسية بقتل[1].

وبـرغم الجهـود الـتي قامـت بهـا المنظمـات التبشـيرية في الجزائـر، فقـد فشـل التنصـير وخـاب أمـل الفرنسـيين، وبـرهن الجزائريـون علـى تمسـكهم بـدينهم بالـرغم مـن المغـريات، وأدركـوا أن مهمـة الاباء البـيض لم تكـن دينيـة صـرفة، إنمـا كانـت في خدمـة الاسـتعمار ونشـر التفـرنس الـذي يخـدم الادمـاج، ولقـد نبـه الجزائريـون المتعـاونون مـع الفرنسـيين إلى خطـورة عمليـة التنصـير، فقـال لهـم الباشـاغا ابـن علـي الشـريف سـنة (1868م): إن سـكان زواوة يفضـلون الموت لأطفالهم على أن يروهم يتخلون عن دينهم ويصيروا نصارى.

لقـد عملـت الكنيسـة علـى العـودة بالبربـر (القبائـل) إلى المسـيحية وتمزيـق الشـعب، وألَّـف سـنة (1894م) أحـد عناصـرها كتـاباً عنوانـه (الأجنـاس والأديان في الجزائـر) وأهـداه إلى الأسـقف لافومـا، دعـا فيـه إلى الحكـم بالعـرف الـزواوي القبـائلي البـدائي علـى حسـاب الشـريعة الإسـلامية، وهـو مـا حاولـه المستعمر بالمغـرب فيمـا بعـد سـنة (1930م) بالظهـير البربـري، كمـا دعـا مـاثيو إلى نشـر القبائليـة علـى حسـاب اللغـة العربيـة وتـدريس القبائـل تاريـخ جنسـهم الـذي ربطتـه الإدارة الاسـتعمارية بالمسـيحية قبـل الإسـلام، وربطهـم بفرنسـا والعمل على نشر الفرقة بين البربر وبين الفاتحين المسلمين.

لكـن الكثـير مـن الأعيـان مـن أبنـاء القبائـل الشـامخة بـدينها وحضـارتها رفضـوا هـذه التفرقـة فواجهـوا تحكـيم العـرف القبـائلي، فقـد طالـب أحمـد بـن سـليمان باسـتعمال القضـاة المسـلمين في منطقـة القبائـل أسـوة بكـل أنحـاء الجزائـر لأن الإسلام واحد في البلاد الجزائرية كلها[2].

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 639 .
[2] المصدر نفسه ص 649 .

وبينت الدراسة التاريخية العلاقة المتينة بين الاستعمار وحركة التبشير، وإليك أهم النتائج:

ـ إن للتبشير علاقة بالاستعمار، فأغلب المبشرين يربطون الاستعمار بالتبشير، وهدف الاحتلال في نظرهم هو التقدم الروحي والأخلاقي للمستعمَرين (بفتح الميم).

ـ إن المبشرين لعبوا دوراً هاماً في الحركة الاستيطانية باستحواذهم على أراض فلاحية خصبة سخروها للفلاحة وزراعة الكروم لاستخراج النبيذ الذي بقي افة زراعية بعد الاستقلال.

ـ إن التبشير لعب دوراً هاماً أيضاً في توطيد النفوذ الفرنسي بالجزائر والهيمنة الثقافية.

ـ إن موقف السلطة الفرنسية من التبشير كان متضارباً، بحيث كانت تعارض التبشير علانية خشية ثورة الجزائريين، وتشجعه سرياً لتدعيم نفوذها في الجزائر، ويتضح ذلك من خلال مواقف ممثليها بالجزائر.

. إن المبشرين بالجزائر كانوا يهدفون إلى خلق النعرة القبلية بين

المواطنين، واتباع سياسة (فرق تسد) لتدعيم النفوذ الفرنسي، ولكنهم فشلوا في هذه المهمة.

ـ إن الحرية التبشيرية التي كانت تفتقر إلى حرية واسعة في عهد النظام العسكري، عرفت انطلاقة واسعة وتحررت من بعض القيود المفروضة عليها، وذلك في عهد النظام المدني لاسيما بعد تأسيس فرقة الاباء البيض.

ـ إن الحركة التبشيرية عامة قد فشلت أمام صمود الجزائريين لتمسكهم الشديد بالديانة والحضارة الإسلامية.

ـ إن النشاط التبشيري بالجزائر، فتح الباب على مصراعية في كل القارة الإفريقية وهو الذي مهد للاحتلال الفرنسي لعدد من الدول والمناطق بها.

ـ إن من اعتنق المسيحية من أفراد ؛ وهم أقلية عاشوا معزولين منبوذين من مجتمعهم، وحتى من المعمرين الفرنسيين[1].

10 . المستشرقون والاستعمار:

ومن العناصر التي استعان بها الاستعمار الفرنسي «المستشرقون»، من أمثال: شيريون، وهادمان، وفيرو، ودي رينو، وديفوكس، ودي سلان، بين (1830 و1870). وبعد هذا التاريخ ظهرت مجموعة من المستشرقين ضمتهم كمدرسين بمدرسة الآداب بالجزائر العاصمة مثل: إيميل ماسكري، ورنيه باسيه، وإيدمون فانيان، وهوداس. وبرز جزائريون كمعاونين لهم ثقافياً من أمثال: ابن سديره، وابن الونيس، وابن شنب، وبوليفة، ومحمد تهليل، وابن علي فخار.

وقد سيطر هؤلاء المستشرقون على المدارس الإسلامية وصارت تحت سيطرتهم وأفكارهم وثقافتهم منذ (1880م) واستُخدمت للنفوذ الفرنسي في الجزائر والمغرب العربي وإفريقية.

وكان من أكثر الشخصيات المؤثرة في الاستشراق في الجزائر وفرنسا رونيه باسيه، الذي وصل الجزائر سنة (1880) كأستاذ للآداب في مدرسة الآداب بالجزائر، واستطاع تكوين حلقات دراسة جادة في البربرية والأدب

[1] الحركة التبشرية الفرنسية ص 163 .

العـربي، وبـل وبعـض اللهجـات الإفريقيـة كالهوسـة، وتمكـن مـن الـدخول في المكتبـات العامـة والخاصـة بالمغـرب العـربي وتسـجيل مخطوطاتهـا في فهـارس، وسـاعدته الإدارة الفرنسـية علـى ذلـك فـذللت أمامـه كـل الصـعاب والمتاعـب، وختم عمله العلمـي الكبـير هـذا بعقـد مـؤتمر المستشـرقين الرابـع عشـر في الجزائـر سـنة (1905م)، وسـاعدت علـى نجـاح هـذا المـؤتمر شخصـية رونيـه باسـيه وعلمــه وتلاميــذه، ويعتــبر رونيــه باســيه مــن أكثــر المستشــرقين تعمقــاً في الدراسـات البربريـة والسـامية بصـورة عامـة. تخـرج علـى يديـه عـدة تلاميـذ مـن أمثــال: ألفريــدبيل وديســتان الــذي جلــس علــى كرســي البربريــة في مدرســة اللغـات الشـرقية بباريس سـنة (1913)، وإندريـه باسـيه وهنـري باسـيه مؤلـف كتاب (اللغة البربرية) سنة (1929م) وهما من عائلته.

ومـن الجزائـريين الـذين تتلمـذوا عليـه: محمـد بـن أبي شـنب، وسـعيد بولفيـه. وقـد اسـتعمل رونيـه باسـيه ابـن شـنب في تحريـر دراسـات عـن الأوضـاع الاجتماعيـة والثقافيـة للمسـلمين، وفي ترجمـة الكثـير مـن الشـعر الملحـون وبـرامج التعلـيم عنـد المسـلمين، كمـا قـام بتحقيـق الـتراث الجزائـري والإسـلامي مـع ترجمتـه أو ترجمـة خلاصـة منـه إلى الفرنسـية، كمـا قـام بدراسـات عـن اللغـة العربيـة ودارجتهـا الجزائريـة، وكانـت كـل هـذه المواضـيع تصـب في تمكـين الإدارة الاسـتعمارية مـن فهـم المجتمعـات الـتي تحكمهـا لا في الجزائـر فقـط وإنمـا في أقطـار المغـرب العـربي وإفريقيـة السـوداء، وهـذا لايقلـل مـن جهـود ابـن شـنب في خدمـة الثقافـة العربيـة بالجزائـر بطـرق منهجيـة حديثـة مكنـه منهـا أسـتاذه رونيـه باسـيه، ووجـه باسـيه بوليفة لدراسة التراث البربري وعلى الخصوص التراث الزواوي (القبايلي).

ومـن غـير شـك فـإن رونيـه باسـيه اسـتفاد مـن هـذين العـالمين الجزائـريين فيمـا كتبــه عــن الســامية والبربريــة وتتلمــذوا عليــه في اكتســابهم للمــنهج العلمــي الحديث، كما استفاد رونيه باسيه من علماء جزائريين اخرين.

لقد استفادت الإدارة الاستعمارية الفرنسية من جهود المستشرقين ووظفتها في خدمة الاستعمار وتفريق صفوف الجزائريين على أسس من الدراسات والبحوث.

ومن المستشرقين الذين عملوا بفعالية في الصحراء غوستاف مونتيلانسكي الذي ولد في معسكر سنة (1854م)، وصار من المترجمين العسكريين، وتنقل في سائر أنحاء الجزائر وتونس واختلط برجال القوافل التجارية العابرة للصحراء والواصلة لإفريقية السوداء، وانتهى به المطاف إلى أن يعين مديراً لمدرسة قسنطينة الإسلامية الفرنسية الكتانية، وكان لهذا المستشرق اتصالات واسعة بعلماء الصحراء وبشيوخ الطرقية، وقام برحلة من غدامس تعقباً لنشاط السنوسية، وسجل كل ذلك في تقارير كان يزود بها حكومته، ونشر مقالات ومخطوطات في المذهب الإباضي. وكما يقول أبو القاسم سعد الله: فإن جهود هؤلاء المستشرقين لم تكن عميقة محضة، فقد كانوا جنوداً في الميدان وليسوا علماء باحثين عن الحقيقة المجردة، كان مثلهم في دعم الاستعمار مثل لافيجري وجنوده من الاباء البيض، ومثل المارشال ليوتي وجنوده من المحاربين، لقد كان يكمل بعضهم بعضاً ويعملون لنفس الغاية وهي مساعدة الإدارة على بسط نفوذها على منطقة المغرب العربي وما يتصل به من إفريقية والعالم الإسلامي.

ووسط هذه الحركة الاستعمارية الثقافية، وأمام اضطرار فرنسا لتوثيق كل ما يتعلق بالجزائر وتاريخها ؛ أسس ضباط المكاتب العربية بالجيش مكتبة هائلة عن الجزائر وتاريخها في مختلف مراحله، وتأسست جمعيات ثقافية أولاها لجنة اكتشاف الجزائر سنة (1839م)، وأسس الحاكم العام كامبون لجنة ترجمة

الكتب العربية سنة (1894م)، وأسست جمعية اثار قسنطينة سنة (1852م)، والجمعية التاريخية في العاصمة سنة (1856م)، وهذه الجمعية هي التي أنشأت (المجلة الإفريقية) الذائعة الصيت، و(جمعية جغرافية وهران) سنة (1878م) و(جمعية هيبون) بعنابة، وجمعيات أخرى صغيرة في تبسة وتلمسان وسطيف، وتأسست في سنة (1896م) (الجمعية الجغرافية) بالعاصمة، التي قامت ببعثات استكشاف بالمغرب العربي كله والصحراء وجنوب الصحراء، وأشرف عليها ضباط ومدنيون علماء يساعدهم جزائريون.

وقد ركزت هذه الجمعيات في عملها على المرحلة الرومانية، لأن الفرنسيين يعتبرون أنفسهم ورثة العهد الروماني ويعملون على إعادة الجزائر إليه، خاصة إلى المسيحية، وكانت كل هذه الجمعيات والمجلات تعمل تحت العقل المركزي المسير لها وهي المدارس العليا التي صارت سنة (1959م) جامعة الجزائر.

وقبل هذا التاريخ كان الطالب بهذه المدارس يجري امتحانات الإجازة «الليسانس» في باريس.

واهتمت هذه الحركة الثقافية بالمكتبات، فأسست مكتبة عامة هامة بالعاصمة في اخر القرن التاسع عشر، ضمت الالاف من الكتب والمخطوطات التي جمعت من الزوايا والمساجد، ووضع لها فانيان فهرساً لمخطوطاتها سنة (1893م).

كما تأسست مكتبات تابعة للمكتبة العامة بالولايات وبعض البلديات، ومكتبات عسكرية، ومكتبات بعض المدارس، وأسس «المتحف الوطني»

الذي صار له بنايته المستقلة سنة (1897م) بعد أن كان موجوداً في مبنى واحد مع المكتبة العامة[1].

الثالث عشر: السيطرة على القضاء والإمامة:

1. القضاء:

عمل الفرنسيون على إفراغ القضاء الإسلامي من صلاحياته، فقد كان قبل الاحتلال مستقلاً بشكل معقول، وكان الداي والباي يعين قضاة المدن، وتعين القبائل قضاة الريف، وكان مجلس أعلى للقضاء يستعرض القضايا الصعبة في صورة استئناف. وأحكامه نافذة، والحكم يكون بالتغريم أو الضرب، أو القتل ولا يكون بالسجن إلا في الحالات القليلة، وقد تطور القضاء في دولة الأمير عبد القادر الذي أولاه رعايته الخاصة. لقد عين الأمير قاضياً لكل خوجة يعاونه أربعة علماء متفقهين في الدين، وكان لا يصدر الحكم بالموت إلا بحضور الخليفة شخصياً «أي نائب الأمير في الولاية»، وهذا عناية بالروح البشرية.

في (1841م) بدأت المحاولات لدمج القضاء الفرنسي كقاضي الصلح والمحاكم الابتدائية والمحاكم الاستئنافية والمحاكم العسكرية، ونزعت الجنايات من القضاء الإسلامي وصارت من صلاحيات المحاكم الفرنسية، بل صارت المحاكم الفرنسية الاستئنافية تملك حق النظر في الأحكام المدنية المتعلقة بالأحوال الشخصية.

[1] الجزائر في التاريخ ص 655 .

وكـان القـانون الفرنسـي لا يطبـق بكاملـه علـى الجزائـريين الـذين تحكمهـم قـوانين استثنائية. فـالجنرال بيجـو يقـول لـوزير الحربيـة: إن حـرب الجزائـر تسـتلزم نوعـاً من القضاء يختلف عن المعمول به في أوربا.

ويعـترف لـوي ماسـينيون فيقـول: إن الواقـع الـذي يطبـق في الجزائـر هـو أولاً اعتـداء علـى الشـريعة الإسـلامية. وثانيـاً إجـراءات تعسـفية غـير خاضـعة حـتى للقانون الفرنسي[1].

وقـال الحـاكم العـام «دوفيـدون» يـوم (22 مـارس 1874م): إن العدالـة تـدخل في إطـار السـيادة، وعلـى القاضـي المسـلم الانحنـاء أمـام القاضـي الفرنسي، وعلى كل واحد أن يفهم أننا الغالبون[2].

واسـتمر الفرنسـيون في تفريـع القضـاء الإسـلامي مـن صـلاحياته، ومـا أن حـل اخـر القـرن التاسـع عشـر حـتى لم تبـق لـه سـوى عمليـة تسـجيل الـزواج والطـلاق، وهوت قيمة القاضي الإسلامي[3].

وفي عـام (1906م) منـع القضـاة والموثقـون مـن كتابـة العقـود باللغـة العربيـة وأجـبروا علـى كتابتهـا باللغـة الفرنسـية، لكـن رجـال القبائـل الكـبرى رفضـوا كتابـة أي قضـية باللغـة الفرنسـية وأصـروا علـى الكتابـة باللغـة العربيـة، وهـذا مـا دفـع بأحـد الأوربيـين المختصـين في القـانون إلى القـول في عـام (1913م) بأن الجزائـر ككـل يغلـب عليهـا الطـابع الإسـلامي ولا تـربطهم أيـة صـلة بفرنسـا، والبربر هم مثل العرب في هذا الشأن[4].

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 629 .
[2] التاريخ السياسي للجزائر ص 175 .
[3] الجزائر في التاريخ ص 631 .
[4] الجزائر في التاريخ ص 629 .

لقد استخدم الفرنسيون سلاح العدالة لقمع الجزائريين المسلمين، عن طريق تطبيق القوانين الفرنسية عليهم وتشكيل مجالس القضاء من الفرنسيين فقط، وإعطاء الشرعية القانونية للقضايا المسجلة عند الأوربيين الذين يتحكمون في ملفات العدالة وكسب أموال كبيرة من الجزائريين. وإن إلغاء العمل بالقانون الجزائري والشريعة الإسلامية معناه حرمان الاف الجزائريين من كسب العيش[1]، والحياة بأمان في ظل شريعة الإسلام العادلة.

وقد أدرك الجزائريون أن ضرب قضائهم الهدف منه ضرب الهوية الإسلامية الوطنية الجزائرية، فراحوا يناضلون من أجل مقاومة سائر الإجراءات التي تمس هويتهم، كالتجنس بالجنسية الفرنسية، وقانون الأدنجينا، والتفرنس، والمطالبة بتعليم العربية والمساواة، وكان من القضاة الذين نشطوا في هذا الميدان حميدو بن باديس، ومحمد بن رحال[2].

2. الإمامة:

وفي خط موازٍ، للسيطرة على الخطاب الديني وتدمير الهوية الإسلامية ؛ أوجدت السلطات الاستعمارية طبقة من رجال الدين الرسميين الموظفين تدفع لهم مرتباتهم بعد أن كانوا يتقاضونها من الأوقاف التي صادرت أملاكها السلطات، وقد خضع هؤلاء خضوعاً مطلقاً للإدارة ففرضت عليهم منذ بداية الاحتلال أن يدعوا على منابر المساجد دعوات عامة مع التوقف عن الدعاء لخليفة المسلمين، بل فرضت عليهم بعد الانتهاء من الصلاة وقراءة الفاتحة أن يشمل دعاء الإمام في الأعياد ما يلي:

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر ص 175 .
[2] الجزائر في التاريخ ص 631 .

التأييد والتمكين لحكومة فرنسا، ومن لم يفعل يعتبر معادياً لفرنسا. يقول حمدان خوجة في كتابه المرأة: واختفت منذ (1833م) جرأة العلماء، لأنهم إن قالوا أو سكتوا عن خوف ؛ حكم عليهم بالنفي أو الحبس. واختفت من المساجد الرسمية حلقات الدروس لتكوين العلماء، بل اختفت دروس الوعظ الفاعلة التي تردد آيات وأحاديث فيها الجهاد ومحاربة الكفر، واستبدلت بدروس استبعد منها ما يفسر على أنه تعريض بالاستعمار، بل حتى هذه الدروس المراقبة كانت تحتاج إلى رخصة. يعين أئمة المساجد بالمدن مدير الشؤون الأهلية بالإدارة الاستعمارية، وبالريف تعينهم المكاتب العربية بالجيش، وكان عدد المساجد سنة (1830م) (1494) مسجداً، ويبدو الإجحاف واضحاً ضد المسلمين في توزيع ميزانية الأديان على الديانات الثلاث، وقد كانت المخصصات لسنة (1887م) كما يلي:

ـ الإسلام: (216340) فرنكاً.

ـ المسيحية: (986400) فرنك.

ـ اليهودية: (26600) فرنك.

علماً بأن عدد المسلمين ثلاثة ملايين نسمة، وعدد المسيحيين (350000) نسمة، وعدد اليهود (36000) نسمة، وكانت مداخيل أملاك الأوقاف تغطي نفقات المساجد والمدارس والتعليم بصورة عامة، وقد صادرها المستعمر وصار ينفق من هذه المداخيل على الأديان الثلاثة، ووفق ما أورده ديبوت سنة (1897م) فقد قدر المدخول السنوي لأوقاف إقليم مدينة الجزائر وحده ما يقارب خمسة ملايين فرنك.

ألغى الفرنسيون منصب شيخ الإسلام، وأبقوا على مناصب المفتين، بل ذهبوا بعيداً فحوّلوا الكثير من الأئمة والمفتين إلى مخبرين في أجهزة المخابرات، فأوغستين بيرك يقول: تحول بعض المفتين إلى جواسيس للإدارة الفرنسية.

ويقول لوي ماسينيون: لقد استعمرت الحكومة الفرنسية العقيدة الإسلامية بالجزائر منذ (1830م). وكانوا يختارون المفتين والأئمة في معظم الحالات من أشباه الأميين.

وهذا الوضع للمساجد جعل الناس ينفرون من أئمتها الموظفين ويلجؤون إلى المرابطين وشيوخهم، ولم يعدم بعض الأئمة النزهاء الشجعان، فالمفتي مصطفى الكبابطي وقف سنة (1843م) في وجه الجنرال بيجو، ووقف القاضي عبد العزيز سنة (1834م) في وجه فوارول. لكن كانوا أقلية[1].

3 . محاربة التعليم الإسلامي:

ومن العناصر التي حاربها الفرنسيون التعليم العربي، فقد وجدوا تعليماً منتشراً عبر مدارس في المدن والأرياف، بحيث كانت نسبة الأمية متدنية جداً، وكان هذا التعليم يمول من الأوقاف، ويشهد الفرنسيون بأنه كان يملك ميزانية وافرة ومدارس كثيرة، ومعلمين أصحاب قدرة متميزة، وبرامج تعليمية، ونظاماً للشهادات. وعلى الرغم أنه لم يكن متقدماً، لكن الجزائريين يرون أنه يغطي حاجة مجتمعهم مع استعدادهم لتطويره. وكان بعض المفكرين الفرنسيين يؤيدون ذلك، فالبارون بيشون يرى: أن أنجع الوسائل هي إدماج الجزائريين في مصالحهم الخاصة، وتطوير التعليم عندهم باللغة العربية، وطالبت عدة تقارير فرنسية كتقرير بيجو سنة (1847) وتقرير بارو سنة

[1] الجزائر في التاريخ ص 628 .

(1849م) وتقرير سنة (1851م): بضرورة الشروع في تكوين جيل جديد من الجزائريين في مدارس فرنسية لم يحضر الغزو والمقاومة إنما نشأ في عهد الاحتلال وفتح عينيه على الجزائر الفرنسية.

وبدأوا في فتح مدارس ابتدائية ومتوسطة تستوعب أبناء الجزائريين الموظفين والمستخدمين في الإدارة الفرنسية وسموها بالمدارس الأهلية.

وأما الأطفال الفرنسيون فلهم مدارسهم الخاصة المنتظمة التي فتحت منذ السنة الثالثة للاحتلال، وتأسست أول ثانوية وهي ليسيه بيجو سنة (1862م)، التي صارت تحمل اسم ثانوية الأمير عبد القادر بالعاصمة بعد الاستقلال، ثم تتابع فتح ثانويات أخرى، وفي سنة (1879م) تأسست أربع مدارس عليا هي: الآداب، والحقوق، والعلوم، والطب.

هذه الأخيرة سبق وأن نشأت متعثرة في ثكنة سنة (1857م)، وكانت هذه المدارس نواة للجامعة الجزائرية التي أسست في خدمة الاستعمار سنة (1909م)، فالآداب تحولت إلى وكر للاستشراق، والحقوق بؤرة لسيطرة القانون الفرنسي على الشريعة الإسلامية.

وكان التلميذ الفرنسي بهذه المدارس يجري امتحاناته النهائية في فرنسا.

وكانت مدرسة الآداب تدرس الفصحى والدارجة، ويتولى التدريس بها المستشرقون الذين تولوا إدارة المدارس الثلاثة العربية ـ الفرنسية، وكانت تركز على الدارجة حتى تعلم الإداريين الفرنسيين العاملين بالجزائر.

أما التعليم الابتدائي المخصص للجزائريين فقد بدأ بنوعين: عربي وفرنسي، العربي كان عبارة عن كتاتيب لتحفيظ القران الكريم، وكان الفرنسيون يمنعون

تعليم أية مادة أخرى غير حفظ القران الكريم عن ظهر قلب، وفي سن الثالثة عشرة يغادر الكتّاب دون مهنة أو مؤهل.

وفي بداية العقد الثامن من القرن التاسع عشر قررت إجبارية التعليم بفرنسا، ولم تشمل هذه الإجبارية إلا منطقة زواوة تحت أشراف الاباء البيض ولواء عملية التنصير، وفي العقد التاسع قرر الفرنسيون إنشاء بعض المدارس الأهلية التي تختلف عن المدارس المخصصة للفرنسيين، ويعلم الجزائريون فيها ليعملوا في مزارع وورشات الكولون، ولم يحظ الجزائريون بتعليم معقول مع الفرنسيين إلا في القرن العشرين بين الحربين العالميتين.

وأما التعليم المتوسط فقد خصصت له ثلاث مدارس بالعاصمة وقسنطينة وتلمسان، مهمتها إعداد موظفين في القضاء الإسلامي، وكان يديرها جزائريون متمكنون من العربية، وقد تدعمت في عهد نابليون الثالث الذي نشّط القضاء الإسلامي، ولكنها انكمشت بعد (1871م) عندما أعلن الكولون الحرب على كل ما هو عربي إسلامي، وسيطر عليها المستشرقون، ومنذ (1877م) خرجت من إطارها كمدارس عربية أهلية وأدمجت في التعليم الفرنسي تحت اسم «المدارس الفرنكو إسلامية».

وفي سنة (1892م) زادوا من فرنستها، وشدد المستشرقون سيطرتهم على إدارتها[1].

وبالإضافة إلى هذين النوعين من التعليم وجد نوع ثالث وهو التعليم المزدوج، فأنشئ معهد الكوليج العربي الفرنسي سنة (1857م) بالعاصمة بإدارة نيقولا بيرون وهو مستشرق سان سيمون، عمل في مصر في تدريس الطب، وكتب في تاريخ العرب والإسلام وأتقن العربية، وكانت مهمة المعهد

[1] الجزائر في التاريخ ص 634 .

تكوين نخبة جزائرية مثقفة باللغتين العربية والفرنسية في إطار الاندماج الثقافي، وتلاميذ المعهد من العائلات المتعاونة مع الفرنسيين.

وفي عام (1867م) فتح معهد على غراره بقسنطينة بعد ذهاب نابليون الثالث. وفي عام (1871م) ألغي المعهدان وتقلص عدد المدارس الابتدائية المخصصة للأهالي، واستمر وضع التجهيل للأهالي حتى سنة (1892م) حيث أعدت لجنة جول فيري البرلمانية تقريرها المشهور، فأعيدت الحياة للتعليم الابتدائي الأهلي الذي انطلق مع مطلع القرن العشرين انطلاقة متواضعة في حدود ضيقة جغرافياً وبشرياً[1].

لقد كان المستوطنون الفرنسيون يريدون أن لا يتعلم الشباب الجزائري خوفاً من أن يطالب بحقوقه السياسية والمساواة مع الفرنسيين، ولهذا نجح المستوطنون في إقامة مدارس لأبنائهم وأكاديميات لمواصلة التعليم العالي، لكنهم أغلقوا الباب في وجوه أبناء الجزائر.

ومع تمكن المستوطنين من الجزائر بدأ عدد التلاميذ الجزائريين في الانخفاض منذ عام (1872م)، حيث صار العدد (85) تلميذاً فقط في مدرسة الجزائر بالعاصمة، وذلك بسبب محاربة المستوطنين لهذه المدارس العربية الفرنسية، وفي عام (1882م) لم يكن عدد التلاميذ الجزائريين في جميع مراحل التعليم أكثر من (3172) تلميذاً مسلماً، وفي عام (1902م) كانت النسبة لا تتجاوز (26،4%) من أبناء الجزائريين المسلمين الذين أتيحت لهم فرص التعليم، ويلاحظ هنا منذ أن استولى المستوطنون على السلطة في نهاية (1870م) تراجع عدد الأساتذة الذين تم توظيفهم لتعليم

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 634 .

أبناء الجزائريين، فقد انخفض العدد من (216) معلماً في سنة (1877م) إلى (198) سنة (1882م).

وفي عام (1886م) انخفض عدد المدرسين إلى (115) ثم تقلص إلى (81) معلماً في سنة (1889م) ووصل إلى (69) معلماً فقط سنة (1893م).

4 . التعليم الحافظ للشخصية الوطنية:

لقد بقي التعليم الحافظ للشخصية الوطنية محصوراً في الزوايا الصوفية التي تخرج منها العديد من قادة الثورات، وكان يقوم على تعليم العلوم الدينية واللغة العربية والتاريخ الإسلامي والتوحيد والمنطق والتصوف، وتسببت الثورات في هدم الفرنسيين للعديد من الزوايا وتهجير معلميها وطلابها، ومع توقف الثورات عادت الحياة للزوايا خاصة بعد عملية التدجين الفرنسية واستأنفت رسالتها التعليمية، وكان خريجو الزوايا هم الذين يتولون القضاء حتى سنة (1880م)، وبعد هذا التاريخ صار مقتصراً على خريجي المدارس الثلاث التي أنشأها الفرنسيون. وصدر قرار بعدم قيام الزوايا بالتدريس إلا برخصة لا تعطى لها إلا بصعوبة وشروط، ومع كل هذه الصعوبات استمرت الزوايا تؤدي رسالتها التعليمية معتمدة على أوقافها الخاصة أو مواردها من زيارات الأخوان والأنصار والزكاة، واشتهرت زوايا الريف مثل زوايا: طولقة والهامل، وقصر البخاري، وأولاد الأكراد.

وفي اخر القرن التاسع عشر رخصت الإدارة لبعض المدرسين بإعطاء الدروس في الفقه والتوحيد والنحو بمساجد معينة، مع منع المدارس من الاستشهاد بالآيات والأحاديث التي تشير إلى الجهاد ومقاتلة الكفار، وتحول الكثير من المساجد إلى مدارس ابتدائية تعد التلاميذ للدخول

للمدارس الثلاث التي لا تملك مدارس ابتدائية تزودها بالتلاميذ، واستطاع بعض المعلمين بطرق إيحائية بث أفكار وطنية بعيداً عن أعين واذان السلطات، وكان من بين هؤلاء الشيخ حمدان الونيسي قبل هجرته إلى المشرق[1].

5 . محاربة فرنسا للسنوسية:

بقيت الحركة السنوسية إلى حد ما متماسكة في الجزائر بسبب وجود قياداتها الفاعلة خارج الجزائر، وكانت لها علاقة بثورات مثل ثورة شريف ورقلة وثورة بوعمامة. وقد عمل الشيخ السنوسي على إيجاد فروع للطريقة في بسكرة وبوسعادة والأغواط، واضطهد الفرنسيون أتباعها مثل محمد شبيرة فنفوه من بوسعادة إلى تونس وصادروا أملاكه. كما أسست الطريقة فرعاً لها في مستغانم التي ولد بها الشيخ السنوسي، وأمام متابعة الفرنسيين هاجر الشيخ السنوسي إلى ليبيا فاستقر بها سنة (1843م) فلحق به العديد من الجزائريين وكونوا لهم مركزاً قوياً في جنوب ليبيا، وتمكنت أسرة تكوك من الحفاظ على السنوسية بالجزائر منذ (1859م) وشاركت في عدة ثورات كثورة فليتة وثورة أولاد سيدي الشيخ. ومؤسس زاوية تكوك هو الشارف ولد الجيلاني عبد الله بن تكوك المعاصر للشيخ السنوسي، سجنه الفرنسيون عدة سنوات ثم أطلقوا سراحه، وفي أثناء ثورة أولاد سيدي الشيخ اعتقل في مستغانم مرة أخرى سنة (1876م)، وتوفي الشيخ الشارف سنة (1890م).

واستمر الفرنسيون يلاحقون سنوسية تكوك ويضطهدون مقدميها، بسبب توجيهها من الزاوية الأم في جغبوب، التي ساهمت في تأسيس الجامعة

[1] المصدر نفسه ص 626 .

الإسلامية، ووجهت زاويتها في الجزائر لمناهضة الاستعمار، وساهمت في إنماء وعي وطني بين الجزائريين في العقدين الأخيرين للقرن التاسع عشر[1].

إن الإمام محمد بن علي السنوسي لم ينس القضية الجزائرية وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا، وعندما قدم محيي الدين الجزائري برفقة ولده وأشراف قومه إلى مكة ؛ التقى بهم ابن السنوسي وأكرمهم غاية الإكرام بمكة، وبعد أن أرادوا السفر ودّعهم وقال لهم: إن الدين الإسلامي يحتم على كل مسلم أن يدافع عنه بقدر استطاعته، ويحرم على المسلمين الاستسلام للعدو الغاصب المعتدي والمنتهك لحرمات الدين والإسلام والمعطل لأحكام الله، وإني أستوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيراً فإنه ممن سيذود عن حرمات الإسلام ويرفع رايات الجهاد. فكان هذا سبباً من الأسباب في إيجاد روح الجهاد والمقاومة فيهما وتفكيرهما فيه[2]، وقد بينا جهاد الأمير عبد القادر في الصفحات السابقة.

لقد اعتبر الفرنسيون الحركة السنوسية عقبة كأداء في طريق تحقيق أهدافهم الاستعمارية، ولهذا نجد الكاتب الفرنسي دو فريه في غير اعتدال يصاب بحمى الهذيان فيقول: إن السنوسية خطر عام على أوروبا، وخطر على الدولة العثمانية، وخطر على شمال إفريقيا، وخطر على مصر[3].

وأما السياسي الفرنسي المعروف هانوتو فيقول: لقد أسس الشيخ السنوسي في جبهة ليست ببعيدة عن الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر وطرابلس وبنغازي مذهباً خطيراً له اتباع وأنصار معدودون، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها هيكل

---

[1] الجزائر في التاريخ ص 826 .
[2] الحركة السنوسية للصلابي ص 38 .
[3] المصدر نفسه ص 118 .

البرجيس امون إلى أن قال: ومن مذهب الشيخ السنوسي وأتباعه التشديد في القواعد الدينية، ولقد لبثوا زمناً طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العثمانية، غير أن هذا لم يمنع السنوسيون من مد حبل الدسائس التي أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسا في إفريقيا الجنوبية، ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الإفريقية فإنه يوجد بالأستانة نفسها والشام وبلاد اليمن وكذلك مراكش عصابات خفية ومؤامرات سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أن تعرقل أعمالنا إذا ما أغمضنا الطرف عنها[1].

وقد وصف الفرنسيون أتباع الحركة السنوسية بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلد[2].

واستدل العلامة محمد رشيد رضا على صدق الحركة السنوسية بما كانت تقوم به فرنسا من عداوة ومحاربة لهذه الحركة التي أقضت مضاجعها، ولم تكتم فرنسا رغبتها في القضاء على شيخ السنوسية واستئصال قوته[3].

وقد امتدح محمد رشيد هذه الحركة بقوله: استطاعت دولة فرنسا إفساد بأس جميع الطرائق المتصوفة في إفريقيا واستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية[4].

لقد شعرت المخابرات الفرنسية بخطورة ابن السنوسي منذ فترة طويلة، وحاولت أن ترصد تحركاته مع الحجيج الجزائريين والمغاربة عموماً، فبثت المخابرات الفرنسية عيونها واذانها على طول الحدود مع تونس خوفاً من دخول ابن السنوسي إليها من ليبيا، وندب ابن السنوسي محمد بن صادق

---

[1] الحركة السنوسية للصلابي ص 118 .
[2] المصدر نفسه ص 118 .
[3] المصدر نفسه ص 118 .
[4] المصدر نفسه ص 118 .

وحمّله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها إلى الأمير عبد القادر الجزائري وعاد إلى طرابلس. وتبنى ابن السنوسي دعم حركة الجهاد في الجزائر بالأموال والأسلحة والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأوفد في فترات متفاوتة عدداً من تلاميذه النجباء من أمثال محمد بن الشفيع وعمر الفضيل المعروف بأبي حواء والشيخ أبو خريص الكزة.

وقد نقل محمد الطيب الأشهب عن دو فريه الفرنسي ما يشير إلى اعتقاد الفرنسيين بتدخل ابن السنوسي في أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر، وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد ابن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر سنة (1848م ـ 1861م)، وعصيان محمد بن تكوك في الظهرة عام (1881م).

وقد بيّن المؤرخ الليبي عبد القادر بن علي ـ الذي رافق أحمد الشريف السنوسي عقوداً من الزمن ـ أن بعض الإخوان من السنوسية شاركوا في الجهاد الجزائري، حتى أن بعضهم أكل ثمرات غرس نواها حتى طلعت وكبرت وأثمرت فأكل من ثمارها وهو في ميدان الجهاد[1].

وقد ذكر المؤرخ أحمد الدجاني خطاباً أرسله أحد تلاميذ ابن السنوسي من الجزائر إلى مدير غدامس التركي «غدامس في ليبيا»، وأرشدنا الخطاب إلى أن دعوة ابن السنوسي بلغت الجزائر، وأن عدداً من أتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها ومنهم مرسل الخطاب، وتاريخ الخطاب سنة (1268هـ) وقد كان ابن السنوسي في الحجاز في ذلك التاريخ ومن بين ما جاء فيه:«.. وأما أنا عبد الله حيث قدمت بلاد ورقلة ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعدما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها،

[1] الحركة السنوسية ص 41 .

سبحان من حكّم الضعيف في القوي وصار القوي من عبده مخذولاً مذموماً، ولكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد بن علي السنوسي رحمه الله ونفعنا وإياكم به امين، صار عربان ورقلة وقصورها وقبائل الثعامبة وقصور تغورن وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدون كل يوم في الزيادة.. وبعث لنا الرومي دمره الله هذه الساعة ثلاثة أمحل.. تلاقينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصراً عزيزاً وأعاننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمئة وستة وثمانين رجلاً وقلعنا من الخيل كثيراً والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك».

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد فرنسا، وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعته من ذلك، وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض أتباعه في الجزائر على القتال. وقد استمر أتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام (1962م) [1].

لقد استمرت قيادة الحركة السنوسية على مرّ مراحل أجيالها الثلاثة في دعم الشعب الجزائري، وواصل الملك إدريس السنوسي جهود ابائه وأجداده في الدعم المادي والمعنوي لثورة الجزائر التي اندلعت في (1954/11/1م)، وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في المجلد الثاني من موسوعة كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

---

[1] الحركة السنوسية للصلابي ص 41 ، 42 .

6 . يقظة أبناء الجزائر:

كان الشعب الجزائري عصياً على مناهج المستعمرين، واستخدمت فرنسا كل الوسائل لإذابة الهوية الإسلامية منه، لكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، وكتب أحد المسلمين الجزائريين رسالة إلى الحاكم العام ذات يوم وهو يعبر عن الشعور الحقيقي لأغلبية الجزائريين، فقال: إننا نفضل أن نحرق نحن وأطفالنا على أن نصير فرنسيين.

وفي الحقيقة أن الجنرال شانزي الذي تم تعيينه حاكماً على الجزائر سنة (1873م) قد حذر السكان الأوروبيين من غضب وثورة أبناء البلد الأصليين ؛ إذ طلب منهم أن لا يتوسعوا في احتلال أراضي الجزائريين، وقرر أن يعمل على احتفاظ كل فرد بحقه في الملكية حتى لا يتذمر الناس ويثوروا ويخلقوا الفوضى، لكن الفرنسيين والأوروبيين المقيمين في الجزائر تمكنوا سنة (1887م) من الحصول على قانون يسمح لهم بتقسيم أراضي الأعراش وبيعها لهم بعد تحقيق جزئي تقوم به السلطات المحلية.

وفي بداية القرن العشرين تغير أسلوب النضال، حيث بدأ رجال النخبة في الجزائر يتحركون ويتحالفون ضد إدارة الاحتلال ودسائسها في بلدهم وذلك على المستوى الوطني، ويرجع الفضل في هذا التنظيم السياسي إلى رجال النخبة الذين تعلموا في المدارس الفرنسية، وأصبحوا يحسون ويشعرون بانعدام المساواة بين الجزائريين والأوروبيين، وعدم وجود أي تمثيل سياسي لأبناء البلد الأصليين في المجالس المحلية المنتخبة، ولهذا فإن المناضلين بدأوا في مطلع القرن العشرين ينتهجون سياسة جديدة ترتكز ليس على مقاومة الغزاة الأجانب بالسلاح فقط، ولكن ترتكز أيضاً على الاتصال والقيام بضغوطات متوالية على حكومة باريس لإنصاف الجزائريين، وتمكينهم من

الحصول على مقاعد في البرلمان الفرنسي، والسماح لهم بالمشاركة في الانتخابات المحلية، والاعتراف بالشخصية الوطنية.

ومنذ (1892م) بدأت حركة الشباب الجزائري تقوم بالاتصالات مع المسؤولين الفرنسيين وتنقل إليهم هموم المواطن الجزائري وتقترح عليهم ما ينبغي عمله لإنصافه.

وفي واقع الأمر إن قادة حركة الشبان الجزائريين إنما كانوا قاموا بنشاطهم الهائل في الميدان الثقافي وفي المدن الكبرى بالذات ؛ لأنهم كانوا يجيدون اللغة الفرنسية، ويختلطون بالمفكرين الفرنسيين، ويدافعون عن مبادئ تتمثل في التقدم والرقي وحصول الجزائريين على حقوقهم السياسية والاقتصادية.

وفي عام (1904م) أنشأوا جريدة المشعل، وحاولوا من خلالها نشر أفكارهم وإظهار التعلق بالشخصية الجزائرية، مثل حرصهم على التمسك بالقيم الإسلامية والتقاليد الجزائرية، لكن مواقفهم السياسية ومعارضتهم العلنية للسياسة الفرنسية ظهرت بوضوح في عام (1908م) حين صدر مرسوم بتاريخ (17 جويلية 1908م) ينص على إحصاء الشبان الجزائريين الذين بلغوا سن الثامنة عشر بقصد تجنيدهم في الجيش الفرنسي، فأثار هذا القرار غيظ وتذمر الجزائريين المسلمين الذين دأبت السلطات الفرنسية على احتقارهم وتجريدهم من حقوقهم السياسية بدعوى أنهم مسلمون لا يتخلون عن دينهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم ؛ ثم تأتي نفس السلطات وتفرض عليهم الانخراط في جيش هذه الدولة التي تضطهدهم في بلدهم ليدافعوا عن علمها.

وفي شهر أكتوبر من عام (1908م) قدّمت حركة الشبان الجزائريين احتجاجاً إلى الحكومة الفرنسية على قرارها المتعلق بتجنيد الشباب الجزائري،

ودعت إلى إلغائه وعدم قبوله إلا إذا حصل الجزائريون على حقوق أساسية، تتمثل في تعديل قانون الإنديجينا وإلغاء بعض بنوده، وتخفيض العقوبات الواردة فيه، ورفع نسبة التمثيل في الانتخابات المحلية، والمساواة بين المسلمين والأوروبيين.

ورفض الشعب الجزائري التجنيد الإجباري، وهاجر بعضهم إلى خارج البلاد، وأفتى العلماء بعدم جواز الدخول في جيش المحتل والدفاع عن عَلَمهم، لأن ذلك يعني تسخير الإسلام لخدمة الدولة المسيحية.

وبعثت حركة الشبان الجزائريين بوفد إلى باريس يوم (18 جوان 1912م) وذلك لمقابلة رئيس الحكومة الفرنسية لحثه على اتخاذ إجراءات سياسية لصالح السكان المسلمين، وطالب وفد الشبان الجزائريين بمنح الجزائريين حقوقاً أساسية مثل:

. إلغاء قانون الإنديجينا.

. المساواة في دفع الضرائب.

. المساواة في التمثيل السياسي في المجالس المحلية والبرلمان الفرنسي.

وقد حاولت حركة الشبان الجزائريين الانفتاح على عامة الشعب وطبقاتهم الفقيرة من الفلاحين وغير المتعلمين. فحرصت القيادة في حركة الشبان الجزائريين على مطالبة فرنسا بتعليم اللغة العربية في المدارس بالإضافة إلى الفرنسية، واحترام الأعياد والشعائر الإسلامية، كما أعلنت تأييدها للعثمانيين «بصفتهم مسلمين» في حربهم ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا، وضد الأوروبيين الذين تامروا على تركيا في البلقان وهزموها، وقد نتج عن تأييدهم لتركيا الإسلامية ودفاعهم عن القيم الإسلامية في الجزائر تأييد

شعبي لهذا الموقف سواء في داخل الجزائر أو خارجها، حيث هب المسلمون في أنحاء العالم الإسلامي للدفاع عن الإسلام والمسلمين، وطالبوا بأن يتصدى المسلمون للغربيين الذين يتعاونون فيما بينهم للقضاء على الإسلام من خلال قضائهم على تركيا.

وقد استغل أعضاء حركة الشبان الجزائريين التأييد الشعبي لتدعيم مكانتهم في داخل الجزائر وخارجها، فقاموا بحملة قوية في جريدة «الحق» ضد الإدارة الفرنسية في الجزائر، وطالبوا في مقالاتهم بإنشاء بنك إسلامي، وإعطاء قروض للفلاحين والتجار، وإعطاء ضمانات للفلاحين بأن لا يهجّروا من أراضيهم، وإنشاء مراكز لتدريب وتكوين الجزائريين في المهن الصناعية، والاهتمام بالتعليم الذي ينبغي توفيره لأبناء المسلمين.

ولم يتوقفوا عن المطالبة بإلغاء قانون الإنديجينا، وإعطاء حق التصويت في الانتخابات لجميع الجزائريين، ومنح المسلمين مقاعد في البرلمان الفرنسي لتمثيلهم والدفاع عن مصالحهم فيه[1].

وبالرغم من تعاطف الناس مع حركة الشبان الجزائريين، فإنها لم تعمل على تحريك الشارع الجزائري، ولم تكن حركة جماهيرية قادرة على محاربة قوات الاحتلال، وإنما كانت عبارة عن حركة تقوم بحملة سياسية تستهدف الضغط على الإدارة الفرنسية لكي تقبل بمبدأ السماح للجزائريين أن يأخذوا مناصب سياسية عليا ويشاركوا في تسيير البلاد، كما يبدو أن خطتهم كانت ترمي إلى خلق تأييد لهم على مستوى النخبة وكسب احترام المثقفين الفرنسيين.

---

[1] التاريخ السياسي ص 206 .

وفي عـام (1913م) تمكـن قـادة حركـة الشـبان الجزائـريين مـن التفـاهم والتحـالف مـع شخصـية جزائرية مرموقـة علـى السـاحة السياسـية الفرنسـية، والمتمثلة في شخصية الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر، الذي كان بدوره يلقي محاضرات في باريس، ويطالب بإدخال إصلاحات سياسية على نظام الحكم في الجزائر.

وسار الأمير خالد على نفس المنهج الذي كانت تتبعه حركة الشبان الجزائريين، فطالب بالتعليم للمسلمين، وتمثيلهم في المجالس المحلية وفي البرلمان الفرنسي، وإلغاء القوانين الاستثنائية التي كانت تطبق على المسلمين فقط، وطالب كذلك بحماية العمال الجزائريين في فرنسا، إلا أن انضمام الأمير خالد إلى حركة الشبان قد أثار ضجة كبيرة في أوساط رجال الإدارة الفرنسية في الجزائر، حيث كانوا يعتبرونه العدو رقم واحد بالنسبة إليهم، لأن الشعارات السياسية التي كان يستعملها الأمير خالد تعتبر بالنسبة إليهم بمثابة تحريض للسكان الجزائريين على الثورة ضد الأوروبيين في الجزائر، وتم محاربة جهود حركة الشبان الجزائريين من قبل المستوطنين، وقال رئيس بلدية الجزائر: ينبغي منع الجزائريين من الحصول على أي تمثيل سياسي، لأن قبولهم في أية هيئة انتخابية يعني خلق وتدعيم حركة وطنية من الشبان ضد الاحتلال الفرنسي[1].

7. الهجرة إلى الخارج بسبب الاضطهاد:

ضيّق الفرنسيون في الجزائر على المواطنين المسلمين الخناق إلى درجة وجد المسلم نفسه دائماً مضطراً إلى الاختيار بين الهجرة إلى الخارج والعيش في المنفى أو يعيش في زنزانة مغلقة مادام يطالب بحقوقه وكرامته.

---

[1] المصدر نفسه ص 207 .

وتوالت على الجزائريين المحن والمصائب بالمجاعة والضرائب وسلب الحقوق ودوس المقدسات، وواجهوا ضغوطاً جهنمية من طرف الحكام الفرنسيين المحليين ونوابهم الذين يخضعون لسلطانهم مباشرة حيث كانوا يتفننون في تعذيب المسلمين عن طريق قانون الإنديجينا أو قانون الأهالي، مثلما يسميه بعض الكتاب، وازداد نفوذ الحكام المحليون بعد سنة (1902م) حيث صاروا هم وكلاء المحاكم القمعية، لا يحكم منهم إلا نواب الوالي وبالتالي لا يوجد من يراقبهم أو يتحكم فيهم، وقد كانت عندهم الصلاحيات المطلقة لإذلال الجزائريين خاصة بعد أن أصبحوا هم القضاة وضباط ينفذون القرارات ورجال أمن يفرضون الضرائب، فاضطهدوا السكان المسلمين، وطبقوا الإجراءات التعسفية على السكان حتى يخضعوا ويرضخوا لإدارة الاحتلال، وابتزوا عامة الشعب، وجمعوا أموالاً طائلة من الغرامات على الجزائريين، وأصبحوا أثرياء على حساب الضعفاء المقهورين[1].

ولقد تمكنت فرنسا من اجتياز محنة الحرب العالمية الأولى بعد أن جندت (751،82) جزائرياً في إطار الخدمة العسكرية، وانخراط (519،87) جزائرياً اخر من الجيش بصفة دائمة، كما جلبت 78،000عامل جزائري إلى العمل في المصانع الفرنسية بهدف تعويض العمال الفرنسيين الذين التحقوا بالجيش.

وحسب الإحصائيات الرسمية الفرنسية فقد خسرت الجزائر في هذه الحرب ما لا يقل عن (711،25) قتيلاً «من المسلمين»، و (035،72) جريحاً أي (14،5%) من القوات الجزائرية التي جندت للدفاع عن فرنسا. وهذه النسبة قريبة جداً من نسبة الفرنسيين الذين ماتوا في الحرب العالمية، والتي

[1] المصدر نفسه ص 215 .

هي (16،5%) [1].

ومع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث، وبدأت الحركات السياسية والمنظمات الشبابية والأحزاب المتنوعة والحراك الشعبي الإصلاحي، بقيادة العلماء وعلى رأسهم الزعيم الوطني الشيخ عبد الحميد بن باديس تشق طريقها في وسط الظلام الدامس والظلم المخيم على الشعب الجزائري لتمهيد الطريق لوعي شعبي، ونضال مرير وكفاح شاق وجهاد أسطوري وتضحيات بالأرواح والأنفس والأموال ؛ توجت بثورة عارمة نادرة في تاريخ البشرية قضت على الوجود العسكري والسياسي في الجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري، وهذا ما سنعرف تفاصيله بإذن الله تعالى في الجزء الثاني من كتابي:

كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس

واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

---

[1] المصدر نفسه ص 215 .

الخلاصة

1 . تدخل محمد علي ملك مصر، وعرض مشروعه لاحتلال المغرب العربي، ليبيا وتونس والجزائر، وضمها لمصر وإسقاط الداي عدو فرنسا، مقابل دعم فرنسا له على أن يضمن لها الحصول على امتيازات اقتصادية وعسكرية في الجزائر، وقد عبر عن استعداده للتوجه إلى المغرب العربي على رأس جيش قوامه 62 ألف جندي. ولكن بريطانيا عارضت تدخله وتوسعه غرباً، وهددت فرنسا رسمياً بأنها قررت استعمال القوة ضد مشروع محمد علي.

2 .كانت فرنسا مدفوعة في غزوها للجزائر بأسباب عدة، ولكنها ادعت أمام الرأي العام أن هدفها القيام بحملة تأديبية ضد الجزائر. وفي الحقيقة إن فرنسا كانت تخطط لاحتلال الجزائر والاستيلاء عليها منذ عام 1792م، أي سنة إبعاد اسبانيا وتصفية قاعدتها العسكرية في المرسى الكبير بوهران، وأما أهم الأسباب في الاحتلال فهي: سياسية، وعسكرية، واقتصادية، ودينية.

3 . تأكد نزول الجيش الفرنسي بسيدي فرج يوم 14 جوان 1830م، وعندما أحس الداي حسين أن المدينة صارت في حكم الساقطة، قرر الاتصال بالفرنسيين وأرسل أمناء سره لمفاوضتهم.

4 . وقع الداي حسين حاكم الجزائر في أخطاء من أبرزها: إعدامه لقائد جيشه، ثقته في وزير المالية وكانت في غير محلها، عدم وجود انضباط من بعض رجال الأمن، عدم وجود خطة مدروسة لمواجهة الفرنسيين. الخ.

5 . تأكد جشع الفرنسيين وتهافتهم على الثروة وخيرات الجزائر يوم هرع رجال الجيش الفرنسي إلى ذخائر قصر الداي والاستيلاء عليها ثم تهريبها إلى فرنسا، واختلس ضباط الحملة الفرنسية لأنفسهم ما قيمته 50 مليون فرنك فرنسي، واكتفوا بتسليم ما يعادل ذلك للحكومة الفرنسية.

6 . قرر قادة الجيش الفرنسي انتهاج سياسة احتلال الجزائر، وتجريد الجزائريين من أراضيهم، والسيطرة على ثروات البلاد وممتلكات المواطنين وأموالهم، وتسخير الجزائريين كخدم وعبيد للمحتلين، وكانت الفوضى عارمة والدمار شاملاً وممارسة العنف على أشده.

7 . صادر المحتلون الفرنسيون الأوقاف العامة في مدينة الجزائر وعدد غير قليل من المدن الأخرى التي تم السيطرة عليها، لقد نظر الفرنسيون إلى الأملاك الدينية بمنظار فرنسي استعماري همجي بربري ؛ حرصوا على كسب ثروات طائلة في أسرع وقت ممكن ولو على حساب الإنسانية، وتم تحويل بعض المساجد إلى كنائس، وقد رسمت السلطات الفرنسية خطة ممنهجة للقضاء على الديانة الإسلامية.

8 .كان الكثير من الدول لا ينظر لاحتلال فرنسا لمدينة الجزائر على أنه مؤقت، فعندما أعلنت فرنسا سنة 1932م أنها ستستمر في احتلال الجزائر طلبت منها بريطانيا تفسيرات رسمية عن ذلك، فبينت فرنسا بأنها غير ملزمة بأي تعهد دولي إزاء الجزائر وأنها تفعل ما تريد.

9 . انطلقت المقاومة الجزائرية ضد فرنسا، وكان من أشهر الثورات، ثورة سيدي السعدي وابن أبي مزراق وابن زعموم.

10 . وأمام الخسائر التي تكبدتها الخزينة الفرنسية من جراء مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال، ارتفعت أصوات فرنسية ضد الاستعمار، وهاجم عدد من النواب في جلسة مناقشة الميزانية المصروفات الاستثنائية للاحتلال، وطلبوا من الحكومة الإسراع في تحرير فرنسا من عبء الجزائر.

11 . استمرت المقاومة وبقي الاحتلال محصوراً في مدن الجزائر ووهران وعنابة، وحاول الفرنسيون تعيين شيوخ قبائل على الأقاليم الداخلية يحكمون حكماً محلياً مع تسليمهم بالسيادة الفرنسية، فلم يجدوا من يتعاون معهم، وبقيت المقاومة مشتتة محلية إلى أن ظهر الأمير عبد القادر، فحوّل هذه المقاومة من محلية إلى وطنية.

12 . بدأ هذه الملحمة العظيمة والد الأمير عبد القادر الشريف الهاشمي محيي الدين، وكان يتمتع بمكانة ووقار وهيبة مميزة وكلمة مسموعة بين القبائل، حتى إن الولاة العثمانيين كانوا يحسبون له حساباً، ويحترمون نفوذه بين القبائل ويخشونه.

13 . تولى الإمارة وقيادة الجهاد بعد المبايعة الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسني الهاشمي صباح الاثنين يوم الثالث من شهر رجب 1248هـ / 1832م.

14 . جاء الأمير عبد القادر بتجربة جديدة على العصر الذي عاش فيه، وليست جديدة في التاريخ، عندما رشحه والده للولاية عام 1832م، كان أمامه نماذج من حكام المسلمين، سلطان المغرب، وسلطان ال عثمان، وشاه إيران، وملك أفغانستان، ثم ولاة من أمثال باي تونس وباشا مصر، وإمام اليمن ؛ وكان يمكنه أن يقلد هؤلاء أو حتى يقلد الداي حسين المخلوع، ولكن الأمير رفض أن يكون نموذجه أحد هؤلاء جميعاً، وإنما اختار

نموذجاً جديداً يؤصل به الخلافة الراشدية ويرجع به إلى حكم الإسلام في عهده الذهبي.

15 . ما إن تمت للأمير البيعة حتى قصد منزله وقال لأم أولاده: إن أردت أن تبقي معي من دون التفات إلى طلب حق، فلك ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقك فأمرك بيدك لأنني قد تحملت ما يشغلني عنك. وبطبيعة الحال عبرت له زوجته عن استمرارها في العيش معه، وأن تتقاسم معه أعباء المسؤولية.

16 . بعد هذه البيعة الشعبية حمل الأمير عبد القادر مسؤولية الحكم، وامتد سلطانه إثر معارك دامية حتى شمل ثلاثة أرباع القطر الجزائري، وبعد أن استقام له الأمر شرع في تنظيم أمور الدولة النواة، وتشكيل الكوادر الحكومية، فعين الأكفاء من الرجال، واعتمد الفقه الإسلامي، أي التشريعات المنبثقة من القران الكريم والسنة نظاماً لحكمه، وبناء الدولة، والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلين.

17 . بعد معارك طاحنة خاضها الأمير ضد الجيوش النظامية الفرنسية ؛ أدرك ضرورة خلق جيش نظامي قوي يدعم به أهدافه الداخلية والخارجية، فاتجه إلى إنشاء جيش حديث، واهتم بتدريبه على الفنون العسكرية، وزوده بالأسلحة المتقدمة.

18ـ عمل الأمير على بناء مؤسسات الدولة، من حكومة مركزية وتقسيم البلاد إلى ثمان ولايات، ووضع معايير لتعيين موظفي الدولة ومناصبهم، واهتم بالسلطة القضائية، وأقام مجلس شورى، وأنشأ نظاماً اقتصادياً ومالياً عاماً، ودعم حركة التجارة، ونشط الدبلوماسية، وأسس جهاز مخابرات،

واهتم بنشر الثقافة والحضارة الإسلامية، واستطاع الاستفادة من خام الحديد والنحاس وعمل على تشجيع الصناعة، وأنشأ المشافي.

19ـ كان أول عمل قام به الأمير حملات إخضاع القبائل التي رفضت البيعة، فخرج مباشرة بعد البيعة وقام بحملة واسعة بين القبائل العربية والبربرية، فأخضع القبائل التي لم تعترف بالبيعة، وفرض عليها أن تعترف بقرار الجماعة.

20ـ وبعد عودته من أرزيو قرر تأديب القبائل التي تنشر الفوضى بين المواطنين وكانت تقوم بالسلب والنهب، وكانت قبيلة فليتة تشتمل على بطون وعشائر، وكان من عادتها السلب والنهب وقطع الطرق والتعرض للسابلة، وبقي هذا شأنها منذ عهود موغلة في القدم، فكم روّعت من قبائل مجاورة لها وسلبت أموالها، وعندما بويع الأمير طلب الشعب منه وضع حد لعدوان هذه القبيلة، فاستجاب له وتوجه بالجيش وحط بالبطحاء، في منطقة تعرف باسم «بهيرة»، ومنها أرسل إلى قبيلة فليتة وما جاورها من القبائل.

21ـ توالت الضربات المتتالية على القوات الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل حدب وصوب، فاستنكر عدد من البرلمانيين الفرنسيين الاحتلال المنظم للجزائر، بسبب الثمن المالي والبشري الباهظ الذي دفعه الشعب الفرنسي، واضطر الفرنسيون للمعاهدة مع الأمير عبد القادر.

22ـ نقضت فرنسا عهدها وأعلن الأمير الحرب من جديد، وتوالت المعارك وانهزم الفرنسيون في الكثير منها.

23 . استطاع ليون روش عميل المخابرات الفرنسية أن يخترق دولة عبد القادر، وأن يصل إلى مكان مقرب من الأمير ويصبح مترجمه الخاص، ولعب دوراً خطيراً تحت قناع الإسلام، ويعتبر حلقة من حلقات الاستعمار في اختراقها للجزائر.

24 . جعل ليون روش من تفانيه في تعلم اللغة العربية والدخول في الإسلام مطية للجوسسة التي كلف بها من قبل المخابرات الفرنسية، وأوكلت إليه أمر مراقبة الأمير عبد القادر ورسمت له الخطط المناسبة.

25 . استغل الأمير توجه كلوزيل إلى قسنطينة، فأصدر أمره إلى خليفته مصطفى التهامي والبوحميدي بالتوجه على رأس جيش إلى وهران ومحاربة القبيلتين اللتين تحالفتا مع الفرنسيين، وهما قبيلة الغرابة وقبيلة بني عامر والعشائر المتحالفة معهما، فاكتسح الجيش جنودهما واستولى على مواشيهما وألحق بهما هزيمة قاسية، وأمر الأمير خليفته محمد بن علال أن يتوجه إلى الجزائر، فانطلق بجيشه إلى متيجة ونواحي الجزائر ؛ يدمر مزارع الكولون، ويستولي على مواشيهم، ويأسر بعضهم، ووصلت قواته إلى أبواب العاصمة التي هرب الفرنسيون وراء أسوارها وأغلقوا أبوابها، فعاد إلى حاضرة ولايته.

26 . تفاوض الأمير عبد القادر مع الجنرال بيجو وأرسل مبعوثاً من طرفه هو السيد حمادة السقال رئيس حضرة تلمسان. وبعد أخذ ورد حررت معاهدة تافنة يوم 20/ 5/ 1837م.

27 . قام الأمير عبد القادر بمحاربة من شقوا عصا الطاعة مثل محمد عبد الله البغدادي، وتصدى للتمرد الذي قاده محمد التيجاني.

28 .كـان الأمـير يعمـل علـى إحاطـة دولتـه بسـائر أنـواع الضـبط التشـريعي والإداري، وكـان يضـطر إلى إنـزال العقـاب بالقبائـل العاصـية المتعاونـة مـع العـدو، وأراد أن يحـيط علمـاء المغـرب بـبعض المشـاكل الـتي تواجهـه، وطلـب منهم الإجابة في نوازل متعددة، منها التعامل مع حركات التمرد.

29 . اهـتم الأمـير ببنـاء مصـانع عديـدة أنشـئت في المـدن الـتي كانـت تحـت سـيطرة الأمـير، وإن مطـاحن البـارود وإذابـة الحديـد اخـذة بالعمـل، وهـي تنـتج قناطير من البارود يومياً.

30 . أصـاب بيجـو غضـب شـديد عنـدما علـم بانتصـار الأمـير علـى التيجـاني وهزيمـة بـني عـراش أيضـاً، وإخضـاعه لمعظـم القبائـل، وتوسـعه في بنـاء الحصـون والمصـانع، وتطـوير الجـيش النظـامي، وأنـه في طريقـه لإنشـاء إمبراطوريـة جزائريـة يصـعب التفـاهم معهـا، فكيـف بالسـيطرة عليهـا؟!.. وأصـبح خطـره أكـبر علـى مدينة الجزائر.

31 . خـرق الجنـرال بيجـو الهدنـة، وانـدلعت الحـرب مـن جديـد مـع تعزيـزات وإمدادات ضخمة من فرنسا لصالح المحتلين.

32 . بينمـا كـان أمـير الـبلاد يرسـل رسـائل الاحتجـاج إلى ملـك فرنسـا والمارشـالات في مدينـة الجزائـر ؛ بـنفس الوقـت وجـه نـداء إلى شـعبه والأوامـر إلى خلفائـه في المـدن، يأمـرهم بالاسـتعداد للحـرب، وبـزيارات للمستشـفيات، وتفقـد أنظمتهـا، وتلبيـة حاجتهـا مـن أطبـاء وممرضـين وأدويـة، ويكتـب رسـائل إلى زعماء القبائل الموالية له، ويطلب منهم الاستعداد للجهاد في سبيل الله.

33 . في السـادس مـن شـهر كـانون الأول سـنة 1839م عقـد الأمـير اجتماعـاً دعـا إليـه أعضـاء مجلـس الشـورى وزعمـاء القبائـل والخلفـاء وقـادة الجـيش

والعلمـــاء، واتخــذوا بالإجمــاع قـــرار اســتئناف القتــال، وصـــدرت الأوامـــر إلى القيادة العسكرية بالزحف على معسكرات العدو وحصونه.

34 . طبّـق بيجـو خطـة تـدمير الريـف وحرقـه، وكـل مـا فيـه مـن حقـول وحبـوب في مواسـم النضـج، وقـام بقطـع الأشـجار والثمـار، ومعاقبـة كـل قبيلـة مقاومـة، وذلــك بتجريــدها مــن أرضــها وتمليكهــا للكولــون وطردهــا للصــحراء. وكانــت خطتـه مبنيـة علـى إبادة الشـعب، بحيـث يقـدر عـدد الـذين قتلـوا مـن الجزائـريين نصف تعداد السكان.

35 .كانـت قـوة الأمـير عبـد القـادر تكمـن في اسـتحالة العثـور عليـه، إنهـا في المكـان الرحـب الواسـع في حـزرة شمـس افريقيـا المحرقـة في مكـان نـدرة الميـاه، وإنهـا في حياة الترحال التي خطّها كأسلوب لمحاربة فرنسا.

36 . أصــبحت الإمــدادات تتــوالى مــن فرنســا علــى قواتهــا في الجزائــر، وبــدأ ميزان القوى لصالح فرنسا على حساب الأمير.

37 . ارتكــب جــيش الاحــتلال أكثــر الفظــائع وحشــية ضــد المــدنيين، والــتي سماها المؤرخون بالرازيا، من محو للقرى، وإبادة جماعية، وهتك للأعراض الخ.

38 .كــان موقــف الــدول العربيــة ممــا يجــري في الجزائــر ســيئاً، بــل أخــذ الــبعض يساعد العدو، بل يقاتل إلى جانبه بكل ما يملك من قوة.

39 . أقـام الأمـير عبـد القـادر مدينـة الخيـام المتنقلـة ليجنـب المـدن الرئيسـة تــدميرها بواســطة القنابــل والمدفعيــة الفرنســية، وتعرضــت هــذه المدينــة للاعتــداء علـى يـد القـوات الفرنسـية، ورد الأمـير مسـرعاً علـى مـن هـاجم المدينـة المتنقلـة وأعاد بناءها من جديد.

40 . دخل سلطان المغرب في معاهدة مع فرنسا، وأصبح يحرض القبائل على التمرد، ويتدخل في شؤون دولة الأمير، ويطلب من هذه القبائل تقديم العون للفرنسيين. لقد رضخ سلطان المغرب لضغوط فرنسا ووقع معها معاهدة سلام يوم 10 سبتمبر 1844م، وكان من أهدافها وضع الأمير عبد القادر في وضعية الخارج عن القانون في كامل التراب المغربي والجزائري.

41 . على الرغم من عناده ووسائله البربرية، فإن بيجو لم يتمكن من القضاء على الأمير حيث أنه كان في كل مرة يبشر بنهاية أمره، وكان خصمه الذي لا يقهر يبرز من جديد بضربات موجهة ضد الجيش الفرنسي، ويعيد إشعال نار الحرب التي لم يكن يريدها وإنما فرضت عليه فرضاً.

42 . نقل الأمير المدينة المتنقلة إلى المغرب الأقصى، وقرر الاستمرار في غزواته على القوات الفرنسية داخل الجزائر.

43 . انتقل الأمير في لمح البصر فغزا قبيلة صدامة في وادي العبد متجاوزاً بوجو ولاموريسيير اللذين لم يكونا بعيدين عنه، ثم قبيلة الأحرار وغنم منها، وراح ينتقل من قبيلة إلى قبيلة ويفرض الطاعة عليها، أو تعود له طوعاً.

44 . لقد احتضن الشعب المغربي الأمير عبد القادر وخاصة قبيلة بني زناسن وأهل وجدة والريف وغيرهم، ولقد استشهد الكثير منهم مع الأمير في جهاده ضد الغزاة الفرنسيين، واختلط دم المغاربة مع الجزائريين، وكتبوا ملحمة جديدة في تاريخ شعوب المغرب.

45 . استطاعت فرنسا أن تضغط على سلطان المغرب، وتجنده لصالح مشروعها في الجزائر، والاستفادة من نفوذه للتأثير على القبائل الموالية لعبد

القــادر، في نفــس الوقــت كــان المارشــال بيجــو يطمــع إلى المزيــد مــن تأييــد القبائل له، واعتمد في سياسته مع السكان طريقة الترهيب والترغيب.

46 . بـدا واضـحاً في عـام 1847م أن الطـوق الفـولاذي بـدأ يضـيق حـول المقاومـة، وأصـبحت هجمـات العـدو أشـد ضـراوة وقـوة، بعـد أن تم لـه تفتيـت جبهـة الأمـير الداخليـة، وضـمن طاعـة أكثـر القبائـل، ودُمـرت الزمالـة ولم يبـق من أقسامها إلا الدائرة، وأحرقت المحاصيل الزراعية لتجويع المجاهدين.

47 .كـان السـلطان عبـد الـرحمن حـاكم المغـرب مسـتمراً في مراسـلة القبائـل الـتي بايعـت الأمـير عبـد القـادر، ويسـتخدم علمـاء بلـده في اتهامـه بأنـه زائـغ عـن الهـدى، وقـد جـاء في إحـدى الرسـائل: إن مـن يتبـع هـذا الرجـل فقـد باع دينـه وباء بالضلال والردى وحاد عن شريعة الهدى.

48 . بالـغ السـلطان عبـد الـرحمن في عدائـه للأمـير إلى الحـد الـذي جعلـه يحـرض عليـه زعـيم الأحـلاف في الريـف الشـيخ بـوزيان وزعمـاء بـني سناسـن وغـيرهم ولم يكتـف بـذلك، بـل أرسـل ذات مـرة جيشـاً بقيـادة الأحمـر وأمـره بالاستيلاء على مقر الأمير.

49 . وفي أواخــر ســنة 1847م لم يعــد الأمــير يحــارب جنــرالات فرنســا وجنودهــا المــدربين، بــل شُــيّد بينــه وبيــنهم ســد مــن صــدور المســلمين، شــيّده السـلطان عبـد الـرحمن، وفـرض علـى الأمـير واقعـاً مـراً مرفوضـاً مـن قبـل المـؤمنين وهو قتال الأخوة.

50 . رأى الأمـير أنـه قـد حـان وقـت وقـف الحـرب، كحـاكم للدولـة وقائـد للجـيش النظـامي، ولـيس وقـف المقاومـة لأنهـا بيـد الشـعب، وليسـت بيـده، ولـن تقف إلا بزوال الاحتلال.

51 .كـان رأي الأمـير طلـب الأمـان ليسـمح لـه بالهجـرة إلى ديار المسـلمين الدولـة العثمانيـة في اسـتنبول أو بـلاد الشـام، ولـيس الاستسـلام، والطريـق إلى ذلك المفاوضات.

52 . بـدأت المفاوضـات ووافقـت فرنسـا علـى شـروط الأمـير في طلـب الأمـان والسماح له بالهجرة، وعدم الغدر بجنود الأمير.

53 . انتشـر خـبر رحيـل الأمـير في أرجـاء الـوطن كالنـار في الهشـيم، ووقـع هـذا الحـدث المفـاجئ كالصـاعقة علـى رؤوس السـكان، فأخـذت النسـاء بالبكـاء والعويـل، وعمـد الرجـال إلى التجمعـات الصـامتة الحزينـة، والنفـوس كالنـار تحـت الرماد.

54 . نقضـت فرنسـا عهـدها، واعتقلـت الأمـير وأودعتـه السـجون، وعرضـت عليـه القصـور والأراضـي الشاسـعة، فـرفض وقـال: لـو ملكتمـوني فرنسـا كلهـا فلـن أقبلهـا بـديلاً عـن وطـن عـربي إسـلامي أعـيش فيـه، ولـو وضـعتم فرنسـا كلهـا في برنسـي هـذا وفرشـتموها بالـديباج لنفضـته إلى الأمـواج الـتي تضـرب جـدران هذه البارجة الحربية.

55 .كـان الهـدف مـن سـجن الأمـير تحطـيم رمزيتـه الكبـيرة في نفـوس الشـعب الجزائـري، فـرئيس الحكومـة فيـزو الـذي عـيّن الجنـرال الأشـد عنـاداً في حـرب الأمـير ؛ كتـب في مذكراتـه: إنـه لا يمكـن تحطـيم رجـل عظـيم علـى رأس أمتـه طالما أنه لم يقتل أو يؤسر.

56 . بعـد مـا تـولى الامبراطـور الثالـث الحكـم في فرنسـا ؛ عمـل علـى إخـراج الأمـير مـن سـجنه، وكـان ذلـك عـام 1852م وزاره في المعتقـل قبـل إطـلاق سراحه.

57 . غادر الأمير عبد القادر فرنسا متوجهاً إلى الإستانة، ووصل اسطنبول ورست الباخرة هناك أول عام 1853م، وكان أول عمل قام به الأمير زيارة ضريح أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وبعد ذلك زار جامع أيا صوفيا. وبعد استراحة عدة أيام في سراي حكومية خصصت له ولمن معه ؛ قام بزيارة السلطان عبد المجيد خان، الذي رحب به بحرارة بالغة، وأثنى على جهاده العظيم ضد المستعمرين، وعرض عليه عدة مدن ليختار إحداها، فاختار مدينة بورصة لما سمعه عن جمالها وجمال الطبيعة فيها وعذوبة مياهها ومناخها اللطيف.

58 .كثرت الزلازل في مدينة بورصة وضواحيها، وشكلت أذى للسكان والمهاجرين، مما اضطر السلطان إلى السماح للأمير بالإقامة في دمشق الشام. وصدرت الأوامر إلى محمود نديم باشا والي دمشق بالاستعداد لاستقبال الأمير، وإعداد السكن اللائق به.

59 .كان الأمير مدة إقامته في دمشق متفرغاً للصلاة والذكر والتأمل والعلم والتدريس في الجامع الأموي أو في دار الحديث النورية، وكان دؤوباً على عمل الخير والصلاح، مواظباً على المطالعة والتأمل. وزار بيت المقدس والخليل ووقف عند مزاراتها التاريخية، وبعد فترة سافر إلى حمص وتوقف عند ضريح الصحابي الجليل خالد بن الوليد، ثم قدم حماة ومنها انتقل إلى دير سمعان لزيارة قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز.

60 . بدأ الأمير الكتابة والتأليف منذ ريعان شبابه فضلاً عن نظم الأشعار والقصائد في مواضيع شتى منذ سن مبكرة حتى اخر أيامه.

61 . من أشهر كتبه «المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد»، وكتاب «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل».

62 . نسب إليه كتاب «المواقف» بعد وفاته بثمان وعشرين سنة، ولكنه باطل من حيث الحقيقة، وأمام الدليل العقلي والحجة التوثيقية العلمية، ووضعت فيه أفكار وعقائد هو منها براء، كما أنه نسب إليه كتاب «مذكرات في السجن» عام 1851م، وهو كذلك باطل من حيث الإثبات والحجة في النسبة إليه.

63 . تخرج على يدي الأمير عبد القادر كثير ممن تأثروا بسيرته الجهادية والعلمية وبأدبه ومنهجه، وأصبحوا فيما بعد من العلماء، واستمروا على ذلك النهج. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: عبد الرزاق البيطار، الطاهر الجزائري، عبد الغني بن طالب.

64 . شهد المؤرخون والعلماء من أمثال مفتي المالكية العلامة محمد عليش، وولده الشيخ الأزهري عبد الرحمن عليش، والعلامة عبد الرزاق البيطار، وحفيده الشيخ محمد البيطار، واخرون كثر ؛ شهدوا للأمير بالفضل والديانة والغيرة على دين الإسلام.

65 . أراد بعض الناس الاستفادة من اسم الأمير ونسبوا إليه ما لم يعتقده من غلاة الصوفية وبدون وصية من الأمير أو تكليف في كتاب "المواقف"، والذي لا علاقة للأمير به، وأثبتنا بالحجج والأدلة العلمية بطلان نسبته إلى الأمير.

66 .كان الأمير عبد القادر يحترم الدولة العثمانية من منطق شرعي، فهي كانت تمثل دولة الخلافة الإسلامية، والأمير لم يجعل دولته تابعة إدارياً لدولة الخلافة، ولكنه كان تابعاً لها روحياً، وكان أثناء حكمه يخاطب السلطان العثماني بكلمة «مولاي خادم حضرتكم ومقبِّل تراب أعتابكم».

67 .كان للأمير موقف عظيم للدفاع عن نصارى أهل الشام لما تعرضوا للاعتداء، فدافع عنهم بشهامة ورجولة ومنع المعتدين بالقوة، وساهم في دفع أي مبرر لدخول جيوش الدول الأوروبية لحماية النصارى.

68 . اتهم الأمير عبد القادر بأنه تعاطف مع الماسونية ثم انتسب إلى محافلهم. وقد روّج لهذه الدعاية الكولونيل وليام تشرشل صاحب كتاب "حياة الأمير" ولم ينقل بأمانة الكثير مما ذكر له الأمير عبد القادر من صفاء ووضوح تاريخه، ثم نقل وليام تشرشل هذه الفرية، وأذاعها من العرب جرجي زيدان ومن سار على نهجه الملتوي والمخادع.

69 . لقد حاولت الحركة الماسونية فعل كل ما في وسعها لتجعل الأمير عبد القادر أحد المنتسبين إليها، ولكنها لم تفلح. وكل ما ذكر في تاريخهم عن الأمير أكاذيب لا أصل لها ومن نسج خيالهم.

70 .كانت أيامه الأخيرة يغلب عليها الهدوء والبساطة والنظام الدقيق، وكان يستعد للقاء الله عز وجل وينتظر الأجل. ومنذ حجه عام 1862م أصبحت حياته تميل إلى الزهد والعبادة والعلم والتعليم ومساعدة الناس. ومع تقدم سن الأمير واعتلال صحته خف نشاطه وجهده، وعمت الإشاعات عن حالته الصحية، وانتقل إلى رحمة الله يوم 26 ماي 1883م.

71 . وبعد تحرر الجزائر لم ينس أبطال الجزائر وثوارها وحكومتها وزعماؤها رفات الأمير عبد القادر، فقد كانت سيرته الجهادية وأخلاقه الربانية ملهمة لهم، وأصروا على نقل رفاته من دمشق إلى الجزائر، وتواصلوا مع الثورة السورية وتم الاتفاق.

72 ـ في احتفال شعبي ورسمي نُقل رفات الأمير عبد القادر، وهو في الواقع ليس رفاتاً، بل تراث وتاريخ ونضال وكفاح وجهاد من دمشق إلى مدينة الجزائر البيضاء، بعد أن أصبحت دار سلام ؛ ليُوارى في التراب الذي روّته دماء جروحه وتضحيات إخوانه وجنوده وأبناء جيله، في ملحمة نادرة في تاريخنا المعاصر.

73 ـ إن شعبية الأمير في الغرب لم تكن نتيجة العمل الإنساني الذي قام به إزاء المسيحيين فقط، بل إن أحداث دمشق التي كان الأمير بطلها، لم تكن إلا لتزيد من تلك الشهرة التي كانت واسعة من قبل، لقد أثار كفاحه البطولي ضد أكبر قوة في أوروبا إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء الغرب، وكان له صدى كبير حتى في أمريكا، فقد أسست مدينة صغيرة في ولاية ايوا من طرف ثلاثة رواد أمريكيين في عام 1846م، أطلق عليها اسم القادر على شرف الأمير.

74 ـ لم تتوقف الثورات بعد مغادرة الأمير للبلاد، وكان من أشهر هذه الثورات ثورة الزعاطشة وبوبغلة والشريف محمد بن عبد الله بورقلة، وثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة والصادق بلحاج، ومحمد بوخنتاش الباركتي، وأولاد سيدي الشيخ وثورة بوشوشة، محمد بن تومي بوشوشة، وثورات المقراني والشيخ الحداد وبومزراق، وثورة واحة العمري وانتفاضة الأوراس وثورة بوعمامة.

75 ـ سيطر الحكم العسكري على الجزائر فترة طويلة من الزمن، وبعد وقوع الإمبراطور نابليون الثالث في الأسر لدى الألمان مالت الكفة لصالح المستوطنين الفرنسيين على حساب العسكر، وبدأت المراسيم التي تعزز سلطة المعمرين في 24 أكتوبر 1870م.

76 ـ تقرر منح التمثيل النيابي لكل ولاية جزائرية في البرلمان الفرنسي، ثم السماح للمعمرين الفرنسيين سنة 1875م أن يكون لكل ولاية ممثل لهم في مجلس الشيوخ الفرنسي، وفي مجال القضاء أصبحت المحاكم تتشكل من الفرنسيين فقط، وتصدر الأحكام التي تراها أنها تخدم قضايا المعمرين فقط.

77 ـ ابتداء من عام 1881م جاء المستوطنون الفرنسيون بقانون جديد يسمى «قانون الإنديجينا»، وهو عبارة عن مجموعة من النصوص وضعت بقصد مسخ الهوية الجزائرية واستعباد الشعب، من خلال الطاعة العمياء للفرنسيين. وقد بقي ساري المفعول حتى سنة 1944م.

78 ـ عملت أجهزة الاستعمار على تنصير الجزائريين وتأسيس كنيسة جزائرية، كان أنطوان دوبوش أول أسقف فرنسي تولى الأسقفية في الجزائر سنة 1838م. وعمل من أجل استعادة الكنيسة الإفريقية والمسيحية كما كانت قبل الإسلام مثلما يزعم، وهو الذي حول جامع كتشاوة إلى كتدرائية الجزائر وأعطاها اسم كنيسة سان فيليب.

79 ـ يعتبر الكاردينال لافيجري أحد الوجوه التاريخية المسيحية التي أثرت بعمق على فلسفة التبشير، وطبعها بتفكيره وسلوكه وجرأته في شتى الميادين، وهو يمثل خلال سنوات 1868م ـ 1892م قمة التبشير في الجزائر والمغرب العربي وفي قارة إفريقيا.

80 ـ إن تمسك مناطق القبائل والشعب الجزائري بالإسلام وتعاليم القران ؛ أربك مخططات الكاردينال لافيجري، وجعلها غثاء لا أثر لها في حياة الناس، وإن الإنسان ليرى عمق محبة الأمازيغ والجزائريين للإسلام من خلال صمودهم وثباتهم العظيم،ءَ وصدق الزعيم عبد الحميد بن باديس الصنهاجي الأمازيغي عندما قال:

شـــعب الجزائــــر مســـلم	وإلى العروبـــــة ينتســـب
مـــن قـــال حـــاد عـــن أصـــله	أوقـــال مـــات فقـــد كـــذب
أو رام إدماجــــــاً لـــــــه	رام المحـــــال مـــــن الطلــــب

81 . ومـن العناصـر الـتي اسـتعان بهـا الاسـتعمار الفرنسـي «المستشـرقون»، من أمثال: شيريون، وهادمان، وفيرو، ودي رينو، ودبنوكس، ودي سلان.

82 . عمـل الاحـتلال الفرنسـي علـى إفـراغ القضـاء الإسـلامي مـن صـلاحياته، فقـد كـان قبـل الاحـتلال مسـتقلاً بشـكل معقـول، وقـد تطـور القضـاء في دولـة الأمـير عبـد القـادر الـذي أولاه رعايتـه الخاصـة، واسـتمر الفرنسـيون في تفريـغ القضـاء الإسـلامي مـن صـلاحياته، ومـا أن حـل اخـر القـرن التاسـع عشـر حـتى لم تبـق لـه سـوى عمليـة تسـجيل الـزواج والطـلاق، وهـوت قيمـة القاضـي الإسلامي.

83 . حـارب الاحـتلال الفرنسـي التعلـيم الإسـلامي، الـذي كـان منتشـراً في المدن والأرياف والمساجد، والذي كان يمول من الأوقاف التي تم مصادرتها.

84 . بقيـت الحركـة السنوسـية إلى حـد مـا متماسـكة في الجزائـر بسـبب وجـود قيادتها الفاعلة خارج الجزائر، وكانت داعمة للثورات في الجزائر.

85 . إن الحقـائق التاريخيـة تثبـت للباحـث اهتمـام ابـن السنوسـي بالجهـاد في الجزائـر ضـد فرنسـا، وحـاول أن يشـارك بنفسـه إلا أن الظـروف منعتـه مـن ذلـك، وعمـل علـى إرسـال تلاميـذه بالأسـلحة والمـال، وتحـريض أتباعـه في الجزائر علـى القتـال. وقـد اسـتمر أتبـاع السنوسـية والشـعب الليـبي في دعـم حركـة الجهـاد حـتى تم دحـر الاحـتلال الفرنسـي مـن الجزائـر، وحصـلت الجزائـر علـى استقلالها عام 1962م.

86 . لقد استمرت قيادة الحركة السنوسية على مر مراحل أجيالها الثلاثة في دعم الشعب الجزائري، وواصل الملك ادريس السنوسي جهود ابائه وأجداده في الدعم المادي والمعنوي لثورة الجزائر التي اندلعت في 1/ 11/ 1954م. وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في المجلد الثاني من «موسوعة كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي».

87 . كان الشعب الجزائري عصياً على مناهج المستعمرين، واستخدمت فرنسا كل الوسائل لإذابة الهوية الإسلامية، ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً. لقد كتب أحد المسلمين الجزائريين رسالة إلى الحاكم العام ذات يوم وهو يعبر عن الشعور الحقيقي لأغلبية الجزائريين حيث قال: إننا نفضل أن نحرق نحن وأطفالنا على أن نصير فرنسيين.

88 . في بداية القرن العشرين تغير أسلوب النضال، حيث بدأ رجال النخبة في الجزائر يتحركون ويتحالفون ضد إدارة الاحتلال ودسائسها في بلدهم، وذلك على المستوى الوطني، وطالبوا بإلغاء قانون الإنديجينا، وبالمساواة في دفع الضرائب، والمساواة في التمثيل السياسي في المجالس المحلية والبرلمان الفرنسي.

89 . ضيق الاحتلال الفرنسي في الجزائر الخناق إلى درجة وجد المسلم نفسه دائماً مضطراً إلى الاختيار بين الهجرة إلى الخارج والعيش في المنفى، وبين العيش في زنزانة مغلقة مادام يطالب بحقوقه وكرامته.

90 . مع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث، وبدأت الحركات السياسية والمنظمات السياسية والأحزاب المتنوعة والحراك الشعبي الإصلاحي بقيادة العلماء وعلى رأسهم الزعيم الوطني الشيخ عبد الحميد بن باديس ؛ بدأت تشق طريقها في وسط الظلام

الـدامس والظلـم الواقـع علـى الشـعب الجزائـري، لتمهيـد الطريـق لـوعي جمـاهيري ونضـال مريـر وكفـاح شـاق وجهـاد أسـطوري وتضـحيات بالأرواح والأنفـس والأمـوال. وتوّجـت تلـك الجهـود والأعمـال بثـورة عارمـة نادرة في تاريـخ البشـرية، قضـت علـى الوجـود العسـكري والسياسـي الفرنسـي في الجزائـر، بقيـادة جبهـة التحريـر الـوطني الجزائـري. وهـذا مـا سـوف نعـرض تفاصـيله بإذن الله تعـالى في الجـزء الثـاني مـن كتـابي «كفـاح الشـعب الجزائـري ضـد الاحـتلال الفرنسي».

91 . إن هـذا المجهـود المتواضـع قابـل للنقـد والتوجيـه، ومـا هـو إلا محاولـة جـادة لإزاحـة الركـام عـن صـفحات بطوليـة مشـرقة مـن تاريـخ الشـعب الجزائـري الحبيـب العزيـز، لتكـون نموذجـاً للنضـال والكفـاح والجهـاد، تسـتمد منـه الشعوب التي تسعى لنيل حريتها الدروس والعبر.

وأسـأل الله العلـي العظـيم، رب العـرش الكـريم، أن يتقبـل هـذه الدراسـة، وأن يبـارك فيهـا، وأن يجعلهـا مـن الأعمـال الصـالحة الـتي أتقـرب بهـا إليـه، وأن ينفـع بهـا شـعوباً وأممـاً تتعـرض حقوقهـا للانتهاكـات، وتسـعى لنيـل حريتهـا وكرامتهـا وإنسانيتها من وحوش البشر. إن ربي على كل شيء قدير.

واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس الكتاب

* * *

كتب صدرت للمؤلف

1- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

4 . سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

5 . سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.

7 . الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

8 . فقه النصر والتمكين في القران الكريم.

9 . تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

10 . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

11 . عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

12 . الوسطية في القران الكريم.

13 . الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

14 . معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

15 . عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

16 . خلافة عبد الله بن الزبير.

17 . عصر الدولة الزنكية.

18. عماد الدين زنكي.

19. نور الدين زنكي.

20. دولة السلاجقة.

21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23. الشيخ عمر المختار.

24. عبد الملك بن مروان وبنوه.

25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27. وسطية القران في العقائد.

28. فتنة مقتل عثمان.

29. السلطان عبد الحميد الثاني.

30. دولة المرابطين.

31. دولة الموحدين.

32. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33. الدولة الفاطمية.

34. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي.

35. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس.

36. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ص) دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37 . الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38ـ الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39 . المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40 . سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41 . الشورى في الإسلام.

42 . الإيمان بالله جل جلاله.

43 . الإيمان باليوم الاخر.

44 . الإيمان بالقدر.

45 . الإيمان بالرسل والرسالات.

46 . الإيمان بالملائكة.

47 . الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48 . السلطان محمد الفاتح.

49 . المعجزة الخالدة.

50 . الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51 . البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52 . التداول على السلطة التنفيذية.

53 . الشورى فريضة إسلامية.

54ـ الحـريات مـن القـران الكـريم، حريـة التفكـير، وحريـة التعبـير، والاعتقـاد، والحريات الشخصية.

55 . العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

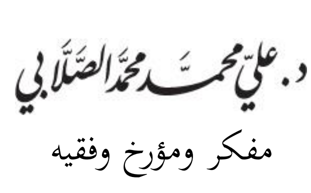
56 . المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57 . العدل في التصور الإسلامي.

58 .كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59 . الأمير عبد القادر الجزائري.





مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث
- سير الخلفاء الراشدين
- الدولة الحديثة المسلمة
- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري
- العدالة والمصالحة الوطنية
- وآخر مؤلفاته "الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج".